



العلاقات الإسلامية المسيحية فى اسبانيا

عهد الملك ألفونسو الأول

مملكة أرغون وعلاقاتها بالمسلمين
فى عهد الملك ألفونسو الأول «المحارب»
١١٠٤ - ١١٣٤م/ ٤٩٨ - ٥٢٨ هـ

الدكتورة
نادية مرسى السيد صالح

الطبعة الأولى
٢٠٠٠ م



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

المشرف العام : دكتور قاسم عبده قاسم

المستشارون

د . أحمــــــد إبراهيم الهـــــوارى

د . شـــوقى عبد القوى حبـــيب

د . عـلـى السـيـد عـلـى

د . قـاســم عبده قـاســم

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : محمد أبوطالب

الناشــر : عين للدراســات والبحــوث الإنسانيــة والاجتماعيــة

- ٥ شــارع ترعة المريوطية - الهـرم - ج.م.ع - تليفون - فاكس ٣٨٧١٦٩٣

Publisher:ÈIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES
5, Maryoutia St ., Alharam - A.R.E. Tel : 3871693
P . B 65 Khalid Ben - Alwalid - Alharam P. C 12567

فهرس الموضوعات

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الملاحق

الجداول

المصادر والمراجع

الأشكال والخرائط

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أولا : هدف البحث وأهمية موضوعه .

ثانيا : عرض وتحليل لأهم مصادر البحث .

موضوع هذا البحث هو مملكة أرغون Aragon وعلاقتها بالمسلمين فى عهد الملك ألفونسو الأول "المحارب" "Alfonso I el Batallador" والمقصود بهذا البحث هو مملكة أرغون وعلاقاتها السياسية بمسلمى الأندلس فى عهد الملك ألفونسو الأول "المحارب" (١١٠٤-١١٣٤م/٤٩٨-٥٢٨هـ) . ولاشك أن هذه الفترة موضوع البحث تعتبر مرحلة هامة من مراحل الصراع بين المسلمين والأرغونيين ، فى شمال وشرق وجنوب الأندلس ، وقد ظهرت النزعة العنصرية بين المسلمين والنصارى بهدف طرد المسلمين من الأندلس ، والتى عرفت باسم حركة الاسترداد La Reconquista [١] . وكان لمملكة أرغون شهرتها الحربية البارزة منذ بداية حركة الاسترداد ، وخاصة فى عهد الملك ألفونسو الأول . وقد أخذ الطابع الدينى يغلب على هذه الحروب حتى جعل منها حربا صليبية مقدسة لاتقل أهمية عن الحروب الصليبية فى الشرق ، لذلك أسس الملك ألفونسو الأول منظمات دينية عسكرية فى أرغون قامت بنفس الدور الذى قامت به منظمات الداوية والإسبتارية فى بلاد الشام . ولذلك فإن هذه الحروب التى أثارها الغرب الأوروبى ضد المسلمين فى غربى البحر المتوسط ، وبصفة خاصة ضد مسلمى الأندلس تمثل حلقة من حلقات الحروب الصليبية .

ومن المعروف أن الحركة الصليبية كانت على أشدها فى الغرب والشرق الإسلامى فى القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى ، وكان الغرب الإسلامى يواجه نفس الأخطار الصليبية التى يواجهها الشرق ، ومن ثم لم يكن من المعقول وجود استجابة عسكرية فعلية من المغرب للجهاد فى المشرق الإسلامى أو العكس .

وكان ألفونسو الأول ملك أرغون متحمسا لمواصلة الهجوم ضد المسلمين واسترداد منطقة وادى إيبره el Valle del Ebro للوصول بمملكته إلى ساحل البحر المتوسط حتى يتمكن

---

(١) أنظر ما يلى ص ٥٣ .

من القيام بحملة صليبية إلى الشرق . وقد ساعد على ذلك أبوه الملك سانشو راميرث San-cho Ramirez (١٠٦٣-١٠٩٤م/٤٥٦-٤٨٧هـ) وأخوه الملك بطره الأول Pedro I (١٠٩٤- ١١٠٤م/٤٨٧-٤٩٨هـ) من قبله فقد تمكنا أن يمهدا له مهاجمة المسلمين فى وادى إبره ، وذلك باتخاذ خطوات خاصة لإضعاف قوى المسلمين العسكرية فى المنطقة : وفى الحقيقة لقد كان ألفونسو الأول ملكا صليبيا مشهورا فى تاريخ أسبانيا النصرانية ، ولم ينشغل فقط بغزو وقتال أهالى المقاطعات الإسلامية واستردادها ، ولكن أيضا اهتم بتعميرها وتنظيمها الكنسى والإدارى . كما كان له نشاطا حربيا وسياسيا فى مملكة قشتالة Castilla ووسط وجنوب فرنسا .

وقد اخترت هذا الموضوع للدراسة لعدة أسباب ، منها حاجة المكتبة العربية إلى دراسة علمية مستقلة تتناول هذا الموضوع ، إذ أنها تكاد تخلو من كتاب قائم بذاته بتناول دور مملكة أرغون فى الصراع المسيحى الإسلامى فى أسبانيا العصور الوسطى ، وليس ذلك فحسب بل ما هو أهم من ذلك أن تلك الفترة كانت بداية انحسار وتقلص السيادة الإسلامية فى الأندلس بعد انهيار الثغر الأعلى الأندلس . بالإضافة إلى ذلك ما كان لمملكة أرغون من دور خطير فى استرداد أغلب المدن الإسلامية فى شرق الأندلس ، وماتبع ذلك من نشوب المعارك العديدة إبان هذا الصراع فى تلك الفترة من القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى . وأن البحث يعالج مرحلة لها أهميتها فى مرحلة حروب الاسترداد بين الأرغونيين والمرابطين فى الأندلس .

ولقد قام الملك ألفونسو الأول بمجهود كبير فى توسيع حدود مملكة أرغون ، وانطلقت قواته على أراض واسعة فى كل الاتجاهات ، فاتجهت غربا ووصلت إلى شانت ياقب Santiago de Compostela ، وليون Leon وطليطلة Toledo ، واسترامادورة Extremadura ، واتجهت جنوبا واستردت مدن سَرَقُسطة Zaragoza ، وتطيله Tudela ، وقلعة أيوب Calatayud ، ودروقة Daroca وغيرها من المدن المطلة على أنهار إبره Ebro وشلون Jalon وشلوقة Jiloca ، كما اتجهت شرقا وضمت بعض القلاع الشمالية لمملكة بلنسية Valencia ثم اخترقت أراضى بلنسية ، ودانية Denia ، وشاطبه Jativa ، ومرسية Murcia إلى غرناطة Granada ، ثم قرطبة Cordoba ، واخترقت جبال البشارات Alpujarras ، ووصلت إلى شاطئ البحر المتوسط ، كما اتجهت شمالا خارج شبه الجزيرة الأيبيرية مخترقة جبال البرتات Pyrenées ووصلت إلى جنوب فرنسا . كما حاول ألفونسو الأول أن يربط مملكته بمصب نهر

إبره ، فاسترد مدينة مكناسة Mequinenza ولكنه فشل فى استرداد مدينة إفراغة Fraga ، وكان فى هذا الفشل صدمة قاسية على نفسه فمات بعدها بقليل .

ولشهرته الحربية أطلق عليه لقب "المحارب" ، كما أقرَّ به أيضا المؤرخون المسلمون ، ووصفه ابن الأثير بقوله : "كان أشد ملوك الفرنج بأسا ، وأكثرهم تجردا لحرب المسلمين وأعظمهم صبرا" [١] ، كما أطلق عليه لقب "الإمبراطور" لاتساع أراضيه بعد زواجه من ملكة قشتالة وليون . وعرف فى المصادر الإسلامية بابن ردمير . ومن خلال ذلك البحث سوف يبرز دور الملك ألفونسو المحارب فى صراعه الطويل مع المسلمين ، منذ أن كان أميرا فى عهد أبيه وأخيه حتى وفاته . فقد سادت النزعة الدينية على حروب ألفونسو المحارب ، وكان يهدف إلى قيادة حملة صليبية إلى الأراضى المقدسة ، تلك الفكرة التى شغلت فكر بابوات وملوك أوروبا فى تلك الفترة التى كانت فيها الحروب الصليبية على أشدها . ولهذه الأسباب وغيرها التى سوف أتناولها فى ثنايا البحث بالنقد والتحليل تتضح أهمية دراسة هذا الموضوع الذى تعتبر فترته من أهم فترات الحروب الصليبية التى دارت على أرض شبه الجزيرة الأيبيرية .

وقد قسمت البحث إلى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة . وقد تناولت فى الفصل الأول الأحوال السياسية لمملكة أرغون منذ قيامها حتى بداية عهد عهد ألفونسو الأول المحارب (١٠٣٥-١١٠٤م/٤٢٦-٤٩٨هـ) ، ومهدت له بمقدمة جغرافية أجمع فيها المؤرخون العرب القدامى والمحدثون على أن منطقة الثغر الأعلى تطابق ولاية أرغون الحديثة . وانتقلت إلى مقدمة تاريخية موجزة عن مملكة أرغون منذ قيامها ، وكيفية اتساعها على حساب تفكك وانقسام المسلمين فى الثغر الأعلى ، واستنجادهم بالنصارى ، مع الاهتمام بالتركيز على سياسة الاسترداد التى اتبعها ملوك أرغون فى العصور الوسطى .

ومن خلال ذلك ، تتبعت المد الأرغونى فى منطقة الثغر الأعلى ، وهذا ما دفعنى إلى الإشارة إلى أهم المعارك التى وقعت بين المسلمين والأرغونيين فى منطقة الثغر الأعلى . كما أشرت إلى بداية الفكرة الصليبية عند ملوك أرغون ، وألمحت إلى الجهاد الإسلامى لدولة المرابطين فى الأندلس وأثره فى الحيلولة بين الممالك النصرانية فى أسبانيا وبين المساهمة فى الحملات الصليبية على الشرق الإسلامى .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، بيروت ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م ، جـ١١ ، ص ٣٤ .

ويتناول الفصل الثانى السياسة الخارجية للملك ألفونسو المحارب (١١٠٤-١١١٤م/ ٤٩٨-٥٠٨هـ) ، وتميزت هذه الفترة بالغموض في المصادر العربية ، وقد اعتمدت على المدونات والمصادر اللاتينية والأسبانية ، موضحة تأثر سياسة ألفونسو المحارب بالروح الصليبية ، والتى هدفت إلى تحرير وادى إبره من السيادة الإسلامية والوصول بمملكته حتى ساحل البحر المتوسط ، وقيادة حملة صليبية إلى الشرق . وأشرت إلى سياسة ألفونسو فى جنوب فرنسا وحمايته لأملاك ومصالح بعض الصليبيين أثناء غيابهم فى الأراضى المقدسة . ثم ركزت حديثى على سياسة ألفونسو المحارب مع مملكة قشتالة ، مما دفعنى إلى الإشارة إلى معركة الأقماط السبعة التى تعرف فى المصادر الإسلامية بمعركة أقليش عام ١١٠٨م/٥٠١هـ، وأثرها فى تحقيق الزواج السياسى بين ألفونسو المحارب والملكة أوراكا ملكة قشتالة . وماترتب على هذا الزواج من انقسام القشتاليين إلى ثلاثة أحزاب : حزب ملك أرغون ، وحزب ملكة قشتالة ، وحزب الجلالقة ، بالإضافة إلى معارضة رجال الدين للزواج - الذى تعارض مع مصالحهم - بحجة القرابة بين الزوجين . موضحة الحروب الأهلية التى سادت قشتالة فى ذلك الوقت ، وانتصار ألفونسو المحارب على القشتاليين فى معركة كاندسبينا ، وانتصاره على الجلالقة فى معركة بيادجوس وما ترتب على ذلك من نتائج أدت إلى تعطيل حركة الاسترداد الأرغونى والقشتالى لبعض الوقت . بينما انتهز المرابطون الفرصة وقاموا بشن غاراتهم على مملكة قشتالة .

وقد درست فى ثنايا هذا الفصل استسلام مدينة سرقسطة للمرابطين عام ١١١٠م/٥٠٣هـ، بعد استشهاد حاكمها المستعين بن هود فى معركة بلتيرة ، وتحالف ابنه عبد الملك عماد الدولة مع ألفونسو المحارب ضد المرابطين .

أما الفصل الثالث فيتناول استرداد ألفونسو المحارب لمدينة سرقسطة والنتائج المترتبة عليها (١١١٤-١١٢٤م/٥٠٨-٥١٨هـ) . فقد كانت سرقسطة موضع اهتمام ملوك أرغون ، وهدفا من أهداف ملوك قشتالة ، وأوضحت أحوال سرقسطة تحت الحكم المرابطى ، ثم تعرضت للحديث عن مقدمات الفتح الأرغونى لسرقسطة ، وأعقبت ذلك بالحديث عن استعدادات ألفونسو المحارب لحصار سرقسطة ، ومشاركة الفرنجة فى الحملة ضد المدينة ، وحاولت أن أعطى صورة دقيقة لأحداث الحصار الأرغونى - الفرنجى لمدينة سرقسطة فى مايو ١١١٨م/ صفر ٥١٢هـ ، وما تبع ذلك من معارك بين الطرفين الأرغونى والإسلامى ، ومحاولة المرابطين

إنقاذ المدينة ، وفشلهم فى محاولتهم ، مما أدى بالتالى إلى استسلام مدينة سرقسطة لألفونسو المحارب فى ديسمبر ١١١٨م/رمضان ٥١٢هـ .

ومن نتائج سقوط سرقسطة استيلاء الملك ألفونسو على عدة مدن أهمها تطيلة وطرسونة .

ثم أوضحت محاولة المرابطين لوقف الزحف الأرغونى نحو الشرق ، مما أدى إلى وقوع معركة كتندة عام ١١٢٠م/٥١٤هـ والتى انتهت بهزيمة المرابطين ، وما تلى ذلك من سقوط مدن كتندة ودروقة وقلعة أيوب وبعض المدن الواقعة على نهرى شلون وشلوقة ، وأشرت إلى تعمير ألفونسو المحارب للمدن المفتوحة فى وادى إبره حتى صارت مراكز هامة للترجمة والعلم.

وقد درست فى هذا الفصل تأسيس ألفونسو المحارب لجماعة دينية حربية فى مدينة بلشر (بلتشت الحالية) ، وهى على نمط المنظمات الدينية الحربية فى الشرق . كما تتبعت تطلعات ألفونسو المحارب للاستيلاء على مدينة لاردة ، وهنا اصطدمت مصالح الملك الأرغونى بمصالح قمط برشلونة ، وانتهى النزاع بين الطرفين بالتوصل إلى اتفاق بينهما .

وخصصت الفصل الرابع لحملة ألفونسو المحارب على شرق وجنوب الأندلس (١١٢٤-١١٢٩م/٥١٨-٥٢٣هـ) ، بدأته بالحديث عن سيطرة ألفونسو المحارب على قلعة بنى كاديل ، تمهيدا لحملته على الأندلس ، كما بحثت فى المستعربين وعلاقتهم بالحكومة الإسلامية ، واستنجاد مستعربى غرناطة بالملك ألفونسو المحارب لتحريرهم من سيادة المرابطين، وقد استجاب ألفونسو لندائهم ، وأعد حملة لغزو غرناطة . وقد تتبعت خط سير الحملة منذ خروجها من مدينة سرقسطة فى سبتمبر ١١٢٥م/شعبان ٥١٩هـ ، حتى وصولها إلى غرناطة ، وفشل ألفونسو فى دخول المدينة ، فاتجه إلى جنوب قرطبة ، والقوات المرابطية تلاحقه وتطارده ، فانحرف إلى الجنوب الشرقى من غرناطة مخترقا جبال البشارات ، ووصل حتى مدينة بلش مالقة على ساحل البحر المتوسط . ثم تتبعت خط سير عودته إلى سرقسطة فى يونيه عام ١١٢٦م/ جمادى الأولى ٥٢٠هـ . وقد ناقشت أسباب فشل ألفونسو المحارب فى تحقيق أهداف الحملة ، والنتائج التى ترتبت عليها ، ودرست خلال ذلك وجهتى النظر الإسلامية والنصرانية .

ثم بحثت فى النزاع الذى نشب بين ألفونسو السابع ملك قشتالة وألفونسو المحارب ، والذى انتهى بعقد صلح تامارا عام ١١٢٧م .

كما تتبعت محاولات ألفونسو المحارب للاستيلاء على مدينة بلنسية ، مستغلا فرصة الصراع الدائر بين المرابطين والموحدين فى المغرب ، وما تلا ذلك من نشوب معركة قليبرة والتى تعرف فى الرواية الإسلامية بوقعة القليعة عام ١١٢٩م/٥٢٣هـ ، والتى انتهت بأنتصار ألفونسو المحارب على القوات المرابطية ، وبرغم ذلك انسحب من بلنسية بعد أن رأى استحالة الاستيلاء عليها .

أما الفصل الخامس والأخير فانه يتعلق بالحملات الأخيرة لألفونسو المحارب على منطقة الثغر الأعلى (١١٣٠-١١٣٤م/٥٢٤-٥٢٨هـ) ، وأوضحت المشاكل والصعوبات التى واجهت ألفونسو المحارب وأعاقت حركة الاسترداد ، كما عنيت ببيان الفكر الصليبى عند ألفونسو المحارب ، وكيف عبر عنه بوصيته فى توريث دولته إلى المنظمات الدينية العسكرية فى بيت المقدس بهدف استكمال مشروعاته الصليبية . ثم تناولت بالتفصيل استعداد ألفونسو المحارب لغزو المدن الإسلامية الباقية فى الثغر الأعلى بهدف فتح مدينة طرطوشة وتحقيق حملة صليبية إلى بيت المقدس . وأشرت إلى استيلاء ألفونسو على مدينة مكناسة عام ١١٣٣م/٥٢٧هـ ، ثم قام بحصار مدينة افراغة . وأوضحت بعض صور المقاومة التى واجهت الجيش الأرغونى - الفرنجى أثناء حصار المدينة ، واستنجاد أهلها بالمرابطين . وتحدثت بالتفصيل عن معركة إفراغه فى يوليو عام ١١٣٤م/ رمضان ٥٢٨هـ ، التى انتهت بهزيمة ألفونسو المحارب وفراره من المعركة . وقد ترتب على ذلك النظر فى المشاكل التى تحيط بمصير ألفونسو المحارب بسبب إختلاف آراء المؤرخين النصارى ، موضحة وجهتى النظر النصرانية والإسلامية . وأخيرا أشرت إلى النتائج التى ترتبت على وصية ألفونسو المحارب .

وأنهيت البحث بخاتمة تضمنت أهم النتائج التى توصلت إليها ، من خلال دراسة هذا الموضوع ، والتى كان أهمها :

أولا : نجح الملك ألفونسو المحارب فى سياسته ضد المسلمين ، فقد استطاع أن يحقق انتصارات سريعة عليهم . ونجح فى استرداد مدن أخيا وتوست وتاماريت وسرقسطة وتطيلة وطرسونة وكتندة ودروقة وقلعة أيوب وغيرها من المدن الواقعة على نهرى شلون وشلوقة ، الأمر الذى ترتب عليه اتساع مملكة أرغون .

ثانيا : يعتبر ألفونسو الأول المحارب صاحب الفضل الأول فى تأسيس جماعات دينية عسكرية فى أرغون اشتركت فى الصراع بين المسلمين والنصارى ، على نمط جماعات الفرسان الدينية العسكرية التى ظهرت فى الشرق .

ثالثا : نجح ألفونسو فى تحقيق حملة اخترقت أراضى شبه الجزيرة الأيبيرية من شمالها إلى جنوبها ، ولكنه فشل فى تحقيق هدفه فى الاستيلاء على مملكة غرناطة .

رابعا : فشل فى مد حدود أرغون إلى ساحل البحر المتوسط .

خامسا : فشل فى الحفاظ على الوحدة مع مملكة قشتالة ، كما تعارضت أطماعه مع أطماع قمط برشلونة ، بينما نجح فى سياسته مع جنوب فرنسا ، وقد ظهر التعاون الفرنسى فى سياسة الاسترداد التى اتبعها ألفونسو المحارب .

والخلاصة أن كفة الميزان العسكرية كانت فى صالح الأرغونيين ، وفى غير صالح المسلمين فى الفترة من عام ١١١٨-١١٢٩م/٥١٢-٥٢٣هـ ، بينما تحولت كفة الميزان إلى صالح المسلمين ، وفى غير صالح الأرغونيين فى الفترة من عام ١١٣٠-١١٣٤م/ ٥٢٤-٥٢٨هـ . نتيجة الغرور الذى سيطر على ألفونسو المحارب واستهانته بقوة المرابطين .

كما ذيلت البحث بعدد من الملاحق والجداول والخرائط وقائمة المصادر والمراجع التى اعتمدت عليها فى بحثى هذا .

ولايفوتنى فى هذه المناسبة أن أتقدم بعظيم شكرى وتقديرى لأستاذى الجليل الأستاذ الدكتور / محمود سعيد عمران ، أستاذ التاريخ الوسيط بكلية الآداب - جامعة الإسكندرية، لما أولانى به من رعاية وتوجيه وتشجيع طوال مدة إشرافه ، وبذل معى جهدا كبيرا ، وقدم لى ملاحظات سديدة خلال العمل فى هذا البحث فجزاه الله عنى وعن العلم نعم الجزاء .

كما أتقدم بخالص شكرى وتقديرى لأستاذى الجليل الأستاذ الدكتور / السيد عبد العزيز سالم ، أستاذ التاريخ الإسلامى بكلية الآداب جامعة الإسكندرية ، وأحمل له كل التقدير والعرفان بالجميل تقديرا للخدمات التى قدمها إلى ، فهو الذى اقترح على موضوع البحث ، وتولى الإشراف على رسالتى بالمشاركة مع الأستاذ الدكتور / محمود سعيد عمران ، كما تفضل وزودنى بالكثير من الكتب الأسبانية من مكتبته الخاصة ، والتى أفادتنى كثيرا فى موضوع البحث ، كما ذلل لى ما اعترضنى من صعاب بسبب عدم وفرة مصادر البحث ومراجعه فى جمهورية مصر العربية ، وسهل لى مهمة الحصول عليها من أسبانيا ، كما زودنى بنصائحه الأبوية والعلمية المفيدة ، فجزاه الله عنى وعن العلم خير الجزاء .

كما أتقدم بالشكر والعرفان بالجميل للدكتور / محمد محمود أحمد النشار المدرس بكلية آداب طنطا تقديرا للخدمات التى قدمها لى أثناء تواجده فى أسبانيا ، فقام بتصوير بعض مصادر البحث ومراجعه من بعض مكتبات أسبانيا وأرسلها إلى ، كما أهدانى بعض المدونات التى أفادتنى كثيرا فى موضوع البحث . كما أتقدم بالشكر إلى الأستاذ / محمد الجمل المعيد بكلية آداب الإسكندرية الذى يسر لى الحصول على بعض الكتب من أسبانيا وحمل الكم الكثير منها إلى الإسكندرية .

وأرجو من الله العلى القدير أن أكون قد وفقت فى عملى فى هذا البحث "وماتوفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب" .

ولما كان البحث يتناول العلاقات الأرغونية المرابطية - الإسلامية - فى فترة زمنية محدودة، لذلك تحتم على الباحث الرجوع إلى المصادر الأجنبية والإسلامية على حد سواء ، والوقوف أمامها ومقارنة بعضها ببعض ، ومناقشتها لمحاولة الوصول إلى الحقيقة التاريخية والكشف عنها ، والتوصل إلى أسلم النتائج التى يتمخض عنها البحث التاريخى .

ولا شك أن بعض الكتابات التاريخية فى هذا الميدان قد أوردت ، بعض الأحداث المبتورة والمختصرة ، كما أغفلت أحيانا كثيرا من التفاصيل ، واكتفت بالإجمال فقط ، ونلاحظ أحيانا أن الترتيب الزمنى لبعض الأحداث غير دقيق ، مما أدى إلى الغموض واللبس فى تلك الأحداث التاريخية التى تعرضت لها .

وهناك بعض الكتابات التى تناولت أحد جوانب البحث بالتفصيل ، ثم أوجزت فى الجوانب الأخرى ، أو أغفلت الإشارة إليها . ومما هو جدير بالذكر أن كتابات بعض المؤرخين القشتاليين قد اتسمت بالعداء ضد أعمال ألفونسو المحارب ، وامتلأت كتاباتهم بالحقد والكراهية ضده ، ولذلك يجب تناول مختلف الروايات بالحيطة والحذر وتحرى حقيقة الأحداث ومحاولة الكشف عنها .

ومن الملاحظ أن المصادر الأجنبية قد قدمت لهذا البحث الكثير من المادة التاريخية على العكس من المصادر العربية ، لذلك وضع الباحث المصادر الأجنبية فى المقدمة لدراستها وتحليلها ، وقد بدأت فى كتابة البحث على ضوء ماتيسر لى من المصادر والمراجع الحديثة ، والتى لجأت إلى ترتيبها طبقا لأهمية المصدر الذى استقيت منه المادة التاريخية موضوع البحث .

وفيما يلى دراسة تحليلية نقدية لأهم مصادر البحث ، وفيما يتعلق بالمصادر الأجنبية فمعظمها مدون باللغة اللاتينية أو القشتالية ولم تنقل إلى اللغات الحديثة بعد ، وبعضها ترجم إلى اللغة الأسبانية . وأهم مارجعت إليه حولية مملكة أرغون Anales de la Corona de Aragon للمؤرخ الأرغونى خرونيمو ثيوريتا Jeronimo Zurita[1] . وقد كتب هذه الحولية فى النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادى ، وصدرت فى ثمانية أجزاء عام ١٥٦٢-١٥٨٠م ، ثم صدرت مرة أخرى فى سبعة أجزاء عام ١٦١٠-١٦٢١م ، وأخيرا طبعها أنجيل كاناياس لوبيث فى مدينة سرقسطة عام ١٩٧٦ . وتتناول هذه الحولية تاريخ مملكة أرغون منذ الفتح الإسلامى حتى سقوط غرناطة ، كما تضم أخبارا عن باقى شبه الجزيرة الأيبيرية .

وقد استقى المؤرخ مادته التاريخية من كتابات ومذكرات مؤرخى أرغون القدامى ، والحوليات القديمة لقشتالة ، وكتابات دون ديجو جلمويث Diego Gelmirez أسقف كنيسة شانت ياقب . وقد وردت المادة التاريخية فى هذه الحولية بإسهاب أحيانا ، وباختصار حينا آخر ، وقد سجلت حسب ترتيبها الزمنى إلى حد ما . إذ كان المؤرخ يميل فى بعض الأحيان إلى الرجوع إلى الوراء ، فكان يبدأ بسرد الأحداث ، ثم يقطعها ليعود إلى ذكر شجرة العائلة الحاكمة أو يعود إلى ذكر تأسيس المدينة التى يتحدث عنها وتتابع حكامها ، وأهم صفاتها وأهم القديسين فيها مثل مدينة سرقسطة . وقد أمدنا ببعض الأحداث التاريخية الهامة خاصة فيما يتعلق بالعلاقة بين مملكتى أرغون وقشتالة وزواج ألفونسو المحارب من أوراكا Urraca ملكة قشتالة وليون ، وما نشب بينهما من خلاف ونزاع أدى إلى سجن ألفونسو المحارب لزوجته فى قلعة كاستيار Castellar ، وموقف أهل جليقية من هذا الزواج ، وتتويج الأمير الطفل ألفونسو ريموندس Alfonso Raimundez ملك جليقية . ثم أشار إلى طلاق ألفونسو المحارب لزوجته ، كما أمدنا بتفاصيل الحرب الأهلية بين ملكى أرغون وقشتالة .

وبالإضافة إلى المادة التاريخية التى قدمتها الحولية عن الأحوال الداخلية لمملكة أرغون فقد قدمت لنا مادة تاريخية قيمة فيما يتعلق بحروب ألفونسو المحارب ضد المسلمين ، وفى نفس الوقت تنحرف أحيانا عن التفصيل إلى الإيجاز . فأشارت إلى استيلاء ألفونسو المحارب على

---

(١) Zurita, J., Anales de la Corona de Aragon, ed. Angel Canellas lopez, Tomo I, Zaragoza, 1976 .

مدينة اخيا Ejea ومدينة توست Tahuste عام ١١١٠م/٥٠٣هـ نقلا عن المؤرخين القدامى لأرغون ، وهذا التاريخ لايتناسب مع مجريات الأحداث ، لأن مدينة اخيا كانت إحدى المدن التى منحها ألفونسو المحارب إلى زوجته على سبيل الصداق ، وقد ورد ذكرها فى وثيقة الصداق المؤرخة فى ديسمبر عام ١١٠٩م .

كما أمدتنا الحولية بتفاصيل حملة ألفونسو المحارب ضد مدينة سرقسطة وإعداد القوات للحملة ، واشتراك السادة والفرسان الفرنسيين الذين أطلق عليهم المؤرخ أهل الحرب ، ومسيرتهم من فرنسا حتى وصولهم إلى سرقسطة ، والمدن التى استولوا عليها فى طريقهم ، وفرض الحصار على سرقسطة فى مايو عام ١١١٨م/صفر٥١٢هـ . ومقاومة أهلها للنصارى . كما تناولت الحولية محاولات المرابطين لإنقاذ مدينة سرقسطة وفشلهم ، مما اضطر أهلها إلى التسليم لألفونسو المحارب فى ديسمبر من العام نفسه ، وأشار إلى ماتبع ذلك من تحويل المسجد الكبير إلى كنيسة القديس سلفادور San Salvador ، ومكافأة ألفونسو للفاتحين .

ولم يمدنا ثيوريتا بمعلومات كافية عن معركة بلتيرة Valtierra ، وإنما أشار اليها بإيجاز شديد ، وكذلك سقوط مدينة تطيلة ، كما أورد بإيجاز شديد معركة كتندة Cutanda . وأشار المؤرخ باختصار إلى حملة ألفونسو المحارب على شرق وجنوب الأندلس ، وأيضا علاقة ألفونسو المحارب بفرنسا ، وأكد استيلاءه على مدينة بيونة Bayona .

وقد أخطأ ثيوريتا فى تحديد تواريخ بعض الأحداث الخاصة بسرقسطة ، منها : أنه أشار إلى بدأ حصار سرقسطة فى يناير عام ١١١٤م/٥٠٧هـ واستمر لمدة خمس سنوات[١] ، وفى التاريخ نفسه استولى ألفونسو المحارب على مدينة مورلة Morella ، والصواب أنه استولى عليها عام ١١١٧م/٥١٠هـ . كما ذكر أن استيلاء ألفونسو على تطيلة كان أيضا عام ١١١٤م/٥٠٨هـ ، والصواب أنه تأخر إلى عام ١١١٩م/٥١٣هـ . كما أخطأ فى تحديد تاريخ معركة كتندة وأشار إلى أنها وقعت فى ديسمبر ١١١٨م/ شعبان ٥١٢هـ ، فربط بين حملة تميم لإنقاذ سرقسطة من الحصار الأرغونى - الفرنجى ومعركة كتندة ، وجاءت الأحداث متداخلة مع غيرها من الأحداث ، وقدّم معركة كتندة سنتين على التاريخ الحقيقى لها وهو يونية ١١٢٠م/ ربيع أول ٥١٤هـ . ومن الجدير بالذكر أن المؤرخين اللاحقين له والذين نقلوا

---

(١) سنتعرض لذكر هذه النقطة بالتفصيل فى الفصل الثالث .

منه قد وقعوا فى نفس هذه الأخطاء . كما أشار إلى حملة ألفونسو المحارب على شرق وجنوب الأندلس عام ١١٢٣م/٥١٧هـ ، والصواب عام ١١٢٥م/٥١٩هـ .

بينما انفردت الحولية دون غيرها من المصادر المتاحة لنا بذكر أسماء الشخصيات الأرغونية والنبرية والفرنجية التى شاركت فى عمليات حصار وسقوط سرقسطة ، وكذلك بتاريخ زحف الفرنجة من فرنسا إلى سرقسطة .

ورغم ما قدمته الحولية من معلومات إلا أنها لم تشر إلى التحالف بين عبد الملك عماد الدولة آخر أمراء سرقسطة من عائلة بنى هود - وألفونسو المحارب ضد والى المرابطين على سرقسطة ، وأيضا لم تشر إلى شروط تسليم سرقسطة . ورغم ذلك فإن هذه الحولية تعتبر مصدرا بالغ الأهمية لدراسة تاريخ أرغون فى العصور الوسطى بوجه عام وعلاقاتها مع جيرانها من المسلمين والنصارى بوجه خاص .

ومن المصادر الهامة التى أفادت جوانب هذا البحث حولية مملكة نبرة Annales del Reyno de Navarra لخوسيه دى مورت José de Moret [1] ، والتى طبعت فى جزءين فى مدينة بنبلونة Pamplona فى عام ١٧٦٦م ، ثم طبعت فى تولوز Tolosa عام ١٨٩٠-١٨٩٢م فى إحدى عشر جزءا ، وتحتوى على إضافات أليسون Aleson ، وهذه الحولية مسجلة باللغة الأسبانية القديمة . وللمؤرخ مؤلف آخر بعنوان "مباحث تاريخية قديمة عن آثار مملكة نبرة" .

Investigaciones Historicas de las Antiguedades del Reino de Navarra.

طبع فى بنبلونة عام ١٦٦٥م . وقد استقى الكاتب مادته التاريخية من المؤرخين القدامى لأرغون مثل جاريباى Garibay وثيوريتا ، وخرونيمو بلانكس Geronimo Blancas ، ودبجو جلمريث رئيس أساقفة شانت ياقب ، كما رجع إلى مجموعة من وثائق الأرشيفات من أهمها وثائق أرشيف كنيسة القديس خوان دى بينيا San Juan de la Pena ، وأرشيف دير القديسة ماريا دى ايراتشى Santa Maria de Yrache ، ووثائق كنيسة بنبلونه ، وأرشيف مدينة سرقسطة Archivo de Zaragoza ، وأرشيف تطيلة Archivo de Tudela ، ومدونة الإمبراطور ألفونسو السابع . وكان المؤرخ أحيانا يقف موقف الناقد من المصادر التى رجع إليها .

---

(١) Moret Y Aleson. Annales del Reino de Navarra, Tomo II, Bilbao, 1969 .

ويهمنا من حولية مملكة نبرة الكتاب السابع عشر من الجزء الثانى ، وهو سجل غنى بأخبار الملك ألفونسو المحارب . وقد تناول الفصل الأول من هذا الكتاب اعتلاء ألفونسو المحارب عرش أرغون ونبرة ، وأشار إلى موقعة أقليش Ucles ، وزواج ألفونسو المحارب من أوراكا ملكة قشتالة وليون ، كما أشار إلى معركة بلتيرة بإيجاز ، واستيلاء ألفونسو على مدينة إخيا وتوست . ويلاحظ أن المؤرخ لم يراع التسلسل الزمنى للأحداث .

أما الفصل الثانى فقد اختص بالأحداث منذ نشوب الخلاف بين ألفونسو المحارب وزوجته حتى غزو مدينة تطيلة . وقد اشتمل على الحرب الأهلية بين ملك أرغون وملكة قشتالة ، وحملة ألفونسو المحارب ضد مسلمى الثغر الأعلى واشتراك الفرنجة معه فى جميع المعارك الحربية التى خاضها ، كما أشار إلى حصار مدينة سرقسطة عام ١١١٤م ، وقدم لنا الكاتب مادة وفيرة فيما يتعلق بغزو مدينة تطيلة ، وماتبع ذلك من تنظيم الملك لحكومته الجديدة فى تطيلة .

واشتمل الفصل الثالث على تأرجح العلاقة بين ألفونسو المحارب وزوجته بين السلم والحرب، وطلاق الملك الأرغونى لزوجته ، وماترتب على ذلك من تمرد سادة قشتالة ضد ألفونسو المحارب ، وفى هذا الفصل لم يلتزم الكاتب بالتسلسل الزمنى للأحداث التاريخية .

أما الفصل الرابع فقد تناول قلاقل الحزب الجليقى وتتويج الطفل ألفونسو ريمونديس ملك جليقية ، وأشار بإيجاز إلى علاقة ألفونسو المحارب بكونت تولوز ، وقدم لنا أيضا أحداث حروب ألفونسو المحارب فى مملكتى قشتالة وليون . كما تناول حصار ألفونسو المحارب لمدينة سرقسطة ، وإخضاع ألفونسو المحارب لمدينة طليطلة ومنح أهلها امتيازات جديدة ، ثم تناول بإيجاز محاولات المرابطين لإنقاذ سرقسطة . وأشار بإيجاز شديد إلى معركة كتندة ، وغزو سرقسطة ، وماتبع ذلك من تحويل المسجد الكبير إلى كنيسة القديس سلفادور ، ومكافأة قادة الغزو .

ويتضح مما كتبه المؤرخ فى هذا الفصل أنه لم يراع التسلسل الزمنى للأحداث وللموضوع وخاصة فى تناول العلاقة بين ألفونسو المحارب وزوجته والحروب الأهلية التى قامت بينهما . وأنه خلط أيضا بين محاولة المرابطين لإنقاذ سرقسطة وموقعة كتندة . وكان أحيانا يناقش آراء من سبقوه من المؤرخين الذين نقل عنهم .

وأورد فى الفصل الخامس غزو مدينة طرسونة Tarazona وأشار إلى حصار قلعة أيوب وغزو دروقة بإيجاز شديد ، كما أشار إلى تأسيس هيئة فرسان حربية فى مدينة مونريال

Monrcal، وتغمير جسر أرجا Arga . وقد وردت المعلومات التاريخية موجزة ، وحسب ترتيبها الزمنى .

بينما اشتمل الفصل السادس على أحداث تتعلق بمملكة قشتالة وأهمها تتويج ألفونسو السابع ملك قشتالة وليون (١١٢٦-١١٥٧م) ، وتجدد الحرب بين ملكى قشتالة وأرغون ، ثم عقد السلم بينهما ، كما أشار إلى الامتيازات والإعفاءات التى منحها ملك أرغون إلى سكان تطيلة .

بينما تضمن الفصل السابع أحداثا تتعلق بتنظيم العلاقة بين المسلمين والسكان النصارى الجدد ، وإغارة الأرغونيين على أرض المسلمين قرب إفراغة ، كما أشار إلى تجدد العداء بين ملكى قشتالة وأرغون .

وتناول الفصل الثامن حملة ألفونسو المحارب إلى فرنسا وحصار مدينة بيونة حتى استسلامها ، ووصية ألفونسو المحارب ، ثم تناول استعدادات ألفونسو لحصار مدينة طرطوشة Tortosa ، والاستيلاء على مدينة مكناسة ، وقد تناول الكاتب هذه الأحداث بإسهاب ، إلا أنه أورد فى هذا الفصل حملة ألفونسو المحارب على شرق وجنوب الأندلس بإيجاز شديد وفى غير ترتيبها الزمنى .

أما الفصل التاسع والأخير فقد تناول فيه الكاتب أحداث حصار مدينة إفراغة ، ومحاولات ابن غانية لإنقاذها ، كما تناول تفاصيل معركة إفراغة ، وينتهى هذا الفصل بوفاة ألفونسو المحارب .

ويتضح مما كتبه مورت أنه وقع فى بعض الأخطاء ومنها أنه ذكر أن ألفونسو المحارب سجن أوراكا فى قلعة كاستيار عام ١١١٤م/٥٠٨هـ وصحته عام ١١١١م/٥٠٤ ، كما ذكر أن معركة كاندسبينا Candespina أو Camp de Spina عام ١١١٧م/٥١٠هـ والصواب أنها كانت عام ١١١١م/٥٠٥هـ ، وأنه خلط أيضا بين محاولات المرابطين لنجدة سرقسطة ومعركة كتندة ، وأخطأ فى تحديد تاريخ حملة ألفونسو المحارب على شرق وجنوب الأندلس فذكرها تحت عام ١١٣٣م/٥٢٧هـ والصواب أنها كانت فى عام ١١٢٥م/٥١٩هـ ، كما أخطأ أيضا فى تحديد مصير ألفونسو بعد معركة إفراغة وذكر أنه قتل فى اشتباك مع المسلمين بالقرب من بلدة بولنينو Polenino .

بينما انفرد الكاتب بذكر بعض الأحداث التاريخية التى لم ترد فى المصادر الأخرى المتاحة لنا ، من أهمها شروط تسليم مدينة تطيلة ، وأيضا ذكر الدور الذى قام به المعسكر النبرى

بقيادة أسقف بنبلونة ضد بوابة بلنسية جنوبى سرقسطة ، أثناء حصار مدينة سرقسطة ، وربما أراد المؤرخ أن يضفى على أسقف بنبلونه نوعا من البطولة ، كما انفرد بتسجيل نصوص وصية ألفونسو المحارب فى حكم دولته .

كما أغفل المؤرخ بعض الأحداث التاريخية ومنها التحالف بين الملك ألفونسو المحارب وعبد الملك عماد الدولة ، والمعارك التى وقعت بين المسلمين والنصارى عند فرض الحصار على سرقسطة .

وهناك مصدر آخر هام أفاد البحث وهو مدونة القديس خوان دى بينيا Cronica de San Juan de la Pena [١] ويعتقد أن النص الأصلى لها كان مسجلا بالقطالونية ثم ترجم إلى اللاتينية ، وقد حفظت الترجمة اللاتينية فى دير القديس خوان دى بينيا . وأنها من عمل راهب الدير ، الذى يؤكد أن مادتها من اقتراح الملك بطره الرابع Pedro IV ملك أرغون (١٣٣٦-١٣٨٧م) الذى رغب أن يسجل تاريخ مملكته التى خرجت من نطاق إقليمى ضيق ، وكلف الملك كاتبه توماس دى كانيان Tomas de Canellan بمتابعة العمل فيه . وهناك رواية أرغونية تقول أن الترجمة اللاتينية للمدونة تمت فى عهد الملك وبالتحديد فى عام ١٣٧٢م . وتتناول المدونة تاريخ مختصر لملوك أرغون ونبرة حتى وفاة الفرنسو الرابع Alfonso IV عام ١٣٣٦م [٢] . وقد قام خيمنيث دى امبون Ximénez de Embun بطبع الجزء الأول فى سرقسطة عام ١٨٧٨م بعنوان "تاريخ مملكة أرغون Historia de la Corona de Aragon المعروف عامة باسم مدونة القديس خوان دى لا بينيا [٣] ثم قام أنطونيو أوبيتو أرتيتا بنشر الترجمة اللاتيتينة فى بلنسية عام ١٩٦١ .

وقد اتبع كاتب المدونة التسلسل الزمنى للأحداث طبقا لملوك أرغون ، وخصص فى المدونة فصلا بعنوان "الملك ألفونسو المحارب وأهم أعماله" ، مثل الاستيلاء على مدينة سرقسطة وقلعة أيوب ودروقة . وقد أفاض فى بعض الأحداث واختصر فى البعض الآخر ، وغطت المادة التاريخية جوانب متعددة فى هذا البحث خاصة فيما يتعلق بتتويج ألفونسو المحارب

---

(١) Cronica de San Juan de la Pena, por : Antonio Ubieto Arteta, Valencia, 1961 .

(٢) Diccionario de Historia de Eapana, Madrid, 1952, t. I, p. 815 .

(٣) Pedro Aguado Bleye, Manual de Historia de Espana, Tomo I, Madrid, 1947, P. 570.

إمبراطورا فى مدينة إخبا ، وأشار إلى حصار مدينة سرقسطة بإيجاز ، ووصف بإسهاب الكمين الذى دبره قمط البرتش لأهل تطيلة ، وأشار إلى تسليم سرقسطة لألفونسو المحارب بإيجاز ، كما أشار إلى معركة كتندة بإيجاز شديد ، يضاف إلى ذلك ما سجله عن العداء بين ألفونسو المحارب وزوجته أوراكا ملكة قشتالة وليون ، وتحديد درجة القرابة بينهما ، وحروب ألفونسو الأرغونى فى مملكتى قشتالة وليون ، كذلك تناول علاقة ألفونسو المحارب بألفونسو السابع ملك قشتالة ، كما قدّم كاتب المدونة أخبارا موجزة ومبتورة عن حملة ألفونسو المحارب على شرق وجنوب الأندلس وأشار بإيجاز إلى معركة إفراغة دون الدخول فى التفاصيل .

يلاحظ أن كاتب المدونة كثيرا ما كان يسجل الأحداث التاريخية دون تحديد تاريخها ، وقد وقع فى بعض الأخطاء منها أنه حدد حصار مدينة سرقسطة عام ١١١٠م/٥٠٣هـ ، وصحته عام ١١١٨م/٥١٢هـ ، وأنه ذكر سقوط مدينة تطيلة عام ١١١٠م/٥٠٣هـ ، وصحته عام ١١١٩م/٥١٢هـ ، كما أخطأ فيما أورده من هزيمة الأمير مزدلى حاكم سرقسطة أمام ألفونسو المحارب ، والصواب هو هزيمة الأمير تميم بن يوسف .

ويسجل لهذا الكاتب أنه انفرد بذكر بعض الأحداث التاريخية التى لم ترد فى المصادر الأخرى المتاحة لنا من أهمها تحديد المدينة التى تم فيها تتويج ألفونسو المحارب إمبراطورا ، كما حدد عدد الفرسان الذين ذهبوا مع الملك الأرغونى لحصار مدينة إفراغة .

كما أن الكاتب أغفل ذكر بعض الأحداث نذكر منها المعارك التى اقترنت بحصار مدينة سرقسطة ، وشروط تسليمها ، كما أنه لم يحدد تاريخ معركة كتندة ، كما أنه لم يشر إلى الهيئات الحربية التى أسسها ألفونسو المحارب ، كما أغفل ذكر استيلاء ألفونسو المحارب على مدينة مكناسة قبل حصاره إفراغة .

وهناك أيضا مدونة مملكة أرغون Cronica de la Corona de Aragon لدون جسبار دى كاستيانو Don Gaspar Castellano ، والتى طبعت فى سرقسطة ١٩١٩م [١] . تعتبر هذه المدونة من المصادر الهامة فى تاريخ مملكة أرغون فى العصور الوسطى ، فقد تناولت تاريخ أرغون منذ الفتح الإسلامى حتى عهد الملك دون خوان Don Juan (١٤٥٨-١٤٧٤م) .

---

(١) Don Gaspar Castellano, Cronica de la Corona de Aragon, Zaragoza, 1919 .

ولم يشر مؤرخ المدونة إلى المصادر التى اعتمد عليها فى جمع المادة التاريخية . وتسجيل الأحداث التاريخية باختصار فى كثير من الأحيان ، وتتميز بالتسلسل الزمنى للأحداث طبقا لملوك أرغون . وقد أفادت كل جوانب البحث ، إذ تناولت نشأة إقليم أرغون منذ أن كان كونتية صغيرة تابعة لحكم الفرنجة حتى صار مملكة واسعة فى عهد الملك ألفونسو المحارب . وأشارت المدونة إلى زواج ألفونسو بملكة قشتالة ، والحروب الأهلية بين قشتالة وأرغون ، كما تناولت أهم فتوحات ألفونسو المحارب ، فأشارت بإيجاز شديد إلى أخبار حروبه ضد المسلمين وخاصة ضد مسلمى مملكة سرقسطة ، وضد تطيلة ، كما أشارت إلى المدن الإسلامية التى سقطت فى يد ألفونسو المحارب ، وتأسيسه لمنظمة مونريال الحربية ، يضاف إلى ذلك أن المدونة أشارت إلى حملة ألفونسو المحارب على شرق وجنوب الأندلس بإيجاز شديد ، كما أنها أشارت باختصار إلى معركة إفراغة ، وإلى وصية ألفونسو المحارب وموقف هيئة الفرسان العسكرية ببيت المقدس بشأن تنفيذ الوصية .

ومن الجدير بالذكر أن مدونة مملكة أرغون قدمت مادة تاريخية قليلة وفى غاية الإختصار ، كما أنها قليلا ماتحدد تاريخ الأحداث التاريخية ، فقد أغفلت تحديد تاريخ ومدة حصار مدينة سرقسطة ، كما أغفلت تاريخ سقوط مدينة تطيلة ، كما أنها لم تشر إلى معركة كتندة ، ولم تذكر أيضا أسماء القادة المسلمين الذين خاض ضدهم ألفونسو المحارب حروبا كثيرة ، والتى حددها مؤرخ المدونة بتسعة وعشرين معركة انتصر فيها ألفونسو المحارب على المسلمين على حد قول المؤرخ .

وهناك مصدر آخر تجب الإشارة إليه وهو مدونة ألفونسو الإمبراطور La Cronica de Alfonso El Emperador [١] وهو المعروف بألفونسو السابع ملك قشتالة . هذه المدونة مجهولة المؤلف ، وقد نسبت إلى دون أرنالدو Don Arnaldo أسقف أسترقة Astorga (١١٤٤-١١٥٢م) وهو من أصل فرنسى ، ويبدو أن الكاتب كان معاصرا للأحداث ، وذلك ، لدقة ما كتبه . وتتضمن المدونة أخبارا وفيرة عن تاريخ وطبوغرافية مدينة طليطله ، ولهذا يحتمل أن كاتبها كان طليطى ، وكان على اتصال بالبلاط [٢] .

---

(١) La Cronica de Alfonso el Emperador, por : A.Huici Miranda, en "Las Cronicas Latinas de la Reconquista", t. II, Valencia, 1913 .

(٢) D.H.E., t. II, p. 512 .

وتتناول المدونة حكم الملك ألفونسو السابع فى كتابين : أحدهما خاص بإعادة التنظيم الداخلى واستقراره فى العرش ، والآخر خصص للإسترداد . وقد بدأ الكتاب الأول باعتلاء ألفونسو السابع العرش فى عام ١١٢٦م بعد وفاة الملكة أوراكا ، وتمرد الأشراف ضده ، ونزاع الملك ألفونسو السابع مع ألفونسو المحارب ، وإعلان الإمبراطورية ، والحروب مع البرتغال Portugal ونبرة . ويبدأ الكتاب الثانى بحروب ألفونسو السابع الإمبراطور مع المسلمين ، وينتهى بغزو مدينة المرية Almeria عام ١١٤٧م . ويلاحظ أن الكاتب لم يكن شاهد عيان للأحداث التى رويت ، ولكنه راعى ترتيب الأحداث بتسلسل منظم . كما أن الكاتب - فى بعض أخباره - كان يتسم بطابع التحيز لصالح الملك ألفونسو السابع وخاصة فيما نسب إلى أرغون ، بسبب عدائه للملك ألفونسو المحارب ، ولذلك يجب توخى الحرص والحذر عند استخدامه المدونة[١] .

وقد طبعت المدونة بواسطة برجانثا Berganza فى مدريد عام ١٧٢١م بعنوان العصور القديمة لأسبانيا Antiguedades de Espana ثم نشرها إنريك فلوريث Enrique Florez فى مجموعة أسبانيا المقدسة Espana Sagrada فى الجزء الحادى والعشرين . ثم نشرها أويثى ميرانده فى بلنسبة عام ١٩١٣ ، فى مجموعة المدونات اللاتينية للإسترداد . كما نشرها سانشيز بلدا Sanchez Belda فى مدريد عام ١٩٥٠ [٢] .

وترجع أهمية مدونة ألفونسو السابع الإمبراطور إلى أنها أفادت جانبا هاما من هذا البحث، وخاصة فيما يتعلق بحصار ألفونسو المحارب لمدينة بيونه ، وإن كان كاتب المدونة قد ذكر أن ألفونسو المحارب فشل فى الاستيلاء على المدينة ، فى حين أن بعض المصادر أكدت استيلاء ه عليها ، مما يدل على تحيز الكاتب ضد ملك أرغون . وتضمنت المدونة أحداث حصار مدينة إفراغة بالتفصيل ، كما تعرضت بإيجاز شديد لحملة ألفونسو المحارب على شرق وجنوب الأندلس . ثم تتناول بالتفصيل محاولة ابن غانية حاكم بلنسية ومرسية لإغاثة إفراغة وهزيمته على يد ألفونسو المحارب ، كما أشارت إلى انتهاك ألفونسو المحارب للأشياء المقدسة التى سلبها من مملكة ليون . كما أشارت إلى استعداد الجيش المرابطى بقيادة ابن غانية لإنقاذ

---

(١) D. H. E., t. II, P. 812 .

(٢) D. H. E., t. II, P. 813 .

إفراغة ، وتناولت أحداث معركة إفراغة بإسهاب حتى وفاة ألفونسو المحارب بعد هزيمته فى إفراغة بقليل ، كما أشارت إلى انفصال مملكتى أرغون ونبرة .

ويلاحظ أن كاتب مدونة ألفونسو الإمبراطور لم يهتم فى كثير من الأحيان بتحديد تواريخ الأحداث التى رواها ، وأحيانا كان يغفل الحادثة ثم يعود إليها فى سنوات متتاليه ، ومثال ذلك عندما كان يتناول حصار مدينة إفراغة عاد ليشير إلى حملة ألفونسو المحارب على شرق وجنوب الأندلس .

وقد أخطأ الكاتب فى تحديد تاريخ معركة إفراغة ، فذكر أنها كانت فى السادس عشر من أغسطس دون أن يحدد السنة ، والصحيح أنها كانت فى السابع عشر من يوليو ١١٣٤م/ الثالث والعشرين من رمضان ٥٢٨هـ ، كما أخطأ فى تحديد وفاة ألفونسو المحارب فذكر أنه كان فى الثامن من فبراير ١١٣٤م والصواب أنه فى السابع من سبتمبر ١١٣٤م/ السادس عشر من ذو القعدة ٥٢٨هـ .

وانفرد كاتب المدونة ببعض الأحداث التاريخية التى لم ترد فى المصادر الأخرى المتاحة لنا ، من أهمها هزيمة ابن غانية مرتين متتاليتين أمام ألفونسو المحارب عند محاولته إنقاذ مدينة إفراغة ، وما أورده من عرض أهل إفراغة التسليم بعد هزيمة ابن غانية ، ورفض ألفونسو المحارب لهذا العرض ، وتصميمه على اقتحام المدينة بالقوة .

وقد أغفل الكاتب ذكر أسباب حصار ألفونسو المحارب لمدينة بيونة ، ولم يشر إلى استيلاء ألفونسو المحارب على مدينة مكناسة قبل حصاره لمدينة إفراغة ، ولم يشر إلى تاريخ حصار إفراغة ، كما أنه لم يحدد تاريخ حملة ألفونسو المحارب على شرق وجنوب الأندلس ، كما أنه لم يشر إلى عدد الجيش الأرغونى - الفرنجى المشترك فى معركة إفراغة ، ورغم ذلك فإن هذه المدونة قد غطت جانبا هاما فى هذا البحث ويبدو أثرها واضحا فى ثنايا الفصل الخامس من البحث .

بالإضافة إلى ذلك ، هناك الحوليات الطليطلية الأولى Los Anales Toledanos 1 [١] التى نشرها فلوريث فى مجموعة أسبانيا المقدسة فى الجزء الثالث والعشرين ، ثم قام أويثى ميرانده بنشرها فى مجموعة المدونات اللاتينية للإسترداد . وتحتوى الحوليات الطليطلية

---

(١) Los Anales Toledanos 1, por : A. Huici Miranda, en "Las Cronicas Latinas de la Reconquista, Tomo 1, Valencia, 1913 .

الأولى على أخبار ومعلومات هامة بالنسبة لموضوع البحث ، وهى شديدة الاختصار ، أرخت الأحداث الهامة على طريقة المنهج الحولى منذ دخول المسلمين فى أسبانيا حتى عام ١٢١٩م . رغم هذا هناك بعض الأخطاء التاريخية فى بعض الأخبار المدرجة بها ، منها أنها أشارت إلى انتزاع مدينة وشقة Huesca من المسلمين عام ١٠٨٠م والصواب عام ١٠٩٦م/٤٨٩هـ ، وذكرت أن المستعين حاكم سرقسطة مات فى مملكة بلنسية والصحيح أنه استشهد فى مدينة بلتيرة على حدود تطيلة ، كما أخطأت فى تحديد تاريخ معركة كتندة فذكرت أنها وقعت فى شهر أبريل عام ١١٢١م والصحيح أنها كانت فى يونيه ١١٢٠م/ ربيع الأول ٥١٤هـ ، وأشارت إلى حملة ألفونسو المحارب على شرق وجنوب الأندلس تحت عام ١١٢٣م والصواب أنها كانت فى عام ١١٢٥-١١٢٦/٥١٩-٥٢٠هـ ، كما أشارت إلى عبور المستعربين إلى مراكش عام١١٢٤م والصواب أنه كان عام ١١٢٦م/ ٥٢٠هـ .

وهناك بعض المصادر القشتالية التى أفادت جانبا من جوانب هذا البحث منها مدونات مجهول ساهاجون Las Cronicas Anonimas de Sahagun [١] ، كتبها مؤرخ ساهاجون المجـــهـــول el Anonimo de Sahagun وهو راهب قشتالى ، كتب تاريخ ديره - دير ساهاجون- وقد روى بإسهاب عهد ألفونسو السادس ملك قشتالة والملكة دونيا أورراكا ، وزواجها بالملك ألفونسو المحارب ، الذى سبب أضرارا لديره . وتقع المدونات فى جزءين ، الأول يتناول تاريخ ديرساهاجون حتى عام ١١١٧م ، والثانى وصل حتى عام ١٢٥٥م . وقد قام خوسيه بريث José Pérez بنشر الجزء الأول من تاريخ ديرساهاجون بعد أن راجعة اسكالونا P.R.E.scalona، فى مدريد عام ١٧٨٢م ، ونشرها بويول J. Puyol عام ١٩٢٠م بعنوان "مدونات مجهول ساهاجون"[٢] ، ثم نشرها أنطونيو أوبيتو أرتيتا فى سرقسطة عام ١٩٨٧.

وتظهر أهمية هذه المدونات بين ثنايا الفصل الثانى من هذه الدراسة ، إذ تتناول بالتفصيل العلاقة بين مملكتى قشتالة وأرغون منذ زواج ألفونسو المحارب بالملكة أورراكا ، والحروب التى شنها ألفونسو المحارب فى مملكتى قشتالة وليون ، وما أعقب ذلك من تخريب وأضرار فى أسبانيا.

---

(١) Cronicas Anonimas de Sahagun, por : Ubieto Arteta, A., Zaragoza, 1987 .

(٢) Aguado Bleye, P., op. cit., t. 1, p. 552 .

ويتضح مما كتبه مجهول ساهاجون كراهيته وحقده للملك ألفونسو المحارب ، ونسب إلى الأرغونيين نهب مدينة ساهاجون ، وسلب الأديرة وإهانة رجال الدين ، ووصف ألفونسو المحارب بالقسوة ، كما أطلق عليه الطاغية ، ولذلك يجب أن يؤخذ ما كتبه بشئ من الحيطة والحذر .

كما أن هناك أيضا مذكرات الملكات الكاثوليكيات[1] ، التى نشرها إنريك فلوريث فى مدريد عام ١٧٩٠م ، وهى عبارة عن تاريخ سلالة ملكات قشتالة وليون ، ويهمنا منها مادون عن حياة الملكة دونيا أوراكا منذ توليها الحكم بعد وفاة والدها ألفونسو السادس حتى وفاتها عام ١١٢٦م ، فتناولت زواجها من الملك ألفونسو المحارب وموقف رجال الدين من هذا الزواج، وعلاقة النسب والقرابة بين الزوجين ، ونشوب الحرب الأهلية بينهما ، وطلاق ألفونسو لزوجته، وينسب المؤرخ إلى ألفونسو المحارب مثل بقية المؤرخين القشتاليين تعديه على الكنائس وسلبها ونفى أساقفتها .

ومن المصادر القشتالية أيضا المدونة العامة الأولى لتاريخ أسبانيا[2] ، والتى كتبها الملك ألفونسو العاشر ملك قشتالة (١٢٥٢-١٢٨٤م) فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى ، ونشرها المؤرخ منندث بيدال فى جزءين ، فى مدريد عام ١٩٥٥ . وتتناول المدونة تاريخ أسبانيا بعامة ، وقشتالة بخاصة حتى عهد الملك فرناند والثالث ملك قشتالة (١٢١٧-١٢٥٢م) . وقد سجلت الأحداث التاريخية مرتبة ترتيبا زمنيا حسب ملوك قشتالة ، واعتمد فيما دونه على مصادر كثيرة ومتنوعة وبعضها لم يصل إلينا . وقد أفادت المدونة بعض جوانب البحث بمادة تاريخية لها قيمتها خاصة فيما يتعلق بحصار ألفونسو السادس لسرقسطة عام ١٠٨٦/ أواخر ٤٨٧هـ ، وموقعة الزلاقة ، والتحالف بين ألفونسو السادس والملك سانشو راميرث ملك أرغون ضد المرابطين ، كما تناولت بإسهاب حياة السيد القنبيطور وطمعه فى مملكة بلنسيه وحصاره للمدينة حتى استسلامها ، واسترجاع المرابطين لها. وتضمنت المدونة أحداث معركة أقليش وسقوط الأمير القشتالى دون شانجه قتيلا

---

(١) Florez, Enrique, Memorias de Las Reynas Catholicas, t. 1, Madrid, 1790 .

(٢) Alfonso el Sabio, Primera Cronica General de Espana, por : Pidal, R.M., Madrid, 1955 .

فى أرض المعركة ، كما تعرضت للعلاقة بين قشتالة وأرغون بإسهاب منذ زواج ألفونسو المحارب بالملكة دونيا أوراكا ، وماتبع ذلك من سوء العلاقة بين الزوجين والحرب الأهلية بينهما ، والنزاع بين الملك ألفونسو المحارب والملك ألفونسو السابع ملك قشتالة ، وتدخل الوسطاء ورجال الدين لتسوية الأمور وإقرار السلم بينهما . كما أشارت بإيجاز إلى معركة ألفونسو المحارب مع المسلمين فى إفراغة . أما حوليات شانت ياقب Annales Compostel-lani ، التى نشرها إنريك فلوريث فى مجموعة أسبانيا المقدسة[١] ، فهى تسجل الأحداث الهامة لأسبانيا منذ بداية الفتح الإسلامى حتى عام ١٢٤٨ . وقد أفادت البحث فى تحديد تاريخ حصار الملك سانشو راميرث لمدينة وشقة ، وتاريخ إخضاعها فى عهد الملك بطره الأول ، ووصفت الملك ألفونسو المحارب بالخبرة فى شئون الحرب ، والبراعة فى إدارة شئون مملكته . كما حددت مدة حصار مدينة سرقسطة ، وأشارت إلى حصار ألفونسو المحارب لقلعة أيوب ، وموقعة كتندة ، كما أشارت بإيجاز إلى أهم المدن الإسلامية التى خضعت لألفونسو المحارب ، وقد أطلقت على قلعة إفراغة اسم آجون Hagon .

وهناك أيضا حولية كومبلوتنسز Annalas Complutenses[٢] ، وهى منشورة أيضا فى مجموعة أسبانيا المقدسة ، وهى شديدة الاختصار تؤرخ الأحداث الهامة فى أسبانيا منذ دخول المسلمين عام ٧١٤م حتى وفاة الملكة أوراكا عام ١١٢٦م . وقد أفادت البحث فى عدة نقاط أهمها أنها أشارت إلى حصار الملك بطره الأول لمدينة وشقة ، وحددت تاريخ موقعة كاند سبينا بين الأرغونيين والقشتاليين ، وأشارت إلى مساعدة إيزيك قمط البرتغال لألفونسو المحارب ، وحددت تاريخ سقوط مدينة سرقسطة فى يد ألفونسو المحارب . وتتميز حولية كومبلوتنسز بتأريخ الأحداث التاريخية كاملة محددة اليوم والشهر والعام بدقة .

يضاف إلى ذلك مصدر آخر له أهميته فى موضوع البحث هو التاريخ الكنسى لأوردريك فيتال[٣] - المؤرخ الإنجليزى الذى مات فى منتصف القرن الثانى عشر الميلادى - المنشور

---

(١) Florez, Enrique. p., Espana Sagrada. LXXIII. Madrid, 1799 .

(٢) Florez, Enrique. p., Espana Sagrada. t. XXIII. Madrid, 1799 .

(٣) Orderici Vital, Historiae Ecclesiasticae, Libro XIII. en "Recueil des Historiens des Gaules et de la France", t. XII. Paris, 1977 .

فى مجموعة مؤرخى غالة وفرنسا ، والذى أفاد البحث وخاصة فيما يتعلق بحصار المسلمين للفرنجة فى حصن بنى كاديل Benicadell عام ١١٢٥م ، وأشار بإيجاز إلى الخلاف بين ألفونسو المحارب وزوجته ، وتخطيط أوراكا للتخلص من زوجها وتكليف من يدس السم له ، كما أشار إلى استيلاء ألفونسو المحارب على مدينة مكناسة ، كما أشار إلى حصار ألفونسو المحارب لمدينة إفراغة ، وتناول أحداث معركة إفراغة حتى وفاة ألفونسو المحارب بعد المعركة بقليل . ويلاحظ على ماكتبه أوردريك فيتال أنه لم يلتزم بالتسلسل الزمنى للأحداث أحيانا . وأنه يحاول أن يضفى نوعا من البطولة على الفرنسيين الذين خاضوا كثيرا من الحروب مع ألفونسو المحارب . كما أن المؤرخ أخطأ عندما أشار إلى أن قائد الجيش المرابطى فى معركة إفراغة كان بكر بن على بن يوسف والصحيح أنه كان ابن غانية حاكم بلنسيه ومرسيه .

وهناك أيضا مدونة القديس ماشنت Chronico Sancti Maxentii [١] ، التى أفادت أحد جوانب البحث خاصة فيما يتعلق بحصار مدينة سرقسطة ، ومحاولة المرابطين إنقاذ سرقسطة وما تبع ذلك من حروب بين الملك ألفونسو المحارب والمرابطين ، وفرار الأمير تميم من المعركة ، وما ترتب على ذلك من تسليم سرقسطة لألفونسو المحارب ، كما أشارت إلى أهم المدن التى سقطت فى يد ألفونسو المحارب ، كما أشارت إلى معركة كتندة ، وحددت خسائر الجيش المرابطى فى المعركة ، ويلاحظ على ماورد فى المدونة أنها أخطأت فى تسجيل تاريخ سقوط سرقسطة ، فذكرت أنه فى الثالث عشر من ديسمبر عام ١١١٨م والصحيح أنه فى الثامن عشر من ديسمبر من العام نفسه .

بالإضافة إلى ذلك ، هنالك مجموعة من الوثائق الخاصة باسترداد وتعمير وادى إبرة[٢] التى نشرها خوسيه لاكارا فى السلسلة الأولى من دراسات العصور الوسطى لمملكة أرغون ، وقد أفادت هذه الوثائق البحث وخاصة فى تأكيد بعض الأحداث التاريخية ، أو تأكيد بعض التواريخ التى كانت مثار خلاف بين المؤرخين .

---

(١) Chronico Sancti Maxentii Pictavensis, en "R.H.G.F." t. XII, Paris, 1977 .

(٢) Lacarra, José Maria, Documentos Para el Estudio de la Reconquista Y Repoblacion del Valle del Ebro, (Primera Serie) de Estudios de Edad Media de la Corona de Aragon, Vol. II, PP.469-546, Zaragoza, 1946 .

هذا عن أهم المصادر الأجنبية ، أما عن المصادر العربية فأهمها كتاب البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب لابن عذارى المراكشى[1] ، وتاريخ ميلاد هذا المؤرخ ليس معروفا لدينا ، فقد عاش فى القرن الرابع عشر الميلادى / الثامن الهجرى ، وقد اعتمد على مصادر مغربية وأندلسية ترجع إلى القرنين الخامس والسادس الهجرى وقد أشار إليها ، ويتبع ابن عذارى فى تصنيف روايته طريقة الحوليات السنوية .

ويعتبر كتاب "البيان المغرب" تاريخا عاما للمغرب والأندلس فى العصر الإسلامى منذ الفتح العربى حتى بداية عصر بنى مرين (مابعد منتصف القرن السابع الهجرى) ، ويقع الكتاب فى أربعة أجزاء ، يهمنا منه الجزء الرابع الخاص بتاريخ دولة المرابطين فى المغرب والأندلس ، والذى عثر على أوراقه المستشرق ليفى بروفنسال ، وقام بنشرها المستشرق أوثى ميرانده فى مجلة هسبيرس Hesperis عام ١٩٦١ ، وأعاد نشرها الدكتور إحسان عباس عام ١٩٦٧ . وعثر الأستاذ محمد عبد الله عنان فى مكتبة جامع القرويين بفاس على صفحات أخرى من كتاب البيان المغرب تتناول الأحداث من عام ١١١٧ إلى ١١٢٢م/٥١١-٥١٦هـ ، وفيها تفاصيل هامة عن سقوط سرقسطة ، وموقعة كتندة ، وثورة أهل قرطبة ضد المرابطين ، وظهور المهدى فى مراكش ، وقد نشر أوثيى ميرانده هذه الصفحات فى مجلة الأندلس عام ١٩٦٣[2] .

وقدم لنا المؤرخ صورة واضحة عن أحوال المسلمين فى المغرب والأندلس فى الفترة الزمنية للبحث ، فقد تناول بإسهاب علاقة حكام سرقسطة بألفونسو المحارب فى عهد المستعين بن هود الذى استشهد فى اشتباك مع ألفونسو المحارب عند مدينة بلتيرة ، وعلاقة أهل سرقسطة بعبد الملك عماد الدولة وتحالفه مع ملك أرغون ضد المرابطين ، وكذلك سيادة المرابطين على سرقسطة ، وأيضا العداء بين عبد الملك وأمير سرقسطة محمد بن الحاج ، والمناوشات والاشتباكات التى وقعت بين ابن الحاج وألفونسو المحارب عام ١١١٠م/٥٠٤هـ .

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، جـ٤ ، تحقيق د. إحسان عباس ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م .

(٢) Huici Miranda, A., Nuevas Aportaciones de" Al-Bayan Al - Mugrib", Al-Andalus, Vol. XXVIII, 1963, pp. 313-330 .

ويعتبر كتاب البيان المغرب أكثر المصادر العربية إسهابا فى سرد أحداث حملة الملك ألفونسو المحارب على سرقسطة ، ومعركة كتندة ، وحملة ألفونسو المحارب على شرق وجنوب الأندلس وما ترتب عليها من إجلاء المستعربين إلى المغرب ، كما أشار إلى غارة ينتان ابن على اللمتونى والى بلنسية على الأراضى الأرغونية ومقتل جاستون دى بيارن سيد سرقسطة ، وكذلك أشار بإيجاز إلى هزيمة ألفونسو المحارب على يد ابن غانية ووفاته بعد أيام .

وقد انفرد المؤرخ بذكر غارة على بن كنفاط اللمتونى على أحد حصون عبد الملك عماد الدولة بالقرب من قلعة أيوب . كما انفرد بوصف المعركة التى وقعت بين أهل سرقسطة والفرنجة عند وصولهم إلى بوابات سرقسطة وما أعقب ذلك من الحصار ، كما انفرد بذكر الوقائع التى أعقبت الحصار بين أهل سرقسطة والفرنجة من جانب ، وبين ابن مزدلى حاكم سرقسطة وألفونسو المحارب من جانب آخر . كما انفرد بتحديد عدد القوات الأرغونية المشتركة فى معركة كتندة ، وانفرد ابن عذارى أيضا بذكر موقف أمير المسلمين على بن يوسف من شكوى المستعربين من والى غرناطة أبو عمر يناله ، وإنصافه لهم وسجنه للوالى .

بينما أغفل المؤرخ الإشارة الى غزوة محمد بن الحاج فى أراضى برشلونة عام ١١١٤م/٥٠٨هـ، ولم يشر إلى محاولات المرابطين لإنقاذ سرقسطة ، وكذلك شروط تسليم المدينة ، ولم يشر إلى استيلاء ألفونسو المحارب على مدينة مكناسة ، كما أنه لم يتناول أحداث معركة إفراغة . ورغم ذلك فإن كتاب البيان المغرب يعتبر أكثر المصادر العربية التى أفادت جوانب البحث ، كما أنه أكثر دقة فى ذكر تواريخ الوقائع والأحداث .

ومن المصادر التى أفادت بعض جوانب هذا البحث ماكتبه المؤرخ ابن القطان (ت ٦٢٨هـ/١٢٣٠م) فى كتابه "جزء من نظم الجمان"[١] ، وهو على بن محمد بن عبد الملك ابن يحيى الكتامى ، ويعرف بابن القطان ويكنى أبا الحسن ، وهو من أهل مدينة فاس وأصله من قرطبة ، وقد اتصل بسلاطين الدولة الموحدية وخدمهم ، ولذلك كان من أكبر دعاة الموحدين، تولى منصب القضاء فى سجلماسة ، وتوفى فى ربيع الأول عام ٦٢٨هـ/ يناير ١٢٣١م . وكتاب نظم الجمان يعتبر موسوعة ضخمة فى تاريخ المغرب والأندلس ، ويبدو أن ابن القطان قسم كتابه إلى سبعة أجزاء : الأول يضم المقدمة الجغرافية ثم الفتح العربى للمغرب

---

(١) ابن القطان ، جزء من كتاب نظم الجمان ، تحقيق د. محمود على مكى ، تطوان ، (د.ت) .

وأخباره فى بقية القرن الأول الهجرى أى حتى سنة ١٠٠هـ ، والثانى فى أخبار القرن الثانى الهجرى ، والثالث فى أخبار القرن الثالث ، وهكذا حتى الجزء السابع والأخير ويتضمن أخبار القرن السابع حتى عصر المؤلف أى أواخر أيام الدولة الموحدية . والكتاب ما يزال مخطوطا ، نشر الأستاذ الدكتور / محمود على مكى منه قطعة هى السفر الثالث عشر من كتاب "نظم الجمان فى أخبار الزمان ، "ومن المحتمل أن تكون هذه القطعة هى نفس الجزء السادس منه ، وتتناول أخبار الفترة من عام ٥٠٠-٥٣٣هـ / ١١٠٧-١١٣٩م . وقد نقل ابن عذارى من ابن القطان فى كتاب "البيان المغرب" واعتمد عليه فى كثير من الموضوعات مما يدل على قيمة الكتاب ، كما انتفع ابن القطان بدوره من كتب من سبقوه من مؤرخى الدولة الموحدية ، واطلع على كتبهم ، التى ضاع أغلبها ، كما تمكن من الاطلاع على بعض الوثائق الرسمية للدولة بحكم عمله فى ديوان الرسائل ، وبذلك كانت المادة التاريخية التى تهيأت لابن القطان وفيرة. ولما كان المؤرخ رجل من رجال الدولة الموحدية متعصب لها ، فكان يصل أحيانا إلى مجافاة الحقائق فى كثير من الأمور ، ويتضح ذلك فى مهاجمته للمرابطين ، وقد سجل المؤرخ الكثير من أحداث الأندلس والمغرب حسب ترتيبها الزمنى للسنين .

وترجع أهمية هذا الكتاب فى موضوع البحث أن المؤرخ تناول بإسهاب أحداث موقعة أقليش عام ١١٠٨م/٥٠١هـ ، وأشار إلى غارة ينتان بن على اللمتونى على أراضى أرغون عام ١١٣٠م/٥٢٤هـ ومقتل جاستون دى بيارن ، كما تناول بإسهاب حصار ألفونسو المحارب لمدينة إفراغة ، وتفاصيل معركة إفراغة ، ومصير ألفونسو المحارب . بالإضافة إلى ذلك ، تعرض لمراحل الصراع بين المرابطين والموحدين وأهم الوقائع التى نشبت بينهما .

ويلاحظ على ماورد فى هذا المصدر أنه انفرد بذكر بعض الأحداث التاريخية دون غيره من المصادر العربية والأجنبية المتاحة لنا ، من أهمها موقعة القلعة أو القليعة عام ١١٢٩م/٥٢٣هـ بين المرابطين والأرغونيين ، وكذلك غارة الأرغونيين على مدينة غليرة فى العام نفسه . كما انفرد بذكر المعاهدة بين المرابطين وحاكم برشلونة Barcelona ، ودوافع هذه المعاهدة ، التى دفعت ألفونسو المحارب إلى حصار مدينة إفراغة ، كما أنه قدم لنا صورة واضحة من صور مقاومة أهل إفراغة للمحاصرين .

وقد أخطأ المؤرخ فى تحديد تاريخ ذهاب الفقية ابن رشد إلى مراكش ، وذكره تحت عام ١١٢٨م/٥٢٢هـ ، وصحته عام ١١٢٦م/٥٢٠هـ ، إذ أن ابن رشد توفى فى أواخر عام ١١٢٦م/٥٢٠هـ .

وهناك بعض الوقائع والأحداث لم يذكرها المؤرخ فى الفترة موضوع البحث من أهمها معركة بلتيرة عام ١١١٠م/٥٠٣هـ ، والغارات المتبادلة بين ألفونسو المحارب وحكام سرقسطة من المرابطين ، كما أنه أغفل ذكر كل أحداث حصار وسقوط سرقسطة فى يد ألفونسو المحارب، كما أنه لم يشر إلى حملة ألفونسو المحارب إلى شرق وجنوب الأندلس ، وأغفل المؤرخ السبب الرئيسى لتوجه ابن رشد إلى مراكش ، ألا وهو بسبب موقف المستعربين من حملة ألفونسو المحارب والتشاور مع أمير المسلمين على بن يوسف بخصوص تغريبهم ، واكتفى فقط بذكر مشورة ابن رشد على أمير المسلمين ببناء سور مراكش . ويلتمس العذر للمؤرخ فى هذه الجوانب باعتباره يؤرخ للدولة الموحدية . ورغم ذلك فقد قدم لنا مادة طيبة غطت جوانب متعددة فى هذه الدراسة ، كما أفادت تحقيقات الكتاب هذا البحث .

أما كتاب "الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس" لابن أبى زرع[1] ، وهو أبو الحسن على بن الله بن أبى زرع الفاسى المتوفى عام ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م ، وقد وضع كتاب القرطاس فى عهد دولة بنى مرين ، ويتناول تاريخ المغرب الأقصى منذ دولة الأدارسة حتى دولة بنى مرين ، وأهداه إلى السلطان أبى سعيد عثمان المرينى (٧١٠-٧٣١هـ) . وقد اتبع المؤرخ طريقة سرد الأحداث دون التقيد بالحوليات ، فهو يبتدئ من مؤسس الدولة ويستعرض ترجمته وأسباب قيامه إلى وفاته أو خلعه أو تنازله ، ثم ينتقل إلى ملوك الدولة فيروى عن كل ملك بما يتصل به من معلومات عنه وأعماله وصفاته ووزراءه وقضاته . وقد طبع هذا الكتاب فى المغرب على المطبعة الحجرية الفاسية ، كما ترجم إلى الفرنسية والألمانية والبرتغالية ، وفى عام ١٨٣٤ نشر المستشرق السويدى ك.ج طور نبرج قسما منه ، ثم نشره بأجمعه عام ١٨٤٣-١٨٤٦ ، ثم نشره محمد الهاشمى فى ثلاثة أجزاء فى المغرب عام ١٩٣٦ ، ويهمنا منه الجزء الثانى الذى تناول تاريخ المرابطين والموحدين .

وقد تناول ابن أبى زرع حصار ألفونسو السادس لمدينة سرقسطة ، واستنجاده بالملك الأرغونى سانشو راميرث لمواجهة يوسف بن تاشفين فى معركة الزلاقة عام ١٠٨٦م/٤٧٩هـ ،

---

(١) ابن أبى زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس ، حرره وعلق عليه محمد الهاشمى الفيلالى ، الجزء الثانى ، الرباط ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م .

وأشار إلى حكام سرقسطة من المرابطين ، وغزواتهم إلى برشلونة ، ومحاولات ألفونسو المحارب للسيطرة على سرقسطة خلال عامى ١١١٦-١١١٧م/ ٥١٠-٥١١هـ ، كما أشار إلى استنجاد ألفونسو المحارب بالفرنجة وحصار سرقسطة وسقوطها فى يده عام ١١١٨م/٥١٢هـ ، وأشار إلى وصول الجيش المرابطى لإنقاذها بعد سقوطها ، كما أشار بإيجاز إلى تغلب الفونسو على مدن شرق الأندلس دون أن يذكر أسماء هذه المدن فيما عدا قلعة أيوب . وانفرد المؤرخ بذكر بعض الروايات حول غزوات حكام سرقسطة المرابطين إلى أراضى برشلونة عام ١١١٤م/ ٥٠٨هـ ، وأيضا بوصف آلات الحصار التى استخدمها الفرنجة فى حصار سرقسطة ، وكذلك بعقد هدنة بين أهل سرقسطة وألفونسو المحارب قبل استسلامهم له بفترة محددة . ويلاحظ أن المؤرخ يميل أحيانا إلى المبالغة فى تقدير عدد القتلى النصارى . وأحيانا أخرى يقع فى بعض الأخطاء منها ما ذكره عن وفاة عبد الله بن مزدلى حاكم سرقسطة قبل حصار المدينة ، ثم اشتراكه مع الجيش المرابطى فى إنقاذ لاردة من تهديد ألفونسو المحارب ، وما ذكره أيضا عن وصول الجيش المرابطى بعد سقوط سرقسطة ، بينما وصل الجيش المرابطى أمام أسوار سرقسطة لإنقاذها قبل سقوطها فى يد النصارى . كما أغفل المؤرخ ذكر بعض الوقائع التاريخية الهامة وهى موقعة كتندة ، وحملة ألفونسو المحارب إلى شرق وجنوب الأندلس ، كما أنه لم يشر إلى موقعة إفراغة .

ويلى ذلك كتاب "تاريخ الأندلس" لابن الكردبوس[1] ، وهو أبو مروان عبد الملك بن الكردبوس ، الذى عاش فى مدينة توزر التونسية فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، ولانعرف سنة وفاته . ويتناول المؤلف فى هذه القطعة تاريخ الأندلس ، وهى جزء من كتاب الإكتفاء فى أخبار الخلفاء ، ولم يذكر المصادر التى استقى منها معلوماته وأحيانا لم يلتزم المؤرخ بالتسلسل التاريخى أو الترتيب الزمنى ، إذ نراه يعود إلى الوراء قليلا لاستدراك بعض الأحداث التى فاتته دون أن يذكرها . وخير ماورد به شروط تسليم أهل سرقسطة لألفونسو المحارب ، ووصف موكب المسلمين عند مغادرتهم المدينة ، وحدد عدد المسلمين النازحين من المدينة ، ويشيد ابن الكردبوس بسياسة ألفونسو المحارب مع

---

(١) ابن الكردبوس ، تاريخ الأندلس ووصفه لابن الشباط ، تحقيق د. أحمد مختار العبادى ، معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ١٩٧١م .

مسلمي سرقسطة ، اذ سمح لهم بالرحيل بجميع أموالهم ومتاعهم ولم يتعرض لهم بسوء . وقد انفرد إبن الكرديوس بذكر هذه المعلومات التى لم ترد فى غيره من المصادر كما أنه أشار بإيجاز شديد إلى زواج ألفونسو المحارب بملكة قشتالة ، وسوء العلاقة بينهما وما أعقب ذلك من نشوب الحرب الأهلية بين مملكتى قشتالة وأرغون . وإلى جانب هذا فقد أفاد الكتاب ومقدمته وحواشيه بعض جوانب البحث .

ومن المصادر الهامة التى أفادت بعض جوانب البحث ماكتبه المؤرخ لسان الدين بن الخطيب (٧١٣-٧٧٦هـ/١٣١٣-١٣٧٤م) فى كتابه "الإحاطة فى أخبار غرناطة"[(١)] ، وقد ولد ابن الخطيب فى مدينة لوشة Loja عام ٧١٣هـ/١٣١٣م ، ودرس فى غرناطة ، ودخل الوزارة ونال حظوة كبيرة عند ملوك بنى نصر أو بنى الأحمر ، واختلطت حياته السياسية بحياته العلمية ، كما أتاح له منصبه كوزير فرصة الاطلاع على الوثائق والمراسلات الرسمية المحفوظة بقصر الحمراء ، ثم نزل بالمغرب عام ٧٦٠هـ/١٣٥٩م ، وأقام بمدينة فاس ، وقتل عام ٧٧٦هـ/١٣٧٤م .

ويشتهر ابن الخطيب بكثرة مصنفاته التاريخية والأدبية ، وأهمها كتاب "الإحاطة فى أخبار غرناطة" ، وهذا الكتاب تراجم لملوك وأمراء وعلماء غرناطة وجميع الذين وفدوا عليها فى مختلف عصور التاريخ الأندلسى . وقد ذكر ابن الخطيب مصادره ، وفيما يتعلق بتاريخ الدولة المرابطية فقد رجع إلى تاريخ ابن الصيرفى المفقود المسمى "بالأنوار الجلية فى تاريخ الدولة المرابطية" ، وهو يكثر الاقتباس منه .

وترجع أهمية كتاب "الإحاطة" فى موضوع البحث أنه أشار إلى غارات ألفونسو المحارب على سرقسطة أواخر عام ١١١٦م وعام ١١١٧م / ٥١٠هـ ، كما أنه أورد وصفا دقيقا لحملة ألفونسو المحارب على شرق وجنوب الأندلس، وأسهب فى سرد أحداثها وخط سيرها ووقائعها. كما أشار إلى رحلة ابن رشد إلى قرطبة وإجلاء المستعمرين إلى المغرب، كما أشار بإيجاز إلى حصار ألفونسو المحارب لمدينة إفراغة ، وأشاد بدور واليها سعد بن محمد بن مردنيش

---

(١) ابن الخطيب ، الإحاطة فى أخبار غرناطة ، حققه محمد عبد الله عنان ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٣٩٣-١٣٩٥هـ/١٩٧٣-١٩٧٥م .

فى الدفاع عن المدينة ، كما أمدنا ابن الخطيب بتراجم لبعض القواد والحكام والأمراء المرابطين، وقد جاء فى ثنايا هذه التراجم معلومات تاريخية قيمة أفادت البحث .

ورغم هذه كله ، أخطأ ابن الخطيب فى تحديد بعض التواريخ ، وعلى سبيل المثال ، أنه ذكر أن استرجاع محمد بن مزدلى لبلنسية من خيمنا Jimena أرملة السيد القنبيطور كان فى عام ١١١٢م/٥٠٥هـ والصحيح عام ١١٠٢/٤٩٥هـ ، كما أنه ذكر أن حملة ألفونسو المحارب كانت عام ١١٢١م/٥١٥هـ والصواب أنها كانت عام ١١٢٥م/٥١٩هـ ، وربما يرجع هذا الخطأ إلى بعض النساخ .

وهناك كتاب آخر لابن الخطيب أفاد أيضا موضوع البحث وهو كتاب "أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام"[١] وهذا الكتاب عبارة عن تاريخ عام للعالم الإسلامى، وينقسم إلى ثلاثة أقسام ، ويهمنا منه القسم الثانى الذى يتناول تاريخ أسبانيا الإسلامية ، وقد أضاف إليه ابن الخطيب مختصرا لتاريخ الممالك المسيحية الأسبانية ، وأهم ماورد به تفاصيل معركة وشقة عام ١٠٩٦م/٤٨٩هـ ، ومعركة بلتيرة واستشهاد المستعين بن هود ، واشتباك ألفونسو المحارب مع ابن الحاج حاكم سرقسطة عام ١١١٠م/٥٠٣هـ .

ويلاحظ أن ابن الخطيب انفرد بذكر هزيمة بطره الأول ملك أرغون أمام الجيش المرابطى بقيادة على ابن الحاج حين كان يحاصره سرقسطة عام ١١٠١م/٤٩٤هـ .

ويلاحظ على ماورد فى هذا الكتاب أنه أخطأ فى تسجيل استشهاد ابن الحاج أثناء اشتباكه مع الملك ألفونسو المحارب بالقرب من بوابات سرقسطة عام ١١١٠م/٥٠٣هـ ، والصواب استشهاد أبا يحيى بن الحاج .

بالإضافة إلى هذه المصادر ، توجد بعض المصادر الأخرى التى خدمت زوايا هذا البحث ، من أهمها كتاب "الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية" لأبى العلاء ابن سماك المالقى (ت أواخر القرن ٨هـ / الرابع عشر الميلادى)[٢] ، وخير ماورد به المراسلات الودية بين المستعين بن هود وأمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وتفاصيل حملة ألفونسو المحارب على شرق

---

(١) ابن الخطيب "تاريخ أسبانيا الإسلامية" أو أعمال الأعلام فى من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام. تحقيق ليفى بروفنسال ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٥٦م .

(٢) ابن سماك المالقى ، الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، الطبعة الأولى ، تونس ١٣٢٩هـ .

وجنوب الأندلس ، وسفارة ابن رشد إلى المغرب بخصوص تغريب المستعربين ، كما يتناول الحروب التى نشبت بين المرابطين والموحدين .

أما كتاب "الكامل فى التاريخ" لابن الأثير (ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م) وهو على جانب كبير من الأهمية أيضا ، فقد تناول بعض التفاصيل عن معركة كتندة عام ١١٢٠م/٥١٤هـ ، ومعركة إفراغة ومصير الملك ألفونسو المحارب" وقد أخطأ المؤرخ فى تسجيل تاريخ معركة إفراغة ، وذكرها تحت عام ٥٢٩هـ/ ١١٣٥م ، والصواب أنها كانت عام ٥٢٨هـ/ ١١٣٤م .

ويلاحظ على ماورد فى هذا المصدر أنه انفرد بذكر بعض الأحداث التى لم ترد فى المصادر الأخرى المتاحة لنا منها ذهاب بعض الملثمين - المرابطين - إلى بغداد لإثارة الجهاد الدينى ضد الصليبين ، كما انفرد بتحديد عدد الجيش الإسلامى والجيش الأرغونى - الفرنجى فى معركة إفراغة .

بينما كتاب "صفة جزيرة الأندلس - منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار للحميرى (ت٨٦٦هـ/ ١٤٦١م)[١] ، فهو معجم جغرافى تاريخى ، مرتب ترتيبا أبجديا ، وأمدنا ببعض المعلومات والحقائق التاريخية ، إلى جانب الوصف الجغرافى لمدن الأندلس ، فقد أشار إلى مدة حصار النصارى لمدينة سرقسطة ، وعدد المحاصرين الذين دخلوا المدينة مع الملك ألفونسو المحارب صلحا . كما تناول حصار ألفونسو لمدينة إفراغة ، وتصميمه على أخذها عنوة ، وأشار إلى معركة إفراغة وهزيمة ألفونسو المحارب على يد يحيى بن على وفراره من المعركة . وقد أخطأ الحميرى فى تسجيل تاريخ المعركة ، فذكر أنها كانت عام ٥٢٥هـ/ ١١٣١م والصواب أنها كانت عام ٥٢٨هـ/ ١١٣٤م .

ومن المصادر الهامة مجموعة الوثائق المرابطية التى قام بنشرها الأستاذ الدكتور حسين مؤنس فى مجلة كلية الآداب [٢] ، وفى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد[٣] ،

---

(١) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس - منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ، نشر ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧م .

(٢) حسين مؤنس ، "الثغر الأعلى الأندلسى فى عصر المرابطين مع أربع وثائق جديدة" ، مجلة كلية الآداب، جامعة فؤاد الأول ، المجلد الحادى عشر ، الجزء الثانى ، ديسمبر ١٩٤٩م .

(٣) حسين مؤنس ، "سبع وثائق جديده عن دولة المرابطين" ، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ، المجلد الثانى ، العدد ١ - ٢ ، ١٣٧٣هـ /١٩٥٤م .

كما قام الأستاذ الدكتور / محمود على مكى بنشر مجموعة أخرى من هذه الوثائق فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد[١] . ثم قام الأستاذ محمد عبد الله عنان بنشر هذه الوثائق فى كتابه "عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس"[٢] . وقد صورت بعض هذه الوثائق تفاصيل معركة أقليش ، ومأساة أهل سرقسطة من الحصار الأرغونى - الفرنجى ، واستنجادهم بالأمير أبى الطاهر تميم بن يوسف وحثه على سرعة إنقاذهم ، كما سجلت هزيمة المرابطين فى موقعة القلعة عام ٥٢٣هـ/١١٢٩م ، أمام الملك ألفونسو المحارب ، كما سجلت محاولة الملك ألفونسو المحارب للاستيلاء على بلنسية ، وحصاره لثغر بلنسية ، بعد انتصاره فى موقعة القلعة ، وتصور الوثيقة الخوف والفزع الذى أصاب أهل بلنسية .

أما إذا انتقلنا إلى المراجع الأجنبية التى أفادت موضوع البحث فأهمها ما كتبه خوسيه ماريا لاكارا فى كتابه عن ألفونسو المحارب[٣] ، ويقع هذا الكتاب فى حوالى مائة وإحدى وثلاثون صفحة من القطع الصغير ، وقد خصص حوالى نصف هذا الكتاب للمراحل الأولى من حياة ألفونسو وتوليه عرش مملكة أرغون ونبره ، وزواجه بالملكة أوراكا ، والنزاع لذى قام بين الزوجين ، وما أعقب ذلك من الحروب الأهلية حتى طلاق ألفونسو المحارب لزوجته ، ثم وفاتها ، وتعرض الكاتب لعلاقة ألفونسو المحارب مع ألفونسو السابع القشتالى ، وتناول أيضا علاقة ألفونسو المحارب بالأشراف والأساقفة والبابوية . أما النصف الآخر من الكتاب فقد تناول فيه الكاتب علاقة ألفونسو المحارب بمسلمى الثغر الأعلى ، وأشار إلى موقعة كتندة وحملة ألفونسو المحارب على شرق وجنوب الأندلس ، ومعركة إفراغة ، كما تناول تأسيس ألفونسو المحارب لجماعة الفرسان الحربية الدينية فى مدينة بلشر Belchite ، واهتمامه بالنظام الكنسى فى وادى إبره ، وخصص الكاتب بقية صفحات الكتاب للمقدمة والفهرس وبيان بأهم المصادر والمراجع التى رجع إليها ، إذ إعتمد على المصادر الأجنبية بالإضافة إلى

---

(١) محمود على مكى ، وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، المجلدان السابع والثامن ، مدريد ٥٩/ ١٩٦٠م .

(٢) محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس ، القسم الأول عصر المرابطين ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م .

(٣) Lacarra, Alfonso el Batallador, Zaragoza, 1978 .

بعض المصادر العربية من أهمها ما كتبه ابن القطان وابن سماك المالقى وابن الأثير ، ويتصف المؤلف بالتزام الحيدة التامة ، وقدم لنا مادة مفيدة غطت جانبا هاما من موضوع البحث ، كما استفادنا من المصادر والمراجع التى رجع إليها ، وأن الكتاب يخلو من أى خريطة ، أو أشكال أو جداول زمنية .

وللمؤرخ مقالة كتبها فى مجلة الأندلس بعنوان "فتح سرقسطة بواسطة ألفونسو الأول"(١)، تناول فيها أطماع ملوك أرغون فى مدينة سرقسطة حتى حصار ألفونسو المحارب للمدينة بمساعدة الفرنجة ، ومحاولات المرابطين لإنقاذ سرقسطة حتى استسلام المدينة لألفونسو المحارب. وقد اعتمد على المصادر الأجنبية والمصادر العربية أهمها ما كتبه ابن الكردبوس ، وابن أبى زرع .

بالإضافة إلى ذلك للمؤلف كتاب آخر بعنوان "التاريخ السياسى لملكة نبرة"(٢) ، وهو ثلاثة أجزاء ، يهمنا منه الجزء الأول الذى تناول فيه تاريخ مملكة نبرة ، وتعرض لتاريخ أرغون منذ اتحادها مع نبرة عام ١٠٧٦ حتى وفاة ألفونسو المحارب وانفصال مملكة نبرة عن أرغون عام ١١٣٤م . ويلاحظ على ماكتبه لاكارا فى هذا الكتاب أنه لم يأت فيه بجديد ، غير أنه أضاف اليه بعض الصور وخريطة لوادى إبره ، كما يلاحظ أن ماورد فى مؤلفات لاكارا يغلب عليها طابع التكرار ، وبالرغم من ذلك فإن ماكتبه عن مملكة أرغون أفاد البحث كثيرا ، ولاننكر جهوده فى مجال هذه الدراسة عن مملكة أرغون .

وهناك بعض المؤلفات التى خدمت جانبا من هذا البحث من أهمها ما كتبه فرانسيسكو خابير سيمونيت Francisco Javier Simonet عن حملة ألفونسو المحارب على شرق وجنوب الأندلس فى كتابه "تاريخ مستعربين أسبانيا"(٣) ، وقد أمدنا سيمونيت بمعلومات وافرة عن المستعربين ، وموقفهم من الحكومة الإسلامية ، واستدعاء مستعربى غرناطة لألفونسو

---

(١) Lacarra, La Conquista de Zaragoza por Alfonso I, Al-Andalus - Revista, Madrid-Granada, Vol.XII, 1947, pp. 65-96 .

(٢) Lacarra, Historia Politica del Rino de Navarra, Volumen Primero, Editorial Aranzadi, 1972.

(٣) Simonet, F.J., Historia de Los Mozarabes de Eapana. Madrid, 1897-1903 .

المحارب، وتعرض لأحداث الحملة منذ خروجها حتى عودتها إلى أرغون ، والامتيازات التى منحها ألفونسو المحارب للمستعربين .

ويلاحظ على كتابات سيمونيت أنها تتسم بصفة عامة بطابع احقد والتعصب ضد المسلمين، ويتهم المرابطين بالتعصب الدينى .

بالإضافة إلى ذلك ، فهناك مؤلفات عديدة من كتب المحدثين تناولت تاريخ أسبانيا بصفة عامة ، أهمها ما كتبة أنطونيو بايستيروس ويرتا Antonio Ballesteros Y Beretta [١]، ويطره أجواد وبلاى Pedro Aguado Bleye ، ولويس سوارث فرنانديز Luis Suarez Fernandez[٢] ، ولويس دى بالديابيانو Luis G.de Valdeavellano[٣] ، بالإضافة إلى ذلك، هناك العديد من المراجع الأجنبية والأبحاث التاريخية والتى أفادت بعض زوايا البحث .

أما بالنسبة للمراجع العربية ، فإن الكتب التى صدرت بالعربية عن تاريخ الأندلس ، لاتكاد تذكر بصفة عامة دور مملكة أرغون فى العصور الوسطى إلا فى أسطر أو صفحات قليلة ، لاتبرز أهمية أرغون فى تلك الفترة موضوع البحث . وأهم هذه المراجع ما كتبه الأستاذ محمد عبد الله عنان عن تاريخ المرابطين والموحدين فى كتابه "عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس" وقد تناول بإسهاب قيام دولة المرابطين حتى سقوطها ، ومن خلال ذلك تعرض للعلاقة بين ألفونسو المحارب والمرابطين ، كما خصص فصلا فى الكتاب تناول فيه بإيجاز تاريخ الممالك النصرانية فى أسبانيا أشار فيه إلى زواج ألفونسو المحارب من أوراكا ملكة قشتالة والنزاع بين الزوجين . وترجع أهمية هذا الكتاب إلى أن مؤلفه رجع إلى المصادر والنصوص العربية سواء كانت مطبوعة أو مخطوطة ، كما رجع إلى بعض المؤلفات الأجنبية .

وهناك أيضا كتاب يوسف أشباخ عن "تاريخ المغرب والأندلس فى عهد المرابطين والموحدين"[٤] ، والذى قام بترجمته الأستاذ محمد عبد الله عنان . يضاف إلى ذلك ما كتبه

---

(١) Ballesteros Y Beretta, Historia de Espana Y Su Influencia en la Historia Universal. Tomo II, Barcelona, 1944 .

(٢) Fernandez, Historia de Espane Antigua Y Media, Madrid, 1976 .

(٣) Valdeavellano, Historia de Espana antigua Y medieval, Madrid, 1988 .

(٤) أشباخ ، تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة محمد عبد الله عنان ، الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م .

الأستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم فى كتاب" المغرب الكبير"[١] ، وكتاب "تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس"[٢] . والمقالات التى كتبها فى "دائرة معارف الشعب"[٣] عن الأندلس وتاريخ المدن الأندلسية الإسلامية حتى سقوطها فى يد النصارى ، وقد زود هذه المقالات بالخرائط والصور التوضيحية ، وكتاب "قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس"[٤]، أما بقية المراجع الأخرى التى تناولت تاريخ الأندلس فهى ما كتبه الأستاذ الدكتور عبد الحميد العبادى فى كتاب" المجمل فى تاريخ الأندلس"[٥] والأستاذ الدكتور أحمد مختار العبادى فى كتاب "فى تاريخ المغرب والأندلس"[٦] ، والأستاذ الدكتور حسين مؤنس فى كتاب "فجر الأندلس"[٧] . وعلى الرغم من أن بعض هذه المراجع لم تتعرض للفترة التاريخية موضوع البحث إلا فى بضعة أسطر ، وبعضها لم يشر إليها إطلاقا ، إلا أن لها قيمتها فى تاريخ الأندلس ، وفيها الكثير من المعلومات التى تفيد فى دراسة تاريخ الأندلس لكل دارس .

ومن جملة هذه المصادر والمراجع وغيرها التى وردت فى قائمة المصادر والمراجع ، ألمت الباحثة إلماماً كبيرا بتاريخ الأندلس بصفة عامة ، وتاريخ مملكة أرغون فى عهد ألفونسو المحارب بصفة خاصة ، والتى تتضح أهميتها من خلال هذا البحث .

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، "المغرب الكبير" - العصر الإسلامى ، اسكندرية ، ١٩٦٦م .

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، اسكندرية ١٩٦١م .

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، دائرة معارف الشعب ، العدد ٦١ ، ٦٧ ، مطابع الشعب ، ١٩٥٩م .

(٤) السيد عبد العزيز سالم ، قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس ، جزءين اسكندرية ١٩٨٤م .

(٥) عبد الحميد العبادى ، المجمل فى تاريخ الأندلس ، الطبعة الأولى ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٨م .

(٦) أحمد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والأندلس ، اسكندرية ، (د.ت) .

(٧) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، الطبعة الثانية ، جدة ، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

الفصل الأول

الأحوال السياسية لمملكة أرغون منذ قيامها حتى بداية عهد ألفونسو الأول "المحارب" ١٠٣٥-١١٠٤م/٤٢٦-٤٩٨هـ

١- الوصف الجغرافي لأرغون .

٢- مملكة أرغون منذ قيامها حتى نهاية عهد الملك راميرو الأول "ردمير" (١٠٣٥-١٠٦٣م/٤٢٦-٤٥٥هـ) .

٣- سياسة الاسترداد وأثرها في اتساع مملكة أرغون في عهد الملك سانشو راميرث "شانجه بن ردمير" (١٠٦٣-١٠٩٤م/٤٥٥-٤٨٧هـ) .

٤- الزحف الأرغوني في الثغر الأعلى في عهد الملك بطره الأول "ابن ردمير" (١٠٩٤-١١٠٤م/٤٨٧-٤٩٨هـ) .

اشتق اسم أرغون من نهر أرغون ، الذي ينبع من وادي كانفرانس Canfranc ، وينحدر من جبال البرتات[1]، ويصب في نهر إبره[2] ، فأسمى واديه الأعلى باسمه الذي سرى فيما بعد

---

(١) جبال البرتات أو البرنيه Pyrenées : هي الجبال الفاصلة بين فرنسا وأسبانيا ، وتتخللها ممرات ومضايق تصل بين البلدين وأسماها العرب "جبال البرانس" . أي أبواب الجبال ومنافذها التي مر العرب منها لاقتحام أرض فرنسا . وقد أطلق عليها البكري اسم "الحاجز" ، بينما أطلق عليها المراكشي "جبل هيكل الزهرة" . وكان لفظ البرتات يطلق على كورة كبيرة من أعمالها طركونة وطرطوشة وبرشلونة .

البكري : جغرافية الأندلس وأوروبا من كتاب المسالك والممالك ، تحقيق عبد الرحمن على الحجي ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م ، ص ٨٥ ؛ المراكشي تاريخ الأندلس المسمى "بالمعجب في تلخيص أخبار المغرب" ، القاهرة ١٣٢٤هـ ، ص ٤ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، القاهرة ١٩٠٦ ، المجلد الأول ص ٣٧٨ ؛ سيبولد ، دائرة المعارف الإسلامية ، مادة الأندلس ، المجلد الثالث ، ص ٣٩ ، حاشية ١٣ .

(٢) نهر إبره Ebro : يخرج من عين فوق أرض القلاع يقال لها فونت إيبو Fontibre وهي من جبال كانتبريان أحد منحدرات البرنيه الجنوبية ، وهي منطقة غزيرة المطر ، ويأخذ النهر مجراه من الشمال إلى الجنوب الشرقي ، ليصب في البحر المتوسط بناحية طرطوشة .

Levi - Provencal (E.) La Description de l'Espagne D'Ahmed Al-razi, Al-Andalus, V. XVIII, 1953, P. 53 .

على الأراضى الفسيحة والولايات الكبيرة التى انضمت إلى هذا الوادى ، وتألفت منها مملكة أرغون[١] .

وقد رسم العرب كلمة "Aragon" على وجهين ، الأول بالجيم "أرجون" ، والثانى بالغين "أرغون" . وأحيانا حذفت من هذا الرسم الأخير واوه فيكتب "أرغن" . وهناك تشابه لفظى بين أرغون وأرجونة Arjona ، فأرجونه مدينة تقع ناحية جيان Jean فى النصف الجنوبى من أسبانيا[٢]، أما أرغون فتقع فى أقصى النصف الشمالى من أسبانيا إذ تتصل حدودها الشمالية بجبال البرتات[٣] . يجاورها إقليم سرقسطة من الجنوب ، وبليارش Pallars [٤] وأورقلة Urgel وشرطانية Cerdana من الشرق ، ونبرة من الغرب .

كانت أرغون إقليما صغيرا ذا أهمية ، وأصبحت مدينة جاقة Jaca[٥] المركز الرئيسى له، إذ تحكمت فى طريق سرقسطة إلى غالة Galia ، من خلال ممر كانفرانس أو سمبورت Somport [٦] .

---

(١) سيبولد ، دائرة المعارف الإسلامية ، مادة الأندلس ، المجلد الثالث ، ص ٣٧ ، هـ٨ .

(٢) المراد بلفظ أسبانيا شبه جزيرة أيبيريا بوجه عام بما فى ذلك الأراضى الإسلامية والمسيحية على السواء وهناك أسبانيا الإسلامية أو الأندلس وهناك أسبانيا المسيحيه . أحمد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص٢١ .

(٣) سيبولد ، دائرة المعارف الإسلامية ، مادة الأندلس ، المجلد الثالث ، ص ٣٧ ، هـ ٨ .

انظر خريطة رقم (١) .

(٤) بلبارش Pallars : ولاية صغيرة جنوب البرتات ، فى الشمال الشرقى من أسبانيا ، تقع بين قطالونيا وأرغون ، وكانت تابعة لمملكة شارلمان ، ثم استقلت ثم ضمت إلى نبرة فى عهد الملك سانشو العظيم.

العذرى ، توصيع الأخبار وتنويع الآثار ، تحقيق عبد العزيز الأهوانى ، مدريد ١٩٦٥ ، حاشية ص ١٥٨.

(٥) جاقة Jaca : مدينة تقع فى الشمال الغربى من مقاطعة وشقة ، جنوبى وادى كانفرانس ، بالقرب من نهر أرغون . D.H.E., t. II, p. 87

(٦) Aguado Bleye, Manuel de Historia de Espana, Madird, 1947 , t. I, p. 502 .

وعرفت أرغون فى الرواية العربية بالثغر[1] الأعلى La Marca Superior للأندلس ، وقت سيادة المسلمين عليها ، منذ عام ٧١٤م/٩٤هـ حتى النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى / السادس الهجرى ، والذى كان يدل على كل حوض الإبره حتى جبال البرتات ، وكان لهذا الإقليم أهمية كبرى ، إذ يمثل قمة الدفاع عن الأندلس[2] .

وولاية الثغر الأعلى فى الجغرافية الأندلسية هى ولاية الحدود الشمالية الشرقية للأندلس ، وتشغل المنطقة الواسعة الخصبة التى يخترقها نهر إبره من مصبه عند مدينة طرطوشة[3]، حتى مدخله عند مدينة قلهرة Calahorra [4] فى ولاية نبرة ، ويخترقها فرعه الشمالى الكبير

---

(١) الثغر : جمعها ثغور ، وهو كل موضع قريب من أرض العدو ، ومأخوذ من الثغرة وهى الفرجة فى الحائط . وقد استعمل المسلمون اصطلاح الثغور للدلالة على حدودهم المجاورة للنصارى ، وكانت بمثابة قواعد عسكرية وخطوط دفاعية ضد أى هجوم يقع عليها من النصارى . وقد استغل المسلمون طبيعة أسبانيا الجبلية فى تكوين شبكة دفاعية قوية ، فجعلوا من سلاسل الجبال ووديان الأنهار التى تقطعها من الشرق إلى الغرب أو العكس خطوطا دفاعية ضد أى هجوم يقع عليها من النصارى فى الشمال . فقامت على هذه الوديان مدن هامة كانت بمثابة قواعد عسكرية لهذه الخطوط . وكانت مدينة سرقسطة مركزا للخط الدفاعى الأول فى الشمال وهو نهر إبره ، ولهذا كانت تسمى بالثغر الأعلى المواجه لمملكة نبرة وأرغون وقطلونية . وفى الوسط مدينة سالم على نهر دويره ، وكانت قاعدة الثغر الأوسط ضد قشتالة ، وتليها جنوبا مدينة طليطلة التى تقع على نهر التاجه ، ولذا سميت بالثغر الأدنى . ياقوت ، معجم البلدان ، المجلد الأول : جـ٢ ، ص ٩٢٧ ؛ أحمد مختار العبادى فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص٢١ - ٢٢ .

(٢) Maria. J. Viguera. Aragon Musulmana. Zaragoza. 1981. p. 9 .

(٣) طرطوشة Tortosa : تقع على سفح جبل ، بالقرب من ساحل البحر المتوسط عند مصب نهر إبره ، ولها سور حصين ، وبها أسواق وعمارات ودار لصناعة السفن . ومن بلنسية إلى طرطوشة مائة وعشرين ميلا، أى مسيرة أربعة أيام . ومن أهل طرطوشة الفقية الإمام الزاهد أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشى ، صاحب كتاب "سراج الملوك" والمتوفى بالإسكندرية عام ٥٢٠هـ/١١٢٦م . الحميرى صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٢٤-١٢٥ .

(٤) قلهرة Calahorra : مدينة من أعمال تطيلة فى شرقى الأندلس ، كانت محصنة أيام العرب ، وهى فى الشمال الغربى من سرقسطة . محمد الفاسى ، الأعلام الجغرافية الأندلسية ، مجلة البينة ، العدد الثالث يوليو ١٩٦٢ ، المغرب ، ص ٣٣ .

نهر شيقر Segre [١] ، والأفرع الصغيرة الممتدة منه نحو بربشتر Barbastro [٢] ووشقة ، وفرعه الجنوبى شلون حتى قلعة أيوب ودروقة[٣] . وتشمل مدن سرقسطة وتطيلة ووشقة وبربشتر ولاردة Lerida وإفراغة [٤] وطركونة Tarragona [٥] وطرطوشة . وهى تقابل فى الجغرافية الحديثة ولاية أرغون[٦] .

وأطلق على الثغر الأعلى عدة تسميات منها الثغر المتطرف أو الأقصى La Marca Extrema ، لموقعه المتطرف فى شمال الأندلس ، وبعده عن قرطبة قاعدة الحكم فى الأندلس ، وسمى أيضا بالثغر الأكبر أو الأعظم[٧] .

---

(١) نهر شيقر Segre : ينبع من الجبال وله عدة روافد تصب كلها فى نهر إبره ، وهو غير نهر شقر Jucar الذى يقع جنوبى بلنسية وتقع عليه جزيرة شقر .

Lévi-Provencal, D.E.A.R., pp. 23-24 .

(٢) بربشتر Barbastro : تقع على نهر بيرو Vero أحد فروع نهر إبره ، بين مدينتى لاردة وسرقسطة، وهى قصبة بلد بربطانية وموقعها الجغرافى جعل لها أهمية استراتيجية كبيرة ، فهى من أمهات مدن الثغر الفائقة فى الحصانة والامتناع . Léva - Provencal, D.E.A.R., P. 25 ; البكرى ، جغرافية الأندلس وأوروبا ، ص ٩٢ .

(٣) دروقة Daroca مدينة قديمة فى سفح جبل جنوب قلعة أيوب ، بينهما ثمانية عشر ميلا ، وهى كثيرة البساتين والكروم . الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص٧٦ - ٧٧ .

(٤) إفراغة Fraga : مدينة تقع على نهر الزيتون ، غربى لاردة بينهما ثمانية عشر ميلا ، لها حصن منيع وبساتين كثيرة . الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٢٤ .

(٥) طركونة Tarragona : مدينة قديمة على ساحل البحر المتوسط ، تتصل بمقاطعة طرطوشة ، على مقربة منها يجرى نهر علان Gallan ، ويصب شرقا إلى نهر ابره ، بها أبنية حصينة وأبراج منيعة ، وفى هذه المدينة يكمن المسلمون عند طلب الفرصة فى الغزو ، وفيها يكمن العدو أيضا للمسلمين . وتقع بين طرطوشة وبرشلونة بينها وبين كل منهما خمسون ميلا ، ومن طركونة إلى سرقسطة مائة وخمسون ميلا .

Lévi - Provancal, D.E.A.R., P. 23 ;

الحميرى ، المصدر السابق ، ص ١٢٥ - ١٢٦ .

(٦) محمد عبد الله عنان ، جغرافية الأندلس والمصطلحات الجغرافية الأندلسية ، ص ٤٠ .

(٧) Maria J.Viguera, op. cit., p. 12 .

وقد اختلفت دائرة اتساع الثغر الأعلى عند الجغرافيين العرب السابقين ، وكانت أكثر اتساعا عند أحمد الرازى ، ولكنهم أجمعوا على أن منطقة الثغر الأعلى كانت تشكل جزءاً من الأراضى الأرغونية . وحدد المراكشى مملكة أرغون بقوله : "كان بنو هود يملكون من المدن طرطوشة وأعمالها وسرقسطة وأعمالها وإفراغة ولاردة ، وقلعة أيوب وهى البلاد التى تسمى أرغن"[1] ويهمنا فى هذا الموضع أن نتناول الوصف الجغرافى لأهم مقاطعات تلك المنطقة :

وفيما يتعلق بالمنطقة الأولى وهى مقاطعة بَربطانية Barbitania (بولتانيا Boltana) : تتصل أحوازها[2] بأحواز لاردة ، على بعد ثمانين ميلا شمال لارده ، وكانت تسمى بعد ذلك شبررب Sobrarbe [3] ، وأشهر مدن تلك المنطقة بولتانيا وبربشتر وجاقة[4] . وتشكل بولتانيا إحدى المراكز الإسلامية الأمامية ، فكانت سدا بين المسلمين والنصارى ، لها مدن وحصون قوية أهمها حصن بربشتر ، والقصر Alquézar وقصر مينوقش ، والباكه[5] . أما المنطقة الثانية وهى لاردة ، كانت تقع شرقى مدينة وشقة ، فى منتصف برشلونة[6]

---

(١) عبد الواحد المراكشى ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، ص ٤٠ .

(٢) الحوز هو زمام الكورة ، أى ما يتبعها من الأرضين والبلاد ، وخطة البلد والمساحة التى تغطيها المدينة نفسها ، وما يتبع حكومتها من الأرباض والقرى . حسين مؤنس ، الجغرافية والجغرافيون فى الأندلس ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، المجلد السابع والثامن لسنة ١٩٥٩-١٩٦٠م ، ص٢٦٣ .

(٣) مقاطعة شبررب Sobrarbe : تمتد بين جبال البرتات شمالا إلى وادى خيستان Gistain وسلاسل غوارة Guara وأرب جنوبا . ومن نهر جلق Gallego غربا ، الحد الأصلى لأرغون ، إلى نهر سينكا Cinca واسيرا Esera شرقا . وفى ملتقى أنهار سينكا وآرا Ara وبروتو Broto ، تقع مدينة إينسا Ainsa عاصمة شبررب . مداخلها قليلة وصعبة ، لوعورة أرضها .

Bleye, op.cit..P. 502 .

(٤) العذرى ، توصيع الأخبار وتنويع الآثار ، تحقيق . عبد العزيز الأهوانى ، مدريد ١٩٦٥ ، ص ١٦٠.

(٥) Lévi -Provencal, D.E.A.R., P. 25 .

ياقوت معجم البلدان ، المجلد الأول جـ٢ ، ص ٥٤٤-٥٤٥ .

(٦) برشلونة Barcelona : تقع على البحر المتوسط ، بينها وبين طركونة خمسون ميلا ، عليها سور منيع ، والدخول إليها والخروج عنها إلى الأندلس على باب الجبل المسمى بهيكل الزهرة الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص٤٢ .

وسرقسطة ، فهى تبعد عن الأولى بمائة ميل ، وعن الثانية بمائة ميل أخرى(١) . وهى مدينة قديمة على نهر شيقر ، الذى يخرج من أرض جليقية ، ويصب فى نهر إبره ، ويتدفق إليه بغزارة نهر نقيرة ريباجورثا Noguera Ribagorza (٢) .

وتميزت المنطقة الممتدة من منتشون Monzon(٣) إلى مكناسة بالخصوبة ، وكثرة بساتينها ، وقد ميزها الإدريسى وسماها "إقليم الزيتون" وفيه "جاقة ولاردة ومكناسة وإفراغة" ، لارتباطها بوادى الزيتون (وادى سينكا)(٤) .

إن مقاطعة لاردة لها من المدن مدينة قربين Carabinas وهى على نهر نقيرة ريباجورثا ، ومدينة بلغير Balaguer على نهر شيقر ، ومدينة أفراغة على نهر الزيتون (نهر سينكا)(٥). ولها أسوار منيعة وحصون كثيرة ، إذ قام السكان بحفر بعض الخنادق والسراديب للحماية والامتناع فيها من العدو ، ومن أهم هذه الحصون حصن إفراغة ، وحصن قلعة سينكا Alco-lea de Cinca ومنتشون وتاماريت دى ليترا Tamarite (de Litera) ، والبيضاء - al - Bayda (Albelda) ، والمدور Almotaxon (Almudébar) ، الذى يقع على تسعة عشر ميلا من لاردة ، وعلى ثمانين ميلا من سرقسطة (٦) .

أما عن المنطقة الثالثة ، وهى مقاطعة وشقة كانت أحوازها تتصل بأحواز بربطانية ، وتقع على مسافة خمسين ميلا شمال شرقى سرقسطة ، وهى مدينة كبيرة ، وقديمة ، قد أتقن سورها وبناؤها ، وكانت تشكل المركز الأمامى والدفاعى للإقليم الشمالى الشرقى لمملكة سرقسطة ،

---

(١) Lévi - Provencal. D.E.A.R., P. 24 .

(٢) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٦٨ .

(٣) منتشون : Monzon : حصن قديم من حصون لاردة ، بينه وبين لاردة عشرة فراسخ . ياقوت ، معجم البلدان ، المجلد الرابع جـ٢ ، ص ٦٥٧ .

(٤) الإدريسى : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، ليدن ، مطبعة بريل ١٨٦٤، نشر دوزى، ص ١٧٦ .

(٥) ابن غالب الأندلسى ، فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس ، نشره لطفى عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الأول ، جـ٢ نوفمبر ١٩٥٥ ، ص ٢٨٦ .

(٦) Lévi - Provencal. D.E.A.R., pp. 23-24 .

كما أنها كانت محاطة بالأسوار القديمة . ويشق نهر بانشة Banca (نهر باسا Basa أو نهر إسويلا Isuela) مدينة وشقة ، ويسقى بفضل مائه بساتينها ، وتحيط بها حدائق من الثمار الملتفة . وتميزت وشقة بكثرة مساجدها وأسواقها كما اشتهرت بصناعة الزرود والحوذات[١] .

ولمقاطعة وشقة حصون قوية منها حصن بيطره شلج Pedroelg ، وهو حصن آهل ، وحصن عبرده، وربرش ، وحصن بلويه Bolea فى الشمال الغربى من وشقة ، بنى بمقربة من جبل أرغون Montearagon . بالإضافة إلى ذلك حصن التان ومان[٢] وهما صخرتان بينهما نهر فلومن Flumen أحد روافد الإبره ، وحصن لباته Lubata فى الشمال الشرقى من وشقة ، وحصن بشير . ومن الجبال الموازية لها الجبل المعروف بالجبل الأسود Montenegro يقطعه الفارس المغذ أي السريع في ثلاثة أيام ، وتسير القافلة فى ستة أيام . وفيها جبل غوارة Sierra de Guara – شمال شرقى وشقة – وهو جبل متصل ومنتهاه إلى البحر[٣] .

والمنطقة الرابعة وهى مقاطعة سرقسطة كانت تتصل بمدينة تطيلة وقلعة أيوب . وسرقسطة تسمية عربية لاسم القيصر الرومانى سيزر أغسطس Caesaraugusta (٣١ ق.م-١٤م) الذى أسسها عام ٢٣ ق.م على أطلال المدينة الأيبرية القديمة سلدويا Salduba وسماها باسمه ، وكان المسلمون يطلقون على سرقسطة "المدينة البيضاء" ، لكثرة جصها وجيارها ، أو لأن أسوارها القديمة كانت من الرخام الأبيض[٤] .

ومدينة سرقسطة على الضفة اليمنى لنهر إبره ، وهى كبيرة آهله واسعة الشوارع ، متصلة الجنات والبساتين ، لها سهول واسعة ، إذ بنيت فى وسط خمسة أنهار منها : نهر إبره ،

---

(١) العذرى ، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار ، ص ٥٥ ؛ الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ص ١٩٤-١٩٥ .

(٢) حصن التان Sen ومان Men ، المراد بهما .

Las Penas de San Miguel Y Aman

وهما على بعد خمسة عشر ك.م شمالي وشقة ويعرفان اليوم باسم Salto de Roldan العذرى ، ترصيع الأخبار ، حاشية ص ١٦٢ .

(٣) Lévi - Provencal. D.E.A.R., pp. 25 - 26 :

العذرى ، ترصيع الأخبار ، ص ٥٥-٥٦ .

(٤) السيد عبد العزيز سالم ، سرقسطة ، دائرة معارف الشعب ، العدد ٦١ سنة ١٩٥٩ ، ص٥٤ ، ٥٦.

وهو لاصق بسور سرقسطة ، ونهر جلق[١]، ونهر شلون الذى عليه مدينة سالم -Medi naceli[٢] ، ومدينة قلعة أيوب ، ونهر وربه Huerva المعروف بيلطش Plcitas وهو آخذ من الغرب إلى الشرق ، محدقا بجنبات سور المدينة القبلى ، ونهر فنتش Fuentes وهو آخذ أيضا من الغرب إلى الشرق . وتتميز سرقسطة بجودة أرضها ووفرة محاصيلها[٣] .

وكانت سرقسطة تحتفظ فى العهد الإسلامى بتخطيطها الرومانى القديم ، إذ كانت تتخذ شكلا مستطيلا تحيط به أسوار ضخمة . ويخترق المدينة طولا وعرضا طريقان مستقيمان يتقاطعان عموديا على شكل الصليب ، ويؤدى هذان الطريقان المتعامدان فى الجوانب الأربعة لسور المدينة إلى أربعة أبواب . وكان باب المدينة الشمالى يعرف "بباب القنطرة" ، إذ كان هناك جسر عظيم مقام على نهر إبره يجاز عليه إلى المدينة ، وفى الشرق "باب بلنسيه" ، ويتجه نحو الجنوب الشرقى ، وسمى أيضا بباب القبلة وفى الجنوب باب صنهاجه : والباب الغربى يعرف "بباب طليطلة ، وكان ينفتح فى السور الغربى للمدينة "باب اليهود"[٤] . ويلاحظ أن أسماء هذه الأبواب ذكرت باتجاهاتها الجغرافية .

وعلاوة على ذلك ، كانت هناك الأحياء ، منها حى الدباغين وحى اليهود ، وحى المستعربين أو النصارى . كما كان هناك قصر[٥] السدة La Zuda ، الذى كان قائما بالقرب

---

(١) جلق Gallego : نهر ينبع من جبال البرطانيين Cerdana – المنطقة التى بين فرنسا وأسبانيا – ثم يخرج إلى ناحية وشقة إلى سرقسطة ويصب فى نهر إبره .

العذرى ، ترصيع الأخبار ، ص ٢٤ .

(٢) مدينة سالم Medinaceli : تقع على نهر دويره Ducro ، شمال مدريد بنحو مائة ثلاثة وخمسين ك.م ، فى الطريق بين مدريد وسرقسطة ، وكانت قاعدة للثغر الأوسط ضد قشتالة ، وهى الآن من أعمال مقاطعة سرية Soria ، ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ووصفه لابن الشباط ، تحقيق . أحمد مختار العبادى، معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٧١ ، ص ٦٠ حاشية ١ .

(٣) العذرى ، ترصيع الأخبار ، ص ٢٢ .

(٤) السيد عبد العزيز سالم ، سرقسطة ، دائرة معارف الشعب ، العدد ٦١ ، ص٥٦-٥٧ ؛

Maria J. Viguera, op. cit., P. 23 .

(٥) القصر : لفظ لاتينى معرب من كاسترا Castra ومعناه القلعة وكانت تطلق أيام الرومان على القلعة الكبيرة التى تضم بيت الحاكم العسكرى ومساكن جنده ، فكانت قلعة وقصرا فى أن واحد . وقد احتفظ اللفظ فى المغرب والأندلس بهذا المعنى المزدوج للفظ ، وبهذا المعنى دخل اللفظ فى اللغة الأسبانية "الكاثار Alcazar ، حسين مؤنس رحلة الأندلس ، الطبعة الثالثه ، جده ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨ ، ص ٢٥٧-٢٥٨ .

من النهر فى الركن الشمالى الغربى من المدينة ، وكان له سور حصين حيث أنه مقر السلطة الحاكمة . وخارج سور المدينة فى الطرف الغربى ، بنى قصر الجعفرية Aljaferia فى عهد أبى جعفر أحمد بن هود الملقب بالمقتدر بالله (١٠٤٦-١٠٨٢م/٤٣٨-٤٧٥هـ)(١) - أشهر ملوك الطوائف فى سرقسطة - وهذا القصر كان آية من آيات الجمال المعمارى ، فقد كان يسمى بقصر السرور ، وهو قصر وحصن فى آن واحد(٢) .

بالإضافة إلى ذلك ، كان يوجد فى سرقسطة بعض الحصون أهمها حصن الكانيس Alca-niz الذى يطابق الآن المدينة الواقعة فى مقاطعة تيرول Teruel ، وحصن بركليز Burqulis وكاسب Caspe ، وكلندا Calanda ، وأيضا حصن روطه Rueda(٣) على نهر شلون : وحصن المنارة Almenara ، ومونت يانه Montanana ، وبيطره Piedra وحصن وارسا Orosa ، وهو حصن قوى يقع على جبل ، وحصن زناته وركله(٤) .

---

(١) أبو جعفر أحمد بن سليمان بن هود الملقب بالمقتدر (١٠٤٦-١٠٨٢م/ ٤٣٨-٤٧٥هـ) ورث مملكة سرقسطة بعد وفاة أبيه سليمان بن هود ، وقد استطاع أن يحتال على ثلاثة من أخوته ، وضم أملاكهم وسجنهم ، فيما عدا أخاه يوسف صاحب لاردة الملقب بحسام الدولة وبالمظفر ، الذى استطاع أن يحمى ولايته، ووقعت الحرب الأهلية بين أحمد بن هود وأخيه يوسف واستعان كلاهما بملك أرغون - والمعروف فى المصادر العربية بإبن ردمير - حتى ضعف أمر يوسف . وقد اتسعت مملكة سرقسطة فى عهد المقتدر ، إذ استحوذ على مدينة طرطوشة عام ١٠٦٠م/٤٥٢هـ ، وضم مدينة دانيه عام ١٠٧٦م /٤٦٨هـ ، كما استولى على لاردة بعد أن هزم يوسف وألزمه البقاء فى قصبة منتشون حوالى عام ١٠٧٩م/٤٧٢هـ ، واستمر يوسف فى إعتقاله حتى توفى عام ١٠٨٢م / ٤٧٥هـ ، وفرض المقتدر على رعبته ضريبة مال للروم ، واستطاع أن يوحد ولايات الثغر الأعلى .

ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٣ ، ص٢٢٢ - ٢٢٤ ، ٢٢٨ ، ٢٥٠ ، ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٧١ ، عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٢٨٠-٢٨١ .

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، سرقسطة ، دائرة معارف الشعب ، العدد ٦١ ، ص ٥٧ ؛

Maria Viguera, op. cit., p. 23 .

(٣) روطة نهر شلون Rueda de Jalon : أحد المعاقل الحصينة فى سرقسطة ، تقع غربى سرقسطة على الضفة اليسرى لنهر شلون أحد أفرع نهر إبره الجنوبية ، ويسميها ابن الأبار بروطة اليهود ، وهى الآن تابعة لمديرية وشقة . ابن الأبار ، الحلة السيراء ، حققه : حسين مؤنس ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٦٣م ، جـ٢ ، ص٢٤٦ حاشية ٢ .

(٤) Maria Viguera, op. cit., pp. 20 - 21 .

وفي العصر الإسلامي ، كانت سرقسطة عاصمة الثغر الأعلى ، ومقر الحاكم ، ومازالت حتى الآن حاضرة مقاطعة أرغون[١] ، فقد توسطت مدن الثغر الأعلى ، وهي باب من الجهات كلها ، فمنها إلى لاردة مائة وعشرون ميلا ، وإلى مدينة وشقة أربعون ميلا ، ومنها إلى تطيلة خمسون ميلا ، وبينها وبين طرطوشة مائة وعشرون ميلا [٢] .

والمقاطعة الخامسة وهي قلعة أيوب وكانت تقع جنوب غربي سرقسطة على وادي شلون ، أسسها أيوب بن حبيب اللخمي حاكم الأندلس عام ٧١٦م/٩٧هـ . وهي مدينة واسعة حصينة، شديدة المنعة ، بها عدد من الحصون منها حصن مالوندا Maluenda وسوميت Sumet ، ودروقة . ومدينة قلعة أيوب كثيرة الثمار والأشجار كثيرة الخصب ، ومنها إلى سوميت عشرون ميلا ، وبين قلعة أيوب ومدينة سالم خمسون ميلا ، ومن قلعة أيوب إلى سرقسطة خمسون ميلا أيضا[٣] .

والمقاطعة السادسة وهي تطيلة ، كانت تشكل جزءا أساسيا من الثغر الأعلى وتتبع الآن محافظة نبرة ، وتقع على الضفة اليمنى لنهر إبره ، وعلى الضفة اليسرى لنهر كالش Queiles أحد روافد نهر إبره ، وتقع على بعد خمسين ميلا جهة الشمال الغربي من سرقسطة . وتتميز بكثرة الثمار والأنهار ، وهي أقصى ثغور المسلمين وباب من الأبواب التي يدخل منها إلى أرض النصارى[٤] .

ومن كبار مدائنها طرسونة التي تبعد بنحو إثنى عشر ميلا إلى جنوب غربي تطيلة ، وكانت مستقر الحكام والقواد في منطقة الثغور ، بفضل بقعتها واتساع خطتها[٥] .

---

(١) السيد عبد العزيز سالم ، سرقسطة ، دائرة معارف الشعب ، عدد ٦١ ، ص ٥٤ .

(٢) العذري ، ترصيع الأخبار ، ص ٢٥ ، الإدريسي ، صفة المغرب والأندلس ، ص ١٩٠ .

(٣) Lévi - Provencal, D.E.A.R., pp. 28-29 .

الإدريسي ، صفة المغرب والأندلس ، ص ١٨٩ .

(٤) ابن غالب الأندلسي ، فرحة الأنفس ، ص٢٨٧ ، ليفي بروفنسال ، دائرة المعارف الإسلامية ، مادة تطيلة ، المجلد الخامس ، ص ٣٠٢ .

(٥) الحميري ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٢٣ .

ولإقليم تطيله مدن وحصون كثيرة ، خاصة أرنيط Arnedo [١] التى كانت درعا للمسلمين من النصارى . وهناك أيضا مدينة قلهرة وناجرة Nejera[٢] وبقيرة Viguera ، التى لها حصن فى غاية المنعة على ضفة نهر يفصل بينها وبين الجبل المطل عليها . ومن تطيلة إلى سرقسطة خمسون ميلا ، وإلى قلعة أيوب خمسة وعشرون ميلا ، وإلى قلهرة اثنى عشر ميلا ، وإلى ناجرة خمسون ميلا ، وإلى بقيرة ثلاثة وثلاثون ميلا[٣] .

أما مقاطعة باروسا Barusa فقد كانت تشكل الحدود مع الثغر الأوسط ، وهى تقع قرب شنتبرية Santaver [٤]، ومجاورة لمدينة سالم ، فى وسط منطقة كانت خالية من السكان ، للمدينة سهول واسعة وحصون قوية ، منها حصن بطره Pedro الذى يقع على نهر بيطره Piedra ، وحصن مولينة Molina ، ومن مولينة إلى سرقسطة مائة ميل[٥] .

وهكذا نرى مما تقدم أن منطقة الثغر الأعلى التى تقع فى الشمال الشرقى من الأندلس طبقا لما حدوده الجغرافيون العرب جميعا هى اليوم تطابق الأراضى الأرغونية . وبعد أن انتهينا من الوصف الجغرافى للثغر الأعلى نلقى الضوء على الوصف التفصيلى الجغرافى لمملكة أرغون .

ونبدأ بالحديث عن سلاسل جبال البرتات التى تمتد شمال أرغون وتتميز بوجود الممرات الطبيعية التى تصل أسبانيا بأوربا . فالمنطقة الواقعة من البرتات بين منابع نهر شيقر

---

(١) أرنيط Arnedo : من أعمال تطيله ، بينهما ثلاثون ميلا ، وهى قلعة عظيمة منيعة كانت تطل على أرض العدو ، إذ كانت تتاخم الولايات النصرانية فى أقصى شمال أسبانيا . الحميرى ، نفسه ، ص ١٤؛ محمد الفاسى ، الأعلام الجغرافية ، ص ١٩ - ٢٠ .

(٢) ناجرة Najera : مدينة تقع على الضفة اليسرى لنهر ناجرية Najerilla ، فى شمال مقاطعة لوجرونيو Logrono . D.H.E., t. I, p. 611

(٣) Lévi - Provencal, D.E.A.R., PP. 26-27 :

حسين مؤنس ، الجغرافية والجغرافيون فى الأندلس ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، المجلد السابع والثامن ٥٩--١٩٦ ، ص٢٦٥-٢٦٦ .

(٤) شنتبرية أو شنت برية Santaver : تقع شمال شرقى طليطلة على مسافة سبعين ميلا ، وبالقرب من منابع نهر التاجه Tajo ، ومن أهم حصونها قلعة أقليش . ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، تحقيق . مختار العبادى ، ص ٨٠ حاشية ٣ .

(٥) Lévi - Provencal, D.E.A.R., P. 29 .

من جهة الشرق ، ومنابع نهر أرغون من جهة الغرب ، شاهقة الارتفاع وتميل إلى الوعورة والانحدار، وتبدو أكثر انحدارا على الجانب المواجه لأسبانيا عن الجانب المواجه لفرنسا . ويضيق اتساع البرتات فى غرب تلك المنطقة ، كما يقل ارتفاعه ، مما هيأ ذلك فرصا كبرى لاجتيازها . ومن أهم الممرات ممر رونشفالة Roncesvalles ، الذى يسميه العرب باب الشزرى ، الا أن أهمية هذا الممر قد قلت لكثرة تعرجاته . ويتخلل هذه السلاسل الجبلية وديان ضيقة وعميقة كونتها بعض منابع روافد نهر إبره ، مثل وادى أنسو Anso ، وإتشو Hecho وبروتو Broto ، وكانفرانس ، وتينا Tena . ومع هذه المناعة الطبيعية تولد لدى السكان إحساس قوى بالاستقلال[١] .

وقد شكلت مقاطعة شبربرب وريباجورثا Ribagorza[٢] ، الجزء الشرقى من البرتات ، وهو أكثر ارتفاعا ووعورة ، كما تتخلله بعض الأودية ، وفى منتصف المجرى الذى بين سينكا ونقيرة ريباجورثا يزرع الزيتون والكروم والحبوب والذرة[٣] .

وهناك منخفض يعرف باسم حوض أرغون أو حوض وادى إبره ، وهو غير مستو ، وتحيط به المرتفعات فى معظم جوانبه ، ولذلك فهو معزول عن التأثيرات البحرية ، ويتميز مناخه بالجفاف ، ويجرى خلاله نهر إبره . يتميز حوض أرغون بكثرة مياهه التى تصله من نهر إبره وروافده التى تنبع من جبال البرتات ، وأهمها نهر أرغون ، وجلق ، وسينكا ، وشلوقه وشلون وشيقر وأرجا[٤] .

---

(١) ابراهيم شريف ، أوروبا دراسة إقليمية لدول أشباه الجزر الجنوبية ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، اسكندرية ١٩٦٠ ، ص ٢٧٣ .

Enciclopedia de la Cultura Espanola, Madrid, 1963, t. 1, pp. 408-409 .

(٢) ريباجورثا Ribagorza : إحدى مقاطعات البرتات ، تمتد عبر طريق مفتوح من الشمال إلى الجنوب ، يجرى بها نهر إسيرا ، الذى تقع عليه مدينة جرادوس Graus وفرعه إسابينا Isabena ، الذى تقع عليه مدينة رودا Roda ، كما يجرى بها نهر نقيرة ريباجورثا . ومن أهم مدنها رودا وهى مركزا أسقفى قديم ، وفى جنوبها مدينة بناباره Benabarre . Bleye, op. cit., p. 503

(٣) E.C.E., t. I, p. 409 .

(٤) محمود جلال الدين الجمل ، أوربا فى مجرى التاريخ ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٩ ، ص ٤٩٦ .

E.C.E., t., I, P. 409 .

أما المنطقة الممتدة جنوب نهر إبره من قلعة أيوب إلى دروقة فهى تميل إلى الانخفاض مع وجود سلاسل جبلية جانبية ، تتخللها أودية طولية ، وقد خصصت المناطق المرتفعة للمراعى ، أما الأودية فللزراعة بخاصة وادى شلون[١] .

ويسود أرغون مناخ البحر المتوسط ، إذ تقع فى نطاق المنطقة المعتدلة الشمالية ، ولكنه يميل إلى المناخ القارى أكثر من ميله إلى مناخ البحر المتوسط ، فالشتاء أشد برودة والصيف أشد حرارة ، ويرجع ذلك إلى الارتفاع وإحاطة أرغون بالسلاسل الجبلية التى تعزلها عن المؤثرات البحرية ، وتسقط على أرغون أمطار قليلة فى فصل الشتاء بتأثير الرياح الغربية العكسية ، وتتناقص كمية الأمطار بالاتجاه نحو الداخل ، وتكون أقل ما تكون فى حوض أرغون ، ولذلك فإن الزراعة تعتمد على الرى[٢] .

ومما تقدم يتضح أن لهذه الطبيعة الجغرافية الجبلية لأرغون ، أثر كبير فى ميل سكانها إلى الاستقلال والحكم اللامركزى ، مما أدى إلى فشل المسلمين فى فرض سيطرتهم التامة على تلك المنطقة . والمهم هنا مع هذه المناعة الطبيعية التى فرضتها الظروف الطبيعية والجغرافية ، ظهرت حركة الاسترداد La Reconquista بهدف مقاومة المسلمين ، واسترداد الأراضى التى سيطروا عليها ، والتى تطورت إلى خروج المسلمين من شبه الجزيرة الأيبيرية . وبحكم الجوار الجغرافى ، كانت أرغون تجد العون والمساعدة من جنوب فرنسا ومن دير كلونى Cluny[٣] ،

---

(١) محمود جلال الدين الجمل ، المرجع نفسه ، ص ٤٨٥ . E.C.E., t. I, p. 409 ;

(٢) Encyclopedia International, New York, 1970, Vol. II, p. 511 ;

ابراهيم شريف ، أوربا ، ص ٢٦٤ ، ٢٧٥ ، محمد سامى عسل ، أوربا دراسة فى جغرافية القارة الطبيعية والبشرية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٧٥ ، ص ٢٢٢ ، ٢٥١ .

(٣) دير كلونى : يقع بالقرب من الحدود الفرنسية الألمانية على بعد عدة أميال من مدينة ماسون Macon الفرنسية . وظهرت جماعة ديركلونى فى القرن العاشر ، وانتشرت مبادئها وأديرتها فى كافة أنحاء الغرب الأوروبى ، وكثير البابوات الذين جلسوا على الكرسى البابوى فى روما ممن عاشوا وتربوا فى أديرة كلونى ، وممن تشبعوا بأرائها ومبادئها مثل جريجورى السابع (١٠٧٣-١٠٨٥م) وأوربان الثانى (١٠٨٨-١٠٩٩) . وكانت أديرة كلونى تقوم بدعاية واسعة النطاق لحث مسيحى الغرب على الذهاب إلى أسبانيا لمساعدة الدويلات المسيحية فى الشمال ضد المسلمين فى سبيل الاستيلاء على شبه الجزيرة الأيبيرية . جوزيف نسيم يوسف ، دراسات فى عصر الحروب الصليبية ، اسكندرية ١٩٧٥ ، ص ٣٧ - ٣٨ ، ص ٧٠ .

ومن البابوية مركز الحركة الصليبية فى العصور الوسطى ، والتى شجعت المحاربين المسيحيين على مواصلة القتال ضد المسلمين ، واتخذت هذه الحروب صفة الحروب المقدسة[١].

ومن هذا الوصف الجغرافى يمكن تتبع تطور حركة الاسترداد ، واتساع مملكة أرغون على حساب الممتلكات الإسلامية بعد ضعف وتفكك المسلمين ، كما يمكن أيضا معرفة طبيعة الأماكن التى دارت عليها المعارك التى نشبت بين الأرغونيين والمسلمين فى تلك المنطقة .

لعل نظرة سريعة إلى مملكة أرغون منذ قيامها وكيفية امتدادها واتساعها ، توضح لنا جانبا هاما لعلاقاتها مع جيرانها المسلمين ، والممالك المسيحية المجاورة لها ، ولذلك سوف أتعرض بإيجاز لسرد أحداث هذا الفصل دون الدخول فى التفاصيل إلا عندما تقتضى الضرورة، حتى يمكن إعطاء صورة واضحة عن سياسة الاسترداد التى نهجها ملوك أرغون تجاه الممالك الإسلامية المجاورة قبل عهد الملك ألفونسو الأول "المحارب el Batallador " .

لقد نشأت أرغون فى مأوى جبلى عند البرتات ، فى منطقة مسكونة بالبشكنس Vascones[٢] القدامى ، وكانت إقليما صغيرا وعرا ، أهلها من الرعاة والمزارعين وتعرضت لحكم الفينيقيين الذين دخلوا أسبانيا فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد ، ثم تبعهم اليونانيون فى القرن الخامس قبل الميلاد ، واستقروا على الساحل الشرقى ، ثم خضعت للقرطاجيين الذين دعاهم أقرباؤهم الفينيقيون فى أواخر القرن الخامس ق.م لمساعدتهم فى معركة ضد الأسبان الأصليين[٣] .

وعند سيطرة الرومان على شمال أسبانيا عام ٢٠٩ ق.م ، تمكنوا من فرض سيادتهم على أرغون ، وتوغلوا جنوبا حتى ضفاف إبره تدريجيا . ثم تعرضت أرغون فى عام ٤٠٩م – عن طريق ممر رونشفالة – لغزو الشعوب الجرمانية من السويفى والآلان والوندال ، ثم نزح إليها القوط الغربيون فى عام ٤١٥م بقيادة الملك القوطى واليا Walia (٤١٥ – ٤٢٠م) ،

---

(١) جوزيف نسيم يوسف ، نفس المرجع ، ص ٤٥ – ٤٦ .

(٢) البشكنش أو البشكنس Basques (Vascones) هم سكان بلاد نبرة التى كانت بنبلونه Pamplona عاصمة لها . الواقعة شمال غربى الثغر الأعلى بين سفوح البرتات وخليج غشقونية . البكرى ، المسالك والممالك ، ص ٧٩ ، حاشية ٥ ، ابن الخطيب ، الإحاطة فى أخبار غرناطة ، جـ٣ ، ص ٤٣٤ ، حاشية ٢ .

(٣) Chaytor, A History of Aragon and Catalonia, London, 1933, pp. 1-3; E.C.E., t. I, p. 410 .

الذى نجح فى دفع السويفى إلى شمال غربى أسبانيا ، وانتقال الوندال إلى جنوبى نهر إبره ، فاستقروا فى إقليم باطقة Baetica فى جنوب أسبانيا ، الذى سمى باسمهم وندالوسيا ، والذى عربه المسلمون بعد ذلك إلى الأندلس . وعندما رحل الوندال إلى شمال أفريقيا عام ٤٢٩م ، سيطر القوط الغربيون على أسبانيا واتخذوا من مدينة طليطلة [١] مقرا دائما لحكمهم ، وظلت مملكة القوط الغربيين فى أسبانيا حتى الفتح العربى عام ٧١١م/٩٢هـ [٢] .

تمكنت القوات الإسلامية بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير من القضاء على مملكة القوط الغربيين ، ثم سار القائدان لفتح شمال أسبانيا ، وتمكنا من تطويق المنطقة واخضاع وادي إبره ، وافتتحا مدن سرقسطة ولاردة وبرشلونة وأرغون عام ٧١٤م/٩٤هـ ، وغيرها من المدن حتى بلغا جبال البرتات [٣] . وقد اضطر أمير أرغون - ويعرف بفرتون جد أسرة بنى قسى - إلى الدخول فى طاعة المسلمين ، واعتناق الدين الإسلامى ، وإليه ينتسب "بنو قسى" أصحاب الثغر الأعلى [٤] .

---

(١) طليطلة Toledo : وهى مدينة على ضفة النهر الكبير المسمى تاجه Tajo ولها قنطرة من عجائب البنيان ، وتتميز بحصانتها ، لها أسوار حسنة ، ولها قصبة حصينة . ولمدينة طليطلة بساتين محدقة بها وأنهار جارية ، ولها من جميع جهاتها أقاليم وقلاع منيعة تكتنفها ، وعلى بعد منها فى جهة الشمال جبل الشارات Sierra Morena ومدينة طليطلة مركزا لجميع بلاد الأندلس ، وكانت قاعدة للثغر الأدنى . الإدريسى، صفة المغرب والأندلس ، ص ١٧٣ ، ١٨٧ - ١٨٨ .

(٢) Procupius, History of the Wars, trans. by H. B. Dewing, London, 1968, vol. II, pp. 23 - 31 ; vol. III, pp. 121-137; E.C.E., t. I, pp. 411 - 412 :

محمد محمد مرسى الشيخ ، الممالك الجرمانية فى أوربا فى العصور الوسطى ، اسكندرية ١٩٧٥ ، ص ٢٦ - ٢٧ ، ٥٦ - ٥٧ .

(٣) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، نشره دون خوان ريبيرا ، مدريد سنة ١٩٢٦ ، ص ٧ - ٨ ، مجهول ، أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ، تحقيق ابراهيم الإبيارى ، الطبعة الأولى سنة ١٩٨١ ، ص٢٧ ؛ ابن عذارى ، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، جـ٢ ، ص١٦ .

(٤) بنو قسى : عائلة من سلالة القوط الغربيين - من المولدين الأرغونيين - برزت فى عهد أمراء بنى أمية ، فقد استطاع موسى بن موسى بن فرتون بن قسى أن يؤسس فى أرغون العليا إمارة حقيقية من تطيلة وأرنيط ، ثم مد سيادته على وشقة وسرقسطة بمساعدة مستعربين سرقسطة ، وأسس إمارة مستقلة عن =

وقد واجه المسلمون مقاومة عنيفة فى الجزء الأعلى من البرتات ، لذلك لم تكن سيطرة المسلمين على تلك المنطقة سيطرة حقيقية ، بسبب الطبيعة الجبلية للمنطقة وبرودة الإقليم ووعورة مسالكه ، إلى جانب إنشغال العرب بالمنازعات القبلية العصبية . وكان ترك المسلمين السيطرة على هذه النواحى من أهم الأسباب فى زوال سلطانهم عن منطقة البرتات ، وستكون مهدا تولد فيه الكثير من الإمارات الأسبانية النصرانية التى ستناوئ المسلمين مثل أرغون ونبرة وشرطانية وريبا جورثا وشبررب وغيرها[1] .

ومنذ أواخر القرن الثامن الميلادى / الثانى الهجرى امتدت هذه الإمارات النصرانية من الجبال فى البسائط والسهول المجاورة شمالها وجنوبها ، أى أن جبهتها الشمالية كانت متاخمة لأوربا النصرانية ، وجبهتها الجنوبية متاخمة لأسبانيا الإسلامية ، وهذا الاتصال المباشر بين تلك الإمارات النصرانية وبين بقية العالم النصرانى جعلها على صلة دائمة بفرنسا وبالبابوية والعالم الكاثوليكى ، وقد ساعد كل هذا على تدعيم قواها المادية والروحية ضد المسلمين فى الجنوب[2] .

بالإضافة إلى ذلك ، كان هناك بعض الزعماء المسلمين فى منطقة البرتات العليا ، الذين سيطرت عليهم النزعة الاستقلالية دائما ، فلم يذعنوا بالطاعة لسلطان أمير قرطبة[3] ،

= أمير قرطبة عام ٨٥٢م /٢٣٨هـ ، وبعد وفاته عام ٨٦٢م/٢٤٨هـ ، تعاقب بنو قسى على رياسة الثغر الأعلى حتى أواخر القرن التاسع الميلادى . ابن حيان ، المقتبس من أنباء أهل الزمان ، تحقيق : محمود على مكى ، القاهرة ١٣٩٠هـ - ١٩٧١م ، ص ١٤٣ ، العذرى ، ترصيع الأخبار ، ص ٢٩ - ٣٠ ، السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص ١٢٩ .

(١) Chaytor, op. cit., pp. 28-29 :

حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

(٢) أحمد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢١٠ .

(٣) قرطبة Cordoba : تقع على سفوح جبال قرطبة المتفرعة من سلسلة جبال سييرا مورينا ، الممتدة شمالى المدينة . وتمتد قرطبة على الضفة اليمنى لنهر الوادى الكبير . وكانت عاصمة الخلافة الأموية بالأندلس، وقد بلغت درجة كبيرة من الازدهار والحضارة أيام العرب. ابن غالب الأندلسى، فرحة الأنفس ، ص ٢٩٥-٣٠٦ ، السيد عبد العزيز سالم ، فى تاريخ وحضارة الإسلام فى الأندلس ، ١٩٨٥ ، ص ٢٩ - ٤٠ .

وساعد على ذلك بعد المسافة والحواجز الطبيعية الجغرافية ، ومن أمثال هؤلاء بنى قسى ، وبنى تجيب[١] ، وبنو هود[٢] ، وكثيرا ماساد بينهم وبين جيرانهم ملوك أرغون علاقات ود موصولة [٣] .

---

(١) بنو تجيب : أصلهم من العرب اليمنيين الذين استقروا فى اقليم أرغون منذ أيام الفتح ، وكان أول ظهورهم فى أواخر القرن التاسع الميلادى / الثالث الهجرى . وفى عهد الأمير عبد الله بن محمد (٨٥٢ - ٨٨٦م/٢٣٨ - ٢٧٣هـ) استطاع بنو تجيب أصحاب دروقة وقلعة أيوب ، الاستيلاء على مدينة سرقسطة عام ٨٩٠م/٢٧٦هـ ، على يد زعيمهم أبى يحيى محمد بن عبد الرحمن بن عبد العزيز التجيبى المعروف "بالأنقر" أى الأعور ، وأقره الأمير عبد الله على حكم سرقسطة وأعمالها اكتسابا لولائه وحين وفاته عام ٩٢٤م/٣١٢هـ خلفه ابنه هاشم الذى ينسب اليه بنو هاشم التجيبيون ، واستمرت رياسة التجيبيين للثغر الأعلى حتى عهد آخر حكامهم المنذرين يحيى بن منذر بن يحيى التجيبى ، الذى كان قد ساس عظماء الأفرنج وهاداهم حوطا للثغر وأهله وإبعاد خطرهم عن سرقسطة ، وقتل منذر بن يحيى فى أغسطس ١٠٣٩م/ ذى الحجة ٤٣٠هـ . ثم تصير ملك سرقسطة إلى سليمان بن هود الجذامى صاحب لارده فى سبتمبر ١٠٣٩م / محرم ٤٣١هـ . العذرى ، ترصيع الأخبار ، ص ٤١ - ٤٨ ، ابن بسام الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق: إحسان عباس ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧٨ ، ق ١ ، مجلد ١ ، ص ١٨٠ - ١٨٨ .

(٢) بنو هود : يرجع أصلهم إلى قبيلة جزام اليمينية وأول ملوكهم سليمان بن محمد بن هود الجذامى ، الملقب بالمستعين (١٠٣٩-١٠٤٦م/٤٣١-٤٣٨هـ) ، الذى كان من كبار الجند بالثغر الأعلى إلى حين الفتنة الشاملة بقرطبة ، واستولى على مدينة لاردة ومنتشون فى سبتمبر ١٠٣٩م/محرم ٤٣١هـ ، وصار إليه ملك سرقسطة بعد مقتل منذر بن يحيى بن منذر بن يحيى التجيبى الأخير . وفى عهده تفاقمت الحرب الأهلية بين سليمان بن هود والمأمون بن ذى النون حاكم طليطلة ، واستعان كل منهما بملك النصارى ، ولم تخمد إلا بوفاة ابن هود عام ١٠٤٦م/٤٣٨هـ . وتعرض الثغر الأعلى لخطر جسيم ، عندما قسم سليمان بن هود قبيل وفاته أقطار ملكيه بين أبناؤه الخمسة ، فولى أحمد مدينة سرقسطة ، وولى يوسف مدينة لاردة ، وولى محمدا مدينة قلعة أيوب ، وولى لبا مدينة وشقة ، وولى المنذر مدينة تطيلة ، وكان هذا التقسيم نذيرا بالخلاف والحرب الأهلية . وظلت دولة بنى هود قائمة فى الثغر الأعلى حتى عام ١١١٠م/٥٠٣هـ عندما استولى عليها المرابطون . ابن الأبار ، الحلة السيراء جـ٢ ص ٢٤٥-٢٤٦ ؛ ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٣ ص ٢٢١-٢٢٢ ؛ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٧٠ - ١٧١ ، ١٧٨ .

(٣) حسين مؤنس ، الثغر الأعلى الأندلسى فى عصر المرابطين ، ص ٩٨ ، آنخل جنثالث بالنثيا ، تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة : حسين مؤنس ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٥ .

واعترف السكان فى تلك المنطقة من الجزء الأعلى لجبال البرتات بالسيادة الكارولنجية ، وأرسل ملوك الفرنجة نوابا عنهم بلقب كونت - قمط - Conde [١] لحكم الأراضى الواقعة جنوب البرتات ، ثم تمكنوا من الاستقلال عن الملكية الكارولنجية خلال القرن التاسع الميلادى/ الثالث الهجرى . وكان أول اعتراف بكونتية أرغون عام ٨٠٩م/١٩٤هـ ، فى عهد أثنار جاليندث الأول Aznar Galindez I الذى كان أول حاكم أرغونى (٨٠٩ - ٨٣٨هـ/ ١٩٤ - ٢٢٣هـ) ، خاضعا للسلطة الكارولنجية ، واستولى على مدينة جاقة بعد أن خلصها من المسلمين ، فى الوقت الذى سادت فيه المنازعات بين بنى قسى وبين أمراء قرطبة . ثم استطاع إبنه جاليندو أثنار الأول Galindo Aznar I حاكم أرغون (٨٣٨ - ٨٦٤م / ٢٢٣ - ٢٥٠هـ) أن يتخلص من الوصاية الكارولنجية ، ويؤكد استقراره واستقلاله[٢] .

وقام حكام أرغون بتوثيق روابط الصداقة مع ملوك نبرة ، وحكام مدينة وشقة المسلمين ، وذلك بالتزاوج بينهم والعائلة الملكية النبرية ، فتزوج غرسية سانشيز الأول Garcia Sanchez I ملك نبرة (٩٢٥-٩٧٠م/٣١٣-٣٥٩هـ) من اندرجوت جاليندث Endregote Galindez ابنة جاليندو أثنار الثانى حاكم أرغون (٨٩٣-٩٢٤م/ ٢٨٠-٣١٢هـ) ووريثة مقاطعة أرغون وبذلك ضم أرغون إلى أملاكه[٣] .

واستطاع الملك سانشو العظيم Sancho el Mayor ملك نبره (١٠٠٤-١٠٣٥م / ٣٩٤-٤٢٦هـ) أن يوحد القوى النصرانية ، فقد خلف والده غرسية سانشيز الثانى "المرتعش"

---

(١) كونت Conde : الكونت أصلا كلمة لاتينية من القومس ، وهو زعيم أو رئيس النصارى ، وقد وجد هذا المنصب فى أسبانيا على أيام الرومان ثم القوط ، وأقر العرب هذا الوضع . وكان للقومس سلطات عسكرية ومالية وقضائية . ثم تطور المنصب حتى غدا منصبا دينيا ، يليه أسقف أو مطران للنصارى يرعى شئونهم الروحية (ومن الجدير بالذكر أن كلمة كونت ترد فى المصادر الإسلامية باسم قمط وسوف نلتزم بالتسمية العربية) ابن الخطيب ، الإحاطة فى أخبار غرناطة ، جـ١ ، ص ١٠٣ ، حاشية : ٣ ؛ حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٤٥٩ - ٤٦١ .

(٢) Andrés Giménez Soler, La Edad Media en la Corona de Aragon, Barcelona, 1944, pp. 72-73; Antonio Duran Gudiol, Origenes del Reino de Aragon, (en Historia de Aragon) Zaragoza, 1989, p. 148 .

(٣) Soler, op. cit., p. 74; D.H.E., t. 1, p. 239; E.C.E., t. I, p. 412 .

Garcia - Sanchez el Temblon (٩٩٥-١٠٠٤م/ ٣٨٥-٣٩٤هـ) ، فى ملك شيروب ونبرة وأرغون ، ثم استولى على ريبا جورثا عام ١٠٢٥م/٤١٦هـ ، وضم قشتالة[١] عـــام ١٠٢٧م/٤١٨هـ . وحين أدركه الموت عام ١٠٣٥م/٤٢٦هـ ، قسمت مملكته بين أبنائه الأربعة، بناء على وصية تركها تقضى بأن يكون لابنه غرسية سانشيز الثالث (١٠٣٥-١٠٥٤م/ ٤٢٦-٤٤٦هـ) مملكـة نبـرة ، والأراضى المتـدة حتـى قشتـالة ؛ ومنـح الأمـير فرنانـدو Fernando - ويعرف فى المصادرالإسلامية باسم فرانده - (١٠٣٥-١٠٦٥م/٤٢٦-٤٥٧م) مقاطعة قشتالة وليون [٢]، بينما منح مقاطعة شبروب وريبا جورثا للأمير جونثالو Gonzalo (١٠٣٥ - ١٠٣٧م/٤٢٦-٤٢٨هـ) وخصص للأمير راميرو Ramiro - الذى يعـرف فى المصادر الإسلامية باسم ردمير - (١٠٣٥-١٠٦٣م/٤٢٦-٤٥٥هـ) مقاطعة أرغون[٣] .

وكان راميرو الأول - ردمير - أول حاكم يحمل لقب ملك أرغون[٤] ، التى كانت مساحتها آنذاك تمتد من باب رونشفالة غربا حتى خيستان Gistain شرقا ، والأراضى الإسلامية جنوبا المتدة حتى سلاسل جبل غوارة شمالا ، وبذلك اشتملت أرغون على المجرى الأعلى لأنهار أرغون وجلق وآرا وسينكا ، ووديان إتشو وأرجويس Aragues وعيسى Aisa وبروتو وأتارس Atarés ، بينما احتفظ المسلمون بحكم قلاع إيرب وبلويه . وكانت مدينة جاقة مركز مملكة أرغون ، فقد كانت مقر أسقف أرغون[٥] .

وكان من نتيجة هذا التقسيم أن بدأت سلسلة من المنازعات والحروب الأهلية بين الإخوة الملوك ، وفى الوقت نفسه انقسمت أسبانيا الإسلامية أيضا إلى دويلات مستقلة عرفت

---

(١) قشتالة Castilla : لفظ لاتينى Castilla ، معناه القلعة ، كان العرب يسمون قشتالة القديمة "القلاع" ويسمونها أيضا قشتيله ، وتقع خلف جبل الشارات من جهة الشمال . الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٦١ ؛ حسين مؤنس ، رحلة الأندلس ، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨ ، جدة ص ٢٨٩ .

(٢) ليون Léon : سمها الرومانى القديم Legio ، تقع جنوب اشتريس Asturias عند مر فى سلسلة الجبال الكنتبرية ، وهى قاعدة من قواعد قشتالة . الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص١٧٤ .

D.H.E. t. II, p. 206 .

(٣) Don Gaspar Castellano, C.C.A., pp. 4-5: Bleye. op. cit., pp. 625-626 .

(٤) Gestis Comitum Barcinonensium en (R.H.G.F), t. XII. Paris. 1877, p. 378 .

(٥) Ballesteros, op. cit., t. II, p. 438; Bleye. op. cit., p. 626 .

"بدول الطوائف" ، التى سادت بينها المنازعات ، بينما وقعت الحرب الأهلية والخلافات بين بنى هود فى الثغر الأعلى ، فأضعفت من وحدة الإقليم[١] .

لم يقتنع الملك راميرو بما آل إليه من أراضى ، فقد نجح فى ضم المقاطعات الجبلية الواقعة فى الشرق ، فضم شبررب وريبا جورثا بعد مقتل أخيه دون جونثالو عام ١٠٣٧م/٤٢٨هـ . كما حاول أن يحصل على مملكة نبرة من أخيه غرسيه بهدف الوصول إلى منفذ للتقدم إلى الجنوب والغرب ، فضرب حصارا على مدينة تافيا Tafalla ١٠٣٥م/٤٢٦هـ ، ولكنه هزم ، وفقد معظم أراضى مملكته عام ١٠٤٢م/٤٣٣هـ . وبعد سنوات تمكن الملك راميرو بالتحالف مع ملك قشتالة أن يسترد كل أراضيه ، بعد هزيمة ومقتل دون غرسيه الثالث ملك نبرة فى معركة أتابوركا Atapuerca عام ١٠٥٤م/٤٤٦هـ[٢] قرب برغش Burgos[٣] .

تطلع ملك أرغون إلى توسيع مملكته ، وركز جهوده فى محاربة المسلمين ، منتهزا ضعف بنى هود بسرقسطة بسبب الحروب الأهلية السائدة بينهم فى ذلك الوقت ، ونزل بواسطة سينكا وإسيرا ونقيرة ريباجورثا ، وفتح بعض المدن قبل عام ١٠٥٠م/٤٤١هـ ، ثم فرض سيادته على بنابار عام ١٠٦٢م/٤٥٤هـ ، كما أتم استرداد أراضى ريباجورثا ، حيث طرد المسلمين من القلاع التى كانوا يمتلكوها فى شبررب وريباجورثا[٤] .

كما تطلع أيضا راميرو بن سانشو إلى امتلاك قلعة جرادوس[٥] Graus ، التى كانت تهدد أمن مملكة سرقسطة ، وبدأ حصارها فى ربيع عام ١٠٦٣م/٤٥٥هـ ،

---

(١) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٣٨١ .

(٢) Castellano, C.C.A., pp. 6-7: gudiol, origenes del Reino de Aragon, (en Historia de Aragon), P. 152 .

(٣) برغش Burgos : مدينة تقع بالقرب من مدينة ليون ، وهى مدينة كبيرة يفصلها نهر ، ولكل جزء منها سور ، وهى حصينة منيعة ، ذات أسوار . الحميرى ، صفة الأندلس ، ص ٤٤ .

(٤) Castellano, C.C.A., p. 7; Ballesteros, op. cit., p. 440 .

(٥) جرادوس Graus : قلعة قوية تقع شمال غربى بربشتر ، على الضفة اليمنى لنهر إسيرا ، فى وادى ريبا جورثا . هذه القلعة لها أهمية استراتيجية للثغر الأعلى ، إذ كانت حصن أمامى لمملكة بنى هود .

D.H.E., t. 1, p. 239; Afif Turk, el Reino de Zaragoza, Madrid, 1978, p. 82.

ولكن أحمد بن سليمان بن هود "المقتدر" حاكم سرقسطة طلب مساعدة فرناندو الأول (فرانده) ملك قشتالة ، صاحب الجزية عليهم ، فأرسل لمعاونة المقتدر ولي عهده الأمير سانشو على رأس جيش من الليونيين والقشتاليين ، وظهر فيه رودريجو دياث دي بيبار Rodrigo Diez de Vivar - المعروف في المصادر العربية بالسيد القنبيطور[١] - الذي كان يبلغ من العمر حينئذ عشرين عاما . وزحف الجيش المتحد من المسلمين والقشتاليين إلى قلعة جرادوس في مايو عام ١٠٦٣م / جمادى الأولى ٤٥٥هـ ، وأمام أسوار جرادوس نشبت معركة شديدة

---

(١) رودريجو دياث دي بيبار : فارس قشتالي ولد في مدينة برغش حوالي عام ١٠٤٣م/٤٣٥هـ ، ورد اسمه في الوثائق الأندلسية تحت صورة "لذريق" و"رذريق" ، تربى في المنزل الملكي بقشتالة بجانب الأمير سانشو ، وقلده الملك فرناندو السيف وخلع عليه شارة الفروسية في عام ١٠٦٠م/٤٥٢هـ . وتمكن رودريجو أن يكتسب مدينة قلهرة للملك القشتالي حين دخل في مبارزة مع الفارس الأرغوني دون مارتن جونثالث Don Martin Gonzalez . وعقب وفاة فرناندو الأول ملك قشتالة وليون في أواخر عام ١٠٦٥/٤٥٧هـ ، نشب الخلاف بين أولاده ، فانضم رودريجو إلى جانب الأمير سانشو ، وعندما ورث سانشو الثاني مملكة قشتالة ، بدأ رودريجو يلعب دورا هاما في البلاط الملكي ، واختاره الملك حامل الراية وقائد الجيش ، وفي ذلك الوقت، دخل رودريجو في مبارزة مع الفارس النبري خيمنو غرسز Jimeno Garcés دفاعا عن المصالح القشتالية ، وانتصر عليه وصرعه ، وحينئذ أطلق عليه لقب "القنبيطور" Campeador أي الذي انتصر في ساحة المعركة ، وفي العربيه تعني "المبارز" . وبعد مقتل الملك سانشو الثاني عام ١٠٧٢/٤٦٥هـ ، ساءت العلاقة بين الملك ألفونسو السادس والقنبيطور ، فأمر الملك بنفيه من بلاده عام ١٠٨١م/٤٧٤ . وبدأ القنبيطور منذ ذلك الحين يحيا حياة قائد فرقة من المرتزقة ، فاتجه إلى برشلونه ، ولكنه لم يجد ترحيبا من القمط رامون برنجير ، فمضى إلى مملكة سرقسطة ورحب به المقتدر والتحق بخدمة بني هود أصحاب سرقسطة، وأطلق عليه لقب "السيد" نتيجة براعته الحربية في المعارك ، وصار الجند المسلمون والنصارى ينادونه بلفظي Mio Cid "سيدي" بكسر السين وإسكان الياء ، بمعنى "مولاي" وتمكن السيد القنبيطور من السيطرة على مملكة بلنسية عام ١٠٩٤م/٤٨٧هـ ، وظلت تحت سيادته حتى وفاته عام ١٠٩٩م/٤٩١هـ .

Robert Southey, Chronicle of the cid, London, 1883 . pp. 14-31; Bleye, op. cit., p. 605 .

ليفي بروفنسال ، الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة السيد عبد العزيز سالم ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ١٧٥- ١٨٣ .

الطاهر أحمد مكي ، ملحمة السيد ، الطبعة الثالثة ، مصر ١٩٨٣ ، ص ٨٣-٨٨ ، ١٢٨-١٣٥ .

بين الفريقين إنتهت بانتصار المقتدر وحلفائه القشتاليين ، وهزيمة الملك راميرو وقتله في المعركة يوم الخميس الثامن من مايو ١٠٦٣م/ السابع من جماد أول ٤٥٥هـ ، على يد أحد المحاربين المسلمين ويدعى سعداره ، والذى تسلل بين صفوف الأرغونيين ، وطعن الملك راميرو برمح بين عينيه ، فقتل وشاعت الفوضى بين الأرغونيين ولاذوا بالفرار[1] . وقد تناول الطرطوشى تفاصيل هذه المعركة ، لكن دون الإشارة إلى مساعدة القشتاليين للمسلمين ، كما أنه لم يحدد تاريخ المعركة .

ويعتقد المؤرخ دوزى أن الملك الأرغونى لم يقتل فى هذه المعركة ، وإنما جرح جرحا خطيرا ، اضطره أن يتنازل عن العرش لابنه سانشو ، كما حدد تاريخ المعركة فى شهر يناير ١٠٦٣م/ محرم ٤٥٥هـ ، وأن الملك راميرو مات بعد أربعة أشهر من المعركة ، فى الثامن من مايو ١٠٦٣م[2] . بينما اتفقت الرواية الإسلامية مع المدونات المسيحية فى أن الملك راميرو قتل فى المعركة[3] فى جرادوس . بعد مقتل راميرو الأول ، تولى حكم مملكة أرغون ابنه سانشو راميرث (١٠٦٣-١٠٩٤م/٤٥٦-٤٨٧هـ) ، والذى يعرف فى الرواية العربية بشانجه بن ردمير، واتخذ مدينة جاقة عاصمة لمملكة أرغون ، لأهميتها الدينية ، فقد كانت مقرا أسقفيا ، كما قام الملك الأرغونى ببناء كاتدرائية بها[4] .

كان من نتائج معركة جرادوس ، ازدياد ضغط المسلمين على وديان البرنيه ، كما أن مقتل الملك راميرو قد أثار الشعور المسيحى ضد مسلمى الثغر الأعلى ، فقام الملك سانشو راميرث - انتقاما لمقتل والده - بجهود كبيرة ومساعى مباشرة فيما وراء البرنيه ، وفى البلاط البابوى ، ترتب عليها إثارة حملة حربية ضد مسلمى أسبانيا . إذ دعا البابا اسكندر الثانى

---

(١) الطرطوشى ، سراج الملوك ، الطبعة الأولى ، مصر ١٣٠٦هـ ، ص ١٤٥ ؛

Ballesteros, op. cit., p. 440; Pidal, La Espana del Cid, Madrid, 1947, t. 1, pp. 132-134 .

(٢) R.Dozy, Recherches sur L'Histoire et la Litterature de L'Espagne, Paris, Leyde, 1881, t. II, pp. 243-245; Pidal, op. cit., t. II, pp. 684-685 .

(٣) الطرطوشى ، سراج الملوك ، ص١٤٥ ،

C.C.A., p. 7 . Los Anales Toledanos I, p. 342 .

(٤) Jose Maria Lacarra, Historia Politica del Reino de Navarra, vol. I, p. 281 .

(١٠٦١-١٠٧٣) بالتبشير بالحرب المقدسة فى إيطاليا وفرنسا وأسبانيا ، من أجل إنقاذ ممالك أرغون ونبرة من تهديد المسلمين ، ومنح الغفران عن الخطايا إلى الذين يحاربون المسلمين فى أسبانيا[١] .

ومن الجدير بالذكر أن بعض المؤرخين المحدثين اعتبر قيام دول أوربا والبابوية بإرسال قواتها إلى مملكة أرغون لمساعدتها ضد المسلمين على سبيل الحروب الصليبية[٢] ، على أساس أن الذى أثارها وأعدها البابا اسكندر الثانى . وعلى ذلك يمكن القول بأن الحروب التى أثارها الغرب الأوروبى ضد مسلمى أسبانيا كانت تعرف قبل عام ١٠٩٥م/٤٨٨هـ أى قبل الحركة الصليبية رسميا ، باسم "الحروب المسيحية الغربية المقدسة" ، ولم تأخذ صفة الحروب الصليبية وتسمياتها إلا اعتبارا من عام ١٠٩٥م بعد أن أعلن البابا أوربان الثانى Urban (١٠٨٨-١٠٩٩م) مولد الحركة الصليبية فى مجمع كليرمونت Clermont بفرنسا . ولما كانت الحركة الصليبية فى الشرق لم تبدأ بعد فى هذا الوقت ، لذا يمكن أن تعتبر هذه الحملة التى بشر لها البابا اسكندر الثانى ضد المسلمين فى شمال أسبانيا "حربا مقدسة" اتسمت بالطابع الدينى ، وباركتها البابوية ، وفى الوقت نفسه يمكن أن تكون مقدمة للحروب الصليبية، إذ أنها سبقت الحملة الصليبية الأولى على فلسطين بثلاثين عاما .

نتيجة إعلان البابا لهذه الحرب المقدسة ، تكوّن جيش كبير يقدر بنحو عشرة آلاف ، من الفرسان والمشاة[٣] ، ضم قوات أرغونية وقطلانية ، بالإضافة إلى القوات الفرنسية والنورماندية والإيطالية ، التى وفدت من وراء البرنيه . وكان القائد العام لهذه الحملة جيرمو منترى Guillermo de Montreuil المندوب البابوى[٤] ، والذى أطلق عليه المؤرخ القرطبى

---

(١) Ballesteros, op. cit. p. 443; Turk, op. cit. p. 87 .

(٢) Ballesteros, op. cit. p. 443, 444; Marcelin Defourneaux, Les Francais en Espagne aux et XII siecles, Paris 1949, p. 132; Fernandez, op. cit., p. 462; Maria Viguera, op. cit., pp. 149, 159 .

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٣ ، ص٢٢٤ ، بينما حدد البكرى عدد الجيش بنحو أربعين ألفا . المسالك والممالك ، ص٩٢ .

(٤) Pidal, op. cit., t. I, pp. 147-148; Defourneaux, op. cit., p. 132 .

ابن حيان - المعاصر لهذه الأحداث - "قائد خيل روما"[١] ، والذى ورد اسمه فى المصادر الإسلامية بأشكال مختلفة متشابهة إلى حد ما . بينما اختلفت الروايات المسيحية حول قائد الحملة .

خرجت الحملة من فرنسا إلى أسبانيا فى مايو ١٠٦٤م/ جماد ثانى ٤٥٦هـ ، ونزلت فى جرندة Gerona[٢]، وانضمت إليها القوات الأسبانية القطلانية والأرغونية[٣] واجتمع أعضاء الحملة فى إقليم جرادوس ، وحدد ملك أرغون سانشو راميرث مدينة بريشتر لتكون هدفاً لهم، خاصة أن السيطرة عليها تمكنه من السيادة على كل إقليم ليترا Litera [٤] .

وفى يونيه ١٠٦٤م/ رجب ٤٥٦ ، رحف الجيش المسيحى الفرنجى - الأسبانى إلى مدينة بريشتر ، ونزل أمام أسوارها ، وضرب حولها الحصار فى النصف الأول من يوليو / أواخر رجب من العام نفسه ، ولم يبادر أميرها يوسف بن سليمان بن هود "المظفر" سيد لاردة (١٠٤٦-١٠٨٢م / ٤٣٨-٤٧٥هـ) بإنجاد المدينة ، حيث انشغل بالحرب الأهلية التى وقعت بينه وبين أخيه المقتدر ، وتحمل أهلها عبء الدفاع عنها ، وكثيرا ما اشتبكوا مع العدو خارج مدينتهم ، واستمر الحصار أربعين يوما ، وقلت العدة والمؤن من المدينة ، وبدأت تعانى من المجاعة ، واشتد العدو فى الحصار والقتال ، فدخل المدينة البرانية - ويبدو أنها تحصين خارجى منفصل يقام خارج الأسوار - وتحصن الأهالى بالقصبة والمدينة الداخلية ، ودارت حروب شديدة بين المسلمين والنصارى ، ويروى ابن حيان أن القصبة كان يأتيها الماء من ممر داخلى تحت الأرض متصل بالنهر ، فخرج رجل من القصبة إلى النصارى ودلهم عليه ، فهدموه وألقوا فيه

---

(١) ابن بسام ، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، القسم الثالث ، المجلد الأول ، ص ١٨١ - ١٨٢ .

(٢) جرندة Gerona : تقع فى أقصى الشمال الشرقى من أسبانيا قريبة من الحدود الفرنسية ، فتحها المسلمون عام ٧١٣ وأقاموا بها إلى القرن الحادى عشر الميلادى . محمد الفاسى ، الأعلام الجغرافية الأندلسية، ص ٢٦ .

(٣) Ballesteros, op. cit., t. II, p. 443 .

لم تشير الروايات المسيحية والإسلامية إلى الطريق الذى اجتازته الحملة للعبور من فرنسا إلى أسبانيا ، ربما عن طريق البحر ، ويرجع عن طريق عبور جبال البرتات من خلال بوابة سمبورت .

(٤) Fernandez, op. cit., p. 467 .

صخرة عظيمة سدت المر ، فانقطع الماء عن المدينة ، ويئس من بها من الحياة ، فاضطر المسلمون إلى التسليم ، وجمع النصارى من الأموال والأمتعة والسبايا والغنائم مالايحصى[١].

دخل الفرنجة مدينة بربشتر فى النصف الثانى من أغسطس ١٠٦٤م/ أوائل رمضان ٤٥٦هـ واستوطنوها ، وقد أسهب المؤرخ ابن حيان فى تصوير ما ارتكبه الفرنجة من الأعمال الوحشية حين دخولهم المدينة ، وقسوة المذبحة التى راح ضحيتها آلاف من المسلمين[٢] . وبعد أن استولى الفرنجة على المدينة ، اعتبر بعض المفوضين البابويين أن مدينة بربشتر جزءا مكملا لمملكة أرغون ، لذلك وضعت المدينة تحت سيادة ملك أرغون ، سانشو راميرث ، الذى ترك بها حامية للدفاع عنها بقيادة أرمينجول الثالث Ermengol III حاكم أورقلة (١٠٤٠-١٠٦٥م/ ٤٣٢-٤٥٧هـ)[٣] .

عاد قائد الحملة وعدد كبير من الفرسان إلى بلادهم محملين بالأموال والغنائم والجوارى بعد أن ترك بالمدينة ألفا وخمسمائة من الفرسان ، وألفين من المشاة لحمايتها[٤] ، وفى رواية ابن عذارى ألف فارس وأربعة آلاف من المشاة[٥] .

ومما هو جدير بالذكر أن المؤرخ ابن الكردبوس تناول هذه الحملة باختصار شديد ، وجعلها عام ١٠١٤م/ ٤٠٥هـ[٦] ، وهذا لا يتفق مع بقية الروايات الإسلامية والمسيحية التى حددتها فى عام ١٠٦٤م/٤٥٦هـ ، كما أنه أشار إلى وصول الحملة حتى بلنسيه ووادى الحجارة[٧] ، بينما لم تتجاوز وادى إبره ، بالإضافة إلى ذلك أغفل المؤرخ حادثة سقوط الجسر الذى تمر عليه المياه إلى مدينة بربشتر والذى كان سببا عجل باستسلام المسلمين .

---

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، القسم الثالث ، المجلد الأول ص ١٨١-١٨٢ ؛ ابن عذارى ، البيان المغرب جـ٣، ص ٢٢٥ .

(٢) ابن بسام ، نفسه ، ص ١٨٣-١٨٤ ؛ ابن عذارى ، نفسه ، ص ٢٢٦ .

(٣) Pidal, op. cit., t. I, p. 150; Fernandez, op. cit., p. 467 .

(٤) ابن بسام ، الذخيرة ، ، ق ٣ ، م١ ص ١٨٥-١٨٦ ؛ المقرى ، نفح الطيب ، المجلد الرابع ، ص ٤٥١ ، Defourneaux, op. cit., pp. 133-134 .

(٥) ابن عذارى ، البيان المغرب : جـ٣ ، ص ٢٢٦-٢٢٧ .

(٦) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ٧٢ .

(٧) ابن الكردبوس ، نفسه ص ٧١ - ٧٢ .

هزت هذه الحادثة مشاعر المسلمين فى الأندلس ، وتزعم أحمد بن سليمان بن هود صاحب سرقسطة حركة المقاومة ، والذى اتهمه المسلمون بالتفريط فى ضياع مدينة بربشتر ، لموقفه المتهاون فى نجدة المدينة ، فهب للدفاع عنها ، فدعا مسلمى الأندلس للجهاد فى سبيل الله ، واسترداد بربشتر من أيدى الفرنجة ، وطلب المساعدة من المعتضد بن عباد حاكم إشبيلية[1] (١٠٤٢-١٠٦٩م/٤٣٣ - ٤٦١هـ) ، فأمدة بخمسمائة فارس بقيادة معاذ بن أبى قرة[2] ، كما وصله عدد كبير من المتطوعين والرماة يقدر بنحو ستة آلاف من مختلف بلاد الأندلس[3].

سارت القوات الإسلامية بقيادة أحمد بن سليمان بن هود بعزيمة قوية وحماسة دينية نحو مدينة بربشتر فى أبريل ١٠٦٥م / جمادى الأولى ٤٥٧هـ ، وضربت حولها الحصار ، وحين رأى الفرنجة قوة المسلمين ، تحصنوا داخل المدينة ، فأمر ابن هود بنقب سور المدينة تحت حماية الرماة ، ونجح المسلمون فى إحداث ثغرة كبيرة ، واقتحموا المدينة ، واشتد القتال بين الطرفين، وقتل عدد كبير من الفرنجة من بينهم أرمينجول الثالث ، وتمكن البعض من الفرار ، وسبى وأسر من كان فى المدينة[4] . ومما لاشك فيه أن خسائر المسلمين كانت أقل من خسائر الفرنجة، وكان فتح المسلمين لمدينة بربشتر فى التاسع عشر من إبريل ١٠٦٥م / الثامن من جمادى الأولى ٤٥٧هـ ، ومن ذلك تسمى أحمد بن سليمان بن هود "المقتدر بالله"[5] ،

---

(١) إشبيلية Sevilla : تقع مدينة إشبيلية على الضفة اليمنى لنهر الوادى الكبير قرب مصبه ، بينها وبين قرطبة حوالى ثمانين ميلا ، أى مسيرة ثلاثة أيام ، وأصل تسميتها إشبالى Hespali ومعناه "المدينة المنبسطة" ثم عربة المسلمون إلى إشبيلية . وهى مدينة كبيرة عامرة لها أسوار حصينة وأسواقها عامرة . وقد أختارها موسى بن نصير حاضرة الأندلس لوقوعها على البحر ، وسهولة اتصالها ببلاد المغرب ، ولكن تحولت العاصمة إلى قرطبة عقب مقتل عبد العزيز بن موسى عام ٧١٧م / ٩٨هـ . الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص١٨ - ٢٢ ؛ السيد عبد العزيز سالم ، دائرة معارف الشعب ، مادة إشبيلية ، عدد ٦١ ، ص٧٠-٨٤ .

(٢) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٣ ، م١ ، ص١٨٩-١٩٠ ، ابن الكردبوس ، الاكتفاء ص ٧٣ .

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ص ٢٢٧ ، ابن سماك العاملى ، الحلل الموشية ، ص ٥٤-٥٥ .

(٤) ابن بسام ، نفس المصدر ، ص ١٩٠ ، ابن عذارى ، نفس المصدر ج٣ ، ص٢٢٧ ،

Turk. op. cit., p. 97 .

(٥) البكرى ، المسالك والممالك ، ص ٩٥ ، الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٤١ .

الذى تمكن أن يوقف تطلعات سادة أرغون وحكام أورقلة وبرشلونة للاستيلاء على هذا الإقليم من الثغر الأعلى[١] ، ولو لبعض الوقت .

بعد استرداد المسلمين لمدينة بربشتر بقليل ، قام الملك سانشو راميرث بهجوم على المراكز الأمامية التى تطل على الأرض السهلية للمسلمين، واستولى على قلاع ماركيو Marcuello، ولـــور Loarre ، والقصر عام ١٠٦٧م/٤٥٩هـ ، وكان يهدف من وراء ذلك إلى تحصينها واتخاذها قواعد حربية ضد مسلمى الثغر الأعلى[٢] .

انشغل سانشو راميرث لبعض الوقت عن المسلمين ، ففى عام ١٠٦٧م/٤٥٩هـ ، دخل فى حرب ضد سانشو الثانى ملك قشتالة (١٠٦٥-١٠٧٢م/٤٥٧-٤٦٤هـ) ، الذى حاول توسيع مملكته على حساب مملكة نبرة ، فغزا جبال أورقة Oca واستولى على قلعة بانكورب Pancor-vo وغزا بويربا Buerba ، وعبر الإبره ، واجتاح نبرة ، وغزا قلعة بيانا Viana شمال الإبـرة[٣] . فاستنجد سانشو غرسية الرابع ملك نبرة (١٠٥٤-١٠٧٦م/٤٤٦-٤٦٨هـ) بابن عمه ملك أرغون ، الذى تطلع إلى استرداد الإبره . فأسرع الملك الأرغونى إلى مساعدة ملك نبرة ، ونشبت الحرب المسماه "حرب سانشو الثلاث" Guerra de los tres Sanchos فـى أغسطس - سبتمبر ١٠٦٧م / شوال - ذو القعدة ٤٥٩هـ ، والتى اشترك فيها الأحفاد الثلاثة لسانشو العظيم ملك نبرة[٤] .

قاد الملك سانشو راميرث الهجوم ، وحاصر قلعة بيانا النبرية التى استولى عليها القشتاليون ، فأسرع سانشو الثانى ملك قشتالة لإغاثة المحصورين ، ولكنه هزم بالقرب من بيانا ، وهرب مع بعض فرسانه فى سبتمبر ١٠٦٧م / ذو القعدة ٤٥٩هـ . وانتهت الحرب بعقد معاهدة بين الملوك الثلاث ، واعترف الملك سانشو راميرث بحق قشتالة فى التدخل فى سرقسطة ، وانسحبت القوات القشتالية من القلاع النبرية شمال الإبره[٥] .

---

(١) Turk, op. cit. p. 97 .

(٢) Bleye, op. cit., p. 627 .

(٣) Valdeavellano, op. cit., p. 314 .

(٤) C. C.A., p. 7; D.H.E., t. II, P. 1118 .

(٥) Pidal, op. cit., t. 1, pp. 162-163; Bleye, op. cit., p. 625 .

فى ذلك الوقت تطلعت البابوية إلى تقوية سلطة الكنيسة الكاثوليكية ومد سيادتها إلى أسبانيا ، وإخضاع كل السلطات الروحية والعلمانية للمركز الرسولى بروما ، مع واجب الطاعة والضريبة . كما تطلعت البابوية إلى تحقيق الوحدة الروحية ، وذلك بتوحيد الطقوس الدينية الغربية ، إذ استمر العمل بالطقوس القوطية فى الكنائس الأسبانية بعد الفتح الإسلامى ، وكان ذلك عقبة فى تحقيق الوحدة الدينية ، وقد أخذت البابوية تلقى الشكوك فى قيمة هذه الطقوس وكاثوليكيتها ، وكانت تسعى لإلغاء الطقوس القوطية من الكنيسة الأسبانية ، وإحلال الطقوس الرومانية الكاثوليكية محلها[١] .

وفى نفس هذا الوقت ، قام الملك سانشو راميرث برحلة إلى روما فى ربيع ١٠٦٨ / ٤٦٠هـ ، وزيارة البابا اسكندر الثانى ، طلبا للمساعدة الروحية ، وضغط عليه البابا بأن يعيد المذهب الكاثوليكى فى كل الأديرة والكنائس فى أرضه ، بدلا من المذهب القوطى . وكانت لهذه الرحلة نتائج هامة ، فقد أعلن الملك سانشو راميرث خضوعه للبابا ، وحمل لقب "فارس القديس بطرس" - لقب الإبن الخاضع - وبهذا جعل شخصه ومملكته فى أيدى الرب والقديس بطرس ، وكان الملك سانشو أول من خضع فى أسبانيا لرغبات البابا اسكندر الثانى[٢] .

تشجع الملك سانشو راميرث بمساندة البابوية ، وبدأ يهدد مملكة سرقسطة ، وتكررت غاراته على أراضيها ، وهدد مقاطعة وشقة ، فقام ببناء قلعة عند جبل أرغون[٣] ، الأمر الذى أزعج المقتدر بن هود ، فقرر محاربته ، وتحالف مع سانشو غرسيه الرابع ملك نبرة ، حتى يضمن مساعدته ، ويبعده عن مساعدة ملك أرغون ، ووقعت معاهدة بين الطرفين فى ابريل ١٠٦٩م/ جمادى الآخر ٤٦١هـ تعهد المقتدر بأن يدفع إلى حليفه ألف مثقال[٤] من الذهب سنويا ،

---

(١) Pidal, op. cit., 228, 320; Valdeavellano, op. cit., pp. 337-338 ;

حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٤٩٦ - ٤٩٨ .

(٢) Pidal, op. cit. t. I. p. 230; Valdeavellano, op. cit., p. 338 .

(٣) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ١ ، م٢ ، ص ٧٢٦ . Henrique Florez, Annales;

Compostellani (Espana Sagrada), Madrid, 1799, t. XXIII, p. 321 .

(٤) المثقال Mancuso : هو أساس نظام الأوزان الإسلامية ، ويستخدم لتعيير الدينار الذهبى الإسلامى، وكان وزن المثقال الشرعى الوحيد فى شمال إفريقية والأندلس هو المثقال الذى يزن ٤,٧٢٢ جم ، وأن المثقال =

وتعهد الملكان بتقديم المساعدة المتبادلة ضد المسيحيين أو المسلمين ، كما تحالفا لمحاربة الملك الأرغونى إذا لم ينسحب من الأراضى التى استولى عليها فى وشقة[1] . ومما سبق يتضح أن ملك نبرة دخل فى حلف ضد ابن عمه ملك أرغون ، فى سبيل حماية مملكة سرقسطة، ولعل الذى دفعه إلى ذلك طمعه فى الحصول على بعض الأموال ، وربما تطلع لمد سيادته على وادى إبره .

وفى الحقيقة ، كان موقع سرقسطة ومتاخمة حدودها للولايات المسيحية فى الشمال جعلها تشترى أمنها وسلامتها بدفع الجزية إلى من يقوم بحمايتها من ملوك الممالك النصرانية المجاورة لها[2] .

وتوجه المقتدر لمحاربة الملك سانشو راميرث ، الذى كان مع جيشه فى الجبال آنذاك ، وغزا بعض حصونه وافتتحها ، وعاد غانما إلى سرقسطة أواخر عام ١٠٦٩م/أوائل ٤٦٢هـ[3] .

أما فيما يتعلق بزيجات الملك سانشو راميرث ، فقد تزوج مرتين ، فقد تزوج من ايزابيل Isabel ابنة أرمينجول حاكم أورقلة ، ويعتقد أن هذا الزواج كان زواجا سياسيا ، يسمح له أن يحصن مركزه فى الحدود الشرقية ، وأن يتدخل لاسترداد الأراضى الممتدة من لاردة حتى طرطوشة[4] ، وكان ثمرة هذا الزواج ابنه بطره الذى ورث العرش بعد أبيه ، ولما ماتت إيزابيل عام ١٠٦٨م/ ٤٦٠هـ ، تزوج الملك سانشو مرة أخرى عام ١٠٧٠م/٤٦٢هـ ، فقد تصاهر مع عائلة من أقوى العائلات فى فرنسا ، وتزوج من فيلبسيا دى روكى Felicia de Roucy ابنة هلدوين Hilduin حاكم روكى ، وكان إبلس دى روكى بارون شمبانيا Ebles de Roucy de Champana صهر الملك الأرغونى[5] . وكان ثمرة هذا الزواج ثلاث أبناء :

= من الفضة كان يسمى درهما ، ومن الذهب دينارا . أنستاسى الرملى ، النقود العربية وعلم النميات ، القاهرة ١٩٣٩ ، ص٢٥ ؛ فالترهنتس ، المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها فى النظام المترى ، ترجمة د. كامل العسلى ، منشورات الجامعة الأردنية ، عمان ١٩٧٠ ، ص ٨ - ١٣ ، ١٨ .

(١) Ballesteros, op. cit. p. 442; Maria Viguera, op. cit. pp. 157-158 .

(٢) Pidal, op. cit. t. I, p. 132 .

(٣) ابن بسام ، الذخيرة ، ق١ ، م٢ ، ص٧٢٦-٧٢٧ .

(٤) Lacarra, H.P.R.N., p. 296 .

(٥) Ballesteros, op. cit., p. 442 .

فرناندو Fernando ، الذى مات قبل عام ١٠٩٤م/٤٨٧هـ ، وألفونسو ، الذى لقب فيما بعد بالمحارب الذى ولد حوالى عام ١٠٧٣م/ ٤٦٥هـ ، وراميرو Ramiro ، والمعروف فيما بعد باسم راميرو الثانى الراهب ، الذى سلك طريق الرهبنة عام ١٠٩٣/٤٨٦هـ فى دير القديس بونزدى توميبرز Saint-Pons de Thomiéres[١] - على ضفاف نهر أود Aude - فى مقاطعة أربونة Narbona[٢] .

وقد اختلفت المراجع فى نسب الأمير بطره ، فالبعض يجعله ابن الملك سانشو راميرث من زوجته الأولى[٣] ، والبعض الآخر يجعله من زوجته الثانية الملكة فيليسيا[٤] .

مما سبق نستنتج أن الملك الأرغونى بحث عن المساعدات الخارجية ، لأنه لايستطيع التوسع إذا اعتمد على قواته فقط ، التى كانت محصورة بين البرتات وخط تحصينات مملكة سرقسطة، ومن هنا رغب فى توثيق اتصالاته الخارجية عن طريق الزيجات السياسية ، وبذلك تمكن أن يقوى مركزه فى الحدود الشرقية ، وأن يوطد العلاقات مع فرنسا من جهة ، ومع البابوية من جهة أخرى[٥] . ومن هنا كان التعاون الفرنسى فى حركة الاسترداد التى قام بها ملوك أرغون خلال القرن الحادى عشر والثانى عشر ، ولا شك أن هذا الزواج قد ساعد على توسيع الآفاق السياسية والحضارية لمملكة أرغون[٦] .

بدأ الملك سانشو راميرث يطبق الطقوس الدينية الكاثوليكية فى أملاكه ، فقد انتهز فرصة احتفال عيد الفصح فى الثانى والعشرين من مارس عام ١٠٧١م ، وأقام الشعائر الكاثوليكية

---

(١) D.H.E., t. II. p. 1119; Lacarra. Alfonso el Batallador. Zaragoza. 1978. p. 19 .

(٢) أربونة Narbona : إحدى مدن جنوبى فرنسا فيما يلى جبال البرتات ، على مسافة خمسة وخمسين كيلو مترا من قرقشونة ، وأصل رسمها بالفرنسية Narbonne أى نربون فحرفها العرب وكانت من منضماتهم بعد اختراقهم تلك الجبال إلى أربونة ، وهى الآن بندر مقاطعة أود Aude . سيبولد ، دائرة المعارف الإسلامية، مادة الأندلس ، المجلد الثالث ، ص ٣٦ ، هـ ٥ .

(٣) Lacarra, H.P.R.N., p. 296 .

(٤) Ballesteros. op. cit., p. 446; Bleye, op. cit. p. 628 .

(٥) Lacarra, H.P.R.N., pp. 282, 296 .

(٦) Ballesteros. op. cit., p. 442 .

فى دير القديس خوان دى لابينيا San Juan de la Pena بحضور المبعوث البابوى الكاردنيال هوجو كانديدو Hugo Candido والأساقفة الأرغونيين لجاقة ورودا ، وبذلك سبقت مملكة أرغون مملكتى نبرة وقشتالة فى إلغاء الطقوس القوطية من الكنيسة الأسبانية وحلت محلها الطقوس الكاثوليكية الرومانية[١] .

وعلى أية حال ، بحث الملك الأرغونى عن مساعدة فرنسا ، والبابوية ، لمواجهة القوات الإسلامية فى الثغر الأعلى ، ومواجهة التحالف السرقسطى - النبرى المنعقد فى أبريل ١٠٦٩م ، فقام البابا اسكندر الثانى بتنظيم حملة حربية مقدسة عام ١٠٧٣م/٤٦٥هـ ، لمساعدة ملك أرغون ضد مسلمى الثغر الأعلى ، وعهد بقيادتها إلى إبلس دى روكى - صهر الملك الأرغونى - وأثناء الإعداد للحملة ، مات البابا اسكندر الثانى فى الثانى عشر من أبريل عام ١٠٧٣م/شعبان ٤٦٥هـ . وتم اختيار الكاردينال هلد براند Hildebrando لتولى منصب البابوية فى الثانى والعشرين من أبريل من العام نفسه تحت اسم البابا جريجورى السابع (١٠٧٣-١٠٨٥م/٤٤٦-٤٧٨هـ) . وطبقا لخطة البابا الجديد وتطلعاته فى ميدان العقيدة والسياسة ، حذر كل القادة الذين رغبوا فى الرحيل إلى أسبانيا ، بأن أراضى أسبانيا ملكا للبابوية ، ووعد القائد ابلس دى روكى بأنه سوف يمنحه أراضى مملكة سرقسطة التى سيقوم بغزوها ، تحت سيادة البابا[٢] . وإذا رجعنا إلى فتح النصارى لمدينة بربشتر عام ١٠٦٤م ، فإنها كانت تحت سيادة ملك أرغون ، ومنذئذ فإن الأراضى التى سوف تفتح فى أسبانيا توضع تحت سيادة البابوية .

إلا أن هذه الحملة التى أعلنتها البابوية ، ووجدت صداها فى فرنسا ، لم يكن لها تأثير فى أسبانيا ، لأنها فشلت قبل وصولها إلى الأراضى الأسبانية لأسباب مجهوله[٣] ، وأن الروايات المسيحية لم تشر إلى أسباب فشلها ، وربما لم تستكمل إعدادها . وهناك بعض المؤرخين المحدثين نظر إلى هذه الحملة على أنها إحدى الحملات الصليبية ضد

---

(١) Pidal, op. cit., t. I, p. 230, Isidro de Las Cagigas, Los Mozarabes, Madrid, 1947, t. II, P. 439 .

(٢) Pidal, op. cit., t. I,pp. 231-232; Defourneaux, op. cit., p. 138 .

(٣) Pidal, op. cit., t. I, p. 233; Lacarra, H.P.R.N., p. 282 .

مسلمي أسبانيا[١] ولكن يمكن أن تعتبر خطة حربية ضد الإسلام في غرب البحر المتوسط ، اتخذت صفة مقدسة حين بشر بها البابا اسكندر الثاني ، وأسرع البابا جريجوري السابع لتنفيذ هذا المخطط الذي لم يتحقق .

وكان من أهم نتائج هذه الحملة ، أنها أدت إلى تجديد التحالف بين المقتدر بن هود حاكم سرقسطة ، وسانشو غرسيه الرابع ملك نبرة ، ضد الملك الأرغوني في الخامس والعشرين من مايو ١٠٧٣م/ الخامس عشر من رمضان ٤٦٥هـ لمواجهة تهديد الخطر الخارجي ، وزيادة الضغط على ملك أرغون[٢] وترتب على هذا التحالف ، أن تراجع الملك الأرغوني من أراضي وشقة ، بعد أن واجه مقاومة شديده من المسلمين ، بالإضافة إلى عدم وصول الحملة المنتظرة إلى أسبانيا[٣] .

وأهم ما شهده عهد الملك سانشو راميرث ، ضم مملكة نبرة إلى مملكة أرغون في يونية ١٠٧٦م / ذو القعدة ٤٦٨هـ ، وذلك بعد مقتل الملك سانشو غرسية الرابع ملك نبرة في كمين دبره أخوه دون رامون Don Ramon ، في مكان يسمى بنيالين Penalen - بين نهري أرجا وأرغون - ورفض النبريون أن يتولى الحكم قاتل أخيه ، واختاروا سانشو راميرث ملك أرغون. واستفات رامون بالملك ألفونسو السادس Alfonso VI ملك قشتالة (١٠٦٥-١١٠٩م/٤٥٧- ٥٠٢ هـ) ، ولكن اتجه ملكا أرغون وقشتالة إلى مملكة نبرة ، وتفاهما على اقتسامها بينهما ، بالرغم من وجود ولدى الملك القتيل القاصرين . فاستولى الفونسو السادس على القسم المحاذى لنهر إبره ، والذى يمتد من ريوخه Rioja[٤] حتى قلهرة، بينما ضم الملك سانشو الجزء الواقع على جبال البرتات ، ويمتد بين الإبره وجبال أوقه ،

---

(١) Pidal, op. cit. t. I, p. 232; D.H.E., t. II, p. 1118; Maria Viguera, op. cit., p. 159 .

(٢) Pidal, op. cit., t. I, pp. 206-207 .

(٣) Turk, op. cit., p. 108 .

(٤) ريوخه Rioja : يقع إقليم ريوخه على الضفة اليمنى لنهر إبره ، ويشكل أراضي مقاطعات برغش وسرية وألبة Alava ولوجرونيو Logrono .

D.H.E., t., II, p. 1048 .

وهو أكبر القسمين ، وفيه العاصمة بنبلونة[١] ، واعترف الملك سانشو بسيادة ملك قشتالة . وفر رامون إلى أمير سرقسطة وظل بها حتى وفاته ، أما ولدا سانشو الرابع فقد أبقاهما الملك ألفونسو السادس فى ليون لينشأ فى بلاطه[٢] .

وترتب على وحدة مملكتى أرغون ونبرة ، أن اتسعت مملكة أرغون اتساعا كبيرا ، وزادت قوتها ، وأصبح الملك سانشو راميرت يلقب ملك أرغون وبنبلونه [٣] ، واستمرت هذه الوحدة بين مملكتى أرغون ونبرة ثمانية وخمسين عاما حتى وفاة الملك ألفونسو الأول المحارب عام ١١٣٤م/٥٢٨هـ ، حتى استعادت نبرة استقلالها . بالإضافة إلى ذلك ، افتقد حاكم سرقسطة حليفه ملك نبرة ، وحرم من المساعدة التى كان يقدمها له مقابل الجزية .

وأشارت بعض المراجع إلى أن هوجو دوق بورجونيا Hugo duque de Borgona قبل أن يسلك الرهبانية فى دير كلونى ، قاد حملة حربية - وأطلقت عليها هذه المراجع حملة صليبية- بهدف مهاجمة الثغر الأعلى فى أواخر عام ١٠٧٧م وبداية عام ١٠٧٨م/٤٧٠هـ ، وهاجم مدينة مونيونس - Munones - على ضفاف نهر سينكا - عن طريق إستريا Estrella ، ورغم أنه لم يحقق نجاحا ملحوظا ولكنه حصل على غنيمة كثيرة قبل أن يعود إلى فرنسا[٤]. ولم تشر المصادر الإسلامية إلى هذه الحملة ، كما أن المراجع النصرانية لم تمدنا بتفاصيل عنها.

---

(١) بنبلونة Pamplona : مدينة فى شمالى الأندلس وقصبة إقليم نبرة ، وهى بين جبال شامخة ، وشعاب غامضة ، قليلة الخيرات ، وقد غزاها العرب عام ٧٣٨م/١٢١هـ ، ولكن سيطرتهم على المدينة ومنطقتها لم يطل أمده . ثم أصبحت حاضرة شانجه ابن أبركه Sancho Abarca أول ملك لنبرة فى بداية القرن العاشر . بين بنبلونة وسرقسطة مائة وخمسة وعشرين ميلا . الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص٥٥ - ٥٦ ؛ ليفى بروفنسال ، دائرة المعارف الإسلامية ، مادة بنبلونة ، المجلد الرابع ، العدد الأول ، ص ١٩٢ .

(٢) Annales Compostellani (E.S., vol. XXIII), p. 321: C.C.A., p. 8;

أشباخ ، تاريخ الأندلس ، ص ٢٣ - ٢٤ .

(٣) Lacarra, H.P.R.N., p. 283 .

(٤) Ballesteros, op. cit., p. 444; Defourneaux, op. cit., p. 141; Maria Viguara, op. cit., p. 159 .

وفى هذه المرحلة ، قام الملك الأرغونى بإعادة تنظيم قواته ، استعدادا لتحقيق سياسة الاسترداد ، فحدد الواجبات الحربية للنبلاء ، ووضع نظاما يصلح للدفاع عن الحدود ، أو التوغل فى مقاطعات المسلمين ، ولكنه لا يصلح لتحقيق حملات تستغرق وقتا طويلا . وقرر الملك أن يكافئ الفاتحين بملكية بعض المنازل والأراضى التى يمكن زراعتها والاستفادة منها ، وترتب على هذه المنح التزام الفاتحين بالدفاع عن الأراضى الممنوحة لهم ، كما نظم الملك إيرادات الجزية التى يتقاضاها من المسلمين ، وجعلها تدفع للفرسان الذين يخدمون فى الجيش[١] .

وبهذه التنظيمات تمكن الملك سانشو راميرث من تحقيق غزوات أكثر نجاحا عن طريق مجرى نهرى جلق وسينكا ، فقام بغزو مدينتى قوربينز Corbins وبراديا Pradilla عام ١٠٨٠م/٤٧٣هـ ، كما استولى على قلعة كوبن Covin فى العام نفسه[٢] . وعلى ضفاف نهر سينكا ، استولى الأرغونيون على مدينة مونيونس عام ١٠٨١م / أواخر ٤٧٣هـ ، كما قاموا بغزو بلويه ونبال Naval عام ١٠٨٢م/٤٧٤هـ [٣] .

واتجهت أطماع الملك سانشو راميرث نحو سرقسطة ، وأخذ يطالب المقتدر بدفع الجزية ، التى كان يدفعها لملك قشتالة ، فاستعان المقتدر بخدمات السيد القنبيطور ، ولكن المقتدر توفى فى أكتوبر ١٠٨٢م / جمادى الأولى ٤٧٥هـ ، بعد أن قسم أملاكه بين ولديه ، وخص ابنه الأكبر يوسف المؤتمن (١٠٨٢-١٠٨٥م / ٤٧٥-٤٧٨هـ) بمدينة سرقسطة وأعمالها ، وخص ولده الأصغر المنذر (١٠٨٢-١٠٩٠م/ ٤٧٥-٤٨٣هـ) بمدن لاردة وطرطوشة ودانية[٤]، وتلقب بالحاجب عماد الدولة[٥] .

---

(١) Lacarra, H.P.R.N., p. 285 .

(٢) D.H., t. II. p. 1118; Ballesteros, op. cit., p. 444 .

(٣) Ballesteros, op. cit., p. 444 .

(٤) دانية Denia : مدينة بشرقى الأندلس ، تقع على ساحل البحر المتوسط ، ولها قصبة منيعة ، وبها دار لإنشاء السفن . الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٧٦ .

(٥) حسين مؤنس ، الثغر الأعلى ، ص ١٠٢ ، بروفنسال ، الإسلام فى المغرب والأندلس ، ص ١٨٣ .

ويلاحظ أن المقتدر بن هود بعد أن وحد مدن الثغر الأعلى تحت سيادته عرضها للضعف والتفكك ، بسبب تقسيمها بين أبنائه . إذ سرعان مانشبت الخلافات بين الأخوين واستعان كل منهما بالنصارى ، فتحالف المؤتمن مع القنبيطور وجنوده من المرتزقة القشتاليين ، وتحالف المنذر مع ملك أرغون سانشو راميرث ، وقمط برشلونة رامون برنجير الثاني Ramon Beren-guer II (١٠٧٦-١٠٨٢/٤٦٨-٤٧٤هـ)[١] . وسرعان ما نشبت الحرب بين قوات المؤتمن والمنذر عام ١٠٨٢م/٤٧٤هـ عند قلعة المنار Almenar [٢] ، على حدود لاردة ، وهزم المنذر، وفر من ميدان المعركة مع الأمراء القطلان ، كما وقع برنجير الثاني أسيرا فى يد القنبيطور ، ولكن المؤتمن أطلق سراحه بعد الاتفاق على عقد الصلح بينهما[٣] .

واصل القنبيطور غزواته لحساب المؤتمن ، وفى عام ١٠٨٣م/٤٧٥هـ ، خرج مع المؤتمن فى قواته من سرقسطة ، وأغارا على الأراضى الأرغونية ، يدمرون ويخربون على امتداد خمسة أيام ، ثم عادا محملين بالأسرى والغنائم إلى قلعة منتشون ، دون مقاومة من الملك الأرغونى[٤] . والحقيقة أن الملك سانشو راميرث لم يرد على المسلمين فى هذا الجانب ، بل أنه رد على ذلك فى جانب آخر ، إذ كان مشغولا فى استرداد بعض الحصون الواقعة على الحدود شمال مملكة بنى هود ، فاستولى على حصن أجيره Aguero فى فبراير ١٠٨٣م/ شوال ٤٧٥هـ، كما استولى على حصن إيرب Ayerbe واسترد جرادوس فى أبريل / ذو الحجة من العام نفسه ، كما قام الملك سانشو بمباغتة المسلمين يوم عيد الميلاد فى الخامس والعشرين من ديسمبر ١٠٨٣م/ شعبان ٤٧٦هـ ، فى بيطره بيسادا Piedra Pisada ، قرب نبال -

---

(١) Pidal, op. cit. t. I, p. 284 ; Lacarra, H.P.R.N., pp. 283-284 .

(٢) المنار Almenar : تقع جنوبى شرقى منتشون ، وعلى بعد عشرين ك.م شمال لارده ، وهى إحدى قلاع الحدود الشرقية لمملكة سرقسطة اذ يوجد فى هذا الإقليم بعض المراكز القوية التى أهمها بلغير ، والمنار، وتاماريت ، ومنتشون وبريشتر ، والقصر ، وهى تمثل خط الدفاع عن مملكة بنى هود ضد المراكز القوية التابعة لقمط برشلونة والتى أهمها بوروى Purroy وبلثان Pilzan وقاصرش Caserras .

Turk, op. cit., p. 124 .

(٣) Pidal, op. cit., t. I, pp. 286-288; Turk, op. cit., pp. 125-126 .

(٤) Pidal , op. cit., t. I, p. 294; turk, op. cit. p. 129 .

فـى منتصـف وادى سينكـا - وانتصـر عليهـم . وتابع نشاطـه ، فقـام بغـزو أرجيـداس Arguedas - مجـاورة لوشقـة - فى أبريـل ١٠٨٤م / ذو الحجـة ٤٧٦هـ ، وسكاستـيا Secastilla الواقعة على ضفاف نهر سينكا - بالقرب من جرادوس - فى مايو ١٠٨٤م / محرم ٤٧٧هـ (١) .

ومما سبق يتضح لنا أن الملك سانشو راميرث زاد نشاطه فى تلك الفترة التى سادت فيها الانقسامات والحروب الأهلية بين بنى هود فى الثغر الأعلى ، وقام باسترداد قلاع الحدود واحدة بعد أخرى . ونلاحظ أن الملك الأرغونى اختار أوقات الغزو على المسلمين فى وقت احتفال المسيحيين بالمواسم الدينية ، وهى أوقات غير متوقعة للمسلمين ، فقد استرد بعض القلاع فى وقت احتفال المسيحيين بعيد القيامة ، وبعضها فى وقت احتفالهم بعيد الميلاد .

وساعدت الأحوال الداخلية عند المسلمين فى الثغر الأعلى على تدخل الملك الأرغونى سانشو، وترجع هذه الأحداث إلى النزاع الذى استحكم بين المؤتمن وأخيه المنذر ، فقام القنبيطور لحساب المؤتمن بإغارات كثيرة على لاردة ، واجتاح أراضى المنذر من الجنوب الشرقى ، حتى وصل بالقرب من مورلة Morella - حصن هام جنوب غربى طرطوشة - وبأمر المؤتمن قام القنبيطور بإعادة تحصين حصن العقاب Olocau ، الذى يقع غربى موره بحوالى تسع أميال ، كما حاصر مورلة نفسها . فانزعج المنذر من ذلك ، وطلب العون من الملك سانشو راميرث ، وعقدا محالفة للدفاع عن أراضيهما ، ثم جمعا جيشيهما ، وسارا لمحاربة القنبيطور ، وعسكرا على ضفاف نهر إبره قرب طرطوشة ، وأرسل ملك أرغون إلى القنبيطور يتوعده ، وينذره بالخروج على وجه السرعة من أرض حليفه ، ومغادرة قلعة موره . ورفض القنبيطور وأجاب بسخرية ، فغضب الملك الأرغونى ، فتوجه ومعه المنذر بسرعة إلى معسكر القنبيطور ، والتقى الفريقان فى أحواز موره ، فى الرابع عشر من أغسطس ١٠٨٤م/السابع من ربيع ثانى ٤٧٧هـ ، وانتهت المعركة بهزيمة وفرار الملك الأرغونى وحليفه المنذر ورجالهما بعد أن أسر القنبيطور منهم ما يقرب من ألفين ، ولكنه أطلق سراحهم بعد ذلك . وظل القنبيطور فى مدينة سرقسطة إلى أن توفى المؤتمن عام ١٠٨٥م/٤٧٨هـ ، فانتقل إلى خدمة ابنه أبو جعفر أحمد الملقب بالمستعين الثانى (١٠٨٥/ ١١١٠م / ٤٧٨-٥٠٣هـ)(٢) .

---

(١) Pidal, p. cit., t. I, p. 295; Maria Viguera, op. cit., p. 165 .

(٢) Pidal, op. cit., t. I, pp. 295-298; Turk, op. cit., pp. 130-131 ;

الطاهر أحمد مكى ، ملحمة السيد ، ص ٩٠ - ٩١ .

ومن الجدير بالذكر أن مدونة السيد ذكرت أن الملك الأرغونى الذى خاض هذه المعركة هو الملك بطره ، وهذا يخالف ما أجمعت عليه الروايات المسيحية بأنه كان الملك سانشو راميرث ، كما أشارت إلى وقوع الملك الأرغونى أسيرا فى هذه المعركة [١] ، وهذا أيضا يخالف الروايات المسيحية . بالإضافة إلى ذلك ، لم تحدد المدونة تاريخ معركة مورلة .

ولاشك أن مثل هذه الأحداث عرقلت الملك سانشو راميرث فى تنفيذ سياسة الاسترداد إلى حد ما ، وحتى يتفرغ لتوجيه السياسة الخارجية لمملكة أرغونى ، أشرك ابنه الأمير بطره - الذى يبلغ من العمر سبعة عشر عاما آنذاك - فى الحكم ، وعهد إليه بحكم مقاطعتى شبروب وربيا جورثا ، فى يونيه ١٠٨٥م/ ربيع أول ٤٧٨هـ ، مع الخضوع لسيادة الأب[٢] .

وفى خضم هذا الصراع بين المسلمين والنصارى فى أسبانيا ، كان أهم ماحدث فى هذا الوقت ، أن فقد المسلمون مملكة طليطلة ، بعد أن تنازل عنها صاحبها القادر بن ذى النون لملك قشتالة ألفونسو السادس ، فى مقابل أن يساعده فى الاستيلاء على بلنسية وأقطارها ، ودخل ألفونسو السادس مدينة طليطلة فى الخامس والعشرين من مايو ١٠٨٥م / السابع والعشرين من محرم ٤٧٨هـ[٣] . وعلى أثر ذلك ، تلقب ألفونسو "بالإنبراطور" ، وجعل يكتب فى كتبه الصادرة عنه من الإنبراطور ذى الملتين[٤] .

كان ضياع مملكة طليطلة كارثة كبرى حلت بالمسلمين فى أسبانيا ، إذ كانت تعتبر الثغر الأدنى لأسبانيا الإسلامية ، ومركزا للخط الدفاعى الثانى ، ولم يلبث خط وادى التاجه أن انهار بانهيار قاعدته الرئيسية ، وضمت مملكة قشتالة هذه الأراضى الشاسعة التى أمتدت جنوبا حتى جبال قرطبة ، وقد أطلق الأسبان على هذه المنطقة اسم قشتالة الجديدة Castila la Nueva [٥] .

---

(١) Chron. of the Cid, p. 111.

(٢) D.H.E., t. II, p. 1119; Maria Viguera, op. cit., p. 170 .

(٣) ابن الكرديوس ، الاكتفاء ، ص ٨٤ - ٨٥ ؛ Anales Toledanos 1, p. 343.

(٤) ابن الكرديوس ، نفسه ، ص ٨٨ - ٨٩ .

(٥) مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

أدى ذلك إلى طمع الملك ألفونسو السادس فى الاستيلاء على شبه الجزيرة الأيبيرية كلها ، فما كاد ينتهى من الاستيلاء على مملكة طليطلة ، حتى قام بحصار مدينة سرقسطة فى ربيع- صيف عام ١٠٨٦م/ أو اخر ٤٧٨ - أوائل ٤٧٩هـ[١] ، وأقسم أن لايرتحل عنها حتى يدخلها ، فبذل إليه أميرها المستعين بن هود مالا عظيما فى مقابل رفع الحصار ، فلم يقبله منه ، وأصر على أخذ المدينة [٢] . وفى ظل هذه الظروف ، استنجد ملوك الطوائف بأمير دولة المرابطين[٣] بالمغرب ، يوسف بن تاشفين (١٠٦١ - ١١٠٦م/ ٤٥٣ - ٥٠٠هـ) .

---

(١) Turk, op. cit., pp. 149 - 154 .

(٢) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ٩١ ، ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٥٠ .

(٣) المرابطين : هم عدة قبائل ينسبون إلى حمير ، كانت تعيش فى صحراء شنجيط أو ، ما يسمى اليوم بموريتانيا ، وسميت بصنهاجة اللثام ، حيث صار اللثام زيهم . قامت هذه الدولة على أسس دينية ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى الفقيه عبد الله بن ياسين ، الذى أطلق على أتباعه اسم "المرابطين" للزومهم رابطته التى ابتناها ابتغاء العزلة والعبادة ، وفى هذا الرباط تلقوا فيه تكوينهم الروحى والحربى ، والرباط من المرابطة أى ملازمة الثغور للجهاد . وكون جيشا قويا ، وشرع فى نشر شرائع الإسلام بين قبائل صنهاجة . ثم خرج المرابطون من الصحراء واتجهوا شمالا نحو المغرب للجهاد ، واستشهد عبد الله بن ياسين فى إحدى المعارك مع بربر برغواطة عام ١٠٥٨م/ ٤٥٠هـ . وتولى الأمير أبو بكر بن عمر زعامة المرابطين ، وقاتل برغواطة حتى أذعنوا له بالطاعة وأسلموا . ثم خرج بجيوشه إلى بلاد المغرب عام ١٠٦٠م/٤٥٢هـ ، وفتح كثيرا من المدن ، وارتحل إلى مدينة أغمات وأقام بها ، ثم عاد إلى الصحراء عام ١٠٦١م/٤٥٣هـ ، واستخلف على المغرب ابن عمه يوسف بن تاشفين ، وظل الأمير أبو بكر بن عمر بالصحراء حتى استشهد عام ١٠٨٧م/ ٤٨٠هـ ، فى إحدى المعارك وهو يعمل على نشر الإسلام . وخلال ذلك الوقت أسس يوسف بن تاشفين مدينة مراكش عام ١٠٦٢م/٤٥٤هـ لتكون عاصمة للمرابطين ، وعمل على إتمام فتح بلاد المغرب الأقصى ، وتوغلت جيوشه فى المغرب الأرسط ، واستطاع أن يخضع معظم نواحيه . وفى عام ١٠٨٢م/ ٤٧٥هـ أرسل إليه المعتمد ابن عباد- صاحب إشبيلية - يستدعيه للجواز إلى أسبانيا برسم الجهاد ونصرة المسلمين . وأرسل يوسف بن تاشفين جيشا من المرابطين بقيادة ولده المعز فحاصر سبته حتى فتحها فى ١٠٨٤م/٤٧٧هـ ، وأخذ يوسف يعد العدة للعبور بجيوشه إلى أسبانيا . ابن أبى زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس ، جـ٢ ، ص ٦ - ٥٢ ، ابن سماك العاملى ، الحلل الموشية ، ص ٦ - ٢٢ ، أحمد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص٢٨٨-٢٩٦ ، السيد عبد العزيز سالم - المغرب الكبير ، ص ٦٩٠ - ٧٠٣ .

استمر ألفونسو السادس على حصار سرقسطة ، حتى وصلته أخبار عبور المرابطين إلى أسبانيا فى منتصف أغسطس عام ١٠٨٦م / جمادى الأولى ٤٧٩هـ ، وحينئذ اضطر ألفونسو إلى رفع الحصار عن سرقسطة ، وعاد إلى طلطيلة ، وبعث يستنجد بالملك سانشو راميرث ملك أرغون ، وأمراء الثغر النصارى والأقماط فيما وراء البرنيه ، حتى اجتمعت لدى ألفونسو السادس حشود كبيرة[١] . فى ذلك الوقت كانت القوات الإسلامية بقيادة يوسف بن تاشفين قد نزلت بموضع يعرف بالزلاقة Zalaca[٢] من أحواز بطليوس Badajoz [٣] ، وتحركت قوات ألفونسو حتى نزلت بالقرب من مدينة بطليوس على بعد ثلاثة أميال من معسكرات المسلمين ، ويفصل بين المعسكرين الإسلام والنصرانى نهر بطليوس ، وسرعان ما نشب القتال بين الفريقين فى يوم الجمعة الثالث والعشرين من أكتوبر ١٠٨٦م / الثانى عشر من رجب ٤٧٩هـ[٤] ، فقامت قوات ألفونسو السادس بمباغتة معسكرات المسلمين ، واشتد القتال على ألفونسو حتى قتل أكثر جنوده ، وانتهى الأمر بانتصار القوات الإسلامية وفرار ألفونسو السادس مهزوما فى جنح الظلام[٥] . وعرفت هذه المعركة فى المصادر الإسلامية بمعركة الزلاقة ،

---

(١) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٥٣ - ٥٤ ، Pidal, op. cit., t. I, p. 331 .

(٢) الزلاقة : تعرف فى المصادر المسيحية باسم Sacralias ، ومكانها الآن قرية صغيرة على نهر جويرو Guerrero أحد فروع نهر وادى يانه Guadiana وتعرف اليوم باسم Sagrajas على بعد اثنى عشر ك.م شمالى شرق بطليوس فى غرب الأندلس . ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص٩٣ حاشية ١ .

(٣) بطليوس Badajoz : مدينة فى بسيط الأرض عليها سور منيع ، وهى على ضفة نهر يانه وهو نهر كبير ويسمى النهر الغوير ، وينتهى جريه إلى حصن مارتله ، ويصب قريبا من جزيرة شقر . الإدريسى ، صفة المغرب والأندلس ، ص ١٨١ .

(٤) اختلفت الرواية الإسلامية فى تحديد تاريخ معركة الزلاقة ، فقد حددها النويرى فى يوم الجمعة فى العشر الأول من رمضان ٤٧٩هـ/ ديسمبر ١٠٨٦ (نهاية الأرب فى فنون الأدب ، جـ٢٣ ، فى ٤٥٥) ؛ بينما حددها المراكشى فى يوم الجمعة الثالث عشر من رمضان ٤٨٠هـ/ ديسمبر ١٠٨٧م (تاريخ الأندلس "المعجب" ص٧٢) ، بينما سجلها ابن الكردبوس فى يوم الجمعة العاشر من رجب ٤٨١/ سبتمبر ١٠٨٨ (الاكتفاء ، ص ٩٥) ؛ وحددها ابن خلدون فى العام نفسه ٤٨١هـ / ١٠٨٨ (العبر جـ ٦ ، ص ٣٨٢ -٣٨٣) .

(٥) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، جـ٢ ، ص ٥٧ - ٦٠ ، ابن سماك العاملى ، الحلل الموشية ، ص ٤١ - ٤٤ . Primera Cronica General de Espana Madrid, 1955, t. II, pp. 557-558; Pidal, op. cit., t. I, pp. 333-337 .

بينما تعرف فى المصادر النصرانية باسم Sacralias نسبة إلى المكان الذى دارت عليه وقائع المعركة[١] .

وقد ترتب على معركة الزلاقة عدة نتائج كان من أهمها عدم سقوط سرقسطة فى أيدى ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وارتفع شأن المرابطين أمام الرأى العام الإسلامى ، وصورهم فى صورة المجاهدين عن الإسلام ، المدافعين عن أراضيه . كما أن الملك ألفونسو السادس طلب المساعدة من أمراء الأقاليم الجنوبية بفرنسا ، مهددا لهم فى حالة عدم مساعدتهم له ، بمحالفة المسلمين ، وبأن يتركهم يعبرون إلى الجانب الآخر من البرنيه ، أى إلى فرنسا ، فأخذ الفرنسيون يتنافسون فى تنظيم الحملات الكثيرة[٢] .

وفى شتاء عام ٨٦ - ١٠٨٧م/ ٤٧٩هـ ، استجابت القوى النصرانية لنداء ألفونسو السادس ، وأخذ الجيش الذى كان يتجمع فى فرنسا يصل إلى شبه الجزيره الأيبيرية ، للرد على الحرب المقدسة التى شنها المرابطون ، وقد اشترك فى هذا الجيش دون بورجوينا ، وأخوه إنريك Enrique ، وابن عمه رامون Ramon ، ومعهم فرق من مقاطعات لانجدوك Languedoc وبروفانس Provenza وبعض الفرسان من نورمانديا Normandia وأمراء من مقاطعات أخرى . ولكن الملك ألفونسو السادس عدل عن خطته فى الاستعانة بالفرنسيين ، واعتبر حضور هذا الجيش غير ضرورى بعد عودة يوسف بن تاشفين إلى أفريقيا ، وأمرهم بالعودة إلى بلادهم . ولكن الفرنسيين لم يرغبوا فى العودة دون القيام بعمل عسكرى ، فدخلوا فى خدمة سانشو راميرث ملك أرغون ، وهاجموا أرض المستعين صاحب سرقسطة ، وحاصروا مدينة تطيلة ، ولكن الخلافات التى دبت بينهم أدت إلى رفع الحصار ، فعادوا إلى بلادهم فى أبريل ١٠٨٧م / محرم ٤٨٠هـ [٣] .

---

(١) أحمد مختار العبادى ، فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٣٣٢ .

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٢٦ - ٧٢٧ ،

Turk, op. cit., p. 156 .

(٣) Pidal, op. cit., t. I, pp. 340 - 341; Defourneaux, op. cit., p. 144 ;

السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٢٧ .

ومن الجدير بالذكر أن المؤرخ ابن الكردبوس قد أشار إلى هذه الحملة تحت أحداث عام ٤٨١هـ/ ١٠٨٨ - ١٠٨٩م[١] .

وكان من نتائج معركة الزلاقة أيضا تسوية الخلافات التى كانت قائمة بين ملكى أرغون وقشتالة منذ عام ١٠٧٦م بخصوص تقسيم مملكة نبرة بعد مقتل ملكها سانشو غرسيه ، فقد تم تسوية النزاع فى ربيع ١٠٨٧م ، إثر المساعدة الحربية الأرغونية ، للملك ألفونسو السادس فى معركة الزلاقة ، إذ تم تقسيم مملكة نبرة إلى ثلاث أجزاء : أحدهما يقع على يمين إجا Ega خصص لمملكة قشتالة ؛ والآخر منطقة جبلية متاخمة لمملكة بنى هود خصصت لمملكة أرغون ، والجزء الثالث بنبلونة وإستيا الذى سمى مقاطعة نبرة ، التى فضلت الانضمام إلى مملكة أرغـون . وقد جعل هذا التقسيم أرغون مملكة كبرى ، حرة فى نشاطها الحربى ضد عدوتها مملكة بنى هود ، كما أعطى الملك سانشو راميرث الفرصة لكى يتفرغ لسياسة الاسترداد ، ومن بعده ملوك أرغون الذين اهتموا بتوسيع مقاطعاتهم على حساب مملكة سرقسطة[٢] .

وقد شجعت هذه الحالة الملك سانشو راميرث للزحف الأرغونى فى وادى سينكا ، منتهزا فرصة الحروب الأهلية بين المستعين صاحب سرقسطة وعمه المنذر صاحب لاردة من جهة ، وانشغال يوسف بن تاشفين بخلع ملوك الطوائف من جهة أخرى . وقام الملك الأرغونى وابنه الأمير بطره بفتح مدينة إستادا Estada[٣] ، فى صيف عام ١٠٨٧م/ ٤٨٠هـ ، ولم تذكر المصادر أى معركة بين الملك الأرغونى والمسلمين فى هذه المرحلة ، ولعل المدينة استسلمت لملك أرغون طواعية ، أو بثمن أو بالخيانة . وكان فى سيطرة الأرغونيين على مدينة إستادا ليس فقط تهديدا لمنتشون ، ولكنها هددت أيضا بريشتر وإستاديا Estadilla[٤] التى كانت أكثر قربا لإستادا[٥] .

---

(١) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ٩٩ .

(٢) Lacarra. H.P.R.N., vol. I, p. 286; Turk, op. cit., pp. 163 - 164 .

(٣) إستادا Estada : مدينة تقع على يسار نهر سينكا ، وعلى بعد خمسة وعشرين ك.م شمال منتشون، وخمسة عشر ك.م جنوب غربى بريشتر Turk, op. cit., p. 166 .

(٤) إستاديا Estadilla : مدينة تقع شمال منتشون بحوالى خمسة عشر ك.م .

Turk, op. cit., p. 167 .

(٥) Turk, op. cit., pp. 165 - 166 : Viguera, op. cit., p. 170 .

وبعد قليل من سيطرة الملك سانشو على إستادا ، ضم جبل أرغون (١٠٨٧م/ ٤٨٠هـ) على بعد خمسة كيلو مترات شرق وشقة - وقام بتعميره فى العام التالى ، وتتويجا لهذا العمل بنى الملك سانشو فى مايو ١٠٨٩م / ربيع أول ٤٨٢ دير جبل أرغون بالغرب من وشقة[١] .

وفى العام نفسه (١٠٨٩/ ٤٨٢هـ) سلم رجل يدعى عثمان Hotmen مدينة أريسترلاس Ariéstolas[٢] للأرغونيين[٣] . ولم تمدنا المصادر بمعلومات أكثر من ذلك ، ويحتمل أن يكون هذا التسليم قد تم نظير المال أو الخيانة ، كما لم تقدم لنا المصادر أيضا معلومات عن هذا الرجل ، ولعله كان قائد القلعة .

وتوجهت القوات الأرغونية بعد ذلك إلى قلعة منتشون ، وتمكنت من دخولها فى الرابع والعشرين من يونيه عام ١٠٨٩م/ الثانى عشر من ربيع ثانى ٤٨٢هـ ، ولعل ذلك يرجع إلى المباغته أو الخيانة ، إذ لم تذكر الوثائق أى معركة بين الملك الأرغونى والمسلمين [٤] .

ومنذئذ أصبحت منتشون مركزا أماميا ذات وضع استراتيجى هام للاسترداد الأرغونى ، إذ هددت ثلاثة حصون قوية هى بربشتر وتاماريت والمنار ، وفتحت الطريق للزحف الأرغونى نحو الإبره ، كما أفادت فى التطلعات التوسعية إلى لاردة وطرطوشة[٥] .

وخلال بابوية أوربان الثانى (١٠٨٨-١٠٩٩م/ ٤٨١-٤٩٢م) ، وضع الملك سانشو راميرث كل أديرة مملكته تحت سلطة وحماية البابا فى يوليو ١٠٨٩م/ ربيع ثانى ٤٨٢هـ ، وبدأ الملك يدفع للبابوية ضريبة سنوية قدرها خمسمائة مثقال من الذهب ، وفى نظير ذلك استمرت حماية البابوية للملك الأرغونى وأبنائه[٦] . ومن المحتمل أن الملك سانشو راميرث

---

(١) Anales Toledanos 1, p. 343; D.H.E., t. I I, p. 1118 .

(٢) أريسترلاس Ariéstolas : مدينة تقع وسط نهر سينكا ، مواجهة لجسر كاستنخون Castejon del Puente . Turk, op. cit., p. 165. not. l.

(٣) Ibid; Maria Viguera, op. cit., p. 170 .

(٤) Annales Compostellani en (Esp. Sag., vol. XXIII), p. 321: Turk, op. cit., pp. 166-167 .

(٥) Lacarra, H.P.R.N., p. 287; Turk, op. cit., p. 167 .

(٦) D.H.E., t. II, p. 1119; Lacarra, H:P.R.N., vol. I, p. 494.

كان يقصد من وراء هذه الحركة البحث عن حماية دينية أمام ملك قشتالة ، لفتح الطريق إلى الإبره بصفة شرعية[١] ، وكان لهذه الحماية البابوية أثر كبير فى دفع حركة الاسترداد التى قام بها ملوك أرغون ، كما حصل الملك من البابا على إذن بأن يستخدم فى محاربة المسلمين ، دخل الكنائس الواقعة فى مناطق كانت تابعة للمسلمين[٢] .

وتشجع الملك سانشو راميرث بمساندة البابوية ، وأخذ يشن الغارات على أراضى وشقة حتى أجبر حاكمها على دفع الجزية فى عام ١٠٩٠م/٤٨٣هـ [٣] . وفى ذلك الوقت استعان الملك ألفونسو السادس بالملك سانشو راميرث لمواجهة التهديد المرابطى ، فذهب الملك الأرغونى إلى طليطلة لمساعدته ضد المرابطين[٤] . وتحالف الملك ألفونسو السادس مع الملك سانشو راميرث لتأمين وضع المسيحيين فى شرقى أسبانيا وإنقاذه من طمع المرابطين[٥] .

وفى العام التالى ١٠٩١م/٤٨٤هـ ، قامت القوات الأرغونية بقيادة الأمير بطره بفتح مدينة إستاديا وضمها إلى مملكة أرغون ، لتأمين مدينة منتشون التى كانت محاطة بالقوى الإسلامية[٦] . كما تمكن الأمير بطره من الاستيلاء على مدينة زيدن Zaidin ، الواقعة على نهر سينكا ، شمال إفراغة ، فى يناير عام ١٠٩٢م/ ذى الحجة ٤٨٤هـ[٧] .

وبينما كان الأمير بطره يقوم بالغزو فى الجهة الشرقية من مملكة بنى هود ، كان أبوه الملك سانشو يقوم بنشاط آخر فى الجهة الغربية ، فقام ببناء وتحصين قلعة كاستيار el Castellar على الضفة اليسرى للإبرة ، على بعد اثنى عشر ميلا شمال غرب سرقسطة ،

---

(١) Fernandez, op. cit., p. 486 .

(٢) أشباخ ، تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، ص ١٢٠ .

(٣) Ballesteros, op. cit., p. 445; D.H.E., t. II, p. 1118 .

(٤) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٦٨ ؛ D.H.E., t. II, p. 1118.

(٥) P.C.G., t., II, pp. 572-573 .

(٦) Turk, op. cit., p. 167 .

(٧) D.H.E., t. II, p. 794 .

١٠٩١م/ ٤٨٤هـ [١] ، وكلف أسقف بنبلونة ببناء كنيستها فى أغسطس / جماد ثانى من العام نفسه، كما كلف الملك قمط نبره سانشو سانشيز Sancho Sanchez بالدفاع عن هذه القلعة[٢] .

وكان بناء قلعة كاستيار على بوابات سرقسطة ، وزيادة تحصيناتها تهديدا السرقسطة ، فأسرع المستعين بطلب مساعدة القنبيطور . وحشد الملك سانشو راميرث وابنه الأمير بطره جيشا كبيرا لمواجهة القنبيطور والمستعين ، وتوغلوا فى أراضى المستعين حتى جوريا دى جلق Gurrea del Gallego - على أربعين كيلو متر شمال سرقسطة - وعسكروا هناك فى مارس ١٠٩٢م/ صفر ٤٨٥ ، ولكن القنبيطور خشى الأخطار التى هددته من الجنوب ، إذ خشى أن ينتزع ألفونسو السادس مملكة بلنسية ، التى كان القنبيطور يطمع فى امتلاكها ، فأكد الصداقة والتحالف مع الملك سانشو راميرث ، الذى احتفظ بقلعة كاستيار[٣] . وعقد تحالف بين الثلاثة ، القنبيطور والمستعين ، والملك سانشو وابنه بطره ، فى أبريل - مايو ١٠٩٢م/ ربيع أول ٤٨٥هـ ، من أجل الدفاع عن الشرق ضد الخطر المرابطى[٤] ، خاصة أن الملك سانشو راميرث كان له ممتلكات فى قسطيلون Castellon أحد مقاطعات بلنسية . وقد أكدت هذه المعاهدات التضامن الأسبانى بين المسلمين والمسيحيين أمام المرابطين فى هذه المرحلة[٥] .

لعلنا نتساءل لماذا وقف المستعين هذا الموقف وتحالف مع النصارى ضد المرابطين ؟ ويمكن أن يكون له العذر ، لأنه خشى من أطماع ملك أرغون ، نتيجة اتصال مملكته مباشرة بحدود مملكة أرغون ، فاضطر المستعين أن يقف من جيرانه النصارى موقف المصانع المدارى للتخلص من شرهم[٦] ، وقد التمس له يوسف بن تاشفين أمير دولة المرابطين موقفه وعذره ، وهناك مبررات أخرى لموقف المستعين ، منها أنه خشى عدم نجدة المرابطين له بالسرعة المطلوبة لمواجهة

---

(١) Lacarra, H.P.R.N., p. 287 .

(٢) Lacarra, D.E.R.R. V. E., Doc.num. 2, pp. 472-473 .

(٣) Lacarra, H.P.R.N., p. 287; Maria Viguera, op. cit., p. 171 .

(٤) Ballesteros, op. cit., p. 330; Chaytor, op. cit., p. 46 .

(٥) Pidal, op. cit., t. I, pp. 414-416; t. II, p. 771 .

(٦) حسين مؤنس ، الثغر الأعلى الأندلس ، ص ١٠٠ .

تيار النصارى ، لبعد مملكته . وربما خشى المستعين أن يصيبه على أيدى المرابطين ما أصاب ملوك الطوائف الذين عزلهم يوسف بن تاشفين من عروشهم ، فخشى هو أيضا أن يفقد مملكته. ويحتمل أيضا أنه تعاطف مع ملك أرغون والتنبيطور طمعا فى مملكة بلنسية .

وفى طريق عودة الملك سانشو ، عمل على تعمير مدينة لونا Luna بالسكان عام ١٠٩٢م/ ٤٨٥هـ ، وأرغم مدن إخيا[١] ، وتوست Tauste وبراديا على دفع الجزية لتأمين سكونها ، وقد تنازل الملك الأرغونى عن عشر الجزية لدير سوبى ما خوير Sauve - Majeur الواقع فى جسقونية Gascuna (Gironda) ، كما تعهد بأن يسلمه مساجد هذه المدن عند غزوها ، كما استولى الملك الأرغونى على حصن لباتا Labata ، الواقع شمال غربى وشقة فى عام ١٠٩٢م/ ٤٨٥هـ[٢] . وهكذا استمر المسلمون فى بلتيرة ، وكادريتا Cadrieta ، وموريو دى لاس ليماس Murillo de Las Limas يدفعون الجزية للملك سانشو راميرث ضمانا لأمنهم[٣] . وفى مايو ١٠٩٣م / ربيع ثانى ٤٨٦هـ ، منح الملك الأرغونى عشر الجزية لدير القديس بونز دى تومييرز ، كما تعهد بأن يسلم للدير كنائس هذه المنطقة عند غزوها[٤].

أما فى الميدان الشرقى من المملكة الهودية ، فقد زحف الأمير بطره من مدينة منتشون نحو الجنوب الشرقى ، وفتح قلعة المنار فى يونيه ١٠٩٣م / جمادى الثانى ٤٨٦هـ[٥] ، كما استولى على مدينة كوله Culla فى مقاطعة قسطيلون دى لابلانا Castellon de la Plana الحالية[٦] .

---

(١) إخيا : تعرف باخيا الفرسان Ejea de Caballeros وتقع مدينة اخيا على نهر أربا Arba ، وعلى بعد خمسة وخمسين ك.م شمال غرب سرقسطة ، وعلى أربعين ك.م شرقى تطيلة ، وهى مكان رئيسى على حدود نبرة . Turk. op. cit.. p. 184 .

(٢) Lacarra. H.P.R.N., p. 292, Maria Viguera. op. cit., p. 171 .

(٣) Lacarra. H.P.R.N., p. 294 .

(٤) Lacarra. D.E.R.R. V.E., Doc. num. 3. pp. 473-477 .

(٥) Turk. op. cit.. P.167 .

(٦) D.H.E.. t. 11. p. 1119 .

وخلال ذلك الوقت ، رأى يوسف بن تاشفين أن يوحد بين القوى الإسلامية قبل أن يخوض معركة الجهاد فى أسبانيا ومواجهة النصارى ، فبينما كان الملك سانشو راميرث يقوم بتنفيذ سياسة الاسترداد والزحف الأرغونى فى الثغر الأعلى ، كان يوسف بن تاشفين مشغولا فى خلع ملوك الطوائف ، وعزلهم عن إماراتهم ، حتى يقضى على الفرقة والتنازع الذى ساد بينهم ، وما رأى من تقصيرهم فى معاونة جيوشه أثناء النضال مع النصارى ، بل أنه استيقن أن بعضهم كان يتآمر مع أمراء النصارى على المرابطين ، ولا سيما الأمير عبد الله بن بلقين الزيرى صاحب مملكة غرناطة ، الذى كان يدفع جزية سنوية إلى ألفونسو ملك قشتالة قدرها ثلاثون ألف دينار[١] ، ولم ينته عام ١٠٩١م/٤٨٤هـ حتى قضى المرابطون على إمارات الطوائف كلها ماعدا مملكة سرقسطة . فقد عرف يوسف حرج مركز المستعين بن هود صاحب سرقسطة وصعوبة موقفه أمام جيرانه النصارى ، كما قدر يوسف بن تاشفين خطورة الدور الذى كان بنو هود - أمراء سرقسطة - يقومون به فى تلك الفترة الحافلة بالمخاطر ، فقد كانوا يقفون حائلا بين إمارات النصارى وما يليها من بلاد المسلمين فى شرق الأندلس . وقد أرسل المستعين ابنه عبد الملك إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ليؤكد ولاءه ، وإخلاصه لقضية الإسلام فى الجزيرة ، وليبين له أنه برئ من تهمة التآمر مع النصارى على جيوش المرابطين ، وكتب إليه قائلا: "نحن بينكم وبين العدو سد ، لا يصل إليه ضرر ومطاعين قطوف ، قد قنعنا بمسالمتكم"[٢] وفى هذه المرحلة كان جنوب الأندلس والجزء الجنوبى الشرقى حتى مرسيه ودانيه تحت سيادة المرابطين .

وفى تلك الفترة أيضا ساد الاضطراب فى بلنسية ، وعجز صاحبها القادر بن ذى النون عن السيطرة على دفة الحكم فيها ، فتطلع إلى الاستيلاء عليها المنذر بن هود صاحب لاردة وطرطوشة ، والمستعين بن هود صاحب سرقسطة . وانتهز المنذر فرصة خروج الحامية القشتالية التى كانت تحمى القادر ، لمساعدة القوات القشتالية فى معركة الزلاقة ، وزحف إلى بلنسية ، وضرب عليها الحصار عام ١٠٨٧م/٤٨١هـ . فاستنجد القادر بألفونسو السادس

---

(١) عبد الله بن بلقين ، التبيان ، ص ١٢٣-١٢٥ ؛ حسين مؤنس ، الثغر الأعلى الأندلسى فى عصر المرابطين ، ص ٦٩ .

(٢) ابن سماك العاملى ، الحلل الموشية ، ص ٥٣ ، حسين مؤنس ، الثغر الأعلى الأندلسى ، ص ١٠٤ .

ملك قشتالة ، وبالمستعين ابن هود[١] . ووجد المستعين فى ذلك فرصة لتحقيق أطماعه فى بلنسية، فعقد اتفاقا سريا مع القنبيطور للاستيلاء على المدينة ، على أن تكون الغنائم للقنبيطور والمدينة للمستعين ، وزحف المستعين نحو بلنسية وبصحبته حليفه القنبيطور ، ولما علم المنذر بذلك انسحب من المدينة [٢] .

ثم قرر القنبيطور الاستيلاء على بلنسية ، واتفق مع القادر بن ذى النون فى عام ١٠٨٩م/٤٨٢هـ على حمايته من أعدائه المسلمين والنصارى ، مقابل جزية سنوية قدرها اثنى عشر ألف مرابطى[٣] يدفعها له القادر[٤]. كما أخضع القنبيطور أمراء سهلة بن رزين Albar-racin[٥] والبونت Alpuente[٦] ، ودفعوا له الجزية . وعند وفاة المنذر حاكم لاردة

---

(١) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ٩٨ ، P.C.G.E., t. II, p. 559 .

(٢) ابن الكردبوس ، نفس المصدر ، ص ٩٨ .

(٣) المرابطى : عملة ذهبية سكها أمراء المسلمين المرابطين ، ودخلت أسبانيا فى نهاية القرن الحادى عشر، وقد استخدمت كلمة مرابطى بدلا من المثقال ، الذى كان وزن الدينار ، ويمكن استخدام كلمة الدينار بدلا من المرابطى . وكان وزن الدينار المرابطى حوالى سبع أو قيات من الذهب .

The Chronicle of James I, king. of Aragon, London, 1883, vol I, p. 47, not. I; Pidal, op. cit., t. II, p. 786 .

(٤) P.C.G.E., t. II . p. 565 .

وحددت مدونة السيد قيمة الجزية بأربعة آلاف مرابطى من الفضة أسبوعيا (Chron. of the cid, p. 126) بينما حددها المورخ أجوادو بلاى بألف دينار أسبوعيا (Bleye, op. cit. p. 609) .

(٥) سهلة بنى رزين Albarracin : فى إقليم شرق الأندلس ، وتسمى بالسهلة لخصوبتها وكثرة أنهارها. وقد أطلق عليها العرب شنتمرية ابن رزين ، ومنها جاء اسم البراسين ، نسبة إلى أسرة بنى رزين التى حكمتها فترة طويلة . ويقال لها شنتمرية الشرق تمييزاً لها عن شنتمرية الغرب بالبرتغال .

C. F. Seybold, Ency. of Lslam. vol. I, p. 250 .

كمال السيد أبو مصطفى ، بنو رزين ودورهم السياسى والحضارى فى شنتمرية الشرق ، مجلة كلية الآداب، المجلد ٣٥ ، ١٩٨٧ ، ص ٢٠١-٢٠٢ .

(٦) البونت Alpuente : تقع شمال غربى بلنسية ، وهى قرية من أعمال بلنسية ويصفها ابن سعيد بأنها معقل من المعاقل الرفيعة ، والشواهق المنيعة . ابن سعيد المغربى ، المغرب فى حلى المغرب ، تحقيق : شوقى ضيف القاهرة ١٩٦٤ ، جـ٢ ، ص٣٩٥ .

وطرطوشة فى عام ١٠٩٠م/٤٨٣هـ ، وضع إبنه سليمان ممالكه لاردة طرطوشة ودانية تحت حماية القنبيطور ودفع له الجزية . وفى العام التالى خضع للقنبيطور أمراء المنطقة الشرقية لبلنسية من أوريولة Orihuela[1] إلى طرطوشة ، ودفعوا له الجزية[2] .

وأراد ألفونسو السادس أن يضع حدا لنفوذ القنبيطور ، فقرر أن ينتزع منه بلنسية فعقد حلفا مع بعض المدن الإيطالية وهى جنوة وبيزا لمحاصرة بلنسية من البحر ، كما تحالف مع برنجير الثانى صاحب برشلونه والملك سانشو راميرث على مهاجمة المدينة من البر من ناحية طرطوشة ، وقد دخل الملك الأرغونى هذا الحلف طمعا فى الاستيلاء على طرطوشة ، إذ كان له ممتلكات فى قسطيلون وأوروبسا Oropesa التى تقع على ثلاث فراسخ من قسطيلون[3] .

بدأ ملك قشتالة فى تنفيذ خطته فى مايو - يونيه ١٠٩٢م/ ربيع ثانى - جماد أول ٤٨٥هـ ، واتجه إلى بلنسية وضرب عليها الحصار ، وقد تأخر وصول الأسطول الإيطالى إلى بلنسية فى الموعد المحدد ، كما نقصت المؤن فى قوات ألفونسو . وفى ذلك الوقت ، كان القنبيطور فى سرقسطة مشغولا بمؤازرة حاكمها فى صراعه مع ملك أرغون ، فلما علم القنبيطور بحصار ألفونسو بلنسية ، اتجه بجيشه إلى أراضى قشتالة ينشر فيها الخراب والدمار ، فاضطر ألفونسو السادس إلى رفع الحصار والعودة مسرعا إلى قشتالة ، ووصل الأسطول الإيطالى ونزل على طرطوشة ، بينما هاجم سانشو راميرث وبرنجير الثانى بلنسية من البر ، ولكنهم لم يتمكنوا من فتحها ، فانسحبوا من طرطوشة ، وعانى ملك أرغون فى انسحابه خسارة كبيرة ، وعاد القنبيطور إلى بلنسية ، وفرض على أميرها جزية قدرها مائة ألف دينار سنويا[4] . وبذلك فشل ألفونسو السادس فى تحقيق هدفه .

---

(١) أوريولة Orihuela : كانت قاعدة كورة تدمير ، وتقع على ضفة النهر الأبيض ، وهى منيعة تحميها الجبال من الأمام والخلف ، بينها وبين مرسية اثنا عشر ميلا ، وتقع على بعد عشرون ميلا من شاطئ البحر. الإدريسى ، صفة الأندلس ، ص ١٩٣ ، عبد الله عنان ، الآثار الأندلسية الباقية فى أسبانيا والبرتغال ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م ، ص١٢٨ .

(٢) P.C.G.E., t. II. PP. 560-565; Chron. of the Cid, pp. 130-131 .

(٣) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ٩٩ ، Pidal, op. cit. t., I, pp. 416 - 417 .

(٤) ابن الكردبوس ، نفسه ، ص ٩٩ - ١٠٠ ، Pidal, op. cit., t. I, pp. 417-419; Bleye, op. cit., p. 611 .

وفى سبتمبر ١٠٩٢م / شعبان ٤٨٥هـ خرج القنبيطور إلى مملكة سرقسطة لمساعدة المستعين على مواجهة الخطر الأرغوني ، فانتهز قاضى بلنسية أبو أحمد بن جعفر بن عبد الله بن حجاف المعافرى[١] فرصة غياب القنبيطور ، وقام بثورة وقبض على القادر بن ذى النون أمير بلنسية وقتله فى أكتوبر ١٠٩٢م / رمضان ٤٨٥هـ ، وتولى ابن حجاف أمر بلنسية ، وبويع له بالرياسة[٢]. فلما علم القنبيطور بذلك رحل عن سرقسطة ونزل على بلنسية وحاصرها فى نوفمبر / آخر رمضان من العام نفسه وتحالف مع ملك أرغون[٣] . واستنجد أهل بلنسية بالمرابطين ، فأوفد يوسف بن تاشفين لإنقاذ بلنسية الأمير أبى بكر بن ابراهيم بن تاشفين ، واتجه الجيش المرابطى نحو بلنسية ووصل حتى مشارف بلنسية فى نوفمبر ١٠٩٣م/شوال ٤٨٦هـ ، ولكنه انسحب فجأة إلى شاطبة Xativa[٤] دون قتال[٥] . ولم تشر الرواية الإسلامية إلى سبب انسحاب الجيش المرابطى ، ولكن الرواية المسيحية أشارت إلى انسحابه بسبب هطول الأمطار بغزارة فى عشية الإعداد للمعركة[٦] ، وأخذ القنبيطور

---

(١) هو جعفر بن عبد الله بن جعفر بن عبد الرحمن بن حجاف المعافرى . يكنى أبا أحمد ، من أهل بلنسية وقاضيها ورئيسها فى الفتنة ، وصارت الرياسة إليه بعد خلع القادر بن ذى النون وقتله على يديه . فلم تحمد سيرته ، ولاشكرت ملكته . واستصفى ماله القنبيطور المتغلب على بلنسية ، ثم أحرقه بالنار فى جمادى الأولى ٤٨٨هـ / مايو ١٠٩٥م . ابن الأبار ، التكملة لكتاب الصلة ، نشر السيد عزت العطار ، مصر ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م ، جـ١ ترجمة رقم ٦٣٣ ، ص ٢٣٩- ٢٤٠ .

(٢) ابن بسام ، الذخيرة ، ق٣ ، م١ ، ص٩٥ - ٩٧ ،

P.C.G.E., t. II, pp. 566-576 .

(٣) ابن الأبار ، التكملة لكتاب الصلة ، جـ١ ، ترجمة رقم ١١٣٦ ، ص ٤٠٣ - ٤٠٤ ،

Pidal, op. cit., t. II, p. 864 .

(٤) شاطبة Xativa تقع جنوب غربى بلنسية على مسافة اثنين وثلاثين ميلا ، بالقرب من ساحل البحر المتوسط ، وقد أحاط بها الوادى ، وتتميز بحصانتها ومناعتها . الإدريسى ، صفة المغرب والأندلس ، ص١٩٢ .

(٥) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٤ ، ص٣٢ .

(٦) P.C.G.E., t. II, pp. 573 - 575 ; Miranda, Las Luchas del Cid Campeador con los Almoravides, Hespéris Tamuda, 1965, vol vi, pp. 80-82 .

يضيق الحصار على بلنسية ، حتى عظم البلاء وتضاعف الغلاء ، فارتفعت أسعار السلع والأغذية ، حتى أهلك الجوع والقحط عددا كبيرا من السكان[١] .

وكتب ابن جحاف إلى المستعين يطلب مساعدته ، ورغبه في المال والبلد ، غير أن المستعين لم يكن راغبا في الاصطدام بالقنبيطور صديقه ، وحليفه ، وخشي القنبيطور من وصول المرابطين، وحاول دخول المدينة بالقوة ، فلما فشل ، قرر أن يستولي على بلنسية بالحصار والتجويع[٢] . وفقد أهل بلنسية الأمل في وصول مساعدة من قبل المستعين ، أو المرابطين - الذين انشغلوا بمدافعة ألفونسو السادس عن وسط أسبانيا وغربها - واضطر القاضي ابن جحاف أن يسلم المدينة للقنبيطور في الخامس عشر من يونية ١٠٩٤م / الثامن والعشرين من جمادى الأولى ٤٨٧هـ ، بعد حصار دام عشرين شهرا[٣] . ومن الجدير بالذكر أن ابن بسام حدد تاريخ دخول القنبيطور مدينة بلنسية عام ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م[٤] ، وهذا يخالف ما أجمعت عليه المدونات الإسلامية والمسيحية . كما أن مدونة السيد لم تحدد تاريخ دخول القنبيطور بلنسية ، وما ذكرت إلا أن بوابات المدينة فتحت للقنبيطور ظهر يوم الخميس[٥] ، دون تحديد تاريخه .

وفي الوقت نفسه ، كان محور السياسة السرقسطية يتركز نحو بلنسية ، إذ اهتم المستعين حاكم سرقسطة بما يجري في بلنسية ، تاركا الحدود الشمالية لمملكته تحت رحمة السياسة الأرغونية ، وكان في ذلك فرصة للملك سانشو راميرث وابنه الأمير بطره للتوسع في المنطقة الشرقية لمملكة بني هود . لذلك قرر الملك سانشو غزو مدينة وشقة[٦] .

---

(١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٠٤ ، P.C.G.E., t. II, 575-576 .

(٢) P.C.E., t. II, pp. 582-586; Chron. of the Cid, pp. 161-167 .

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٤ ، ص ٣٤ ، ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص٢٠٤؛ P.C.G.E., t. II, pp. 586-588.

(٤) ابن بسام ، الذخيرة ، ق٣ ، م١ ، ص٩٨ .

(٥) Chron. of the Cid, pp. 172-174 .

(٦) Turk, op. cit., p. 169 .

وكان زحف الملك سانشو من سلاسل غواره ، بعدما سيطر على مراكزها الأمامية فى لور وأنيس Aniés (١٠٨٤م/٤٧٧ هـ) فى الشمال الغربى للمدينة ، وقام بتحصين حصن جبل أرغون (١٠٨٩م/٤٨٢هـ) ، كما سيطر على لباتا (١٠٩٢م/٤٨٥هـ) ، كما قام بتحصين قلاع ماركيو ولورو القصر . وقد اتخذ الملك سانشو من حصن جبل أرغون قاعدة لشن هجومه على وشقة ، وبدأ بإتلاف محاصيلها ، ثم ضرب الحصار عليها فى مايو ١٠٩٤م/ ربيع ثانى ٤٨٧هـ ، وهاجمها بجيش قوى من الأرغونيين والنبريين ، وأقام معسكره على ربوة تسيطر على المدينة ، والذى سمى "معسكر سانشو el Pueyo de Sancho"[١] .

فى ذلك الوقت ، رأى المستعين أن الخطر الأرغونى يهدد مملكته ، وأدرك أنه لايمكنه مواجهة هذا الخطر دون معارنة من الخارج ، كما أيقن أنه لايستطيع الاعتماد على محالفة القنبيطور وعونه ، لانشغاله بأمور مملكة بلنسية ، فاتجه نحو ألفونسو السادس ملك قشتالة ، ووعده بدفع الجزية نظير حمايته من اعتداءات الأرغونيين . غير أن ألفونسو حينذاك ، كان يواجه خطر المرابطين ، وليس فى وسعه أن يحول جيوشه ضد أرغون[٢] . فاتجه المستعين يستنجد بالمرابطين ، وفى الوقت نفسه أرسل إمدادات إلى عبد الرحمن أمير وشقة[٣] .

وشدد الملك الأرغونى الحصار على المدينة ، وقرر أن يستولى على قلعة وشقة ، وفى هذه المرحلة ، عانى الجيش الأرغونى خسائر فادحة من جراء هجمات المسلمين من داخل القلعة بين آونة وأخرى . وبعد وقت قصير من الحصار وأثناء إحدى المناوشات بين الأرغونيين والوشقيين، أصيب الملك سانشو راميرث بجرح مميت من سهم قذفه جندى مسلم ، بالقرب من سور المدينة ، وحمل الملك الأرغونى إلى المعسكر ، وأخذ القسم من النبلاء والفرسان بالطاعة والولاء لولده الأكبر دون بطره ، ثم أخذ العهد من أبنائه بطره وألفونسو بعدم رفع الحصار عن وشقة

---

(١) C. C. A. . P. 8; Turk, op. cit, p. 170 .

(٢) أشباخ ، تاريخ الأندلس ، ص ١٠٣ ؛

Lacarra, H. P. R. N., p. 287 .

(٣) Ballesteros op. cit., t. II, p. 445 .

من الجدير بالذكر أن المصادر الإسلامية لم تمدنا بتعريف عن أمير مدينة وشقة فى ذلك الوقت .

حتى سقوطها . ومات الملك سانشو راميرث فى الرابع من يونية ١٠٩٤م/ جمادى الأولى ٤٨٧هـ ، ودفن فى دير جبل أرغون ، ثم نقل إلى ديرسان خوان دى لابينيا ، بعد فتح وشقة فى عهد إبنه ووريثه دون بطره[١] .

ومن الجدير بالذكر أن بعض المؤرخين المحدثين مثل مننديث بيدال وأجواد وبلاى أكدوا أن الملك سانشو راميرث توفى وفاة طبيعية [٢] .

والواقع أن حكم الملك سانشو راميرث كانت له أهمية فى سياسة الاسترداد ، خاصة أنه عاصر ثلاثة من حكام سرقسطة هم المقتدر بن هود ، والمؤتمن ، والمستعين الثانى ، وقد نجح سانشو فى التوسع على حساب حدود مملكة سرقسطة ، لأنه أتم طرد المسلمين من المقاطعات الجبلية إلى السهل ، فتراجعوا إلى المدن الكبرى ، مستعدين للدفاع عنها بعناد وإصرار[٣] . وكذلك حقق سانشو انتصارات أكثر نجاحا عن طريق مجرى نهرى جلق وسينكا ، وقام بمد حدود أرغون الجنوبية ، إذ تمكن من فتح الكثير من قلاع الحدود ، وشجع استيطانها بالمزارعين والمدافعين ، كما شجع على بناء القلاع وذلك عن طريق المنح والامتيازات التى منحها لمستوطنيها[٤] . ويمكن القول إنه مهد الطريق لخلفائه لإنجاز العمل الذى بدأه .

وهناك بعض العوامل التى ساعدت الملك سانشو على تنفيذ سياسة الاسترداد ، ولعل أهمها أحوال الممالك الإسلامية فى أسبانيا ، التى سادت بينها الخصومة والتطاحن ، والتى لم تتورع عن التحالف مع الدول النصرانية ، أو أن تستمد عونها نظير الجزية[٥] . كما انتهز الملك سانشو النزاع بين بنى هود فى سرقسطة ولاردة ، واستعانة كليهما على خصمه

---

(١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٣٧ ؛ C. C. A., P. 9; EX Roderici Archiepiscopi Toletani. en (R. H. G. F.) t. XIX. p. 228 :

Gestis Comitum Barcinonensium. en (R. H. G. F.) t. XII. p. 378 .

(٢) Pidal op. cit., t. I, p. 503; Bleye, op. cit., p. 628 .

(٣) Ballesteros, op. cit., P. 445 .

(٤) Lacarra, H. P. R. N., P. 285 .

(٥) أشباخ ، تاريخ الأندلس ، ص ٤٥ .

بالملوك النصارى ، مما أدى إلى ضعف القوة الدفاعية للمسلمين فى وادى إبره . بالإضافة إلى ذلك ، قام الملك الأرغونى بتسوية خلافاته مع ألفونسو السادس ملك قشتالة عقب موقعة الزلاقة ، وتسوية خلافاته أيضا مع القنبيطور . ولا شك أن هذه العوامل سهلت للملك سانشو راميرث تحقيق الفتوحات الأولى للزحف الأرغونى بالثغر الأعلى .

وبالرغم من ذلك ، واجه الملك سانشو راميرث بعض العقبات فى سياسة الاسترداد ، لعل اهمها قوة تحصينات المدن الإسلامية ، إذ كان استردادها يحتاج إلى جيوش كبيرة لإتمام الحصار ، أو لمقاومة القوات الإسلامية التى يمكن وصولها لمساعدة هذه المدن . وكانت مملكة أرغون الصغيرة لم تستطع أن تعد مثل هذه القوات الكبيرة ، بالإضافة إلى قلة موارد أرغون الاقتصادية والحربية . لذلك وضع الملك الأرغونى خطة دفاعية فى هذه المرحلة تستهدف الدفاع القوى عن الحدود ، دون النظر إلى تحقيق فتوحات ثابتة ، ولم يحاول الملك سانشو الدخول فى معارك حاسمة مع المسلمين[1] . ولا شك أن هذه العوامل قد أعانت قوة ونشاط حركة الاسترداد إلى حد ما .

بعد وفاة الملك سانشو راميرث ، خلفه فى حكم أرغون ونبره إبنه بطره الأول Pedro I (١٠٩٤م-١١٠٤م/٤٨٧-٤٩٨هـ) ، الذى يعرف فى المصادر العربية بابن رذمير ، وقد اتبع سياسة أبيه الحربية ، واستمر فى حصار مدينة وشقة ، وسعى إلى تجديد الصداقة مع القنبيطور ، فترك الحصار على وشقة ، وذهب إلى الميدان الشرقى من الأندلس خلال شهر يوليو ١٠٩٤م/ رجب ٤٨٧هـ ، ونزل على حصنه مطرنيش Montornés[2] ، على شاطئ البحر المتوسط ، وتوجه لزيارة قلاعة على ساحل قسطيلون ، ثم التقى مع القنبيطور فى مدينة بريانة Burriana[3] وتم تأكيد التحالف بينهما ، وعقدت المعاهدات بشأن المساعدة المتبادلة

---

(١) Lacarra, H. P. R. N., P. 283 .

(٢) مطرنيش Montornés : مدينة صغيرة اليوم فى جنوب برشلونة ، فى أرض مرتفعة كثيرة الحصون . وفى العصر الإسلامى كانت من حصون الحدود بين كورة طرطوشة وكونتية برشلونة ، وعندما استولى السيد القنبيطور على بلنسية صارت مطرنيش فى يد ملك أرغون ، وعندما استعاد المرابطون بلنسية ، عاد حصن مطرنيش إلى الإسلام حتى سقوط بلنسية فى يد خايمى الأول . ويسمى الحصن فى بعض النصوص اللاتينية Mons Orenes (جبل أورنس) . ابن الأبار ، الحلة السيراء ، جـ٢ ، ص ٢٢٤ - ٢٢٥ ، حاشية ٢ .

(٣) بريانة Burriana : مدينة من أعمال بلنسية وقريبة منها ، وهى كثيرة الخصب وفى مستو من الأرض، بينها وبين البحر حوالى ثلاثة أميال . الإدريسى ، صفة المغرب والأندلس ، ص١٩١ .

بينهما ضد أعدائهما ، كما اتفقا على خطة مواجهة الهجوم المرابطى المنتظر على جبهة الإبره ، ثم عاد الملك بطره إلى أراضيه ، وعاد القنبيطور إلى بلنسية[١] .

وفى ذلك الوقت ، استعد المرابطون لاسترداد بلنسية من القنبيطور ، وعهد يوسف ابن تاشفين إلى ابن أخيه الأمير محمد بن ابراهيم بن تاشفين بقيادة حملة إلى بلنسية ، والتى اتجهت صوب بلنسية فى أكتوبر ١٠٩٤م/رمضان ٤٨٧هـ ، وعسكرت قرب بلدة كوارت Cuarte على مسافة فرسخ غربى بلنسية وضربت عليها الحصار[٢] .

وكان القنبيطور قد علم بقدم القوات المرابطية ، وأخذ يتأهب للقائها ، وأرسل يستنجد ببطره الأول ملك أرغون ، وألفونسو السادس ملك قشتالة[٣] . وفى ذلك الوقت كان الملك بطره يهتم بتنظيم شئون مملكته ، كما أنه كان مشغولا فى حصار وشقة ، ولذلك لم يتمكن من الذهاب إلى بلنسية لمساعدة القنبيطور . ويبدو أن القنبيطور كان يعرف المشاكل الداخلية فى مملكة أرغون وقشتالة ، فلم ينتظر وصول مساعدات منهما[٤] ، وقرر الهجوم على الجيش المحاصر ، واستخدم الحيلة والمباغتة . وطبقا لرواية ابن عذارى ، أشاع القنبيطور فى المعسكر الإسلامى وصول الملك بطره - ابن ردمير - بجيشه إلى بلنسية لنصرته ، وفى يوم الحادى والعشرين من أكتوبر ١٠٩٤م / الثامن من شوال ٤٨٧هـ ، خرج القنبيطور فى قواته ليلا ، وفاجأ المعسكر الإسلامى ، فأوقع الذعر والاضطراب فى صفوفه ، واضطرت القوات المرابطية إلى الانسحاب إلى دانية ومنها إلى شاطبة[٥] .

---

(١) Pidal, op. cit., t. I, pp. 503-504; Fernandez, op. cit., p. 519 .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب جـ٤ ، ص ٣٤ - ٣٥ ،

Miranda, Las Luchas del Cid, pp. 83- 84 .

(٣) ابن عذارى ، نفس المصدر جـ٤ ، ص ٣٥ ، ٤٠ ،

Pidal, op. cit., t. I, 506 .

(٤) Chaytor, op. cit., pp. 47-48; Pidal, op. cit., t. I, p. 506 ;

(٥) ابن عذارى نفسه جـ٤ ، ص٣٦ - ٣٧ .

Miranda, Las Luchas del Cid, p. 86 .

وفى هذه المرحلة استعد الملك بطره لمواصلة سياسة الاسترداد الأرغونى التى اتبعها والده ، فقرر أن يستكمل فتح بعض القلاع الهامة التى كانت فى أيدى المسلمين ، وتهدد الأماكن المفتوحة - استادا وإستاديا - لكى يتجنب أى خطر منها . وخطط الملك بطره لفتح قلاع نبال وساليناس Salinas الواقعة شمال بربشتر - بين نهرى بيرو Vero وسينكا - والتى كانت تابعة لمملكة بنى هود وتعوق التقدم من الجبال نحو بربشتر .

زحف الملك بطره إلى نبال ، فسلم السكان المدينة وقلعتها للملك بموجب معاهدة بين الطرفين الإسلامى والأرغونى فى أكتوبر ١٠٩٥م/شوال ٤٨٨هـ ، ثم استسلمت ساليناس للملك الأرغونى فى الثلاثين من نوفمبر ١٠٩٥م / التاسع والعشرين من ذو القعدة ٤٨٨هـ[١] . ويرجع أن هذه القلاع استسلمت خلال الشهور الأولى من السنة نفسها ، قبل أن يبدأ الملك بطره بناء معسكر سانشو فى مايو ١٠٩٥م/ جماد أول ٤٨٨هـ ، الذى كان والده قد بدأ بناءه[٢] .

بدأ الملك بطره يستعد لغزو مدينة وشقة ، التى تحملت الحصار الأرغونى لمدة ثلاثين شهراً[٣]، ويرجع ذلك إلى حصانتها ومناعتها الطبيعية . وربما يرجع طول مدة الحصار إلى انشغال الملك بطره بتنظيم الشئون الداخلية للملكة ، وحل بعض المشاكل التى واجهته[٤] ، ويحتمل أنه يرجع إلى خطة وضعها الملك الأرغونى بهدف إضعاف المدينة ، ونفاذ أقواتها ، وفى الوقت نفسه يتمكن من تأمين قواته واستعداداته لغزو المدينة .

فى مايو ١٠٩٥ / جماد أول ٤٨٨هـ ، أقام الملك بطره الأول معسكره على تل يقع على بعد كيلو مترين غربى وشقة ، وأطلق عليه اسم معسكر سانشو - الذى سمى بربوة الشهداء[٥] ، ولكن العمليات العسكرية بدأت فى مرحلة لاحقة ، فقد انشغل الملك بتحصين قلاع القصر ولور وماركيو ، كما واجهته بعض المشاكل الداخلية فى بنبلونه ومنتشون ،

---

(١) Pidal . op. cit., t. II, pp. 795, 865; Turk, op. cit., o. 171 .

(٢) Turk, op. op. cit. pp. 171-172; Maria Viguera, op. cit., p. 171 .

(٣) Dozy, Rech. II, p. 246; Pidal, op. cit., t. I, p. 526 .

(٤) Turk, op. cit., p. 172 .

(٥) Maria Viguera, op. cit., p. 171; Valdeavellano, op. cit., 381 .

فاضطر للذهاب إلى هناك لحلها ، ولا شك أنها أخرت غزو مدينة وشقة . ثم انتقل الملك بطره إلى تل معسكر سانشو فى الثانى عشر من مايو ١٠٩٦/ السادس عشر من جماد أول ٤٨٩هـ. بعد المرور على قلعة جبل أرغون لتعزيز الحامية الأرغونية بهذا المركز الأمامى[١] .

تقدمت القوات الأرغونية فى صيف ١٠٩٦م/٤٨٩هـ ، وشددت الحصار على مدينة وشقة ، وأصبحت المدينة فى موضع خطير ، حيث تكررت الغارات عليها ، فأتلفت المحاصيل حتى عانى السكان من قلة المؤن . فأرسل عبد الرحمن والى وشقة إلى المستعين بالله أحمد بن هود حاكم سرقسطة ، يطلب منه إرسال المؤن والنجدات لمواجهة الضغط الأرغونى[٢] ، فطلب المستعين بدوره العون والمساعدة من يوسف بن تاشفين ، فأمده بجيش يتألف من ألف فارس وستة آلاف راجل ، وبعث إلى ولاته فى شرقى الأندلس فى دانية وشاطبة والسهلة (شنتمرية الشرق) بالمبادرة إلى غوث المستعين[٣] .

ويبدو أن المدد أو المعونة لم تصل إلى المستعين من شرقى الأندلس فى ذلك الوقت ، لأنه كان عرضه لتهديد القنبيطور بعد سقوط بلنسية ، فكثيرا ما قام القنبيطور بالإغارة على تلك المنطقة وعاث فيها نهبا وتخريبا . فطلب المستعين أيضا عون الفونسو السادس ملك قشتالة ، فأمده بفرقة من الجند النصارى تتكون من ثلاثمائة فارس وعدد كبير من المشاه بقيادة غرسية أوردونيث Garcia Ordonez [٤] أمير ناجرة ، كما تولى غرسية قيادة القوات التى أرسلها جونثالو نونيث Gonzalo Nunez أمير لارا Lara وأكشمه Osma ، وكلا الأميرين القشتاليين كان من أتباع المستعين وجيراته ، حيث تجاور ولايتهما مملكة سرقسطة .

---

(١) Turk, op. cit., p. 172 : Maria Viguera, op. cit., p. 171 .

(٢) C. C. A., p. 9 ; Turk, op. cit., pp. 172 - 173 .

(٣) أشباخ ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص ١٠٤ - ١٠٥ .

(٤) غرسية أورد ونيث Garcia Ordonez : قائد قشتالي ، كان من فرسان سانشو الثاني ملك ليون ، ثم أصبح من أتباع الفرنسو السادس صاحب ليون وقشتالة ، وحارب مع السيد القنبيطور حينا وضده حينا آخر ، واشترك فى معارك كثيرة ضد المرابطين فكان من المدافعين عن حصن ليبط Aledo ، واشترك فى الهجوم على سرقسطة ثم لقى مصرعة فى موقعة أقليش Uclés عام ١١٠٨م/٥٠١هـ . حسين مؤنس ، الثغر الأعلى الأندلسى ، ص ١٣٠ ، حاشية ٢ .

وقد وصلت هذه النجدات إلى سرقسطة فى نوفمبر ١٠٩٦م/ ذو القعدة ٤٨٩هـ ، وانضمت إلى قوات المستعين[١] . ومن الجدير بالذكر ، أن المدونات المسيحية أشارت إلى المساعدات القشتالية لحاكم سرقسطة ، بينما لم تشير إليها المدونات الإسلامية .

فى الوقت نفسه ، تلقى الملك بطره الأول مساعدات من الساده الأرغونيين والنبريين ، كما تلقى إمدادات فرنسية ، فقد وصل إلى معسكر المعركة فورتنيو دى جسقونية Fortuno de Gascuna ، صاحب إقطاعة منفى ، مصطحبا ثلاثمائة من المشاة ، وعشر حمولات من ادوات الحرب من جسقونية ، طالبا عفو الملك الذى حرمه من إقطاعه ، كما وصل سانشو بيدا San-cho Vida مصطحبا ثلاثمائة من الفرسان والمشاه[٢] ، ومن المحتمل أن القنبيطور أرسل بعض فرسانه من بلنسية لمساعدة صديقه ملك أرغون ، لتأكيد التحالف بينهما ، والدفاع عن مصالحهما فى شرقى أسبانيا[٣] .

جهز المستعين حشودا عظيمة ، وأعد لها قوافل الميرة الضخمة ، وخرج من سرقسطة فى منتصف نوفمبر ١٠٩٦م / السادس والعشرين من ذو القعدة ٤٨٩هـ ، وزحف نحو وشقة بجيش كبير غطى خمس فراسخ من الطريق ، مرت المقدمة عن طريق ثويرا Zuera - على بعد ست وعشرين ك.م من سرقسطة - بينما خرجت المؤخرة عن طريق ضاحية التاباس Altabas السرقسطية ، وتقدم الجيش حتى وصل إلى منطقة الكرازة Alcoraz على مشارف مدينة وشقة، وعلى بعد ساعة منها ، وقد حاول غرسية أوردونيث إرغام الأرغونيين على رفع الحصار، وهدد الملك بطره بقتله إذا لم يغادر وشقه[٤] .

تقدم الملك بطره فى قواته لملاقاة المسلمين ، وتقابل الجيشان فى الكرازة ، ولذلك عرفت هذه المعركة فى المدونات المسيحية بمعركة الكرازة ، بينما عرفت فى المصادر الإسلامية بمعركة وشقة[٥] . ووقعت معركة عنيفة بين الفريقين فى الثامن عشر من نوفمبر ١٠٩٦م /

---

(١) Annales Complutenses, en (Esp. Saga.) t. XXIII, p. 315.

Pidal, op. cit., t. I, p. 526, t. II, p. 808; Bleye, op. cit., p. 628 .

(٢) Pidal, op. cit., t. I, p. 527, t. II, p. 809; Defourneaux, op. cit., p. 149 .

(٣) Bleye, op. cit., p. 628; Pidal, op. cit., t. I, p. 527 .

(٤) Pidal, op. cit., t. I, pp. 526-527 : Maria Viguera, op. cit., p. 171 .

(٥) Turk, op. cit., p. 174; Maria Viguera, op. cit., p. 172 .

التاسع والعشرين من ذى القعدة ٤٨٩هـ . [١] وفيها عهد ملك أرغون إلى أخيه الأمير ألفونسو قيادة القوات الأمامية الأرغونية ، فأظهر مهارته الحربية ، وإصراره على القتال . وحارب الأرغونيين والنبريين بحماس شديد ، كما دافع المسلمون عن وشقة دفاعا مجيدا ، فاشتد القتال بين الجانبين ، وقتل فى المعركة عدد كبير من الجيشين ، وانتهت بهزيمة المستعين وحلفائه، وأسر القائد القشتالى غرسية أوردونيث[٢] .

وقد أمدتنا بعض المصادر الإسلامية بتفاصيل هذه المعركة ، فأبو بكر الطرطوشى صاحب كتاب "سراج الملوك" كان فى هذه الفترة يعيش فى مصر ، والتقى بأحد الجنود الذين حضروا المعركة ، ووصفها له ، فذكر أن الجيشين كانا متعادلين ، كل منهما ما يقرب من عشرين ألف مقاتل بين مشاة وفرسان ، وأن المعركة بدأت بمقاومة عنيدة ، دون أن يتراجع أحدهم حتى فنى أكثر العسكرين ، ولم يفر واحد منهما ، فلما كان وقت العصر حمل النصارى على المسلمين حملة شديدة فاقتحموا صفوفهم ، فانقسم المسلمون إلى شطرين وقد أدى ذلك إلى ضعف القوات الإسلامية ولم تدب الحرب إلا ساعة ، انتهت بعدها بخسارة كبيرة فى صفوف المسلمين، فأشار مقدمو العسكر على السلطان بالنجاة بنفسه بعد ما هزم المسلمون وتفرق جمعهم ، وملك العدو مدينة وشقة[٣] . وقد وصف لنا الطرطوشى وقائع المعركة ، دون الإشارة إلى تاريخ وقوعها .

أما المؤرخ ابن الخطيب فقد أمدنا بتفاصيل أخرى عن المعركة ، وتعتبر مكملة لرواية الطرطوشى ، فيقول : "فى عام ٤٨٩هـ (١٠٩٦) نازل العدو مدينة وشقة من عمالة المستعين ، وشدد حصارها ، وضيقوا بها . وحشد المستعين جيوشا من المسلمين وحمل إليها الميرة ،

---

(١) Dozy, Rech. II, p. 247; Pidal, op. cit., t. I, p. 527 .

ومن الجدير بالذكر أن المؤرخ ابن الخطيب حدد معركة وشقة فى أخريات ذى القعدة ٤٨٩هـ (أعمال الأعلام، ص١٧٢) ، وقد يكون الشهر تسعة وعشرين يوما ، وقد يكون ثلاثين يوما . ولذلك فقد حدد بعض المؤرخين المحدثين المعركة فى التاسع عشر من نوفمبر ١٠٩٦م/ الثلاثين من ذى القعدة ٤٨٩هـ .

D. H. E., t. II, p. 794 ; Lacarra. H. P. R. N., p. 288 .

(٢) Pidal, op. cit., t. I, p. 527 ; Valdeavellano, op. cit., p. 381 .

(٣) الطرطوشى ، سراج الملوك ، ص ١٤٣ .

والتقى الفريقان ووقعت الحروب من طلوع الشمس إلى غروبها حتى كادت تأتى على الفريقين. وترك ابن هود المصاف (ميدان المعركة) على حاله ، وقصد مضربه (معسكره) لما ساء ظنه بيوم الكريهة ، فرفع ما كان به من المال ، ثم كر إلى مقامه ، وأبلى إلى أن كانت الهزيمة على المسلمين فى أخريات ذى القعدة من العام (الثامن عشر أو التاسع عشر من نوفمبر ١٠٩٦م) ففقد من الناس ماينا هز إثنى عشر ألفا . والتمس أهل وشقة الأمان لثلاثة أيام من يوم الهزيمة"(١) .

ومما سبق يلاحظ أن معركة وشقة تصور عنف الصراع بين المسلمين والأرغونيين فى منطقة الثغر الأعلى فى هذه المرحلة ، فقد وقعت تلك المعركة على أرض منبسطة ، فى ساحة كبيرة ، كما تميزت بعنصر المقاومة العنيدة والإصرار على القتال ، ليس فيها عنصر المباغتة ، ولا الخديعة ، اشترك فيها عدد كبير من المحاربين ، قدرته الرواية الإسلامية بعشرين ألف محارب لكل فريق ، وهو أقرب إلى الحقيقة ، بينما قدرت الرواية المسيحية الجيش النصرانى بخمسة وعشرين ألف جندى ، والجيش الإسلامى بمائة ألف من المشاة وتسعة آلاف من الفرسان(٢) ، وهو تقدير أقرب إلى الخيال والمبالغة ، لعلها تظهر المحاربين النصارى بمظهر البطولة والحماسة الدينية . كما أن الروايات المسيحية رفعت عدد القتلى المسلمين إلى ثلاثين ألفا ، فى حين قللت عدد القتلى النصارى إلى ألفى قتيل(٣) ، بينما الرواية الإسلامية قدرت عدد القتلى المسلمين ما بين عشرة آلاف(٤) ، واثنى عشر ألفا(٥) ، وهو أقرب إلى الحقيقة . ويحتمل أن يكون هناك تقارب فى عدد القتلى من كلا المعسكرين .

وهكذا تمكن الجيش الأرغونى - النبرى - من تحقيق الانتصار على الجيش الإسلامى فى معركة وشقة ، وربما يرجع ذلك إلى استعداده استعدادا جيدا للمعركة ، وشجاعة المحاربين ، وحماسة الجند النصارى لتحقيق الاسترداد ، وربما إلى التكتيك الحربى الجيد الذى اتبعه الملك

---

(١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٧٢ .

(٢) Turk, op. cit., p. 175; Maria Viguera, op. cit., p. 172 .

(٣) Pidal, op. cit., t. II, p. 809; Turk, op. cit., p. 175 .

(٤) ابن خلدون ، العبر جـ ٤ ، ص ٣٥٢ .

(٥) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٧٢ .

بطره الأول[١] ، بالإضافة إلى المهارة الحربية للأمير ألفونسو أخ ملك أرغون . كما أن هناك بعض العوامل ساعدت على تحقيق الانتصار أهمها سوء أحوال مدينة وشقة نتيجة طول الحصار الذى أنهك قواها ، وتعرضها لهجمات المحاصرين خلال فترة الحصار بهدف اتلاف محاصيلها ، ومنع سكانها من جنيها[٢] . بالإضافة إلى فقد القوات القشتالية التى حاربت بجانب المستعين للحماسة الحربية لتحقيق النصر .

وحين رأى سكان وشقة الهزيمة ، ونفاذ القوت ، فقدوا أمل المقاومة خلف أسوار مدينتهم ، كما فقدوا الأمل فى وصول نجدات أو امدادات لإنقاذهم ، إذ أن الإمارات الإسلامية المجاورة لسرقسطة كانت تخشى أطماع القنبيطور ، وفى الوقت نفسه كانت القوات المرابطية مشغولة فى حروب مع ألفونسو السادس من جهة ، وتسعى لاسترداد بلنسية من جهة أخرى . لذلك قرر حاكم وشقة وكبار رجال المدينة الاستسلام ، وبدأت المحادثات بين المسلمين والنصارى بعد ثلاثة أيام من الهزيمة ، وطلب أهل وشقة الأمان[٣] ، وربما استغرقت هذه المفاوضات خمسة أيام ، إذ أشارت الرواية النصرانية إلى استسلام الوشقيين بعد ثمانية أيام من المعركة [٤] ، وكان ذلك فى السادس والعشرين من نوفمبر ١٠٩٦م / الثامن من ذى الحجة ٤٨٩هـ [٥] .

ومن الجديد بالذكر ، أن الحوليات الطليطلية الأولى قد قدمت سقوط مدينة وشقة ، فحددته تحت عام ١٠٨٠م[٦] ، وهذا يخالف التاريخ الذى أجمعت عليه المدونات المسيحية والإسلامية (١٠٩٦م/٤٨٩هـ) بينما أخرت حولية كومبلوتنز سقوط مدينة وشقة فى يد الملك بطره عدة أسابيع ، إذ حددته فى الرابع عشر من ديسمبر ١٠٩٦م[٧] .

---

(١) Lacarra, H. P. R. N., P. 288 .

(٢) Turk, op. cit., p. 173 .

(٣) ابن الخطيب ، المصدر السابق ، ص ١٧٢ .

(٤) Dozy, Rech. t. II, p. 248 .

(٥) Pidal, op. cit., t. I, p. 527, t. II, pp. 809-810; Turk, op. cit., p. 177 .

(٦) Anales Toledanos I, p. 343 .

(٧) Annales Complutenses (Esp. Sag.) t. XXIII, p. 315 .

وفى اليوم التالى من استسلام الوشقيين ، تقدم الملك بطره الأول ودخل مدينة وشقة بصحبة النبلاء الأرغونيين والنبريين . وبعد عدة أسابيع حول مسجدها الجامع إلى كنيسة فى السابع عشر من ديسمبر / آخر ذى الحجة من العام نفسه ، ومنح الملك الأرغونى امتيازات كثيرة إلى الذين يستوطنون وشقة من الأرغونيين ، ثم قام بتوزيع الخيرات والمزارع ومساكن المدينة بين المنتصرين(١) ، وجعل من وشقة عاصمة لمملكة أرغون(٢) .

وهكذا كان الاسترداد الأرغونى لمدينة وشقة ، وضمها إلى مملكة أرغون ، بداية للامتداد الأرغونى من الجبال إلى السهول ، وبداية للزحف على مدينة سرقسطة ، والمدن المجاورة لها ، كما سهل للقوات الأرغونية فتح مدينة بربشتر فيما بعد (٣) .

وقبل أن تفيق القوات الإسلامية من الهزيمة التى منيت بها ، وفى أواخر عام ١٠٩٦م / أواخر ٤٨٩هـ تقدمت القوات الأرغونية حتى وصلت إلى مدينة روبرس Robres التى تقع جنوب وشقة بحوالى خمسة عشر كيلو متر (٤) .

وبينما شغل النصارى بتنظيم شئون المدينة المفتوحة ، وصل مبعوث من القنبيطور إلى حليفه الملك بطره فى شتاء ١٠٩٦ - ١٠٩٧م / ٤٩٠هـ ، يطلب المساعدة لمواجهة الغزو المرابطى الثانى عن طريق جنوب بلنسية . فى ذلك الوقت كان الأشراف النبريين والأرغونيين مجهدين من معركة وشقة ، فلم يرغبوا فى الذهاب إلى بلنسية لخوض مغامرة جديدة فى أراضى بعيدة ، ولكن الملك بطره قرر الذهاب إلى بلنسية وفاء للاتفاق المبرم مع القنبيطور ، ووعد مبعوث القنبيطور بالحضور إلى بلنسية خلال إثنى عشر يوما (٥) .

ترك الملك بطره حامية قوية فى مدينة وشقة ، ثم سار فى قواته الأرغونية والنبرية نحو السواحل الشرقية ، مصطحبا أخاه الأمير ألفونسو ، ووصل إلى بلنسية فى يناير ١٠٩٧م/ صفر ٤٩٠هـ . وانضمت قوات الملك بطره مع قوات القنبيطور ، وتوجهوا لإغاثة قلعة مرتفع

---

(١) C. C. A., p. 10; Pidal, op. cit., t. I, p. 527; Turk, op. cit., p. 178 .

(٢) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٢٨٩ .

(٣) Turk, op. cit., p. 178 .

(٤) Maria Viguera, op. cit., p. 172 .

(٥) Miranda, Las Luchas del Cid, p. 96; Lacarra, H. P. R. N., pp. 289-290 .

كاديـيلا Pena Cadiella - جنوب بلنسية - والتى تعرف اليوم بنى كاديل Benicadell ، وكان القنبيـطور قد استولى عليها وجدد بناؤها عام ١٠٩١م/ ٤٨٤هـ ، وهددها المرابطون الذين سيطروا على المرتفعات التى سادت الطريق إلى جنوب شاطبة[١] .

زحف النصارى فى طريق محفوف بالمخاطر بين صراخ وصياح المسلمين - ولعلها تكبيرات تصدر من المسلمين أثناء القتال - من الجبال ، وتمكن النصارى من تموين قلعة بنى كاديل ، وعند عودتهم ، أخذوا طريق الشرق تجنبا للمضايقات التى واجهتهم فى شاطبة ، ثم اتجهوا نحو البحر ، وعسكروا أمام مرتفعات بيرين Bairén الواقعة جنوب بلنسية - بين شاطبة وقليبيرة Cullera[٢] - وعلى مقربة من غانديا Gandia ، فى الوقت نفسه كان الجيش الإسلامى بقيادة محمد بن تاشفين معسكرا فى بيرين قرب البحر ، مستعدا للمعركة ، بمساندة الأسطول المرابطى من البحر ، ويبدو أن الجيش الإسلامى انتقل إلى سلاسل جبل منديرـ Mon-duber ، الذى يقترب من الساحل[٣] .

وهاجم الملك بطره والقنبيطور بقوات كثيفة على المرابطين ، واشتبك الجانبان فى معركة ضارية عند جبل منديرـ فى يناير ١٠٩٧م/ صفر ٤٩٠هـ ، وحلت الهزيمة بالمرابطين وشتت شملهم ، وقتل منهم الكثير ، وغرق آخرون فى محاولتهم عبور نهر شارقة Jaraco ، والجزء الأكبر منهم التجأ إلى الأسطول، فغرق بعضهم فى المستنقعات وفى البحر ، وغنم النصارى غنيمة كبيرة ، وعادوا إلى بلنسية ، حيث استراحوا هناك أياما قليلة[٤] .

وحان الوقت للقنبيطور أن يساعد الملك بطره ، واتجه الاثنان معا إلى الشمال ، إلى شواطئ قسطيلون ، حيث كان الملك الأرغونى يحتفظ ببعض الحصون ، وقد ثار حصن مطرنيش ،

---

(١) Pidal, op. cit., t. I, pp. 529-590; Miranda, Las Luchas del Cid, pp. 96-97 .

أنظر خريطة رقم (٣) .

(٢) قليبيرة Cullera : حصن منيع يقع على الضفة اليسرى من نهر شقر جنوبى بلنسية ، وهو على ساحل البحر فى سند جبل ، ومن شاطبه إلى قليبيرة خمسة وعشرون ميلا ، ومن بلنسية إلى حصن قليبيرة خمسة وعشرون ميلا . العذرى ، ترصيع الأخبار ، ص ٢٠ ، الإدريسى ، صفة المغرب الأندلس ، ص ١٩٢ .

(٣) Pidal, op. cit., t. I, pp. 530-532; Miranda, Las Luchas del Cid, p. 97 .

(٤) Pidal, op. cit., t. I, pp. 532-533; Miranda, Las Luchas del Cid, pp. 97-98 .

فحاصره الحليفان ، وتمكنا من إخضاع الحصن ، ثم توجه الملك بطره إلى ولاياته ، وعاد القنبيطور إلى بلنسية[١] .

ومن الجدير بالذكر أن المدونات النصرانية أشارت إلى موقعة بيرين وهزيمة الجيش المرابطى ، بينما أشار المؤرخ ابن الكردبوس إلى نشوب معركة بين المرابطين بقيادة محمد بن عائشة وجند القنبيطور بناحية جزيرة شبقر تحت عام ٤٩٠هـ / ١٠٩٧م ، وانتهت بهزيمة جند القنبيطور ، ومقتل أغلبهم[٢] .

فى ذلك الوقت ، توثقت العلاقات بين الملك بطره والملك الفونسو السادس ملك قشتالة ، وأرسل قوات أرغونية إلى العاصمة القشتالية فى سبتمبر ١٠٩٧م / شوال ٤٩٠هـ للدفاع عن طليطلة التى كانت هدفا لهجمات المرابطين[٣] .

وأصل الملك بطره سياسة الاسترداد الأرغونى ، فقام بحصار قلعة قلزنج Calasanz[٤] أواخر عام ١٠٩٨م/٤٩٢هـ ، واستولى عليها الأرغونيون فى العام التالى[٥] . كما قرر غزو مدينة بربشتر ، التى كانت تحيطها القلاع الأرغونية ، فحاصرها وشدد الحصار عليها ، وبنى بالقرب منها معسكر بربشتر ، على أربعة كيلو مترات شرقى المدينة ، واكتمل البناء فى شهر أبريل عام ١٠٩٩م . وأقام الملك بطره قلعة ترابا Trava الجديدة جنوب زيدن وشمال إفراغة حتى يقطع الاتصال بين مسلمى إفراغة وبربشتر عبر وادى سينكا . كما أن سيادة الأرغونيين للضفة اليسرى لنهر سينكا - من إستادا إلى منتشون - جعلت قلعة بربشتر معزولة بين الأماكن المسيحية ، وأصبح من الصعب إغاثتها من إفراغة أو من سرقسطة ، بسبب عزلتها وبعدها عن سرقسطة ، وأيضا بسبب القلاع التى أقامها الأرغونيون فى وشقة[٦] .

---

(١) Pidal, op. cit., t. I, p. 533; Ballesteros, op. cit., p. 333 .

(٢) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١٠٨-١٠٩ .

(٣) Pidal, op. cit., t. II, pp. 814-815 .

(٤) قلزنج Calasanz : تقع فى إقليم ربما جورثا السفلى ، بالقرب من نهر سوسا Sosa وعلى مقربة من بلوية ، وقد طمعت فيها كل من برشلونه وأرغون .

D. H. E., t. II, p. 795 .

(٥) Ballesteros, op. cit., p. 447 ; Defourneaux, op. cit., p. 150 .

(٦) Lacarra, H. P. R. N., p. 290; Turk, op. cit., pp. 179 - 180 .

وبعد عدة شهور من الحصار ، حاول الجيش السرقسطي إنقاذ مدينة بربشتر ، ولكنه هزم في معركة بلويه بالقرب من وشقة ، وقام الملك بطره بغزو المدينة في الثامن عشر من أكتوبر عام ١١٠٠م/ الثاني عشر من ذو الحجة ٤٩٣هـ ، وأقام فيها أسقفية[١] .

ولقد ترتب على سقوط بربشتر إخضاع الأرغونيين لبعض المدن الإسلامية التي تقع على المجرى الأسفل لنهر سبنكا ، أهمها قلعة سينكا ، وأرنتينينا Ontinens وسارنينا Sarine-na، وبومار دي سينكا Pomar de Cinca - وفقد الأرغونيون هذه الأماكن بعد وفاة الملك بطره الأول- كما تم تحصين بعض القلاع التي تقع جنوب إفراغة على الضفة اليمنى لنهر سينكا وأهمها مليلة دي سينكا Velilla de Cinca ، وقلعة الصليب المقدس Santa Cruz ، ومرتفع سان سلفادور Pena de San Salvador ، وقد أدى ذلك إلى تقوية مراكز الأرغونيين على ضفاف نهر سينكا [٢] .

خلال ذلك الوقت ، اشتد المرض بالقنبيطور ، ثم توفي يوم الأحد العاشر من يوليو ١٠٩٩م/ الثامن عشر من شعبان ٤٩٢[٣]. وخلفته في حكم بلنسية زوجته خيمنا Jimena التي استمرت تدافع عن بلنسية ضد هجوم المرابطين لمدة ثلاثة سنوات ، إلى أن وصل الأمير المرابطي محمد بن مزدلي[٤] إلى بلنسية على رأس جيش كبير في آخر أغسطس ١١٠١م / ذي القعدة ٤٩٤هـ ، وفرض عليها حصارا دام سبعة أشهر[٥] .

واستنجدت خيمنا بالملك ألفونسو السادس لمساعدتها وتسليمه المدينة ، فأسرع بجيشه إلى بلنسيه في مارس ١١٠٢م / جماد ثاني ٤٩٥ ، واضطر الأمير مزدلي إلي التراجع إلى قليبرة

---

(١) EX Chronic Sancti Maxentii (R. H. G. E.) t. XII, p. 404: D. H. E., t. II, p. 794 .

(٢) D. H. E., t. II, p. 794: Lacarra. H. P. R. N., p. 290 .

(٣) Pidal, op. cit., t. II, p. 577: Bleye, op. cit., p. 615 .

(٤) هو مزدلي بن تيو لتكان بن محمد بن ترقوت اللمتوني ، من أقارب يوسف بن تاشفين ، وأحد قواده، تقلب في مختلف مناصب القيادة والولاية في أسبانيا ، وقاد عدة حملات ضد النصارى ، واستشهد في مارس ١١١٥م/ شوال ٥٠٨هـ وذلك أثناء غزوة قام بها ضد القشتاليين على مقربة من حصن قسطانية Cocentaina الواقع في طريق قرطبة . ابن الكردبوس ، الاكتفاء ص ١٠٩ - ١١٠ هـ ؛ ابن الخطيب ، الإحاطة ، جـ٣ ، ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

(٥) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١٠٩ ؛ Pidal, op. cit., t. II, p. 580 .

وأقام الفونسو ببلنسية نحو شهر ، واتجه بجيشه نحو قليبرة لتخريب المحاصيل ، ونشب قتال بينه وبين الجيش المرابطي ، ورأى الفونسو السادس ضخامة الجيش الإسلامي وإصراره على استرداد بلنسية ، وأدرك استحالة الاحتفاظ ببلنسية لموقعها البعيد والمعزول عن مملكته ، فنصح خيمنا بإخلاء المدينة ، فأخليت بلنسية من كل حاميتها المسيحية ، وخرجت خيمنا وفرسانها من بلنسية حاملين معهم رفات القنبيطور لتدفن في قشتالة[١] . وفي اليوم التالي الخامس من مايو ١١٠٢م / منتصف رجب ٤٩٥هـ ، دخل الجيش المرابطي مدينة بلنسية بقيادة محمد بن مزدلي [٢] .

وقد اختلفت الروايات الإسلامية في تاريخ استرداد المرابطين لمدينة بلنسية ، فالمؤرخ ابن بسام يحدد شهر رمضان ٤٩٥هـ / يونيه ١١٠٢م[٣] ، بينما حدد ابن الخطيب منتصف رجب ٥٠٥هـ / يناير ١١١٢م [٤] .

كان لسقوط بلنسية في أيدي المرابطين أثر بالغ في سير معركة الجهاد في شرق الأندلس ، فأوغلت القوات المرابطية في إمارة بلنسية ، واستولت على مربيطر والمنارة والسهله وغيرها من القلاع والحصون المنتشرة في هذا الإقليم ، كما أدى هذا التوسع إلى حماية ظهر إمارة سرقسطة ، وتوثيق الصلات بينها وبين المرابطين ، ليتعاونا معا في صد التيار النصراني الذي يهدد الجزيرة من الشمال الشرقي خاصة من جهة قطلونية Cataluna[٥] وأرغون[٦] .

---

(١) ابن عذاري ، البيان المغرب ، جـ٤ ص ٤١ - ٤٢ ،

Pidal, op. cit., t. II, pp. 580 - 581 .

(٢) ابن الأبار ، التكملة جـ١ ، ص٤٢٢ ، ابن عذاري ، نفس المصدر ، جـ٤ ، ص ٤٢ ،

Pidal, op. cit., t. II, p. 581; Bleye, op. cit., p. 615 .

(٣) ابن بسام ، الذخيرة ، ق ٣ ، مجلد ١ ، ص ١٠١ .

(٤) ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، جـ٣ ، ص ٢٧٤ .

(٥) قطلونية Cataluna : كانت قطلونية في هذه الفترة منقسمة إلى عدة أقاليم أهمها برشلونة ، وأورقلة ، وأمبوردان Ampurdan ، وبريلادة Perelada وبسالو Besalu ، وجرندة .

The Catholic Encyclopedea, vol. III, p. 428 .

(٦) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٧ ، ص ٣١٨ - ٣٢٠ .

وفى هذه المرحلة ، أصبحت سرقسطة معرضة لخطر الزحف الأرغونى خاصة بعد سقوط وشقة وبربشتر ، وتحفز الأرغونيين للوصول إلى وادى إبره للقضاء على بنى هود حكام سرقسطة .

وفى الوقت الذى كان فيه الملك بطره مشغولا بحرب الاسترداد ، قام البابا أوربان الثانى بالدعوة للحرب الصليبية فى مؤتمر كليرمونت الكنسى بفرنسا ، الذى عقد فى نوفمبر ١٠٩٥م/ذو القعدة ٤٨٨هـ وفيه وجه البابا دعوته إلى المسيحين لاستخلاص الأراضى المقدسة من المسلمين ، ووجد استجابة من الحاضرين . وبذلك فإن الصراع المسيحى الإسلامى فى الغرب الأوربى انعكس على المشرق ، فلم يقتصر على محاربة المسلمين فى أسبانيا ، بل اتجه الغرب الأوربى إلى إرسال حملات إلى الشرق لاسترداد بيت المقدس من المسلمين فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى/الخامس الهجرى [١] .

ولما عقد البابا أوربان الثانى مؤتمر كليرمونت ، وأذكى حماسة الأمم النصرانية كلها لخوض الحروب الصليبية ، أراد عدد من الأساقفة الأسبان السفر على رأس الصفوف إلى القبر المقدس، ولكن البابا حرم على الأسبان أن يشتركوا فى الحرب الصليبية فى المشرق ، لأن أعداء النصرانية من المسلمين يهددونهم فى عقر دارهم ، ويكفى أن يقاتلوا المسلمين فى الغرب ، وأن محاربة المسلمين فى أسبانيا لاتقل أهمية وقدراً عن المحاربة فى المشرق [٢] ، وفى ذلك الوقت من القرن الحادى عشر تحولت الحرب المقدسة ضد المسلمين فى أسبانيا إلى حرب صليبية .

وكان لدعوة الجهاد الدينى عند المرابطين أثرها الفعال فيما أحرزوه من نصر على النصارى، وكان لها أثر بعيد المدى فى توازن القوى فى أسبانيا ، فقد تحرك المرابطون للجهاد فى أسبانيا، وتمكنوا من الوقوف بالمرصاد للملك ألفونسو السادس ، ولم تستطع القوى الصليبية أن تجاوز سرقسطة إلى الجنوب ، كما تمكنوا أن يؤخروا سقوط شبه الجزيرة الأيبيرية فى يد النصارى بضعة قرون [٣] .

وكان لدولة المرابطين دورا فى تاريخ الحروب الصليبية ، فقد نجحوا فى الحيلولة بين الممالك النصرانية فى أسبانيا وبين المساهمة فى الحملات الصليبية التى نظمت للاستيلاء على بيت

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، جـ ١ ، ص ١٢٩، ١٣٢ .

(٢) أشباخ ، تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، ص ١٢٤ .

(٣) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٢٩ .

المقدس ، لأن المرابطين كانوا يهددون بلادهم ، ولا يكفون عن غزوهم ومحاربتهم[١] ، الأمر الذى شغلهم عن اللحاق بإخوانهم فى بلاد الشام . كما اهتم المرابطون بالجهاد فى الشرق ، مثلما اهتموا به فى الغرب الإسلامى ، إلا أن جهادهم فى الغرب كان جهادا عسكريا . أما فى الشرق فكان جهادا بالكلمة ، بالخطب والمواعظ بهدف إثارة الحماسة الدينية عند الناس لحثهم على الجهاد فى سبيل الله حفاظا على الأرض . ويدل على ذلك مارواه ابن الأثير من أن بعض هؤلاء الملثمين رحلوا فى عام ١١٠٦م/٤٩٩هـ بعد الحملة الصليبية الأولى إلى بغداد ، وخطبوا فى الناس فى جامع القصر ببغداد ، يستنهضون الهمم ، ويلهبون الحماسة فى النفوس، ويدعون إلى الجهاد فى الشرق كما دعوا إليه فى الغرب ، بالإضافة إلى هذا فقد حضر هؤلاء الملثمون مع ابن الأفضل أمير الجيوش بمصر ، وقعة مع الفرنج وأبلوا بلاء حسنا[٢].

وفى الوقت الذى تأججت فيه الحروب الصليبية فى المشرق والمغرب كان هناك تعاون اقتصادي بين مسلمى الشطرين ، ذلك أن الشام كانت بها مجاعة شديدة وكانت بلاد ابن هود بشرق الأندلس كثيرة الخصب ، فكان يبعث للشام أجفانا مشحونة بالزرع ، فتعود إليه بكل ذخيرة وتحفة ، وكان المستعين بن هود يهادى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين مما يحل بيده من نفيس الذخائر واليواقيت والجواهر التى تصل إليه من الشام[٣] .

وفى الوقت الذى بشر فيه البابا أوربان الثانى بالحرب الصليبية فى كليرمونت ، كان الملك بطره الأول مشغولا بحصار مدينة وشقة ، وفى مساعدة القنبيطور فى الإستيلاء على بلنسية . وفى السنة التى سقطت فيها مدينة وشقة (١٠٩٦م/٤٨٩هـ) ، استعدت القوات الصليبية لتأخذ طريقها إلى الأراضى المقدسة بالشام ، وأيضا فى الوقت الذى كان فيه الصليبيون يحاربون المسلمين فى المشرق ، كان ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وبطره الأول ملك أرغون والقنبيطور سيد بلنسية ، كانوا يحاربون المرابطين فى أسبانيا الإسلامية ، وفى عام ١٠٩٩م/ ٤٩٢هـ حققت الحملة الصليبية الأولى نجاحا فى استرداد بيت المقدس من المسلمين[٤] .

---

(١) حسن أحمد محمود ، نفس المرجع ، ص ٣٣٠ .

(٢) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، جـ ١٠ ، ص ٤١٤ .

(٣) ابن سماك العاملى ، الحلل الموشية ، ص ٥٥ .

(٤) Pidal, op. cit., t. II, 578 .

أما فيما يتعلق بسياسة الملك بطره تجاه الحروب الصليبية ، فقد فكر فى الذهاب إلى الأراضى المقدسة عام ١١٠١م/٤٩٤هـ ، لخوض حملة صليبية . وعندما سمع البابا باسكال الثانى pascual 11 (١٠٩٩-١١١٨م/٤٩٢-٥١٢هـ) ، برغبة الملك بطره فى الذهاب إلى الأراضى المقدسة ، أرسل يطلب منه البقاء فى وطنه ، إذ أن البابا كان يقدر تماما أهمية الدور الذى يقوم به الملك بطره فى دفع عملية الاسترداد المسيحى فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، كما منح الغفران عن الخطايا إلى هؤلاء الذين يحاربون المسلمين فى أسبانيا[١] .

وحتى تشد البابوية من أزر ملوك الممالك النصرانية الأسبانية ، بشر البابا بحملة صليبية ضد سرقسطة ، ومنح الغفران لحاضريها ، وقام بالتبشير لهذه الحملة المبعوثون البابويون جبلينو دى آرلس Gibelino de Arles رئيس أساقفة آرلس ، والكاردينال ريكاردو Ricardo رئيس دير مارسيل Marseille بفرنسا ، وقد نجح التبشير بهذه الحملة حتى أصبح الفرنجة أكثر حماسة للحرب المقدسة فى أسبانيا ، واجتمعوا فى مدينة بريشتر فى يناير ١١٠١م/ ربيع أول ٤٩٤هـ[٢] .

تشجع الملك بطره بوصول بعض قوات الفرنجة ، وفى أول فبراير من العام نفسه ، قاد قواته، مع جيش من الفرسان ، وساروا ضد سرقسطة ، تحت راية المسيح ، ووضع الملك قواته على بوابات المدينة ، وأقام معسكره فى خوسليبول Juslibol ، على خمسة كيلو مترات من مدينة سرقسطة ، وأعلن الصليبيون الصيحة الصليبية "هذه إرادة الله Deus le Vult" ، التى كانت صيحة الحروب الصليبية فى الشرق[٣] .

قام النصارى بشن هجوم سريع على سرقسطة ، وحاولوا غزوها غير أنهم فشلوا فى دخول المدينة[٤] . ومما لاشك فيه أن فشلهم يرجع إلى قوة المدينة وحصانتها ، واستماتة مقاومة أهلها، بالإضافة إلى قلة عدد الفرسان فى جيش النصارى ، ويضيف المؤرخ ابن الخطيب أن الأمير يوسف بن تاشفين وجه جيشا بقيادة على بن الحاج لمعرفة أحوال الملك الأرغونى

---

(١) Idem: Turk, op. cit., pp. 180-181 .

(٢) Turk, op. cit., p. 181 .

(٣) Lacarra, H. P. R. N., p. 290 .

(٤) Maria Viguera, op. cit., p. 173 .

وجيشـه ، فلما قدم ابن الحاج بقواته ، شاع أنه يوسف بن تاشفين ، فخشيه الملك بطره وأوقع الله الرعب فى قلبه ، فانهزم جمعه ، فأعمل المسلمون فيهم السيوف ، ولجا الملك بطره فى أعداد قليلة[١] . وهكذا فقد فشلت الحملة الصليبية على سرقسطة تماما ، ولم تحقق شيئا ، وعاد أعضاء الحملة الفرنسيون إلى أراضيهم ، بينما اتجه الملك الأرغونى إلى كنيسة سان خوان دى لابينيا لقضاء أيام الصوم الكبير[٢] .

أدرك الملك بطره الأول عجزه عن إخضاع سرقسطة بالهجوم ، بعد أن تعذر فتحها بالقوة ففكر فى فتح سرقسطة بالتجويع . ثم عاد إلى ضواحى سرقسطة فى يونيو ١١٠١م/شعبان ٤٩٤هـ ، وعسكر فى خوسليبول ، وقام بشن الغارات على ضواحى سرقسطة لإتلاف المحاصيل ، وإضعاف مقاومة مسلمى المدينة وإرغامهم على الاستسلام ، واستمر الملك فى ضواحى سرقسطة خلال شهرى يونيو ويوليو ، تجتاح قواته الحقول[٣] .

وعندما عرف سكان مدينة بلويه الهودية الواقعة بين مراكز تابعة للأرغونيين - التى خضعت للملك سانشو راميرث عام ١٠٨٢م/٤٧٤هـ ثم تخلصت من السيادة الأرغونية - مضايقة الأرغونيين للمستعين بن هود حاكم سرقسطة ، قاموا بمهاجمة الملك بطره ، فأغاروا على القوات الأرغونية ، وقاموا بمناوشتهم ، كما هاجموا بعض المدن الأرغونية المجاورة ، فاضطر الملك بطره إلى رفع الحصار عن سرقسطة ، والإنتقام من أهالى بلويه ، فأمر قواته بالانسحاب من حقول سرقسطة[٤] . ربما أدرك الملك بطره أنه لايمكنه غزو سرقسطة بالوسائل التى أعدها .

والواضح أن الحملة الصليبية على سرقسطة فشلت تماما ، إذ كان ينقصها الإعداد والتنظيم والتخطيط ، كما كان ينقصها الفرسان وهم العنصر الأساسى للجيش ، وأن هذه الحملة يمكن أن تعتبر غارة سريعة فاشلة على سرقسطة ، ولم تشر إليها المصادر العربية .

---

(١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٧٣ .

(٢) Turk, op. cit., p. 181 .

(٣) D. H. E., t. II, p. 795; Turk, op. cit., p. 182 .

(٤) Turk, op. cit., p. 182; Maria Viguera, op. cit., p. 173 .

ويلاحظ أن الحرب التى شنها الأرغونيون فى وادى إبره ، فى ذلك الوقت اصطبغت بصبغة الحروب الصليبية ، ففى هاتين الغارتين سرت فى أرغون لأول مرة صيحة الحروب الصليبية فى الشرق "هذه هى إرادة الله" كرمز إلى الروح الصليبية ، التى سوف تكون أكثر وضوحا فى حملات وسياسة ألفونسو المحارب(١) . وفى ذلك الوقت وصف الملك بطره بأنه "ملك صليبى"، ولأول مرة يستخدم كلمة "صليبى" ورمز "الصليب" فى استرداد أسبانيا(٢) .

وعلى أية حال ، تنبه الملك بطره إلى أهمية موقع بلويه وقربها من الممتلكات الأرغونية إيرب ولور وأنيس ، والتى أصبحت منعزلة وبعيدة عن العاصمة الهودية خاصة بعد سقوط مدينة وشقة فى أيدى الأرغونيين(٣) .

وبعد انسحاب الأرغونيين من حقول سرقسطة ، قام الملك بطره الأول بحصار قلعة بلويه ، فى سبتمبر ١١٠١م/ ذو القعدة ٤٩٤هـ ، ولكن الحصار لم يستمر طويلا ، إذ سرعان ما وقعت معركة بين المسلمين والأرغونيين فى ضواحى بلويه فى الثامن عشر من أكتوبر ١١٠١م/ الثانى والعشرين من ذو الحجة ٤٩٤هـ ، انهزم فيها المسلمون ، واستسلم السكان فى الحال ، وتمكن الملك الأرغونى من السيطرة على بلويه(٤) .

ومن المحتمل أن المستعين بن هود قد ساعد سكان بلويه ، وقاد جيشا لإغاثتهم ولكن محاولاته باءت بالفشل ، إذ سرعان ما استسلم السكان إثر هزيمتهم(٥) .

ثم تقدم الملك بطره لغزو بعض المدن الإسلامية التى تقع بين نهرى جلق وأرغون ، حيث كانت هذه المنطقة ميدانا مفتوحا للغارات بين المسلمين والأرغونيين ، كما أن حدود هذه المنطقة لم تكن واضحة بين المسلمين والأرغونيين ، وليست هناك أى حدود ثابتة تفصل بين مملكة بنى هود ومملكة أرغون ، غير قوى محصنة أو قلاع ، وبقى الميدان مفتوحا للغارات المسيحية

---

(١) Turk, op. cit., p. 182 .

(٢) Lacarra, H. P. R. N., p. 296 .

(٣) Turk, op. cit., p. 183 .

(٤) Fernandez, op. cit., p. 525; Turk, op. cit., p. 183 .

(٥) Turk, op. cit., p. 183 .

والإسلامية ، في المنطقة الصحراوية الواقعة بين أنهار جلق وأرغون وإبره ، وكانت هذه المنطقة امتداد مملكة بنبلونه قبل اتحادها مع أرغون[١] .

وفي الحقيقة ، أنه منذ النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، كان المسلمون ومثلهم الأرغونيون يجتازون هذه الحدود المفتوحة ، للتسلل داخل مقاطعة العدو ، وإتلاف المحاصيل أينما وجدوا ، خاصة في وقت الحصاد . وفي فرص متعددة ، وصل الأرغونيون لإقامة مراكز دفاعية بالقرب من القلاع الإسلامية مما سهل حصارها[٢] ، وأحيانا اضطر السكان المسلمون إلى دفع الجزية لملوك أرغون ضمانا لأمنهم[٣] .

أما إذا انتقلنا إلى منطقة وادي فونس Valle de Funes ، التي تقع بين ملتقى نهري أرجا وأرغون ، والتي كانت أكثر خطورة لبنبلونة ، إذ تجاورها مدينة تطيلة ، إحدى القواعد الإسلامية الرئيسية ، والتي اضطرت إلى زيادة وسائل الدفاع عنها ، لأنها أصبحت محاطة بالمراكز المسيحية ، والتي كان من أهمها فونس وبرالتا Peralta ، وفلاسز Flaces ، وأرلس كباروسو Caparroso Arles وأخوى Ujue ، ورادا Rada ، وأرجيداس[٤] . وقد توغل الملك بطرة في منطقة الحدود المفتوحة ، وقام بغزو المونينت Almunient في مايو ١١٠٢م/ شعبان ٤٩٥هـ وتبعها سقوط مدينة سانتاكارا Santacara في نوفمبر من العام نفسه ، كما قام الملك بطره بتعمير كباروسو وسانتاكارا ، ووفر لمستوطنيها المياه التي احتاجوا إليها في ري الأراضي ، كما منحهم امتيازات وإعفاءات ومزايا اقتصادية وحربية ، حتى تدعمت هذه الدائرة الدفاعية تماما بالسكان . ثم قام بغزو بيراسز Piraces في مايو ١١٠٣م / شعبان ٤٩٦هـ التي كانت محاطة بالمراكز المسيحية[٥] . وقد شكلت هذه المراكز الدفاعية بالإضافة إلى حصن أرجيداس جبهة دفاعية مواجهة لمدينة تطيلة[٦] .

---

(١) Lacarra, H. P. R. N., p. 291 .

(٢) Turk, op. cit., p. 182 .

(٣) Lacarra H. P. N. P. 292 .

(٤) Lacarra, H. P. R. N., pp. 292-293: Maria, Viguera, op. cit., p. 171 .

(٥) D. H. E. t. II, p. 795; Lacarra, H. P. R. N., p. 293 .

(٦) Lacarra, H. P. R.N., P. 294.

وقد اهتم الملك بطره الأول بالمدن المفتوحة ، إذ أقام بها الكنائس والأديرة ، ومنح النصارى امتيازات خاصة لتشجيع الزراعة ، كما ألزمهم بالخدمة العسكرية وقت الخطر نظرا لقربهم من بلاد المسلمين ، وقد ترتب على ذلك أن نهضت الطبقة الوسطى التى كانت على قدم المساواة مع النبلاء تقريبا[١] .

ورغب الملك بطره فى فتح مدينة تااريت دى ليترا - الواقعة على بعد خمسة وعشرين ك.م شرقى منتشون ، فزحف فى شهر يونية ١١٠٤م/ رمضان ٤٩٧هـ ، وحاصر قلعة تااريت، ولكنه فشل فى فتحها [٢] .

وفى سبتمبر ١١٠٤م/ ذو الحجة ٤٩٧هـ خرج الملك بطره فى جيشه ، متوجها إلى وادى أران Aran ، الذى يقع فيما وراء البرنيه - والفرنسى جغرافيا - وذلك للدفاع عن مصالح بعض الصليبين الذين ذهبوا إلى الأراضى المقدسة ، ولكن الملك بطره مات وسط قواته فى مدينة أران، فى الثامن والعشرين من سبتمبر عام ١١٠٤م / الخامس من محرم ٤٩٨هـ ، ودفن جثمانه فى ديرسان خوان دى لابينيا[٣] .

وكان الملك بطره الأول ملك أرغون ونبرة سياسيا وحربيا ممتازا ، إذ تمرس فى القتال ضد المسلمين ، وقد كلفه والده الملك سانشو راميرث بمهام أكثر خطورة ، إذ عهد إليه بحكم شبربر وربيا جورثا (١٠٨٥م/٤٧٨هـ) ، كما أرسله لمساعدة ألفونسو السادس فى معركة الزلاقة (١٠٨٦م/ ٤٧٩هـ) . وفى عهد الملك بطره اتسعت مملكة أرغون بضم وشقة وبربشتر ، بالإضافة إلى بعض القلاع الإسلامية وخاصة التى تقع على نهر سينكا ، وبذلك مهد للقضاء على مملكة سرقسطة ، وسقوطها فيما بعد فى يد خلفائه ، كما حقق الملك بطره الفتوحات الأولى للاسترداد الأرغونى حتى وادى ابره[٤] . بالإضافة إلى ذلك ، إمتدت سيطرة الملك بطره إلى الأراضى المطلة على البحر المتوسط ، إذ كان للأغونيين ممتلكات فى مقاطعة قسطيلون دى لابلانا أهمها قلاع كوله ومطرنيش وأوريسا (١٠٩٨م/٤٩١هـ) ، ولكن الأرغونيون

---

(١) أشباخ ، تاريخ الأندلس ، ص ١٣٩ .

(٢) D. H. E., t. II, p. 795; Turk, op. cit., p. 184 .

(٣) D. H. R., t. II, p. 795; Lacarra, Alfonso el Batallador, p. 32 .

(٤) انظر خريطة رقم (٢) Turk, op. cit., p. 183 .

فقدوا هذه القلاع بعد خروج خيمنا أرملة القنبيطور ، والملك ألفونسو السادس من بلنسية (١١٠٢م/ ٤٩٥هـ)[١] ومن المعروف عن الملك بطره أنه كان يوقع رسائله بالعربية ، وكان ورعا متعصبا ، لايكاد يفتح مدينة إسلامية حتى يحول في الحال مساجدها إلى كنائس[٢] .

وتعددت دائرة حلفاء الملك بطره الأول ، إذ توطدت أواصر الصداقة مع خاله أرمينجول الرابع Ermengol IV قمط أورقله (١٠٦٥-١٠٩٢م) وساعده الملك بطره في غزو مدينة بلغير عام ١٠٩١م/٤٨٤هـ ، والتي استرجعها المرابطون عام ١١٠٢م/٤٩٥هـ ، كما خطط الملك بطره بالاتفاق مع أرمينجول الرابع على مهاجمة لاردة ، ولكنه فشل بسبب المقاومة الإسلامية، وأدرك أن غزو لاردة يحتاج إلى جيش كبير ومساعدة خارجية . كما كان للملك بطره حقوق في ميرات والدته في مقاطعة أورقلة[٣] .

وفي الوقت نفسه قامت علاقات وثيقة بين الملك بطره الأول والقنبيطور ، وتم توثيق التحالف بينهما ، وكانت هذه العلاقة تقوم على حماية مصالحهما في شرقي أسبانيا ، كما ساعد الملك بطره القنبيطور في تنفيذ سياسته في شرق أسبانيا .

بالإضافة إلى ذلك ، ارتبط الملك بطره الأول بعلاقة صداقة مع دوق أكيتانيا Aquitania ، فقد تزوج زواجه الأول في يناير ١٠٨٦م/ شوال ٤٧٨هـ من إنس دي بواتييه Inés de Poitiers إبنة الدوق جيلومو الثامن Guillermo VIII دوق اكيتانيا ، وفي عام ١٠٨٦م/٤٧٨هـ أو العام التالي ، أنجب ابنا سمى بطره مثل أبيه ، والذى تزوج فيما بعد من ماريا إبنة القنبيطور ، كما أنجب الملك بطره ابنة تسمى إيزابيل . وعند وفاة زوجته دونا إنس عام ١٠٩٧م ، تزوج زواجه الثاني من برتا Berta الإيطالية ، ولم ينجب منها أبناء . وكانت زيجات الملك بطره السياسية تهدف إلى دعم روح التعاون الأوربي ، وجذب جنود جدد لاستمرار الحملة الصليبية الأسبانية . وفي عام ١١٠٢م/ ٤٩٥هـ مات أبناء الملك بطره

---

(١) D.H.E., t. II, p. 795 .

(٢) بروفنسال ، الإسلام في المغرب والأندلس ص ١٩٣ ،

Pidal, op. cit., t. II, pp. 571-572 .

(٣) Lacarra, Alfonso el Batallador, p. 29 .

فى حياته ، كما مات الملك بطره عام ١١٠٤م/ ٤٩٨هـ ، دون وريث ، وخلفه على عرش أرغون ونبرة أخوه ألفونسو الأول الملقب بالمحارب Batallador[(١)]- والمعروف فى المصادر الإسلامية بابن ردمير - والذى استطاع بزواجه من أوراكا Urraca إبنة ألفونسو السادس ملك قشتالة ، أن يحكم ممالك أرغون ونبرة وقشتالة .

ومما تقدم يتضح لنا كيف نشأت مملكة أرغون فى منطقة جبلية وعرة ، وأخذت تنمو بالتدريج ، ثم تولدت فيها حركة مقاومة المسلمين ، وأخذت هذه الحركة تقوى وتشتد ، مستغلة اشغال العرب بالمنازعات القبلية والعصبية ، وما أصاب البلاد من فتن داخلية . وانقسام الدولة الإسلامية فى أسبانيا إلى دويلات الطوائف ، وكان ضعف ملوك الطوائف مجالا خصبا لنشاط حركة الاسترداد ، بسبب الصراع الذى دار بينهم ، واستعانتهم بملوك النصارى . وكان لمملكة أرغون وقشتالة نشاطا حربيا وسياسيا فى حركة الاسترداد ، فاستغاث ملوك الطوائف بأمير دولة المرابطين فى المغرب ، يوسف بن تاشفين ، الذى استطاع توحيد كلمة المسلمين ، وقاد حركة الجهاد الدينى فى أسبانيا ، وتمكن من إخماد حركة الاسترداد القشتالية إلى حين ، فانشغل الفونسو السادس ملك قشتالة فى تدعيم مركزه لمواجهة هجمات المرابطين ، وتوقف الزحف القشتالى على الأراضى الإسلامية .

وبينما انشغل المرابطون فى التخلص من ملوك الطوائف ، وتوجيه ضرباتهم على قشتالة ، وباسترداد بلنسية من أيدى القنبيطور ، كان ملوك أرغون يواصلون سياسة الاسترداد ، فتوغلوا فى أراضى الثغر الأعلى من الشمال إلى الجنوب ، واستردوا كثيرا من المدن والقلاع الإسلامية ، حتى هدد الزحف الأرغونى مدينة سرقسطة .

وكانت الحرب بين ملوك أرغون ومسلمى الثغر الأعلى حرب قلاع وحصون ، وليس الدخول فى معارك حاسمة - ماعدا معركة وشقة - فقد تمرس الأرغونيون على حرب الجبال ، نتيجة طبيعة بلادهم الجبلية الفقيرة ، لذلك حين نزلوا من الجبال إلى السهول لتنفيذ سياسة الاسترداد ومواجهة المسلمين ، فقد واجهوا عقبات للزحف فى أرض سهلية ، إذ كانت المدن الإسلامية محصنة تحصينا قويا ، وكان غزوها يحتاج إلى موارد اقتصادية وحربية كبيرة . ولذلك عمد ملوك أرغون إلى سياسة فتح المدن عن طريق المجاعة ، وقد نجحت هذه السياسة إلى حد كبير.

---

(١) Lacarra, H. P. R., pp. 296-297: Fernandez, op. cit., pp. 524-525.

وفى ذلك الوقت من القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى تحولت الحرب المقدسة ضد المسلمين فى أسبانيا إلى حرب صليبية ، وقد حالت دون اشتراك النصارى الأسبان فى الحروب الصليبية على المشرق . ونجحت الحملة الصليبية الأولى على المشرق نتيجة التفكك والانقسام الذى ساد المشرق الإسلامى ، فى الوقت الذى توحدت فيه الجبهة الإسلامية فى الغرب تحت سيادة المرابطين .

الفصل الثانى

السياسة الخارجية للملك ألفونسو الأول "المحارب"

١١٠٤-١١١٤م/٤٩٨-٥٠٨هـ

١- بداية حكم الملك ألفونسو الأول "المحارب" ابن ردمير " .

٢- علاقة ألفونسو المحارب بجيرانه المسلمين والنصارى .

٣- موقعة الأقماط السبعة "أقليش" وأثرها فى تحقيق الوحدة بين مملكتى قشتالة وأرغون عام ١١٠٩م/٥٠٣هـ .

٤- استسلام مملكة سرقسطة للمرابطين عام ١١١٠م/٥٠٣هـ .

٥- تحالف عبد الملك عماد الدولة مع الملك ألفونسو المحارب ضد المرابطين .

٦- سياسة ألفونسو المحارب فى قشتالة وأثرها على سياسة الاسترداد .

٧- توتر العلاقة بين الملك ألفونسو المحارب وزوجته الملكة أوراكا وأثر ذلك على اتحاد قشتالة وأرغون .

٨- فشل الزواج السياسى بين ملكى قشتالة وأرغون .

ولد ألفونسو الأول فى عام ١٠٧٣م/٤٦٥هـ ، وهو الابن الثانى من الزواج الثانى للملك سانشو راميرث ، وكانت أمه فيليسيا دى روكى ، الأميرة الفرنسية ، سيدة شمبانيا Champa na ، وكان حكام روكى أجداد ألفونسو الأول من ناحية الأم[١] . وتربى ألفونسو فى دير القديس بطره دى سيرسا San Pedro de Siresa ، الواقع فى وادى إتشو ، وهناك تلقى ثقافته الأولى ، وتعلم قواعد اللغة فى دير سان سلفادور دى البويو San Salvador del Pueyo ، الكائن فى وادى نهر استارون Estarrun - جهة جاقة - وتلقى تعليمه على يد جاليندو دى أربوس Galindo de Arbos ، واستبان Esteban أسقف مدينة جاقة ، ثم أسقف وشقة فيما بعد ، أما تعليمه الحربى والسياسى فكان على يد مؤدبه لوب جارسيز Lope Garcez[٢] .

---

(١) Fernandez, op. cit., p. 530; Lacarra, Alfonso el Batallador, p. 16 .

(٢) Lacarra, Alfonso el Batallador, p. 20 .

وقد منح الملك سانشو راميرث أراضى ريباجورثا للملكة فيليسيا كمهر لها ، وفى عام ١٠٨٥م/٤٧٨هـ عهد إلى إبنه الأمير بطره بحكم مقاطعتى شبررب وريباجورثا ، فوجد الأمير بطره أن الأراضى الموهوبة للملكة فيليسيا ، قد أضعفت من سلطته فى مملكتى شبررب وريباجورثا . فتوصل إلى اتفاق بينه وبين فرناندو ، الابن الأكبر للملكة فيليسيا ، بموجبه تنازل فرناندو عن ريبا جورثا ، واستلم بدلا منها سلسلة من المدن والقلاع التى تقع غربى المملكة فى الأراضى الأرغونية[١] .

غادر ألفونسو الأول أديرة البرنيه بعد أن تلقى تعليمه بها ودخل الحياة العامة مبكرا ، إذ كان يبلغ من العمر ثلاثة عشر عاما ، عندما توفى أخوه فرناندو فى عام ١٠٨٦م/٤٧٩هـ ، ورث الأمير ألفونسو عن أخيه بعض المدن والقلاع التى تقع غربى مملكة أرغون ، والتى شكلت مهر والدته الملكة فيليسيا ، فحكم قلاع بيل Buil ولونا وبايلو Bailo وأردنس Ardenes[٢].

قام ألفونسو الأول بتوثيق الروابط العائلية مع عائلة والدته ، ومع سادة فرنسا ، ولذا تكرر سفره إلى شمال فرنسا ، وإلى منطقة بيارن Bearn ، ومن هنا جاء التعاون الفرنسى فى سياسة الاسترداد التى اتبعها ألفونسو فيما بعد ، فقد وجد التعاون الأخوى من ابن خاله روترو الثانى Rourou II ، حاكم برتش Perche ، وأيضا من جاستون دى بيارن Gaston de Bearne والمعروف فى الرواية العربية باسم غشتون - المتزوج من ابنة خاله تالسا Talesa - فى الحملات التى قام بها ، منذ صار ملكا لأرغون ونبرة ، لتحرير وادى إبره من السيادة الإسلامية[٣] .

كان لألفونسو كثير من الأصدقاء ، وقد عينهم فى المناصب العليا فى الدولة ، منهم كاستان Castan ، الذى جاء من فرنسا ، وعهد اليه ألفونسو بحكم قلعة بيل - التى كان يحكمها حين كان أميرا ، والتى شكلت جزءا من مهر الملكة فيليسيا - وكان رفيقه فى السلاح فى الأوقات الصعبة ، ومستشاره الأمين فى المؤامرات القشتالية ، وأيضا بير بتيت Per Petit ، أخو كاستان ، الذى حكم القلاع الهامة لور وبلويه ، وكذلك

---

(١) Idem .

(٢) Lacarra, H. P. R. N., p. 298; Valdeavellano, op. cit., p. 385 .

(٣) Lacarra, Alfonso el Batallador, p. 21 .

لوب جارسيز برجرينو Lope Garces Peregrino والذى كان يراقب سرقسطة من قلعة كاستيار ، وسوف يشترك فى غزوها ، ويعهد إليه ألفونسو إقطاع آلاجون Alagon[1]، وآخرين مثلهم[2] .

وقد تشبعت طفولة وشباب ألفونسو الأول بالروح الدينية القوية ، تحت حماية البابوية ، متأثرا بالروح الصليبية ، فى وقت قيام البابا أوربان الثانى بالتبشير بالحملة الصليبية الأولى، فسادت النزعة الصليبية على كل أوربا ، كما قام المندوبون البابويون بإثارة حملة صليبية ضد مسلمى أسبانيا ، إذ قاموا بالتبشير بحملة صليبية ضد مملكة سرقسطة عام ١١٠١م/ ٤٩٤هـ ، ومنذ ذلك الوقت اصطبغت الحروب التى شنها الأرغونيون ضد المسلمين فى وادى إبره بصبغة الحروب الصليبية . وعاش ألفونسو الأول طفولته وشبابه فى ظل هذه الروح الصليبية التى أثرت على فكره وعلى سياسته كملك أرغون[3] .

كما أن ألفونسو الأول عاش جو المعارك خلال حكم أبيه وأخيه ، وكلفاه بمهام حربية وقد أثر ذلك على نشاطه . فحين بدأ الملك سانشو راميرث حصار مدينة وشقة عام ١٠٩٤م/ ٤٨٧هـ ، أرسل الملك ألفونسو السادس ملك قشتالة بعض قواته لمساعدة أهل وشقة ، وحينئذ كلف الملك الأرغونى الأمراء بطره وألفونسو بمقاومة القشتاليين ، فانسحب القشتاليون بدون قتال ، تجنبا للاشتباك مع الأرغونيين ؛ وأيضا فى معركة الكرازة التى خاضها الملك بطره الأول ضد مسلمى وشقة عام ١٠٩٦م / ٤٨٩هـ ، قاد ألفونسو الأول طليعة القوات الأرغونية، وكان عمره حينذاك ثلاثة وعشرين عاما ، وبعد قليل ، إشترك ألفونسو مع أخيه الملك بطره الأول فى معركة بيرين عام ١٠٩٧م/ ٤٩٠هـ ضد المرابطين فى مساعدة القنبيطور ، وبذلك دخل ألفونسو الميدان الشرقى لأسبانيا ، وحقق انتصارا على المرابطين ، وتعرف على التكتيك الحربى للمرابطين[4] .

---

(١) آلاجون Alagon : مدينة تقع فى الشمال الغربى من مقاطعة سرقسطة ، وتبعد عنها بحوالى إحدى وعشرون ميلا . D. H. E., t. I, p. 70 .

(٢) Lacarra, Alfonso el Batallador, p. 21 .

(٣) Lacarra, Alfonso el Batallador, p. 22 .

(٤) Lacarra, H. P. R. N. P. 298

وقد فكر ألفونسو الأول فى الاشتراك فى الحملة الصليبية إلى الأراضى المقدسة لتخليص القبر المقدس من أيدى المسلمين ، مثلما حاول أخوه الملك بطره من قبل أن يشترك فى الحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٦م/٤٨٩هـ ، كما أن صديقه وأمين سره استبان أسقف وشقة بدأ الرحلة إلى الأراضى المقدسة فى بداية حكم الملك ألفونسو الأول ، لهذا فإن كل المشروعات الحربية لألفونسو الأول قد اصطبغت بالروح الدينية ، وكانت تهدف إلى مواصلة سياسة الغزو التى بدأها أبوه وأخوه ، وخطط ألفونسو لاسترداد لارده وسرقسطة الأكثر قربا من أرغون ، وطرطوشة وبلنسية الأكثر بعدا ، وبذلك كان يحلم بتخليص وادى إبره من السيادة الإسلامية والوصول بمملكته حتى ساحل البحر المتوسط ، وفتح طريق بحرى يؤدى إلى الأراضى المقدسة ، وقيادة حملة صليبية إلى الشرق[١] .

وبعد موت الملك بطره الأول عام ١١٠٤م/٤٩٨هـ ، دون وريث من أولاده ، ورث ألفونسو الأول أخاه ، وتم تتويجه ملكا على مملكتى أرغون ونبره فى شهر يونيه عام ١١٠٦م/ شوال ٤٩٩هـ ، فى مدينة وشقة عاصمة مملكة أرغون ، وقد أقيم حفل التتويج فى الكنيسة الكبرى ، وقام بتتويجه استبان أسقف وشقة ، الذى كان الأب الروحى للملك[٢] .

وكان بلاط ألفونسو الأول ملك أرغون خاليا من الوصيفات ، وهو صوره مصغره لبلاط بنبلونة ، وقد تعددت مناصب القصر ، فهناك كبير الخدم وحامل الراية ومؤدب الملك ، والقسيس الخصوصى للملك ، ونحوى وكتّاب شتى وراوية الملك الذى كان يدعى بونسيو Poncio. وكان بلاط الملك الأرغونى أشبه بمعسكر أو مجلس حربى ، يتكون من بعض المحاربين ، الذين غالبا ما كانوا رهبانا ، كما شارك بعض الأساقفة فى الميول الحربية للملك[٣] .

أما إختيار الرؤساء فكان يتم بمقدرة الملك الحربية وتفاهمه مع رجال الدين ، وأكثرهم غرباء، وبعضهم من أهل الملك ، وآخرون رفقاء الطفولة والشباب . وكثيرون منهم كانوا فى الأرض المقدسة ، والأخرون اختطوا لتأدية الحج ، ولم يكن من الميسور عليهم الانتقال عن أماكنهم لأجل سلامة المملكة ، وكان يمكنهم تنفيذ رغباتهم والحصول على الغفران الروحى

---

(١) Lacarra, Alfonso el Batallador, pp. 23, 28 .

(٢) Zurita, A. C. A., t. I, p. 115; Moret, A. R. N., t. II, p. 229 .

(٣) Lacarra, Alfonso el Batallador, p. 109 .

داخل منظمات بلشر أو مونريال التى أنشأها الملك ، وكان هدفهم دائما الزحف نحو طرطوشة أو بلنسية وإعداد الطريق إلى بيت المقدس . وعين الملك الأشخاص الأكفاء فى الأماكن الأكثر أهمية وخاصة فى منطقة الحدود . وكافأ قواده بمنحهم ملكيات أو إكراميات التى كانت قلاعا وأراضى للحكم والدفاع(١) .

وحكم ألفونسو الأول أرغون ونبرة باسم "ألفونسو المحارب" ، وقد أطلق عليه لقب "المحارب" نتيجة المعارك الكثيرة التى خاضها ضد المسلمين والمسيحيين ، والتى كانت دائما تنتهى بانتصاره على المسلمين ، ماعدا المعركة الأخيرة فى إفراغة(٢) . ووصفت مدونة القديس خوان دى لابينيا ألفونسو الأول ملك أرغون بأنه ليس له مثيل فى قدرته الحربية فى أسبانيا كلها ، كما أنه انتصر خلال سنوات حكمه فى تسع حروب ، ولذلك لقب "بالمحارب"(٣) .

وفى بداية حكم الملك ألفونسو المحارب ، لم يكن هناك معالم واضحة للحدود بين الأراضى التابعة لأرغون والأراضى التابعة للمستعين حاكم سرقسطة ، وقد كانت شبه الجزيرة الأيبيرية كلها مهددة من المرابطين . وخضعت كل ممالك الطوائف ماعدا سرقسطة لسلطة المرابطين ، كما فقدت الممتلكات الأرغونية فى ساحل قسطيلون منذ دخول المرابطين مدينة بلنسية عام ١١٠٢م/ ٤٩٥هـ ، ومنذئذ ، بدأ الضغط المرابطى على حدود لاردة وبلغير ، عن طريق طرطوشة(٤) . وزحف المرابطون من بلنسية ، وهاجموا أورقلة ، ودخلوا مدينة بلغير فى سبتمبر ١١٠٢م/ ذو الحجة ٤٩٥هـ ، بعد معركة بينهم وبين أرمينجول الخامس Ecmengol V قمط أورقلة (١٠٩٢-١١٠٢م) ، والذى سقط قتيلا فى المعركة(٥) . وقد خشى المستعين بن هود حاكم سرقسطة من الزحف الأرغونى من الشمال ، والزحف المرابطى من الجنوب ، فسعى الى كسب ود الأمير المرابطى ، وتوثيق علاقات الصداقة مع المرابطين . وقد جعل الأمير المرابطى من مدينة سرقسطة خط دفاع ضد هجمات النصارى ، وظهر المستعين فى ذلك الوقت، مدافعا عن الثغر الأعلى أمام هجمات ألفونسو المحارب"(٦) .

---

(١) Ibid. pp. 109 - 110 .

(٢) Moret. A. R. N., t. II, p. 227 .

(٣) C. S. J. P., p. 68 .

(٤) Lacarra. H. P. R. N., p. 298 .

(٥) Lacarra. Alfonso el B., P. 29 .

(٦) ابن عذارى ، البيان المغرب جـ٤ ص ٤٢ - ٤٣ ؛ ابن سماك العاملى ، الحلل الموشية ص ٦٠ .

وواصل ألفونسو المحارب سياسة الاسترداد التى إتبعها أجداده ، وكان الاسترداد الأرغونى فى عهد الملك بطره الأول قد وصل حتى تاماريت فى الجزء الشرقى من مملكة بنى هود ، وإلى إخيا وتوست فى الجزء الغربى منها[١] .

بدأ ألفونسو المحارب نشاطه الحربى بشن هجوم عن طريق أراضى سينكو بياس (المدن الخمس) Las Cinco Villas ، وحاصر مدينة إخيا الفرسان Ejea de Los Caballeros فى عام ١١٠٦م/ ٤٩٩هـ ، التى كانت تشكل إحدى القلاع الدفاعية الإسلامية وسط خمس مدن أرغونية ، فهى تقع فى مواجهة مدن لويزيا Luesia وأونكاستيو Uncastillo وبيل وأجيره وموريو دى جلق Murillo de Callego وإيرب ، كما قطعت الإتصال بين هذه المدن الأرغونية وقلعة كاستيار التى بناها الملك سانشو راميرث على الإبره عام ١٠٩١م/٤٨٤هـ ، وكانت مدينة اخيا قوية التحصين ، كما أنها تحمى المدخل الرئيسى الى وادى إبره[٢] .

وقام ألفونسو المحارب بغزو مدينة أخيا بمساعدة بعض الأقماط الفرنسيين ، ومن أهمهم قمط جفاردن ومارسان Gavardan et Marsan ، وجاستون قمط بيجور Bigorra وجاستون قمط أسبى Aspo ، واستولى عليها ، وضمها إلى مملكة أرغون . ومنح ألفونسو المحارب إلى دير سواب ماخوير عشر وبواكير كل مقاطعة اخيا ، تقديرا لدور القديس خيرود Géraud فى إسقاط المدينة ، كما منح أهلها امتيازات كثيرة[٣] . وفى نوفمبر ١١٠٦م/ ربيع أول ٥٠٠هـ وضع ألفونسو المحارب مدينة أخيا تحت سيادة لوب لوبيث Lope Lopiz سيد أونكاستيو[٤].

لم تشر المصادر الإسلامية إلى سقوط مدينة اخيا فى يد الأرغونيين ، وقد اختلفت الروايات المسيحية حول تاريخ سقوطها ، فحدد بعض المؤرخين استيلاء ألفونسو المحارب على

---

(١) Turk, el Reino de Zaragoza, p. 184 .

(٢) Defourneaux, op. cit., p. 154; Turk, op. cit., pp. 184-185 .

(٣) R. H. G. F., t. XII, pp. 384 - 385 .

ومن الجدير بالذكر أن راهب دير سواب ما خوير فى روايته المنشورة تحت عنوان "قصة حصار مدينة إخيا فى أرغون" ، نسب فتح إخيا إلى الملك سانشو راميرث ، وهذا يخالف ما أجمعت عليه الروايات النصرانية التى نسبته إلى الملك ألفونسو المحارب .

(٤) Lacarra, La Conquista de Zaragoza, pp. 69-70, not. 3; Turk, op. cit., p. 185 .

المدينة فى عام ١١٠٥م/٤٩٨ - ٤٤٩هـ[١] بينما حدده فريق آخر من المؤرخين فى عام ١١٠٦م/٤٩٩-٥٠٠هـ[٢] . فى حين أن بعض المدونات المسيحية حددته فى عام ١١١٠م/٥٠٣هـ[٣] . ويحتمل أن فى التاريخ الأول كان ألفونسو المحارب مشغولا بالأمور الداخلية للمملكة ، وتثبيت حكمه ، ويرجع أن التاريخ الثانى يميل إلى الصواب ، فربما قام الملك بالاستيلاء على مدينة اخيا بعد أن تم تتويجه ملكا على أرغون ونبرة ، فى حين أن التاريخ الثالث يبدو أنه متأخر ، ولا يتفق مع مجرى الأحداث اللاحقة ، لأن فى عام ١١١٠م/٥٠٣هـ واجه ألفونسو المحارب كثيرا من المتاعب من مسلمى سرقسطة من جهة ، ومن مملكة قشتالة من جهة أخرى ، وهذه المتاعب لاتتيح له فرصة فتح مدينة أخيا أو غيرها . كما أن اسم مدينة أخيا ورد بين الأماكن المذكورة فى معاهدة الوحدة بين ألفونسو المحارب وأورواكا ، المؤرخة فى ديسمبر عام ١١٠٩[٤] ، مما يدل على أن هذه المدينة يجب أن تكون فتحت قبل عام ١١١٠م.

وبعد بضعة أيام من الاستيلاء على اخيا ، قاد الملك ألفونسو المحارب قواته وهاجم مدينة توست ، وتوغل فى معسكر المسلمين ، واشتبك معهم ، وبعد معركة عنيفة ، استولى على المدينة . وعقد ألفونسو مجلسا دينيا فى دير القديس يوحنا دى لابينيا ، وأعاد إليه الامتيازات التى كان يتمتع بها من قبل فى عهد أخيه الملك بطره[٥] ، ربما لمعاونة الدير فى الاستيلاء على مدينة اخيا وتوست .

وترتب على هذا الزحف الأرغونى ، أن تمكن الملك ألفونسو المحارب من إخضاع كل أراضى الضفة اليسرى للإبره حتى خوسليبول ، وانتشار رجاله فى منطقة كاستيار الواقعة بالقرب من سرقسطة ، بعد أن أخرج منها سكانها[٦] .

---

(١) Fernandez op. cit., p. 532; Lacarra, Alfonso el B., p. 29 : Maria Viguera, op. cit., p. 174 .

(٢) Defourneaux, op. cit., p. 154; D. H. E., t. I, p. 128; Valdeavellano, op. cit., p. 386, 388-389, not. I.

(٣) Zurita, A. C. A., p. 132; Moret, A. R. N., p. 239; C. S. J. P., p. 69 .

(٤) انظر الملحق رقم (١) .

(٥) C. S. J. P., p. 69; Lacarra, Alfonso el B., p. 29 .

(٦) C. S. J. P., p. 70; Lacarra, Alfonso el B., p. 29 .

ثم اتجه ألفونسو المحارب نحو الجزء الشرقى المجاور لمملكة أرغون ، فقد جمعت الظروف فى الحال بين ألفونسو المحارب والقمط بطره أنسورث Pedro Ansurez حاكم كاريون Carrion - الواقعة فى مملكة ليون - أحد أفراد حاشية ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وصهر حاكم أورقلة أرمينجول الخامس ، والذى وصل إلى أورقلة بعد مقتل صهره فى معركة مع المرابطين عام ١١٠٢م/٤٩٥هـ ، للدفاع عن ميراث حفيده الطفل أرمينجول السادس . وقد طلب مساعدة ألفونسو المحارب وقمط برشلونة رامون برنجير الثالث Ramon Berenguer III (١٠٩٧-١١٣١م/ ٤٩٠-٥٢٥هـ) لاستعادة بلغير من المرابطين[١] . وذهب ألفونسو المحارب إلى إقليم شيقر لمساندة قمط أورقلة ، ولكن لم تمدنا المصادر عن مدى تعاون ملك أرغون وقمط برشلونة فى استرداد بلغير . وقام بطره أنسورث بغزو المدينة ، وبعد قتال عنيف مع المرابطين تمكن من استرداد مدينة بلغير عام ١١٠٦م/ ٥٠٠ق[٢] . ومنح أنسورث هبات إلى كاتدرائية وشقة ، مما يدل على أنه تلقى مساعدة منها ، ويبدو أن الملك الأرغونى لم يشترك شخصيا فى استرداد بلغير .[٣] والمهم أنه نشأت الصداقة بين ألفونسو المحارب وبطره أنسورث ، التى ترتب عليها دفاع بطره أنسورث عن ألفونسو المحارب فى البلاط القشتالى ، وترشيحه للزواج من أوراكا إبنة الملك ألفونسو السادس .

وفى ذلك الوقت ، استولى ألفونسو المحارب على سلسلة القلاع القريبة من لاردة ، وأقام معسكره فى جاردنى Gardeny ، فى منتشون ، مهددا قلعة لاردة ، كما استعد لحصار مدينة تاماريت - الواقعة على بعد خمسة وعشرين ك.م شرقى منتشون - واستولى عليها فى يوليو ١١٠٧م/ذو الحجة ٥٠٠هـ . وسرعان ما استولى على قلعة سان إستبان دى ليترا San Esteban de Litera [٤]. وبذلك سهل ألفونسو المدخل إلى نهر شيقر عن طريق بلغير مثلما عن طريق لاردة . وفى يوليو ١١٠٧م منح ألفونسو المحارب إلى أسقف وشقة بعض الامتيازات

---

(١) Fernandez, op. cit., pp. 530 - 531; Lacarra, Alfonso el B. p. 29 .

(٢) Lacarra, Alfonso el B., p. 29; Valdeavellono, op. cit., p. 386.

(٣) Fernandez, op. cit, p. 531 .

(٤) Fernandez, op. cit., p. 532; Lacarra, Alfonso el B., p. 30; Maria Viguera, op. cit., p. 175 .

فى مدينة تاماريت (١) ، وكافأ إستبان دى استاديا Esteban de Estadilla ، بمنحه المنازل التــى كانت ملكا للمسلم ابن الفقيه فى المدينة ، لأنه أول من دخل مدينة تاماريت (٢) ، وأمضى ألفونسو شهرى نوفمبر وديسمبر من العام نفسه يتنقل بين تاماريت ومنتشون (٣) .

فى ذلك الوقت ، سكن النشاط المرابطى حينا على حدود أورتلة ، وبلغ أرمينجول السادس- الذى تربى فى قشتالة - سن الرشد عام ١١٠٧م/٥٠٠هـ ، واستدعى بطره آنسورث على عجل فى قشتالة ، إذ تعقدت الأمور الحربية والسياسية بشكل ينذر بالخطر ، فعاد أنسورث إلى قشتالة عام ١١٠٨م/٥٠١هـ ، بعد أن قام بتوثيق الصداقة بين حفيده وألفونسو المحارب (٤) .

إستعان بعض الصليبيين فى فرنسا بألفونسو المحارب لحماية أملاكهم ومصالحهم أثناء غيابهم فى الأراضى المقدسة ، وقبل رحيل برتران Bertran ابن رامون الرابع حاكم تولوز ، إلى الأراضى المقدسة ، وضع أخاه ألفونسو خوردان Alfonso Jordan الذى يبلغ من العمر ست سنوات ، تحت مجلس وصاية ، ثم اتجه إلى مدينة بريشتر فى مايو ١١٠٨م/شوال ٥٠١هـ ، مصطحبا حاكم بليارش ، وعرض برتران على ملك أرغون حماية أراضيه ، بعد رحيله إلى الأرض المقدسة . وبعد قليل وصل إلى أرغون برناردو آتون Bernardo Aton فيسكونت بزييه Béziers - الذى عاد من الأراضى المقدسة عام ١١٠٥م - وطلب مساعدة ألفونسو المحارب ضد أعدائه ، وحماية أملاكه ، لأن سيده برتران حاكم تولوز كان فى ذلك الوقت ، قد ذهب فى حملة صليبية إلى بلاد الشام ، وفى مقابل ذلك ، قدم برناردو الولاء لألفونسو المحارب . وبعد سنوات ، نفذ برناردو واجب الطاعة ، وأخذ طريق أسبانيا ، عندما استعد ألفونسو المحارب لحصار سرقسطة (٥) .

ويبدو أن ملك أرغون لم يمارس أى سلطة حقيقية على هذه المقاطعات . فقد مات برتران فى الأرض المقدسة فى الحادى والعشرين من أبريل عام ١١١٢م ، وأيضا مات ابنه بونز Pons فى

---

(١) Lacarra, D. E. R. R. V. E., Doc.num. 7, pp. 479 - 480 .

(٢) Lacarra, D. E. R. R. V. E., Doc. num. 8, pp. 480 - 481 .

(٣) Lacarra, Alfonso el B., p. 30 .

(٤) Fernandez, op. cit., p. 532; Lacarra, Alfonso el B., pp. 30-31 .

(٥) Lacarra, Alfonso el Batallador, pp. 31-32 .

فلسطين فى عام ١١٣٧م ، ولم يتم وصول خلفائه لاسترداد مقاطعة تولوز ، التى استمرت بين خلفاء ألفونسو خوردان ، أخى برتران .

ولم تخبرنا الوثائق المتاحة لنا بتفاصيل عن مساعى ومصالح ألفونسو المحارب فى فرنسا ، فقط أشارت إحدى الوثائق الأرغونية إلى حكم ألفونسو المحارب فى آران وبليارش منذ عام ١١٠٨م ، وسوف يذهب ألفونسو إلى آران فى عام ١١٣٠م [١] .

بينما استدعى ألفونسو المحارب من أجل حماية مصالح بعض الفرسان ورجال الإقطاع الفرنسيين الذين اشتركوا فى الحملة الصليبية ، استدعى أيضا على عجل للتدخل فى شئون مملكة قشتالة ، التى كانت تواجه أشد الهجمات من المرابطين . ويهمنا فى هذا الموضع أن نتتبع بإيجاز نشاط المرابطين فى أسبانيا فى تلك المرحلة ، وإلقاء الضوء على العلاقة بين ألفونسو السادس ملك قشتالة والمرابطين ، حتى يمكننا أن نعطى صورة واضحة لتلك الأحداث التى تكون مدخلا لتطور العلاقة بين مملكتى قشتالة وأرغون .

وخلال هذه المرحلة ، توفى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فى الثانى من سبتمبر ١١٠٦م/مستهل محرم ٥٠٠هـ بقصره بمراكش ، وخلفه على عرش الدولة المرابطية فى نفس اليوم ولده أبو الحسن على (١١٠٦-١١٤٣م/ ٥٠٠-٥٣٧هـ) ولقب بأمير المسلمين ، والذى اختاره والده لولاية عهده منذ عام ١١٠٢م/٤٩٥هـ ، وأوصاه بمهادنة بنى هود حكام سرقسطة، وبأن يتركهم سدا بينه وبين النصارى[٢] .

بدأ على بن يوسف عهده بضبط الثغور ، فعبر إلى أسبانيا عام ١١٠٧م/٥٠١هـ وقام بتنظيم حكومة المرابطين فيها ، وكانت قضية الجهاد فى سبيل الله هدفا رئيسيا فى سياسته وتنفيذا لأوامره خرج أخوه تميم[٣] غازيا لمملكة قشتالة ، وكان عليه قبل أن يدخلها أن يقضى

---

(١) Lacarra, H. P. R. N., p. 322 .

(٢) ابن سماك العاملى ، الحلل الموشية ، ص ٥٦ ، ٦٠ .

(٣) تميم بن يوسف بن تاشفين : هو أخو الأمير على بن يوسف ، وقد ولى حكم غرناطة بين سنتى ١١٠٧/٥٠١ و١١٠٩/٥٠٣هـ ، ثم نقل إلى حكم تلمسان بالمغرب ، ثم عاد بعد ذلك إلى أسبانيا ، فتولى غرناطة مرة أخرى فيما بين عام ١١٢١/٥١٥ ، و١١٢٢م/ ٥١٦هـ . وبعدها نقل إلى إشبيليه . ثم أصبح عاملا على قرطبة وغرناطة فى عام ١١٢٥م/٥١٩هـ ، فى الوقت الذى قام فيه ألفونسو المحارب بحملته ضد الأندلس ، ويبدو أن أخاه عليا قد عزله عن غرناطة لقلة بلائه فى هذه الحملة ، ويرجح أنه توفى عام ١١٢٦م/ ٥٢٠هـ . ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٩ ، حاشية ١ .

على الحامية النصرانية التى كانت تستولى على حصن أقليش Uclés[١] ، شرقى طليطلة ، وكانت على طريق المسلمين إلى بلنسية وسرقسطة تحول بينهم وبين القيام بعمل عسكرى فى هذه الناحية[٢] .

خرج تميم بن يوسف بن تاشفين من مدينة غرناطة[٣] ، فى أوائل مايو ١١٠٨م/ الثامن عشر من رمضان ٥٠١هـ ، فى اتجاه التاجه ، للوصول إلى جيان ، منتظرا القوات الوافدة من قرطبة بقيادة واليها أبى عبد الله محمد بن أبى رنق ، ثم زحف إلى بياسة Baeza ، وفى الطريق انضمت اليه قوات مرسية بقيادة واليها أبى عبد الله محمد بن عائشة[٤] ،

---

(١) أقليش أو أقليج : مدينة لها حصن فى أسبانيا ، قاعدة كورة شنتبرية ، وهى الآن فى مديرية قونقة Cuenca ، وتابعة لمركز تارانكون ، وتقع على ضفاف فى نهر بدخا Vedija ، رافد ريناريس Riansares ، وهى على بعد مائة كيلو متر جنوب مجريط الشرقى . حسين مؤنس ، الثغر الأعلى الأندلسى ، ص ١٠٧ ، حـ٣ ، D.H.E., t. II, p. 1323 .

(٢) حسين مؤنس ، الثغر الأعلى الأندلسى ، ص ١٠٧-١٠٨ .

(٣) غرناطة Granada : وهى أقدم مدن كورة إلبيرة وأعظمها ، وتقع على الضفة اليمنى لنهر شنيل ، ويخترقها نهر حدرو ، وعلى جنوبها نهر الثلج المسمى شنيل وينبع من جبل شلير وهو جبل الثلج ، وغرناطة فى شمال الجبل . وبين غرناطة ووادى آش أربعون ميلا . الإدريسى ، صفة المغرب والأندلس ص ٢٠٣ ، عبد العزيز سالم ، دائرة معارف الشعب ، مادة "غرناطة" ، العدد ٦١ ، ص ٩٢ .

(٤) هو أبا عبد الله محمد بن يوسف بن تاشفين : كان من كبار قواد المرابطين ، عينه أبوه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين قائدا على شرق أسبانيا بعد أن عاث السيد القنبيطور فيه فسادا ، فولى عمل مرسية ، واضطلع بإقرار الأحوال فى تلك المنطقة الشرقية . وفى عهد أخيه على قام ابن عائشة بعمليات حربية واسعة النطاق ، فشارك فى موقعة أقليش ١١٠٨م/٥٠١هـ ، كما أسرع من مرسية لنجدة محمد بن الحاج عامل سرقسطة حينما حاصره ألفونسو المحارب عام ١١١٠م/٥٠٤هـ ، وقد انتهت هذه العملية بفك الحصار وعودة ملك أرغون إلى بلاده . كذلك اشترك ابن عائشة مع ابن الحاج فى غزوة برشلونة عام ١١١٤م/٥٠٨هـ ، والتى انتهت بهزيمة البورت وقد نجا منها ابن عائشة إلا أن بصره اعتل بعدها ثم لم يلبث أن عمى ، فاستدعاه أخوه على وعين بدلا منه على مرسيه أخاه ابراهيم بن يوسف . ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١٠١/١٠٢ ، حـ٤ ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٨ حـ١ .

وقوات بلنسية بقيادة واليها محمد بن فاطمة[١] ويمكن تحديد عدد الجيش المرابطى بما يقرب من ستة آلاف فارس ، وذلك من توزيع يوسف بن تاشفين للجيش على الأندلس[٢] واتجهت عساكر المرابطين إلى بلدة أقليش ، فوصلت اليها يوم الأربعاء السابع والعشرين من مايو ١١٠٨م / الرابع عشر من شوال ٥٠١هـ ، وأحكمت الحصار عليها ، وهاجمتها بعنف وتمكنت من اقتحامها ، والتجأ المدافعون من النصارى إلى قصبة أقليش ، واستقبل المسلمون الذين عاشوا فى أقليش - المدجنين[٣] - إخوانهم المرابطين كمنقذين ومحررين لهم ، وكشفوا لهم عن خبايا وأحوال المدينة ، وقضى المرابطون ليلة الخميس ٢٨-٢٩ مايو / ١٥ - ١٦ شوال فى معسكراتهم فى ضواحى المدينة[٤] .

---

(١) هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن فاطمة أحد القواد المرابطين فى عهد يوسف بن تاشفين وابنه على. اشترك فى عدة غزوات ضد النصارى ، فاشترك فى إنقاذ بلنسية من ايدى النصارى عام ١١٠٢م/٤٩٥، وقام بغزو طليطلة وطلبيرة عام ١١٠٤م/٤٩٧هـ مع أبى الحسن على بن الحاج قائد جيوش المرابطين فى منطقة شرق أسبانيا ، ثم تولى حكم بلنسية بدلا من الأمير مزدلى بن سلنكان الذى نقل إلى تلمسان عام ١١٠٤م/٤٩٧هـ ، واشترك فى موقعة أقليش ، واستمر ابن فاطمة واليا على بلنسية حتى عام ١١١٠م/٥٠٣هـ ، التى عين فيها عاملا على غرناطة ، ثم عين عاملا على مدينة فاس بالمغرب عام ١١١١م/٥٠٤هـ ، وبعد عدة سنوات عاد إبن فاطمة إلى الأندلس كعامل على أشبيلية عام ١١١٥م/٥٠٩هـ، وظل على حكم هذه المدينة إلى أن مات فى يناير ١١١٨م/ رمضان ٥١١هـ . إبن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١١٢ حـ٢ ، ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٨ حـ٢ .

(٢) ابن سماك العاملى ، الحلل الموشية ، ص ٥٧ .

(٣) المدجنين Mudéjares : هم المسلمون الأندلسيون الذين عاشوا فى الأراضى والمدن التى استردها النصارى ، وقد أطلق عليهم المدجنون أى أهل الدجن ، وأخذ هذا اللفظ من قولهم دجن بالمكان أى ألف الإقامة به ، ولم يغادروا أوطانهم ، وعاشوا بين المسيحيين يحافظون على عقيدتهم . وقد زاد عددهم فى القرون الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر ، نتيجة حركة الاسترداد ، وتخصص المدجنين فى مجال الصناعة والتجارة والزراعة ، كما ابتكروا فنا معماريا يجمع بين الطراز الأندلسى والمغربى والقوطى ، وتمتع المدجنين بحرية العقيدة بالرغم من أوامر الكنيسة المعارضة ، ذلك لأن المنظمات الحربية والسادة استخدموهم فى زراعة أراضيهم ، كما حصل الملوك منهم على ضرائب كبيرة .

Bleye, op. cit., pp. 862, 899 - 900 :

محمد عبد الله عنان ، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، ص ٤٢ .

(٤) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٥ - ٦ ؛ حسين مونس الثغر الأعلى الأندلسى ، الوثيقة الأولى ، ص١٢٣-١٢٦ ؛ Miranda, Las Grandes Batallas de la Reconquista, Madrid, 1956, pp. 114-115 .

فى ذلك الوقت ، علم ألفونسو السادس ملك قشتالة بحصار المرابطين لقلعة أقليش ، فأعد جيشا كبيرا يقدر بنحو عشرة آلاف فارس[١] ، وأرسل معه ولده الأمير سانشو Sancho الذى كان يبلغ من العمر آنذاك خمسة عشر عاما[٢] ، ومؤدبه القمط دون غرسية دى كابرا Don Garcia de Cabra ، ولم يكن ألفونسو السادس يستطيع أن يذهب بنفسه لإنقاذ أقليش ، لمرضه وشيخوخته ، فقام بتشكيل حاشية للأمير سانشو من أكبر أقماط قشتالة ، صحبته أثناء المعركة . وضم الجيش كبار قادة وأقماط طليطلة ، وقائد قلعة النسور Calatanazor ، وقائد قلعة عبد السلام Alcala de Henares وتحرك الجيش القشتالى بقياده البرهانس Alvar Hanez [٣] وغرسية أوردونيث فى طريقه إلى أقليش[٤] .

علم تميم باقتراب الجيش القشتالى ، حيث تمكن شاب مسلم أسير من الهروب من معسكر النصارى ، وأبلغ تميم أخبارا عن الجيش القشتالى وعن عدده[٥] . وهنا تختلف الرواية

---

(١) ابن القطان ، نفسه ، ص٦ ؛ يذكر ابن عذارى أن الجيش القشتالى يقدر بنحو سبعة آلاف فارس (البيان المغرب ، جـ٤ ص ٥٠) .

(٢) الأمير سانشو : هو ابن الملك ألفونسو السادس من زوجته زايدة المسلمة الأصل ، التى فرت إلى قشتالة ، باحثة عن ملاذ لها بعد مقتل زوجها المأمون بن المعتمد بن عباد على يد المرابطين عند دخولهم قرطبة فى مارس ١٠٩١م/ صفر ٤٨٤هـ . وهناك أصبحت الزوجة غير الشرعية لملك قشتالة ، واعتنقت المسيحية وقد أنجبت من الملك ألفونسو السادس ولده الوحيد الأمير دون سانشو فى عام ١٠٩٣م/٤٨٦هـ ، وتوفيت فى سبتمبر عام ١٠٩٩م . ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١١٤ حـ٣ ، ليفى بروفنسال ، الإسلام فى المغرب والأندلس ، ص١٦٠-١٦١ .

(٣) البرهانس Alvar Hanez : هو ابن عم السيد القنبيطور ، وكان واحدا من كبار الفرسان فى بلاط ألفونسو السادس ، وكان حاكم مدينة ثوريتا Zorita . وقد أشترك فى المواقع التى وقعت بين ألفونسو السادس والمرابطين ، فشارك فى معركة أقليش عام ١١٠٨م/٥٠١هـ ، وانهزم وفقد إقطاعيته فى قرية ثوريتا ، حينما استولى المرابطون على تونقة بعد انتصارهم فى اقليش ، وقد أقامه ألفونسو بعد ذلك حاكما لمدينة طليطلة من عام ١١٠٩-١١١٤م/٥٠٢-٥٠٧هـ ، واغتاله أهل شقربية Segovia عام ١١١٤م/٤٠٧هـ وهو يدافع عن حقوق الملكة أوراكا ضد أنصار ألفونسو المحارب .

Pidal, op. cit., t.II, pp. 586, 626 ;

حسين مؤنس ، الثغر الأعلى الأندلسى ، ص ١٢٧ حـ ٢ .

(٤) P. C. G. E., t. II, p. 554; Bosch Vila, Los Almoravides, Tetuan, 1956, p. 182 .

(٥) حسين مؤنس ، الثغر الأعلى الأندلسى ، الوثيقة الأولى ، ص ١٢٧ ؛

Bosch, op. cit., p. .182 .

الإسلامية حول موقف تميم ، فيخبرنا المؤرخ ابن أبى زرع أن تميم حين علم بقدوم جيش النصارى أراد أن يقلع عن الحصار ، كيلا يلاقى الجيش القشتالى ، وقد نصحه عبد الله بن محمد بن فاطمة ومحمد بن عائشة وغيرهما من قواد المرابطين بعدم الرحيل ، وشجعوه وهونوا عليه الأمر، وأخبروه أن الجيش القشتالى لايزيد عن ثلاثة آلاف فارس ، ومرة أخرى أراد تميم العودة والإحجام عن قتال الجيش القشتالى عند وصوله ، حين رآه فى ألوف كثيرة ، ولكنه لم يجد سبيلا للفرار ، ووجد تصميم قواد المرابطين على لقاء العدو ومناجزته[١] .

فى حين أن الرسالة التى أرسلها تميم بإنشاء الكاتب ابن شرف[٢] ، إلى أخيه أمير المسلمين على بن يوسف يخبره فيها بفتح أقليش ويهنئه بالنصر ، تصور لنا موقف تميم تصويرا مختلفا تماما عمارواه لنا ابن أبى زرع ، فتصف لنا كيف استعد تميم لملاقاة العدو ، وذلك بأنه طلب نصيحة القائدين المجربين أبى عبد الله محمد بن عائشة وأبى محمد عبد الله بن فاطمة ، وتم تنظيم الجيش المرابطى استعدادا للمعركة لتكون القوات القرطبية بقيادة ابن أبى رنق فى الطليعة ، وشكلت قوات مرسية وبلنسية بقيادة ابن عائشة وابن فاطمة جناحى الجيش ، وكانت القوات الغرناطية بقيادة تميم فى الوسط[٣] .

وفى خلال ذلك ، وصل الجيش القشتالى إلى قلعة أقليش فى ليلة يوم الجمعة التاسع والعشرين من مايو ١١٠٨م/ السادس عشر من شوال ٥٠١هـ ، وفى فجر هذا اليوم بدأت معركة أقليش ، وتقدمت القوات القشتالية ، وهاجمت مقدمة الجيش المرابطى هجوما عنيفا ودارت الحرب بينهما ، واشتد القتال بين الفريقين[٤] . وبينما كانت المعركة على أشدها ،

---

(١) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، جـ٢ ، ص ٨٢ - ٨٣ .

(٢) هو أبو الفضل جعفر بن أبى عبد الله بن شرف ، ولد فى مدينة برجه بالأندلس ، واشتهر بمدح المعتصم بن صمادح صاحب المرية ، وكان من جلة الأدباء والشعراء ، ويبدو أنه دخل فى خدمة المرابطين بعد استيلائهم على مدينة المرية ، توفى عام ١١٤٠م/٥٣٤هـ . ابن سعيد المغربى ، المغرب فى حلى المغرب ، جـ٢، ترجمة رقم ٥٠٨ ، ص ٢٣٠-٢٣٢ ؛ حسين مؤنس ، الثغر الأعلى ، ص ١٢٢ .

(٣) حسين مؤنس ، نفس المرجع ، الوثيقة الأولى ، ص ١٢٨ ؛

Miranda, op.cit., p. 115; Bosch, op. cit., p. 182 .

(٤) ابن القطان ، نظم الجمان ، ٧ - ٩ .

أصيب فرس الأمير القشتالي بطعنة قاتلة ، فسقط الفرس على الأرض ، كما سقط معه الأمير ، وحينئذ ترجل دون غرسية وغطى الأمير بدرعه ، وأخذ يدافع عن الأمير ويحميه ويصد ضربات المسلمين من جميع الجهات حتى قتل . وانتشرت الفوضى فى القوات القشتالية ، وقتل منهم عدد كبير ، وفر عدد آخر ، وطاردهم المسلمون إلى قرب حصن بلنشون Belin-chon – على بعد عشرين كيلو متر غربى أقليش – وتمكن الأمير القشتالى سانشو بصحبة الأقماط السبعة الذين شكلوا حاشية له من الفرار من المعركة ، وحاولوا الالتجاء فى حصن بلنشون والاحتماء به ، ولكنهم قتلوا جميعا بأيدى المسلمين المدجنين الذين كانوا يعيشون هناك ، وعرفت الموقعة فى المدونات المسيحية باسم "موقعة الأقماط السبعة" La Batalla de Los Siete Condes ، بينما عرفت فى الرواية الإسلامية باسم موقعة أقليش . وتمكن البرهانس مع فلول جيشه من الانسحاب والفرار نحو طليطلة[١].

عاد الأمير تميم إلى قرطبة ، وترك قوات القائدين ابن عائشة وابن فاطمة محاصرين لحصن أقليش ، ولما صعب عليهما أمره لمناعته ، تظاهرا بالانسحاب وأعدا الكمائن ، فخرج النصارى من الحصن ، فانقض عليهم المسلمون ، فقتلوا بعضهم ، وأسروا البعض الآخر ، وبذلك تم الاستيلاء على أقليش[٢] .

وترتب على هزيمة القشتالين فى أقليش سقوط كثير من الحصون والقلاع القشتالية فى أيدى المرابطين ، وأهمها قونقة واماستريجو Amassatrigo وأوكانيا Ocana وويذة Huete ، بالإضافة إلى أقليش[٣] .

وحزن ألفونسو السادس حزنا عميقا لمقتل ولده وولده عهده الأمير سانشو ، وظهرت مشكلة الميرات فى قشتالة ، حيث أن نظام الملك فى قشتالة كان وراثيا ، وأصبحت أوراكا الوريثة الوحيدة للملك ألفونسو السادس ، وهى ابنته الشرعية من زوجته الملكة دونيا كونستانسى دى بورجونيا Dona Constanza de Borgona [٤] ، والتى كانت تزوجت

---

(١) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٩ ؛ P. C. G. E. t. II, p. 555 .

(٢) ابن القطان ، نفس المصدر ، ص ٩ ، حسين مؤنس ، الثغر الأعلى ، الوثيقة الأولى ، ص ١٣٠-١٣١ .

(٣) P. C. G. E., t. II. p. 555 .

(٤) Lacarra, H. P. R. N., p. 299 .

من القمط دون رامون دى بورجونيا Don Ramon de Borgona منذ عام ١٠٩٢م/٤٨٥هـ ، ومنحه الملك ألفونسو السادس حكم جليقية كبائنة لها ، وعاشت أوراكا فى جليقية ، وكان رامون يطمع فى ميراث المملكة ، ولكن ضاعت هذه الفرصة بميلاد الأمير سانشو بن الملك ألفونسو السادس عام ١٠٩٣م/٤٨٦هـ ، وأنجبت أوراكا ابنها الأول ألفونسو ريموندس فى عام ١١٠٥م/٤٩٨هـ[1] ، والذى سوف يخلفها فى الحكم باسم ألفونسو السابع[2] - المعروف فى المصادر الإسلامية بالسليطين - وعهد والده إلى القمط بطره دى ترابا Pedro de Traba بحضانته ، ثم أنجبت ابنتها دونيا سانشا Dona Sancha . وقد مات القمط رامون البرجونى زوج أوراكا فى عام ١١٠٧م/ ٥٠٠هـ فى مدينة جرخال Grajal بالقرب من ساهاجون، وطلب الملك ألفونسو السادس من كل سادة وأقماط جليقية أن يقوموا بخدمة الإبن، والاعتراف به سيدا عليهم ، وقد منح الملك لحفيده جليقية ، إذا ماتزوجت والدته مرة أخرى ، وأمر الملك أن يتم قسم الولاء للحفيد على يدى أسقف شانت ياقب Santiago [3] .

كما كان للملك ألفونسو السادس ابنته غير الشرعية هى دونيا تريسا Teresa من خليلته خمينا نونيث Gimena Nunez ، والتى تزوجت القمط دون إنريك البرجونى ، ابن عم القمط رامون البرجونى ، وكلاهما من الأشراف الفرنسيين أقارب الملكة كونستانسى ، ومنحه الملك ألفونسو مقاطعة البرتغال كبائنة لها[4].

بعد مصرع الأمير سانشو المفاجئ عام ١١٠٨م/٥٠١هـ فى موقعة أقليش ، حضرت أوراكا إلى بلاط والده الملك ألفونسو السادس ، بصحبة ديجو جلمريث Diego Gelmirez الذى كان رئيس أساقفة شانت ياقب . وقد أصاب ألفونسو السادس قلق كبير على وراثة عرشه ،

---

(١) Memorias de les Reynas Catbolicas, tomo I, Madrid, 1790, pp. 234 - 235 .
بينما حدثت الحوليات الطليطلية الأولى ميلاد الأمير ألفونسو فى أول مارس عام ١١٠٦م/٤٩٩هـ .
(Anales Toledanos I, p. 344)

(٢) ومن الجدير بالذكر أن ألفونسو السابع عرف فى المصادر المسيحية "بالملك الصغير" ، للتمييز عن زوج أمه ألفونسو المحارب والذى دعته المصادر المسيحية بألفونسو السيد . "فقد ذكرت وثيقة أرشيف كاتدرائية قلهرة أن" عندما كان ألفونسو السيد يحاصر بلنسية" . Mirands , Los Banu Hud, p. 24 .

(٣) M. R. C., t. I, pp. 232, 236-237

(٤) أشباخ ، تاريخ الأندلس ، ص ١٣٤ . M. R. C., t. I , p. 186;

وترك ممالكه لأوراكا فى وقت كانت فيه مملكة قشتالة تعانى من هزائم الزلاقة وأقليش على يد المرابطين . وأخذ ألفونسو السادس يبحث عن زوج قوى لابنته ، يستطيع أن يتحمل أعباء الحكم وقيادة الجيش ، ويتولى إدارة الدفاع عن الحدود ، وتوجيه الحرب ضد المرابطين الذين جددوا هجماتهم على حدود التاجه ، ومن ثم فإن الموقف الحربى والسياسى جعل ألفونسو السادس يبحث عن زوج وملك فى آن واحد . وفى ظل هذه الظروف ظهر ألفونسو المحارب ملك أرغون الرجل الوحيد القوى فى أسبانيا المسيحية[١] .

وفى صيف عام ١١٠٨م/٥٠١هـ ، ظهر فى بلاط قشتالة حزبان : أحدهما من رجال الدين وتزعمه بطره أنسورث قمط كاريون ومؤدب الأميرة ، وبرناردو دى سلبيتات Bernardo de Salvetat الراهب البندكتى رئيس أساقفة طليطلة ، وقام هذا الحزب بترشيح ألفونسو المحارب ملك أرغون زوجا لأوراكا ، أما الحزب الآخر فكان من بعض النبلاء القشتاليين ، وكان يرشح القمط القشتالى جومث جونثالث Comez Gonzalez - الذى دعى فيما بعد "دى كاند سبينا de Candespina - والذى يعتقد أن أوراكا كانت تميل نحوه[٢] .

رفض الملك ألفونسو السادس اقتراح النبلاء ، واختار ألفونسو المحارب كزوج لابنته ووريثته ، وقد اختاره لأنه محارب شجاع ، ومن سلالة الملوك . وكان الغرض من هذا الزواج تقوية العرش ، وتوحيد كل ممالك أسبانيا النصرانية فى مملكة واحدة ، يمكن أن تكون قوتها كافية ضد المرابطين[٣] .

حينئذ عقد ألفونسو السادس مجلسا من أساقفة ورهبان مملكته ومستشاريه وأشراف طليطلة ، وطلب نصيحة المجلس بشأن زواج ابنته أوراكا من ملك أرغون ، ووافقت الهيئة القضائية لطليطلة على مشروع الزواج ، لأن الملك ألفونسو ملك أرغون كان قادرا على مواجهة الخطر الإسلامى ، وتم الاتفاق على استدعاء ألفونسو المحارب إلى قشتالة ، لكى يعرض عليه الزواج من أوراكا[٤] . وبذلك استدعى ألفونسو المحارب على عجل للحضور إلى قشتالة .

---

(١) Lacarra, Alfonso el B., p. 34; Valdeavellano, op. cit., p. 387 .

(٢) P. C. G. E., t. II, p. 644; Chaytor, op. cit., p. 52 .

(٣) Fernandez, op. cit., p. 533; Valdeavellano, op. cit., p. 387 .

(٤) Moret, A. R. N., P. 235; P. C. G. E., t. II, p. 644 .

وفى هذا المجلس أصدر الملك ألفونسو السادس قراراته بشأن وراثة العرش ، وخلاصتها أن تكون أوراكا وارثة لعرش قشتالة وليون وأشتريس ، وأن يمنح حفيده الفونسو ريموندیس مملكة جليقية مع بقائها تحت سلطان قشتالة ، وفى حالة وفاة والدته يورثهم جميعا ، وأن يمنح القمط إنريك - صهر ألفونسو - وزوجته تريسا إمارة البرتغال كتابع لعرش قشتالة ، فإذا لم تعقب أوراكا من زواجها بألفونسو ملك أرغون ، فإن المملكة كلها تؤول إلى ولدها ألفونسو ريموندیس . وعهد ألفونسو السادس بتربية الأمير الطفل إلى عمه أسقف فيين Vienne - الذى أصبح البابا كالكستس الثانى Calixio II - وحاكم ترابا ووضع إمارة جليقية تحت وصايتهما ، على أن تكون له كاملة[١] .

وفى الحال ، انتقل ألفونسو المحارب ملك أرغون ونبرة إلى طليطلة ، ووافق على عرض الزواج ، الذى يمهد لوحدة قوية بين مملكتين من أقوى ممالك شبه الجزيرة الأيبيرية ، وما يتبع ذلك من مراجهة الخطر المرابطى ، كما يمكنه من تحقيق أحلامه بنجاح كمحارب صليبى بجعل سلاحه لخدمة المسيحية والكنيسة المهددة فى وطنه . وبدأ ألفونسو السادس مفاوضات الزواج مع ألفونسو المحارب ، والشروط التى تتعلق بالصداق ، وسيادة ألفونسو المحارب على مملكة ليون عند وفاة حميه[٢] .

وما كاد ألفونسو السادس ينتهى من تنظيم هذه الشئون ، وقبل إتمام الزواج ، حتى أدركه الموت فى الثلاثين من يونيو عام ١١٠٩م/ أول ذى الحجة ٥٠٢هـ[٣] ودفن فى دير ساهاجون فى مملكة ليون ، وخلفته على حكم قشتالة وليون وجليقية[٤] ابنته أوراكا

---

(١) Zurita, A. C. A., pp. 117-118 ;

أشباخ ، تاريخ الأندلس ١٣٤ .

(٢) Lacarra, Alfonso el B.,, pp. 35 - 36 .

(٣) Anales toledanos I, p. 344: Lacarra, Alfonso el B., p. 34 .

حددت المدونة العامة الأولى لأسبانيا وفاة الملك ألفونسو السادس فى أول يوليو ١١٠٥م/ شوال ٤٩٨هـ (P. C. G. E., t. II, p 645) ، أما المؤرخ ابن أبى زرع فقد حدده بعشرين يوما بعد موقعة أقليش (روض القرطاس ، جـ٢ ، ص٨٣) وهذه تواريخ تخالف ما اجمعت عليه الروايات المسيحية والإسلامية من أن ألفونسو السادس مات بعد موقعة أقليش بعام .

(٤) انظر خريطة رقم (٤) .

(١١٠٩-١١٢٦م/٥٠٢-٥٢٠هـ) ، وانتقلت الملكة أوراكا إلى مملكة ليون ، ومع بداية حكمها ، تعرضت قشتالة لهجمات أشد خطورة من المرابطين عند حدود التاجه .

وبعد وفاة ألفونسو السادس بقليل ، استأنف الأمير المرابطي على بن يوسف حركة الجهاد ، فعبر إلى أسبانيا في آخر يوليو ١١٠٩م/ أول محرم ٥٠٣هـ ، وأقام بقرطبة أياما ، وخطط لاسترجاع طليطلة ، فخرج من قرطبة ووصل إلى طلبيرة Talavera[١] يوم الخميس الثاني عشر من أغسطس/ الثالث عشر من المحرم من العام نفسه ، وقام المرابطون بحصار المدينة ، وفي اليوم التالي إشتد القتال بين المسلمين والنصارى ، الذين اجتهدوا في الدفاع عن المدينة . وكان سد التاجه يحمي سور المدينة ، فقام المرابطون بتحطيمه ، وتمكنوا من اقتحام المدينة في يوم السبت الرابع عشر من اغسطس ١١٠٩م/ الخامس عشر من محرم ٥٠٣هـ ، وقتلوا معظم سكانها النصارى ، واستنقذوا من كان فيها من الأسرى المسلمين ، كما استولى المرابطون على قصبة المدينة وأعادوا كنيستها إلى مسجد كما كانت عليه ، وترك على بن يوسف عليها حامية مرابطية قوية ، ورحل عنها[٢] .

ثم زحف المرابطون نحو مدينة طليطلة وإقليمها ، فشنوا في طريقهم غارات عنيفة ، على مجريط ووادي الحجارة واستولوا عليهما ، ثم وصلوا إلى طليطلة شمال التاجه ، فحاصروها أياما دون تحقيق أي نتيجة ، لحصانتها وقوة القوات القشتالية التي تولت الدفاع عنها بقيادة البرهانس ، وأدرك على بن يوسف أن طلطيلة تحتاج إلى استعدادات قوية ، فقرر رفع الحصار وعاد إلى قرطبة بعد أن ألقى الرعب في نفوس أهل قشتالة[٣] .

وفي هذا الوقت ، احتفل بزواج ألفونسو المحارب وأوراكا في خريف عام ١١٠٩م/٥٠٣هـ، في قلعة مونيو Muno قرب برغش . وتم الزواج بموافقة رجال الدين[٤] . ولعل التهديد

---

(١) طلبيرة Talavera : مدينة تقع على نهر التاجه غربي طليطلة ، ولها قلعة حصينة ، بينها وبين طليطلة سبعون ميلا . الحميري ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٢) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٣ - ١٤ ، ابن عذاري ، البيان المغرب جـ٤ ص ٥٢ ،

Bosch, op. cit., pp. 184-185 .

(٣) ابن عذاري ، نفس المصدر ، جـ٤ ، ص ٥٢ ؛

Bosch, op. cit., p. 185 .

(٤) Valdeavellano, op. cit., p. 393 .

المرابطى لمدينة طليطلة ، جعل أقساط قشتالة وسادتها يستعجلون ألفونسو المحارب لإتمام الزواج لمواجهة الخطر المرابطى . وقد كان هذا الزواج يهدف إلى التأكيد السياسى لتحقيق الوحدة بين قشتالة وأرغون تحت سيادة الزوجين ، ولكن حدث العكس وانقلب الزواج شؤما ونقمة على النصارى ودفع بهم إلى غمار الحرب الأهلية وحدٌ من اتحادهم ضد المسلمين[١] .

ومن الجدير بالذكر ، أن تاريخ قشتالة فى هذه الفترة التى امتدت من وفاة الملك ألفونسو السادس إلى تولى حفيده ألفونسو السابع ، يحيط بها الغموض والاضطراب إذ أن مصادرها مشوشة ، خلطت الأحداث ، وأحيانا اختلفت المصادر فى تسلسل الأحداث التاريخية ، فأغلبها ورد دون تحديد لتاريخ الأحداث . كما أن بعض المدونات أساءت إلى الملك الأرغونى ألفونسو المحارب بصورة مبالغة ، والبعض الآخر أصر على إظهار فجور الملكة القشتالية ، وهذا يرجع إلى الحروب الأهلية التى دارت بين القشتاليين والأرغونيين ، وكراهية كل منهما للآخر . وسوف نحاول فيما يلى عرض وقائع تطور العلاقة بين ألفونسو المحارب والملكة أوراكا ، ومحاولة إيضاح الحقيقة التاريخية وتسلسلها التاريخى من خلال هذه المصادر المتاحة.

ولقد وصفت مدونات مجهول ساهاجون زواج ألفونسو المحارب وأوراكا بأنه كان "زواجا ملعونا ومحرما ، وسبب الضرر والخراب لأسبانيا"[٢] . وعلى أية حال ، انتقل ألفونسو المحارب إلى قشتالة ، وتولى السلطة مع زوجته ، وسار الزواج موفقا خلال الشهور الأولى ، وساد الوئام لفترة قصيرة . وأمر ألفونسو المحارب بتعمير الأماكن القفر مثل بلورادو Belo-rado وسرية والماثان Almazan وبرلانية Berlanga وأسكنها برجاله[٣] . ومنذ هذا الوقت تلقب ألفونسو المحارب بملك أرغون وملك قشتالة وليون وطليطلة[٤] .

وبدأت الخلافات الزوجية الأولى بسبب التنافس على السلطة ، فقد أراد ألفونسو مشاركة زوجته فى حكم ليون وقشتالة ، بينما كانت أوراكا طموحة للقيادة ، تميل إلى حكم ممالكها ، بدون تدخل زوجها ، وتعارضت المصالح بين الزوجين ، مما أدى إلى توتر العلاقات بينهما .

---

(١) أشباخ ، تاريخ الأندلس ، ص ١٥١ .

(٢) C. A. S., pp. 29-30 .

(٣) Zurita, A. C. A., p. P. 118; C. S. J. P., p. 69 .

(٤) Ballesteros, op. cit., p. 339 .

وأمام الخطر المرابطي ، بدأت المفاوضات بين الزوجين ، حتى يحكم الزوجان معا بشكل قانوني، ووضع مستشارو كل من الملكين الوثائق التي تحدد اختصاصات كليهما ، والمحافظة على حقوق ألفونسو ريمونديس ابن الملكة[١] .

وبعد مضى ثلاثة شهور من الزواج ، بدأت تنتشر شائعة أن زواج ألفونسو المحارب وأوراكا غير قانوني ، وظهرت شكوك حول ثبوت الزواج شرعا . ودفاعا عن فكرة الحكم المشترك ، وحفظ الوحدة بين مملكتى قشتالة وأرغون ، وقع الملك ألفونسو المحارب والملكة أوراكا فى ديسمبر ١١٠٩م/جماد أول ٥٠٣هـ معاهدة لإتحاد التاجين وتقوية الروابط بين الملكين ، وسجلت فى وثيقتين : الأولى ، حدد فيها الصداق المتفق عليه - فى حياة الملك ألفونسو السادس - وفيها منح ألفونسو المحارب إلى زوجته أوراكا - على سبيل الصداق - سلسلة من القلاع فى نبرة وأرغون وهى إستيا وسوس Sos واخيا ووشقة وقلعة جبل أرغون وبسبين Bespén ونبال . وأضاف ألفونسو المحارب إلى ذلك ، أنه منح زوجته كل أملاكه كقيمة صداق ، حتى يمكنها أن تمارس سلطتها فى ولايات زوجها . أما الوثيقة الثانية ، وفيها منحت أوراكا إلى زوجها ألفونسو المحارب ممالك قشتالة وليون التى ورثتها عن والدها ، وأن يشاركها كزوج السلطة فى قشتالة وليون[٢] .

كما حددت المعاهدة أيضا قواعد الميراث ، بأنه إذا أثمر هذا الزواج ابنا ، فهو يرث أملاك والديه ، وفى حالة عدم إنجاب أبناء ، ترث أوراكا مملكة أرغون ونبرة بعد وفاة زوجها ، وأن يرث ألفونسو المحارب ممالك زوجته بعد وفاتها ، ويخلفه ابنها ألفونسو ريموندس . وكان من أهم شروط هذا الزواج أنه اذا رغبت أوراكا أن تنفصل عن زوجها ، أن يتخلى حكام المقاطعات فى ليون وقشتالة مثلما فى أرغون ونبرة عن خدمتها ، ويخدمون الملك فقط . كما تعهد ألفونسو بالمحافظة على الوحدة الزوجية وعدم الانفصال عن زوجته " لا بسبب القرابة ، ولا بسبب الحرمان الكنسى ، أو لأى سبب آخر" . وبهذه الشروط ، فإن ألفونسو المحارب أراد بدون شك تأمين زواجه من أوراكا ضد أعدائه[٣] .

---

(١) Valdeavellano, op. cit., pp. 395-396 .

(٢) C. A. S., pp. 28 - 30, not. I.

ورد نص المعاهدة فى الملحق رقم (١) .

(٣) C. A. S., pp. 28-30, not. I; Valdeavellano, op. cit., p. 397 .

وبذلك أصبح ألفونسو المحارب سيدا على أرغون ونبرة بحق الوراثة ، وسيدا على قشتالة وليون بحق الزواج[١] ومنذئذ بدأ ألفونسو المحارب يستخدم اللقب الإمبراطورى ، وفى المعاهدة الموقعة بينه وبين زوجته تلقب مثل حميه ألفونسو السادس "إمبراطور أسبانيا"[٢] . ولكن اللقب الإمبراطورى لألفونسو المحارب كان أكثر اتساعا عنه لألفونسو السادس ، إذ كان ألفونسو المحارب يلقب بالملك والإمبراطور فى قشتالة وليون وطليطلة وأرغون وبنبلونة وشبروب ورياجورثا . بينما لقبت زوجته أوراكا أيضا "إمبراطورة أسبانيا"[٣] . وتم تتويج ألفونسو المحارب إمبراطورا فى مجلس دينى جمع نبلاء وجند بسكونية Vasconia ، عقد فى دير سيلو مايور Silue Nayoris فى مدينة إخيا ، فى عام ١١١٠م/٥٠٣هـ ، ومنح ألفونسو المحارب للدير المذكور بعض الامتيازات[٤] . واستمر ألفونسو المحارب يستخدم اللقب الإمبراطورى حتى عام ١١٢٧م/٥٢١هـ .

وقد واجه زواج ألفونسو المحارب وأوراكا ووحدة مملكتى قشتالة وأرغون تحديات من ثلاث قوى سياسية كبرى ، خططت لمحاربة الوحدة حفاظا على مصالحها : أولا ، رجال الدين الفرنسيين برئاسة برناردو دى سلبيتات رئيس أساقفة طليطلة ، الذى دافع فى البداية عن ترشيح ألفونسو المحارب زوجا لأوراكا ، ثم برز كأحد أعداء الزواج الذى أبعد عن الميراث العائلة البرجونية الممثلة فى ألفونسو ريموندیس ، والتى كان القساوسة الفرنسيين أكثر المؤيدين لها . لذلك بدأ رجال الدين يعلنون بطلان زواج ألفونسو وأوراكا قانونا بحجة القرابة كأبناء عم ، وأن الزوجين أبناء أحفاد الملك سانشو العظيم[٥] ، ولذلك ثار الجزء الأكبر من رجال الدين ضد زواج واتحاد ألفونسو المحارب وأوراكا ، وطلبوا من البابا إصدار قرار بإدانة هذا الزواج المحرم ، وقد حدد المؤرخ رودريك الطليطلى بأن صلة القرابة بين ألفونسو وأوراكا كانت من الدرجة الثالثة[٦] .

---

(١) C. S. J. P., p. 69 .

(٢) Zurita, A. C. A., p. 119; C. A. C., pp. 28-30, not. I.

(٣) C. A. S., pp. 28-30, not. I; Valdeavellano, op. cit., pp. 397-398 .

(٤) C. S. J. P., p. 69 .

(٥) M. R. C., t. I, p. 240; Valdeavellano, cit., p. 397 .
انظر الجدول رقم (١) .

(٦) C. S. J. P., pp. 72-73; R. H. G. F., t. XII, p. 378, not. d.

ثانيـا ، إعلان عداء الجليقيين لزواج ألفونسو وأوراكا ، فقد اعترض نبلاء جليقية الذين كانوا يشكلون حزب رامون دى بورجونيا ، واعتبروا أن هذا الزواج يضر بحقوق ألفونسو ريمونديس بن رامون دى بورجونيا . وفى الحقيقة ، أن المعاهدة التى عقدت بين ألفونسو المحارب وأوراكا ، حرمت ألفونسو ريموندبس من حقوق الميراث فى مملكة قشتالة وليون . وقد ترتب عليها اضطراب سياسى فى جليقية استمر سنوات ، فقد ثار احتجاج الوصى بطره فروبلاث Pedro Froilaz قمط ترابا ، وخطط مع اشراف جليقية الذين حفظوا الولاء لذكرى القمط رامون البرجونى ، لإعلان ألفونسو ريموندبس ملكا على جليقية - تحت وصاية بطره فروبلاث لصغر سنه - تنفيذا لرغبة جده الملك ألفونسو السادس . وساد الاضطراب فى أراضى جليقية نتيجة ظهور حزب آخر من أشراف جليقية الذين تطلعوا إلى حفظ وحدة مملكة قشتالة ، وكانوا مؤيدين لأوراكا وزوجها الملك الأرغونى ، وقد شكلوا قوة للوقوف ضد قمط ترابا ، والدفاع عن حقوق الملكة وأطلق عليهم "جماعة الأخوة Hermanded (١) .

ثالثـا ، واجه زواج ألفونسو المحارب وأوراكا عداء أقماط البرتغال تريسا أخت الملكة أوراكا وزوجها إنريك دى بورجونيا ، اللذين كانا معارضين لفكرة الوحدة ، ويتطلعان إلى عرش قشتالة ، لأن أوراكا قد ورثت الميراث الأبوى بالإضافة إلى مقاطعات أرغون ونبرة ، وامتد ملكها من جليقية إلى سينكا ، ولذلك كان هذا الزواج يتعارض مع أحلام التوسع والاستقلال لأقماط البرتغال(٢) .

بالإضافة إلى ذلك ، كان اختلاف الصفات بين الزوجين ، وعدم وجود روح التفاهم الودى بينهما ، أدى إلى إثارة الخلافات الزوجية . وقد تأثرت أوراكا بنصائح بعض الأشراف القشتاليين - الذين كانوا رشحوا القمط جومث جونثالث للزواج منها - وشجعوها على أن تحكم ولاياتها بمفردها ، لذلك تفجرت الخصومات بين الزوجين بشأن ممارسة السلطة . وحين دافع بطره أنسورث مؤدب أوراكا ، عن فكرة الحكم المشترك وتأييد حق ألفونسو المحارب فى مشاركتها الحكم ، تعرض لغضب الملكة أوراكا وخرج منفيا من قشتالة ، لأنها اعتقدت

---

(١) Fernandez, op. cit., p. 536; Valdeavellano, op. cit., p. 398 .

(٢) Lacarra, Alfonso el B., p. 39 .

أن ولاءه للملك الأرغونى يفوق ولاءه لها ، ولكن الملك ألفونسو المحارب أعاده إلى قشتالة ، وأعاد له ولايته[١] .

وفى الشهور الأولى من عام ١١١٠م/٥٠٣هـ ، اهتم ألفونسو المحارب بتقوية الحدود ، فوضع حاميات أرغونية فى بعض القلاع المهددة مثل طليطلة وشقوبية ، وجورمث Gormez ووادى الحجارة بحجة حماية قشتالة من غارات المرابطين[٢] .

وبينما كان ألفونسو المحارب فى قشتالة ، استلزمت الأمور عودته إلى أرغون ، فقد انتهز المستعين بن هود حاكم سرقسطة فرصة انشغال الملك الأرغونى فى أمور قشتالة ، وشن هجوما على الأرغونيين . وتفاصيل ذلك ، أن المستعين اعتاد أن يقيم فى حصن روطة الآمن ، وفى عام ١١١٠م/٥٠٣هـ نزل مع ابنه عبد الملك بن أحمد الملقب "عماد الدولة" إلى عاصمته سرقسطة ، كى يجدد سكانها قسم الولاء له ولابنه كوريث للعرش ، ثم بدأ حربا مقدسة ضد الأرغونيين المجاورين له ، ولعله أراد أن يسترد شهرته أمام المسلمين ، وربما لنجدة مدن إخيا وتاوست التى استولى عليها ألفونسو المحارب ، وخطط لشن غارة على الحدود المسيحية عن طريق الأراضى النبرية - الأرغونية . لذلك خرج المستعين على رأس قواته من سرقسطة قاصدا تطيلة ، ومن هناك اتجه شمالا ، ودخل عن طريق أراضى نبرة حتى وصل إلى أرنيط Arnedo[٣] وحاصرها ، واستولى على ضواحيها ، فاحتمى سكانها فى كنيسة منيعة قديمة ، وعرضوا على المستعين أن يدفعوا له مالا لكى ينسحب ، فوافق المستعين وأخذ الرهائن منهم ضمانا للمال[٤] .

وعند عودة المستعين إلى سرقسطة ، شن الغارات على كل الإقليم ، فأحرق وسبا ودمر وأسر العديد ، وعندما اقترب من الأراضى الإسلامية عند بلتيرة [٥] ، فاجأه ألفونسو

---

(١) Zurita, A. C. A., P. 119; Lacarra, Alfonso el B., pp. 38-39 .

(٢) C. C. A., P. 12; P. C. G. E., t. II, p. 646 .

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص١٧٤ . وردت أرنيط فى البيان المغرب بأسم أرنبة (ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٤ ص٣٥) بينما وردت فى الروايات المسيحية باسم أوليت Olite ، وتقع على بعد عشرين ك.م شمال بلتيرة . Turk, op. cit., p. 186 .

(٤) ابن عذارى ، البيان المغرب جـ٤ ص٣٥ ؛ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٧٤ ، Miranda, Los Banu Hud de Zaragoza, Zaragoza, 1962, pp. 12-13 .

(٥) بلتيرة Valtierra : تقع على ضفاف نهر إبره شمالى تطيلة وشمال غربى سرقسطة ، وهى الآن مركز قضائى لمدينة تطيلة ، ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١١٧ حـ ٧ .

المحارب الذى كان قد وصل بجيش كبير من الأرغونيين والنبريين ، ونشبت معركة شديدة بين الفريقين يوم الإثنين الرابع والعشرين من يناير ١١١٠م/ أول رجب ٥٠٣هـ ، عرفت باسم معركة بلتيرة - صمد فيها الفريقان ، وقاتل كل منهما بشجاعة ، وانتهت المعركة بهزيمة المسلمين واستشهاد المستعين بن هود وعدد كبير من المسلمين[١]. وقد انفرد المؤرخ ابن الكردبوس بذكر اشتراك الرنك - انريك البرجونى - قمط البرتغال مع ألفونسو المحارب فى معركة بلتيرة[٢] .

وقد حددت حوليات مملكة نبرة تاريخ معركة بلتيرة فى الرابع والعشرين من مارس ١١١٠م/ أول رمضان ٥٠٣ ، وذلك طبقا لوثيقة أرشيف جبل أرغون ، وحددت مقتل المستعين عند بلتيرة فى يوم السبت التاسع من أبريل ١١١٠م/ السابع عشر من رمضان ٥٠٣هـ نقلا عن وثيقة خرونيمو بلانكس[٣] . وهذه التواريخ تخالف ما إتفقت عليه الروايات الإسلامية والنصرانية . وبالنسبة لمكان المعركة ، فقد إتفقت المصادر الإسلامية والمسيحية أنها وقعت فى منطقة طليطلة أو على مقربة منها وحددتها الرواية المسيحية عند بلدة بلتيرة ، كما أن المؤرخ ابن الكردبوس حدد مكانها بقامرة [٤] ، وربما أنها ناحية من نواحى بلتيرة التى دارت عندها المعركة [٥] . بينما ذكرت الحوليات الطليطلية الأولى أن المستعين مات فى بلنسية[٦] ، وهذا يخالف ما أجمعت عليه الروايات الإسلامية والمسيحية .

وترتب على معركة بلتيرة أن فقدت مملكة سرقسطة آخر أمرائها من بنى هود ،[٧] الذى تمكن بقواته أن يحفظ التوازن أمام قوات جيرانه النصارى . كما انقسم أهل سرقسطة إلى حزبين ، أحدهما كان مؤيدا للمرابطين ، ورأى فى مساعدتهم منقذا أمام التقدم المسيحى ،

---

(١) ابن الأبار ، الحلة السيراء جـ٢ ص ٢٤٨ ، ابن عذارى ، نفس المصدر جـ٤ ص ٥٣ ؛

Lacarra, La Conquista de Zaragoza, p. 69; Turk, op. cit., pp. 186-187 .

(٢) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١١٧ .

(٣) Moret, A. R. N., p. 239 .

(٤) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١١٧ .

(٥) ابن الكردبوس ، نفسه ، ص ١١٧-١١٨ ، حاشية ٧ .

(٦) Annales Toledanos I, p. 344 .

(٧) انظر الجدول رقم (٢) .

ورغب أن يقطع كل علاقة بالنصارى . والآخر كان مؤيدا لبنى هود ، ورغب فى الوصول إلى العرش ، وإن تساهل مع جيرانه النصارى ، وسريعا ما وصل كلا الحزبين إلى سرقسطة للإستيلاء عليها(١) .

خلف المستعين إبنه عبد الملك بن أحمد الملقب "عماد الدولة" فى نفس يوم وفاة والده ، وحكم سرقسطة أربعة شهور فقط (الرابع والعشرين من يناير - الحادى والثلاثين من مايو ١١١٠م/ أول رجب - العاشر من ذو القعدة ٥٠٣هـ) ، وحين إعتلى العرش كانت الحالة فى سرقسطة صعبة للغاية ، فكان الزحف الأرغونى قد تقدم تقدما كبيرا ، بينما قاست قوات سرقسطة الكثير فى المعارك الكبرى مثل معركة وشقة (١٠٩٦م/٤٨٩هـ) ومعركة بلتيرة (١١١٠م/٥٠٣هـ) ، وأخذ نفوذ حكم العائلة الهودية يتضاءل يوما بعد يوم نتيجة هذه الهزائم المتوالية . ولاشك أن الحزب المرابطى وجد ميدانا خصبا لتثبت نفوذه السياسى ، وجمع أكبر عدد من المؤيدين له ، ولم يستطع عماد الدولة أن يحفظ التوازن بين المسيحيين والمرابطين مثلما حقق والده (٢) . فقد كان يميل إلى جيرانه النصارى ، ويبدو أنه خاف من تقدم المرابطين من مرسية أو بلنسية والإستيلاء على بلاده ، ولذلك حين بايع سكان سرقسطة عماد الدولة ، اشترطوا عليه الالتزام بعدم التحالف مع أى من جيرانه النصارى ، ولا يستخدمهم فى جيشه ولا يتدخل من أمورهم ، وأن يتعهد بتسريح الجند المسيحيين الذين يستخدمهم فى الجيش . ولكنه نقض وعده بعد أيام قليلة ، عندما شعر بميل السرقسطيين إلى المرابطين(٣) .

وعلم عبد الله بن فاطمة حاكم بلنسية بموت المستعين ، فطمع فى الاستيلاء على سرقسطة، وتوجه إليها بعد شهر تقريبا من معركة بلتيرة ، وعندما اقترب من المدينة بقواته ، خرج أهلها للقائه ، وطلبوا منه أن ينسحب وينصرف عنهم ، ولا يبدأ بالفتنة خشية استعانة أميرهم بالنصارى وتجدد الحرب ، فانصرف عنهم(٤) .

---

(١) Ballesteros, op. cit., p. 556; Turk, op. cit., p. 187 .

(٢) Turk, op. cit., pp. 187-188 .

(٣) ابن الأبار ، الحلة السيراء جـ٢ ، ص ٢٤٨ ؛ Codera, op. cit., p. 254;
Dozy, Hist. des Musulmans D'Espagne, Leyde, 1932, vol. III, p. 153 .

(٤) ابن عذارى ، البيان المغرب جـ٤ ، ص ٥٣ ؛
Codera, op. cit., pp. 254-255; Miranda, Los Banu Hud, p. 13 .

وفى الواقع ، لقد زادت مخاوف عبد الملك عماد الدولة من ناحية المرابطين ، فعزم على الاستنجاد بالنصارى ، ولم يف بالشرط الذى التزم به بعدم الاستعانة بالنصارى أو محالفتهم، بل أنه جندهم من جديد ، ولم يقم بتسريح المجندين منهم . وقد عرف أهل سرقسطة ذلك ، فغضبوا وكتبوا إلى على بن يوسف يدعونه لحكم بلادهم ، فأمر حاكم بلنسية الجديد الأمير محمد بن الحاج[1] أن يتوجه إلى سرقسطة . فأسرع ابن الحاج إلى المدينة فى صباح يوم الحادى والثلاثين من مايو ١١١٠م/ العاشر من ذى القعدة ٥٠٣هـ[2] ، وفتحت المدينة أبوابها له ، فدخل المرابطون سرقسطة ، وترك ابن الحاج معسكره فى ضواحى المدينة ، ثم دخل قصر الجعفرية ، الذى عهد به إلى من يثق بهم ، ولم يزل بها إلى أن خرج غازيا إلى برشلونة ، واستشهد بها عام ١١١٤م/٥٠٨هـ[3] . وطبقا لمؤرخ الحلل الموشية ، فقد ذكر السبب الذى دفع بالمرابطين إلى خلع عماد الدولة بن هود ، ويروى ابن سماك " أنه لما كان أمير المسلمين على بن يوسف بالعدوة فى حاضرة مراكش ، أشار عليه أهل دولته أن يطلب ملك بنى هود

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن سموين بن محمد بن ترجوت ، ابن عم يوسف بن تاشفين ، وأحد كبار قواده ، وعرف بابن الحاج لقيام والده بأداء فريضة الحج . وقد تميز بقدرته وأعماله العسكرية البارزة ، إذ قام بدور كبير فى المعارك التى دارت بين المرابطين والنصارى فى أسبانيا . ولما تولى على بن يوسف عينه واليا للمغرب ، ثم ندبه لولاية بلنسية وشرقى الأندلس فى عام ١١٠٨م/٥٠١هـ ، ومن بلنسية سار ابن الحاج إلى سرقسطة استجابة لدعوة أهلها ، وانتزعها من يد بنى هود عام ١١١٠م/٥٠٣هـ . وظل واليا عليها حتى استشهد فى إحدى غزواته عام ١١١٤م/٥٠٨هـ . عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٧٣-٧٦ .

(٢) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، جـ٢ ، ص٢٤٨ ؛ ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٤ ، ص ٥٣ - ٥٤ . اتفقت الرواية الإسلامية والمسيحية فى تاريخ دخول المرابطين مدينة سرقسطة ، ولكن المدونات الإسلامية حددت يوم دخول المرابطين مدينة سرقسطة كان يوم السبت العاشر من ذى القعدة ٥٠٣هـ ، وحددت المدونات المسيحية يوم الحادى والثلاثين من مايو ١١١٠م ، وبالرجوع إلى كتاب التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنجية ، وجد أن التاريخ المحدد يوافق الثلاثاء وليس السبت . بالإضافة إلى ذلك فإن المؤرخ ابن أبى زرع جعل دخول محمد بن الحاج مدينة سرقسطة تحت عام ٥٠٢/١١٠٩م (روض القرطاس، ص ٨٣) وهذا يخالف ما أجمعت عليه الروايات الإسلامية والنصرانية .

Dozy, Hist. de Musul.. vol. III. p. 154 .

(٣) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، جـ٢ ، ص ٢١٣ حـ٣ ، ص٢٤٨ ؛ ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٤ ، ص ٥٤ ؛ Lacarra, Alfonso el B.. p. 43 .

بشرق الأندلس ، وقالوا له : الشرع يدعوك أن تسعى فى أخذ تلك البلاد منهم لكونهم مسالمين للروم ، فأخذ برأيهم" . ويذكر ابن سماك أيضا أن على بن يوسف وجه الأمير أبا بكر ابن تيفلويت[١] بعسكر المرابطين لفتح سرقسطة . فلما علم عماد الدولة تحصن ببلاده ، وأرسل له خطاب تأثر على بن يوسف عندما قرأه ، فلما انتهى منه أرسل إلى ابن تيفلويت يأمره بالكف عن سرقسطة ولكنه كان قد فتحها[٢] . وهنا نلاحظ أن ابن سماك انفرد بذكر اسم القائد المرابطى الذى دخل سرقسطة فجعله ابن تيفلويت ، بينما ذكر المؤرخون ابن الآبار وابن عذارى وابن أبى زرع وابن الخطيب أنه محمد بن الحاج .

والمهم هنا أن عماد الدولة خرج من سرقسطة واتجه إلى حصن روطة وأقام به ، واستنجد بالنصارى ووضع نفسه تحت حماية ألفونسو المحارب ، ودخل فى معاهدات معه ، واستمر فى حكم إماراته الصغيرة نحو عشرين عاما حتى توفى بحصن روطة فى يوليو ١١٣٠م/ شعبان ٥٢٤هـ[٣] .

ومن الجدير بالذكر أن رواية ابن الكردبوس تذكر أن عماد الدولة ظل أميرا لسرقسطة حتى استيلاء ألفونسو المحارب عليها عام ١١١٨م / ٥١٢هـ ، ففر منها إلى حصن روطة وأقام به حتى وفاته[٤] . ويتفق معه ابن خلدون [٥] .

ومما سبق يتضح أن عماد الدولة كان أقل كفاءة من والده ، وكان غير قادر على الاستمرار فى حكم سرقسطة لمدة طويلة ، وسرعان ما عزله المرابطون عن العرش فى الحادى والثلاثين من مايو ١١١٠م/ العاشر من ذى القعدة ٥٠٣ بمساعدة مسلمى سرقسطة ،

---

(١) أبو بكر بن إبراهيم ، هو الأمير أبو يحيى المسوفى المعروف بابن تيفلويت ، من أمراء المرابطين ، صهر على بن يوسف بن تاشفين ، زوج أخته ، وأبو ولده منها يحيى ، وكان مثلا فى الكرم والجود والشجاعة. ولى غرناطة عام ١١٠٦م / ٥٠٠هـ ، ثم انتقل منها إلى سرقسطة ، إلى أن هلك بها عام ١١١٧م/ ٥١٠هـ تحت مضايقة ألفونسو المحارب ملك أرغون . ابن الخطيب ، الإحاطة جـ١ ، ص ٤٠٤ - ٤٠٩ .

(٢) ابن سماك العاملى ، الحلل الموشية ، ص ٧١ - ٧٢ .

(٣) ابن الآبار ، الحلة السيراء ، جـ٢ ، ص٢١٣ حـ٣ ، ص ٢٤٨ ؛ ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٤ ، ص ٥٤ ؛ Lacarra, Alfonso el B., p. 43 .

(٤) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١١٩ - ١٢٠ .

(٥) ابن خلدون ، العبر ، جـ٤ ، ص ٣٥٢ ، ٣٩٢ .

ومما لاشك فيه أن تحالفه مع ملك أرغون أدى إلى إقدام المرابطين على الاستيلاء على سرقسطة لإنقاذها والثغر الأعلى من الزحف الأرغوني من جهة ، والضغط القطلوني من جهة أخرى[١]. ويحتمل أن ألفونسو المحارب لم يفكر في استرداد سرقسطة في هذه المرحلة التي كان فيها مشغولا بتثبيت حكمه في ممالك قشتالة وليون . واكتفى ألفونسو المحارب بتشكيل فرقة حربية في الجيش الأرغوني عرفت باسم المغاورين almogavares ، وكانت تتكون من الجند المشاة المأجورين ، وتتصف بسرعة الحركة والخبرة في الحرب ، ولم يكن لهم من عمل سوى حرب المسلمين ، ولذلك تعيش على الحدود المجاورة للأراضي الإسلامية . وقد أقامهم ألفونسو في قلعة كاستيار الواقعة على حدود سرقسطة ، وخاضت حروبا كثيرة ضد مسلمي سرقسطة[٢] . ووصف المؤرخ ثيوريتا المغاورين بقوله : "قوم ذوي خبرة في الحرب ، ومدربين جيدا ، قاموا بحماية الحدود"[٣] .

وبعد قليل من معركة بلتيرة ، وصل إلى ألفونسو المحارب أخبار عن تمرد بطره فرويلاث قمط ترابا في إمارة جليقية ، فقرر العودة إليها . وفي يونيه ١١١٠م / غرة ذي الحجة ٥٠٣هـ ذهب ألفونسو المحارب وأوراكا إلى جليقية لإخضاع قمط ترابا وإعادة السلم إلى البلاد . وعندما توغل ألفونسو المحارب بجيشه في جليقية قوبل بالترحاب في مدينة لك Lugo[٤] ، وساندة بعض الأشراف ورجال الطبقة الوسطى - البرجوازيين - الذين آثروا مساعدته للدفاع عن حرية مجالسهم البلدية ، وتطلعهم إلى الحكم الذاتي سياسيا واقتصاديا[٥] .

وقد وصفت مدونات مجهول ساهاجون العمليات التي قام بها ألفونسو المحارب ضد قمط ترابا بالعنف ، فقد سجلت أن ألفونسو هاجم أراضيه ووصل حتى قلعة مونتروسو

---

(١) Turk, op. cit., p. 188 .

(٢) C. C. A., P. 33; Ballesteros, op. cit., t. II, p. 452 .

(٣) Zurits, A. C. A., p. 132 .

(٤) لك Lugo ، بضم اللام وتشديد الكاف ، وفي الروض المعطار لكه ، وفي مكان آخر "لقشي" قاعدة الجليقيين" . ولعل المقصود بها Lugo ، وهي مدينة وولاية في شمال غرب أسبانيا ، في منطقة جبلية ، واسمها القديم Locus Augusti . ابن الشباط ، وصف الأندلس ، تحقيق : مختار العبادي ، ص١٥١ ، حاشية ٢ .

(٥) C. A. S., pp. 31-32; Fernandez, op. cit., p. 538 .

Montcrroso ، فحاصرها واستولى عليها . ووجد داخل القلعة فارسا معروفا للملكة يسمى بسرادو Prado ، وقد توسل كثيرا إلى الملك بألا يقتله ، وطلب من الملكة أن تتدخل ، فأثار شفقة الملكة ، وبالرغم من توسطها فى مساعدته وحمايته لم يسلم من الموت ، ويؤكد المؤرخ المجهول أن قسوة ألفونسو كانت السبب الأول فى الخلاف الزوجى بين ألفونسو وأوراكا[١] .

وفى الحقيقة ، كانت أوراكا تخشى أن تحل سلطة الملك محل إرادتها ، وكان فى حاشيتها جماعة لهم مصلحة فى وجود الخلافات بين الزوجين وفى تعميقها ، وعلى أية حال ، فقد عادت أوراكا إلى مملكة ليون[٢] ، بينما بقى ألفونسو المحارب فى جليقية يجتاح أملاك بطره فرويلاث ، فقام بسلب وتخريب أراضيه ، واشتد نشاط القوات الأرغونية ضد رجال الدين والمقدسات الدينية حتى سلبت الأديرة ، ولذلك أطلقت بعض المدونات على ألفونسو المحارب لقب "الطاغية" [٣] .

والمهم هنا ، أنه عندما استنجد عبد الملك عماد الدولة بألفونسو المحارب ، أسرع بالعودة من جليقية إلى أرغون لنجدة حليفه ، وحماية حدوده من الخطر المرابطى ، واتصل بعبد الملك ، وتقدم ألفونسو المحارب إلى سرقسطة وعسكر قرب المدينة على بعد فرسخين منها . واستعد ابن الحاج للدفاع عن المدينة ، وأمر الناس بالخروج للقتال ، ونظم أمر الدفاع عن المدينة ، ورتب القوات أمام الأسوار طوال يوم الخامس من يوليو ١١١٠م / منتصف ذى الحجة ٥٠٣هـ. ولكن هذه القوات غادرت مراكزها عند الغروب ودخلت المدينة ، فانتهز ألفونسو المحارب الفرصة وقسم جيشه فرقتين ، قامت إحداهما بمهاجمة ابن الحاج ، والأخرى تهاجم ابنه أبا يحيى فتفرق رجاله عنه فهزم وسقط شهيدا ، كما استشهد عدد كبير من المسلمين[٤] .

وحول ماارواه المؤرخ ابن الخطيب عن هزيمة المسلمين فى هذه المعركة ، فقد أشار إلى استشهاد ابن الحاج فى المعركة[٥] ، ولكن يبدو أن المؤرخ خلط بين ابن الحاج وابنه أبى يحيى .

---

(١) C. A. S., pp. 32 - 33 .

(٢) Lacarra, Alfonso el B., pp. 41 - 42 .

(٣) C. A. S., 33; M. R. C., p. 242 .

(٤) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٤ ، ص ٥٤ ؛ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٧٥ ؛
Miranda, Los Banu Hud, p. 14 .

(٥) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٧٥ .

أما بالنسبة لرواية ابن عذارى ، فقد حددت أن اليوم الذى وقعت فيه المعركة كان يوم الأحد منتصف ذى الحجة ٥٠٣هـ/ الخامس من يوليو ١١١٠م ، ولكن بالرجوع إلى كتاب التوفيقات الإلهامية ، وجد أن هذا اليوم يوافق يوم الثلاثاء وليس الأحد .

انسحب ألفونسو عن طريق ألاجون إلى إخيا ، وكان يسعى لحماية حدوده من الخطر المرابطى ، ثم تجدد طمع الأرغونيين فى سرقسطة ، فزحف ألفونسو المحارب وعبد الملك عماد الدولة فى جيوش كثيرة نحو سرقسطة ، ونزل على نحو فرسخ من المدينة ، وخرج محمد بن الحاج فى قواته لمدافعته ، واستمرت المناوشات بين الطرفين حتى قدم أبو عبد الله بن عائشة والى مرسية بقواته لنجدة محمد ابن الحاج ، بناء على أمر على بن يوسف ، وأرغمت القوات المرابطية ألفونسو المحارب على الانسحاب وطاردته[١] .

ثم توالت هجمات وغزوات محمد بن الحاج فى الأراضى الأرغونية ، إلى أن توجه على بن كنفاط اللمتونى بفرقة من الجند المرابطين نحو قلعة أيوب ، وحاصر حصنا من حصون عبد الملك، وضيق حصاره ، فاستصرخ أهله بعبد الملك صاحبهم ، الذى بدوره استغاث بحليفه ألفونسو المحارب ، فأرسل إليه مددا من الجند الأرغونيين تمكنوا من دخول الحصن ، وخرجوا منه ليلا وهاجموا المحاصرين بغتة ، فانهزم المرابطون ، واستولى الأرغونيون على المعسكر الإسلامى وأسروا الأمير ابن كنفاط ، وذهب به الجند الأرغونيون إلى روطة ، واستمر فى أسر عبد الملك مدة ، حتى اتفق على هدنة ، وأخلى سبيله[٢] .

ومع الوقت ، تصالحت الملكة أوراكا مع ألفونسو المحارب ، وقررت الذهاب إلى أرغون على رأس جيش قوى من الليونيين والقشتاليين ، لمساعدة زوجها ضد التهديد المرابطى ، ووصلت إلى ناجرة فى منتصف أغسطس عام ١١١٠م/ آخر محرم ٥٠٤هـ ، ومكث ألفونسو وأوراكا فى أرغون حتى أكتوبر من العام نفسه ، ثم عادا إلى قشتالة[٣] .

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب جـ٤ ، ص ٥٥ .

(٢) ابن عذارى ، نفسه جـ٤ ، ص ٥٥ ؛

Miranda, Los Banu Hud, p. 9 .

(٣) Moret. A. R. N., pp. 237-238; Fernandez, op. cit., p. 539 .

ويتضح مما سبق أن ألفونسو المحارب ربما كان يخطط للاستيلاء على سرقسطة منتهزا فرصة انشقاق عبد الملك عماد الدولة عن المرابطين وتحالفه معه ، ولذلك قام بشن هجمات متتالية على سرقسطة خلال عام ١١١٠م/ ٥٠٣-٥٠٤هـ ، ولما رأى شدة دفاع ابن الحاج عن المدينة وحمايته لها ، عاد إلى قشتالة لمواجهة غارات المرابطين على أراضيها .

وفى هذه المرحلة بدأ الشك يثير أوراكا ، هذا الشك الذى أثاره مستشاروها ، مما جعلها متقلبة مختلفة الأهواء فأحيانا نراها تميل لصالح الأشراف الجلالقة ، وأحيانا أخرى نحو زوجها ، وفى مواقف أخرى نحو ابنها ألفونسو ريموندبس ، وفى الوقت نفسه كانت تخشى من توبيخ الكنيسة[١] .

وقد ترتب على نشاط الرهبان البندكت فى معارضتهم لزواج أوراكا وألفونسو المحارب ، أن أرسل البابا باسكال الثانى إلى قشتالة قرارا يقضى ببطلان الزواج على أساس قرابة العصب ، وعهد البابا إلى برناردو رئيس أساقفة طليطلة أن يعلن القرار . ومن الجدير بالذكر أن المدونات المسيحية لم تحدد تاريخ هذا القرار بدقة[٢] . وقد أعلن برناردو القرار البابوى فى دير ساهاجون ، مهددا الزوجين بالحرمان الكنسى فى حالة عدم الانفصال ، وتقبلت الملكة الأمر طوعا ، لأنه هيأ لها فرصة رحيل الزوج ، بينما رفض ألفونسو المحارب الطلاق لأنه يفقده حق الحكم فى قشتالة[٣] .

وفى ذلك الوقت ، ساد القلق ، ساد القلق والاضطراب فى قشتالة وليون ، نتيجة الثورات الاجتماعية التى قام بها فلاحو برجوازيو ساهاجون ، فقد ثاروا ضد سادتهم ، ورفضوا تقديم الخدمة ودفع الضرائب واتجهوا إلى ملك أرغون ودخلوا فى خدمته ، إذ رأوا فيه سندا لمطالبهم الاجتماعية . ودخل برجوازيو ساهاجون فى صراع دائم مع ديجو Diego رئيس دير ساهاجون، فاستقال ، واختار الدير الراهب غرسية الذى مات بعد ثمانية أيام ، ثم اختار الراهب دومينجو Domingo ، الذى عزل بعد قليل (ديسمبر ١١١٠م - مارس ١١١١م) . ثم اتحد كان برجوازى مملكة قشتالة وليون وانضموا إلى ألفونسو المحارب ، وأصبحوا فى خدمته[٤] .

---

(١) Fernandez, op. cit., p. 539 .

(٢) Zurita, A. C. A., p. 120; C. A. S., 43 .

(٣) Lacarra, Alfonso el B. 44; Valdeavellano, op. cit., p. 400 .

(٤) C. A. S., pp. 44, 46; Lacarra, Alfonso el B., p. 45 .

وإلى جانب الثورات الاجتماعية للطبقة البرجوازية ، ثار أيضا محاربو الحدود ، الذين كان يطلق عليهم "الفرسان البنيين Los Caballeros Parados - نسبة إلى لون الثياب التى ارتدوها- وقد دافع هؤلاء الفرسان عن شخص وحقوق ملك أرغون . وقاموا بسلب ونهب الأراضى من بالنسيا Palencia حتى أسترقة بما فيها الكنائس(١) .

وعلى أية حال ، أخذت العلاقة تسوء بين الملكة أوراكا وزوجها ألفونسو المحارب ، بعد أن عزل دومينجو رئيس دير ساهاجون فى مارس ١١١١م/ رمضان ٥٠٤هـ ، وجعل قيادة مدينة ساهاجون لسانشو خوانث Sancho Juancz حاكم مدينة وشقة . وحوالى ذلك الوقت ، بدأت أوراكا تحكم أراضيها دون الرجوع للملك ، فساءت العلاقات بينهما وتطورت إلى خلافات كبيرة ، نتيجة عدم الثقة المتبادلة بينهما(٢) . وبنصيحة بعض أتباعها ، أطلقت أوراكا سراح الرهائن المسلمين الذين كانوا فى أرغون ، واستلمت الفدية كمية هائلة من الذهب والفضة ، وبهذا المال اشترت ضمائر بعض أشراف أرغون واستمالت آخرين ، ومن هنا بدأت تثير الاضطرابات فى أرغون ، كما كتبت إلى الأشراف الذين امتلكوا حصون قشتالة وليون ، وإلى أساقفة قشتالة تحثهم على مخالفة أوامر زوجها(٣) .

علم ألفونسو المحارب بتصرفات زوجته وخاصة إطلاق سراح الرهائن ، غضب ألفونسو ، فقد تجاوزت الملكة حدودها ، وكانت أكثر جرأة ، إذ باعت بثمن بخس كل سياسته فى التدخل فى شئون مسلمين وادى إبره كخطوة سابقة لغزو سرقسطة . وساور الشك ألفونسو المحارب فى زوجته ، فعاد فجأة إلى أرغون ، وما لبث أن تجدد العداء بينهما ، فسجنها فى قلعة كاستيار الحصينة الواقعة على ضفاف نهر ابره قريبا من سرقسطة(٤) . وأساء ألفونسو معاملتها وأهانها كما عاقبها بالضرب أحيانا ، وهذا ما جعل أوراكا تصف زوجها بالقسوة(٥) .

ومن الجدير بالذكر أن حوليات مملكة نبرة سجلت سجن ألفونسو المحارب للملكة أوراكا تحت أحداث عام ١١١٤م/ ٥٠٨هـ(٦) ، ولكن الأرجع على ضوء الأحداث اللاحقة فإن هذا

---

(١) C. A. S., p. 44 .

(٢) Fernandez. op. cit., p. 539 .

(٣) Lacarra. Alfonso el B., p. 46 .

(٤) Zurita. A. C. A., p. 119; C. S. J. P., p. 62 .

(٥) M. R. C., p. 243 .

(٦) Moret. A. R. N., p. 245 .

الحادث وقع فى عام ١١١١م طبقا للمؤرخ ثيوريتا . وقد أدى هذا الحادث إلى تفجير الحرب الأهلية بين مناصرى ألفونسو المحارب ومناصرى أوراكا .

حاول ألفونسو المحارب السيطرة على الموقف ، فزحف إلى ليون وقشتالة بسرعة على رأس جيش قوى لفرض سيادته على هذه الممالك ، وعقاب كبار رجال الدين المعارضين لزواجه . وفى أسابيع قليلة ، استولى ألفونسو المحارب على مدن كثيرة وبعض القلاع القوية ، بمساندة البرجوازيين والفرسان البنيين ، وبدأ ألفونسو فى مضايقة رجال الدين ، فطرد رئيس أساقفة طليطلة من مقره ، وعزل أساقفة ليون وبرغش ، وسجن أساقفة بالنسيا وأكشمة وأورنسا Orensa . كما وضع ألفونسو المحارب القلاع والحصون القشتالية تحت قيادة الأشراف والفرسان الأرغونيين والنبريين الموالين له ، ولعل السبب فى ذلك عدم ثقته بالأشراف القشتاليين ، كما عهد بدير ساهاجون Sahagun إلى أخيه الراهب راميرو[١] .

ويبدو أن ألفونسو المحارب دخل مدينة طليطلة فى هذا الوقت فى الرابع عشر من مايو ١١١١م/ الرابع من ذو القعدة ٥٠٤هـ[٢] ، وأصبحت له السلطة الحقيقية فى المدينة وفى بعض القلاع الأخرى .

وخلال ذلك الوقت ، وفى غياب ألفونسو المحارب ، تمكنت أوراكا من إغراء الحراس المكلفين بحراستها فى قلعة كاستيار ، فوزعت عليهم جزءا كبيرا من الذهب والفضة اللذين حصلت عليهما فدية للأسرى ، وتمكنت من الهروب من القلعة بمساعدة القمط جومث جونثالث وبطره جونثالث دى لارا ، واتجهت إلى برغش مع أتباعها ، واستولت على القلعة التى كانت تحت سيطرة الأرغونيين ، وبدأت تستعد لمحاربة زوجها[٣] . وقد اتصفت تلك الفترة بالغموض وعدم ترتيب الأحداث التاريخية ، كما اختلف المؤرخون أحيانا فى تحديد التواريخ ،

---

(١) Zurita, A. C. A., pp. 119, 121; P. C. G. E., p. 646;

Valdeavellano, op. cit., p. 401 .

(٢) Anales Toledanos I, p. 344 .

حدد فريق من المؤرخين المحدثين دخول ألفونسو المحارب فى مدينة طليطلة فى الثامن عشر من أبريل ١١١١م/ السابع عشر من شوال ٥٠٤هـ ، بعد انتصاره فى معركة كانديسبينا .

(Ballesteros, op. cit., p. 342; Fernandez, op. cit., p. 542) .

(٣) Moret, A. R. N., t. II, p. 245; C. S. J. P., p. 72; Lacarra, Alfonso el Batallador, p. 47.

وأحيانا أخرى فى تسلسل الرواية التاريخية ، وبعضهم سجل الأحداث بدون تاريخ ، وسوف نحاول من خلال هذه الروايات اتباع التسلسل التاريخى للوصول إلى الحقائق أو الاقتراب منها .

وانتهز المرابطون فرصة الصراع الدائر بين الأرغونيين والقشتاليين ، وأغاروا على المنطقة الغربية لشبه الجزيرة الأيبيرية ، فى مايو عام ١١١١م / ذى القعدة ٥٠٤هـ ، وتمكن الجيش المرابطى بقيادة الأمير سير بن أبى بكر من فتح مدن بطليوس وشنترين Santarém [١] - الواقعة على نهر التاجه - وشنترة Cintra ويابرة Evora وأشبونة Lisboa[٢]، وتوغل المرابطون حتى مشارف بورتو Oporto [٣] . ولم يستطيع البرتغاليون التصدى للمرابطين لانشغالهم بالنزاع القائم بين ملكى قشتالة وأرغون . وقد انتهز البرهانس فرصة النشاط المرابطى ضد الحدود الغربية ، وأسرع إلى قونقة الإسلامية واستردها مؤقتا فى يوليو ١١١١م/ محرم ٥٠٥هـ[٤]. ولم تشر المصادر الإسلامية إلى استرداد البرهانس لمدينة قونقة، وربما يرجع ذلك إلى أن استردادها كان لفترة قصيرة ، ثم استعادها المرابطون مرة أخرى .

بدأت الملكة أوراكا تنضم إلى الحزب الجليقى ، وطلبت المساعدة من أتباع إبنها ألفونسو ريموندبس ، واتفقت مع قمط ترابا على الاعتراف بالحقوق الوراثية لألفونسو ريموندبس ، وتتويجه فى ليون كملك جليقية ، وكان ذلك يعنى بطلان معاهدة الوحدة المنعقدة بين الملك والملكة عام ١١٠٩م/٥٠٣هـ ، وأدرك ألفونسو المحارب أن الملكة تستعد للحرب ، فأعد جيشه بأسرع ما يمكن ودخل فى مملكة جليقية ، ونجح فى إخضاع قواتها وقلاعها ،

---

(١) شنترين Santarém : مدينة برتغالية تقع على جبل عال ، وليس لها سور ، وهى شمال الأشبونة ، وإليها ينتسب ابن بسام الشنتريني صاحب كتاب الذخيرة فى أدباء الجزيرة - الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ص١١٣ - ١١٤ ؛ الفاسى ، الإعلام الجغرافية الأندلسية ص ٣٥ .

(٢) أشبونة Lisboa : عاصمة البرتغال ، وهى مدينة قديمة على البحر المظلم ، وتقع شمال نهر التاجه ، ولها سور وقصبة منيعة ، وكان يقال لها عند العرب لشبونة . الإدريسى ، صفة المغرب والأندلس ، ص ١٨٦؛ الفاسى ، الأعلام الجغرافية الأندلسية ، ص ٢٠ - ٢١ .

(٣) ابن أبى زرع ، روض القرطاس جـ٢ ، ص ٨٥-٨٦ ؛

Bosch, Los Almoravides, p. 188 .

(٤) Anales Toledanos I, p. 345 .

ووضع حصارا على قلعة مونتروسو ودخلها بقوة السلاح ، واستولى على أرض كامبوس Campos وقشتالة واسترا مادورة[١] .

في الوقت الذي كان فيه قمط ترابا في طريقه إلى مملكة ليون مصطحبا الأمير الصغير وبعض أشراف جليقية ، لتتويج الأمير ، تصالحت الملكة مع زوجها بعد وساطة أتباع ألفونسو المحارب، وساعد على ذلك أن أوراكا كانت لاترغب أن ترى ابنها ولاحزبه يسيطر على عرش المملكة ، فعاد الأشراف والفرسان الجليقيين إلى جليقية بعد أن شعروا بخيبة أملهم في الملكة لتصالحها مع زوجها[٢] .

حاول بطره فرويلاث قمط ترابا أن يكتسب مساعدة قمط البرتغال لتأييد قضية ألفونسو ريموندیس ، فطلب نصيحة ومساعدة إنريك قمط البرتغال . وبنصيحته عاد قمط ترابا إلى جليقية ، وقبض على بعض الأشراف الجليقيين الذين يعارضون الاعتراف بالأمير كسيد لجليقية. وفي مقابل حريتهم ، تنازلوا لقمط ترابا عن قلعة مينيو Mino - على ضفاف مينيو بالقرب من ريبادابيا Rivadavia - ووضع فيها الأمير كمكان مأمون مع مربيته كونتيسة ترابا[٣] . واتجه "جماعة الأخوة" برئاسة أرياس بريث Arias Pérez - وهم أشراف جليقية الذين كانوا أعداء قمط ترابا ومؤيدين الملكة أوراكا وزوجها - إلى قلعة مينيو ، وحاصروا ألفونسو ريموندیس وكونتيسة ترابا ، وأسروا الأمير ، فاشتعلت الفتنة . وحينئذ تدخل ديجو جلمريث رئيس أساقفة شانت ياقب ، وتقابل مع قمط ترابا على ضفاف نهر تامار Tamar ، للبحث عن طريقة لإطلاق سراح ألفونسو ريموندیس من أيدي جماعة الإخوة ، ثم إعلانه ملكا لجليقية . كما اتفقا على استمالة أوراكا إلى جانبهما ، والابتعاد عن ملك أرغون ، وقررا إرسال الرسل إليها ، لكي تتحرك بسرعة للاتفاق مع جماعة الإخوة على فك أسر الأمير وتتويجه[٤] .

وبعد قليل ، استقبلت أوراكا سرا وفدا أرسله الأسقف جلمريث وقمط ترابا ، طالباها الموافقة على تتويج ابنها ألفونسو ريموندیس كملك جليقية ، وتعهدا بمساعدتها .

---

(١) Zurita, A. C. A., p. 121; C. C. A., p. 12 .

(٢) Zurita, A. C. A., p. 121; C. C. A., p. 13 .

(٣) Zurita, A. C. A., p. 121 .

(٤) Ibid, p. 122; Fernandez, op. cit., p. 541 .

وافقت أوراكا ، وخرج الأمير من القلعة التى كان أسيرا فيها ، بعد أن سلمه أرياس بريث إلى جلمريث وبطره فرويلاث قمط ترابا[١] . وقام الأسقف جلمريث بتتويج الأمير فى كاتدرائية شانت ياقب دى كومبوستلا Santiago de Compostela ، فى السابع عشر من سبتمبر ١١١١م/ الحادى عشر ربيع أول ٥٠٥هـ ، حيث بلغ السادسة من عمره[٢] .

فى ذلك الوقت ، جدد قمط البرتغال إنريك وزوجته تريسا مرة أخرى مطالبهما القديمة بتوزيع ميراث ألفونسو السادس ، لأن زواج ألفونسو المحارب وأوراكا قد كبح رغباتهما بعض الوقت ، ولكن عندما رأيا تفرق شمل الزوجين ، ازدادت آمالهما بمساعدة أحد الزوجين ضد الآخر طبقا للظروف ، واعتبرا أن الفرصة قد سنحت لتأكيد مطالبهما بعرش قشتالة . علم ألفونسو المحارب باتفاق زوجته مع الجليقيين . ومما لاشك فيه أن ما بادرت به زوجته قد وضعه فى مأزق ، ولم يكن أمامه سوى القتال فاستعان بالأديرة التى أمدته أو أقرضته المال ، كما بدأ يتقرب إلى قمط البرتغال إنريك[٣] .

تحالف ألفونسو المحارب مع سادة البرتغال ، واتفق معهم على منحهم السيادة على مدينة أسترقة وسمورة - غربى ليون - وكانت هذه المطالب قليلة لقمط البرتغال الذى تطلع إلى مملكة طليطلة أو جليقية . وبذلك تجنب ألفونسو المحارب مساندة إنريك لجانب الجليقيين أو القشتاليين[٤] .

فى ذلك الوقت ، أثارت الملكة زوجها بعلاقاتها الغرامية مع القمط جومث جونثالث وبطره جونثالث حاكم لارا ، وطموحها فى السلطة . وجمعت أوراكا قواتها بقيادة قمطى قشتالة المخلصين لها ، وبدأت الحملة ضد زوجها ألفونسو المحارب ، وقامت القوات القشتالية بمهاجمة الأرغونيين الذين كانوا يتولون أمر القلاع والحصون القشتالية ، وحاصرت هذه القلاع والحصون لاسترجاعها من الأرغونيين ، كما قام القشتاليون بمطاردة الأرغونيين أينما وجدوا[٥].

---

(١) Zurita, A. C. A. p. 122; Valdeavellano, op. cit., p. 402 .

(٢) Zurita, A. C. A., p. 122; C. C. A., p. 13; Bleye, op. cit., p. 62o.

(٣) Lacarra, Alfonso el Batallador, pp. 49-50 .

(٤) Fernandez, op. cit., p. 541 ; Lacarra, Alfonso el B., p. 50 .

(٥) C. S. J. P., pp. 74-75; P. C. G. E., p. 647 .

غضب ألفونسو المحارب من تصرفات زوجته ، وما فعله أهل قشتالة بالأرغونيين ، فطلب مساندة قمط البرتغال ، وهاجم أراضى قشتالة . وحينئذ خرج القشتاليون بقيادة القمطى جومث جونثالث وبطره جونثالث لمواجهة الأرغونيين ، ووقع اللقاء بين الفريقين فى السادس والعشرين من أكتوبر عام ١١١١م/ التاسع عشر من ربيع ثانى ٥٠٥هـ ، فى معسكر اسبينا Camp de Spina قرب سبولبيدا Sepulveda ، من أعمال ولاية شقوبية[١] . وقد عرفت هذه المعركة فى التاريخ القشتالى باسم معركة كاند سبينا Candespina .

اصطفت القوات القشتالية للقتال ، وقاد مقدمة الجيش القمط بطره دى لارا ، بينما قاد مؤخرته دون جومث . وفى بداية المعركة ، فر القمط بطره دى لارا تاركا قواته فى ميدان القتال، وذهب إلى الملكة أوراكا فى مدينة برغش ، وقاد القمط جومث المعركة ، وحقق ألفونسو المحارب انتصارا على القوات القشتالية ، وسقط القمط جومث قتيلا فى المعركة ، وقتل معه عدد كبير من رجاله ، كما قتل أيضا عدد غير قليل من الأرغونيين[٢] . وعلى أثر هزيمة القشتاليين ، عبر الجيش الأرغونى نهر دويره ، عن طريق أراضى كامبوس ، ثم اتجه إلى ليون ، حيث قام بتخريب وسلب أراضيها ، ووضع يده على المنشآت الدينية وأخذ كنوز الكنائس وجواهر ومتاع ملوك ليون[٣] .

---

(١) M. R. C., p. 265; Lacarra, Alfonso el B. p. 50 .

اختلف المؤرخون فى تحديد تاريخ المعركة ، فحددها بعضهم فى الثانى عشر من أبريل ١١١١م/ أول شوال ٥٠٤هـ .

(Bleye, op. cit., p. 620; Fernandez, op. cit., p. 542) .

ولكن يحتمل أن الملكة فى ذلك الوقت كانت سجينة فى قلعة كاستيار . بينما ذكرت حولية كومبلوتنسز أن المعركة وقعت فى السابع من نوفمبر ١١١١م/ الثالث من جمادى الأولى ٥٠٥هـ .

(Annales Complutenses, en Esp. Sag., t. XXIII, p. 315) .

والأقرب إلى الصواب أن تتويج ألفونسو ريموندیس أدى إلى غضب وثورة ألفونسو المحارب ، وفى الوقت نفسه شجع الملكة أوراكا على استعادة سلطتها على قشتالة ، فثار الملك الأرغونى للدفاع عن إمبراطوريته ، فبذلك يكون ما أوردناه فى المتن هو الأرجع طبقا لتحديد مذكرات الملكات الكاثوليكيات .

(٢) C. S. J. P., p. 75; P. C. G. E., p. 647 .

(٣) C. S. J. P., p. 76; P. C. G. E., p. 647 .

وكانت معركة كاند سبينا ضربة قاسية لأوراكا كملكة وزوجة ، فهربت من برغش مع القمط بطره دى لارا ، والتجأت الى حصن منتشون دى كامبوس Monzon de Campos وحاول أتباع الملكة أوراكا ضم القمط إنريك إلى جانبهم ، فأرسلوا إليه فى بداية الأمر يلومونه على تصرفه، وعرضوا عليه التخلى عن مساندة ألفونسو ملك أرغون ، فى نظير تقسيم مملكة قشتالة بينه وبين الملكة أوراكا . ورأى إنريك أن يغير موقفه من ألفونسو المحارب ، وينضم إلى حزب الملكة ، وذلك تبعا لمصلحته وتدعيما لسلطته فى البرتغال ، وتوسيعا لأملاكه . وذهب القمط إنريك إلى حصن منتشون دى كامبوس وتحالف مع الملكة أوراكا ، وأكدت له أن تسلمه مدنا وقلاعا كثيرة[١] .

بمقتضى التحالف البرتغالى ، حصلت أوراكا على مساعدات أدت إلى تغيير الموقف الحربى ، كما ترتب على هذا التحالف أن اتجه الملك ألفونسو المحارب إلى قلعة بنيافيل Penafiel المنيعة، وتحصن هناك مع الفرسان البنيين - فرسان الحدود على الدويرة - وذهبت أوراكا والقمط إنريك على رأس عدد كبير من المشاه والفرسان إلى قلعة بنيافيل وحاصرت زوجها . وأثناء ذلك ، وصلت تريسا من مدينة قلمرية Coimbre إلى المعسكر المحاصر ، وحرضت زوجها على توزيع المملكة قبل طرد الملك الأرغونى ، وأن يتسلم فى الحال القلاع التى تنازلت عنها أو راكا ، فى اتفاق منتشون دى كامبوس . وأدركت أوراكا صعوبة تحالفها مع هذين الطامعين ، ورأت أن مصلحتها الشخصية كانت بجانب زوجها ، وفى خيبة أمل مطالب قمط البرتغال وزوجته المبالغ فيها . ومن ثم ، قررت التصالح مع زوجها ألفونسو المحارب ، ولهذا الغرض بدأت المفاوضات السرية مع كاستان دى بيل Castan de Biel مستشار زوجها[٢] . ومن الملاحظ أن العوامل السياسية فقط ساعدت على تقارب المصالح بين الملكة وزوجها ، وكان هذا التقارب اضطراريا وعاجلا .

وبعد قليل ، رفعت أوراكا وإنريك الحصار عن بنيافيل ، واتجها نحو بالنسيا حيث اجتمع الأشراف لتوزيع أراضى المملكة ، وتنازلت أوراكا للقمط إنريك عن عدة مدن كان من أهمها مدينة سمورة Zamora وقلعة سيا Cea وشلمنقة Salamanca وتورو Toro . خرجت الملكة

---

(١) Fernandez, op. cit., p. 542; Lacarra Alfonso el B., p. 51 .

(٢) Lacarra Alfonso el B., P. 51; Valdeavellano, op. cit., p. 402 .

أوراكا متجهة نحو ليون ، بينما أسرع إنريك لامتلاك مدينة سمورة ، وفى الوقت نفسه ، أرسلت الملكة سرا أوامرها إلى أهل مدينة سمورة بعدم تسليم المدينة للقمط إنريك ، كما أرسلت فرناندو غرسية سرا إلى سكان مدينتى بالنسيا وساهاجون ، تطلب منهم تسليم مدنهم للملك الأرغونى . وصلت أوراكا إلى ليون ، والتقت بزوجها ألفونسو المحارب ، إثر سيطرته على هذه المدن ، وتصالحا فى الحال[١] ، ويبدو أن هذا الصلح كان صلحا سياسيا مؤقتا لمواجهة أطماع قمط البرتغال وزوجته .

غضب إنريك لتغير موقف أوراكا ، فاتجه إلى كاريون وحاصرها وزوجها ، وكان حصارا قصيرا فاشلا ، فقد وصلت فى الحال القوات القشتالية والليونية لمساعدة الملكين ، وأرغمت البرتغاليين على رفع الحصار ، وبمجرد أن انتهى حصار كاريون ، تجدد النزاع بين ألفونسو المحارب وأوراكا[٢] .

وفى هذه الفترة المضطربة ظهر ديجو جلمريث أسقف كومبوستلانا - شانت ياقب - الجليقى، الذى قادته حوادث جليقية إلى إدارة حزب الأمير ألفونسو رعوندبس ، وكان يرقب الأمور فى ليون وقشتالة ، وأدرك أن زواج ألفونسو المحارب وأوراكا لا يمكن أن يستمر ، بسبب معارضة الكنيسة ، فقرر جلمريث أن يتدخل ويتفاوض مع الملكة أوراكا ، مقترحا تصالح كل الأحزاب القشتالية والليونية والجليقية تحت سيادة الملكة وابنها ألفونسو رعوندبس[٣] .

وحينئذ ، قرر أشراف جليقية إخضاع كل مملكة ألفونسو السادس لسيادة حفيده الطفل ألفونسو رعوندبس ، وفى أواخر عام ١١١١م/٥٠٥هـ ، توجهوا إلى ليون بجيش قوى من الليونيين والجليقيين ، وبصحبتهم الأمير المتوج وقمط ترابا والأسقف جلمريث ، للحصول على اعتراف الأشراف الليونيين والقشتاليين تأكيدا لشرعية ألفونسو رعوندبس ، وإثارة لحركة واسعة تهدف إلى طرد الأرغونيين[٤] . وقد مروا فى طريقهم بمدينة لك التى كانت تابعة لملك

(١) C. A. S. pp. 42-43: Lacarra, Alfonso el B., p. 52 .

(٢) C. A. S., p. 49: Bleye, op. cit., p. 620 .

(٣) Fernandez, op. cit., p. 543 .

(٤) Zurita, A. C. A., p. 123: Fernandez, op. cit., p. 544; Valdeavellano, op. cit., p. 404 .

أرغون فأخضعوها ، وما كاد ألفونسو المحارب يعلم بهذه الأخبار حتى سار ببعض قواته لملاقاة الحزب الجليقي ، والاستحواذ على الملك الطفل . وفي بيادنجوس Viadangos - بين أسترقة وليون - خرج ألفونسو المحارب قاطعا عليهم الطريق ، واشتبك معهم في الموقع المعروف باسم طريق الحيّات ، وهزمهم وأسر قمط ترابا ، كما قتل كثيرا من الليونيين والجليقيين وآخرين من الأرغونيين . بينما تمكن جلمريث أثناء المعركة من الهرب بالطفل ألفونسو ريموندبس إلى مدينة أسترقة ، وسلمه لوالدته التي كانت في قلعة قريبة هناك ، وعاد سريعا إلى جليقية ، بينما التجأت الملكة مع ابنها في منتشون دي كامبوس ، وعاد ألفونسو المحارب إلى أراضيه عن طريق قشتالة[١] .

ومما دفع ألفونسو المحارب إلى العودة إلى أرغون ، أنه في ذلك الوقت ، حاول عبد الملك عماد الدولة أن يسترجع ملكه في سرقسطة ، فخرج من مدينة روطة ، وتقدم نحو سرقسطة ، ولكن الحاكم المرابطي محمد بن الحاج خرج للقائه وقاتله ، فأجبره على الانسحاب[٢] . ولعل ذلك مادفع ألفونسو للعودة إلى أرغون لوقت قصير لحماية عبد الملك .

تجدد العداء بين ألفونسو المحارب وأوراكا ، وازدادت الضغائن والكراهية بينهما ، وتطورت العلاقة إلى حرب أهلية مفتوحة بين أتباع كل منهما ، وقاست قشتالة وأرغون أضرار الحرب ، وسادت الفوضى في البلاد . واستمرت سياسة ألفونسو المحارب الهجومية ضد رجال الدين ، وعمل على كبح نفوذهم ، وفي ظل هذه الحالة الفوضوية في أسبانيا ، ذهب بعض رجال الدين إلى روما ، وطلبوا من البابا التدخل ، وأن يرسل مبعوثا يبحث حقيقة الأوضاع ويبلغه عن تطور الأحداث[٣] .

وفي ظل هذه الظروف ، اضطرت أوراكا أن تبحث عن المساعدة في جليقية ، لشن الحرب ضد زوجها ، فتركت إبنها في منتشون تحت حراسة الأشراف القشتاليين ، وفي أوائل عام ١١١٢م/٥٠٥هـ ، أخذت أوراكا طريق جليقية ، وذهبت عن طريق جبال أشتريس ،

---

(١) M. R. C., p. 244; C. S. J. P., p. 76 .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٤ ، ص ٥٦ ؛

Miranda, Los Banu Hud, p. 9 .

(٣) Fernandez, op. cit., p. 544; Lacarra, Alfonso el B., p. 55 .

لأن الطريق المباشر مقطوع أمامها بأتباع ألفونسو المحارب ، مارة بمدينة أويبدو Oviedo ثم لك ، ومن هناك إلى شانت ياقب ، حيث استدعت الهيئة القضائية . وفى مدينة بسكوا Pas-cua اجتمع مجلس من الأشراف ، فى الحادى والعشرين من ابريل ١١١٢م/ الحادى والعشرين من شوال ٥٠٥هـ ، وتعهدوا بمساعدتها ضد ألفونسو المحارب ، الذى سبب أضرار خطيرة على طول طريق خدمة الحجاج الذين يقصدون زيارة قبر شانت ياقب ، وتعهدوا بإعانتها فى نفقات الحرب . كما استمالت اوراكا أيضا القمط إنريك ، الذى أبدى مساعدته لها مقابل بعض الأراضى[١] .

وفى بداية الصيف ، خرجت أوراكا بجيشها ضد ملك أرغون ، وكان بصحبتها ألفونسو رعوندبس والقمط إنريك وقمط ترابا - الذى أطلق سراحه - وبعض أشراف جليقية ، وتقدمت إلى أراضى ليون ، واجتازت جبال أشتريس وجليقية ، وتوقفت فى مدينة أسترقة للراحة . وعلم ألفونسو المحارب بهذه التحركات المعادية ، فحشد بعض قواته على وجه السرعة ، وطلب من القائد الأرغونى مارتن مونيوس Martin Munoz اللحاق به وما معه من قوات ، ونجح ألفونسو المحارب فى فرض الحصار على مدينة أسترقة ، حيث توجد الملكة وقواتها . وسريعا ما وصلت الفرقة الأرغونية بقيادة مارتن مونيوس ، ولكن الملكة قاتلت ببسالة ونجحت فى هزيمة مارتن مونيوس وما معه من قوات ، فاضطر ألفونسو المحارب إلى رفع الحصار والانسحاب إلى كاريون ، فلحقت به الملكة أوراكا وحاصرته[٢] .

فى هذا الوقت ، وصل إلى أسبانيا أرمينجود Hermengaud رئيس دير تشبسا Chiu-sa، مبعوثا من البابا باسكال الثانى ، للعمل على فسخ زواج ألفونسو المحارب من أوراكا لمخالفته لتعاليم الكنيسة ، فقد اعتبرته غير شرعى بسبب القرابة بينهما . كما طلب المبعوث البابوى من ألفونسو المحارب إيقاف الحرب الدائرة بينه وبين أوراكا . ولكن الملك الأرغونى لم يهتم بتصريحات المندوب البابوى ، بينما استجابت أوراكا لأوامره ، وحينئذ رفعت الحصار عن مدينة كاريون ، وانسحب ألفونسو المحارب عائدا إلى مملكته [٣] .

---

(١) Fernandez, op. cit., pp. 544 - 545; Lacarra, Alfonso el B. p. 54 .

(٢) M. R. C., p. 244; Ballesteros, op. cit., p. 451 .

(٣) M. R. C., p. 244; C. C. A., p. 13; Fernandez, op. cit., p. 545.

مما سبق يتضح أن الحرب بين ألفونسو المحارب وأوراكا استمرت طوال عامين ، وقع خلالها الكثير من الأضرار ، وتعرض فيها بعض المتحاربين للأسر والتعذيب ، كما سادت الفوضى ، والسلب والنهب ، وسرقت الزخارف المقدسة من الأديرة والكنائس . وفي عام ١١١٣م/ ٥٠٦هـ، سعى الأشراف والبرجوازيون إلى مصالحة الزوجين ، حفاظا على مصالحهم الخاصة ، وقد اتفق هؤلاء على توزيع القلاع والأراضي بين الملك والملكة ، وتعاهدوا أن يدافعوا عن الملكة إذا أساء الملك الأرغوني معاملتها ، ونقض الاتفاق المبرم بينهما ، وفي حالة إساءة الملكة للملك الأرغوني ، يقفون بجانب الملك ويساندونه[1] .

وسرعان ما نقض ملك أرغون المعاهدة ، واستولى على القلاع والأراضي التي خصصت للملكة أوراكا ، ووضع حاميات أرغونية في القلاع الرئيسية في قشتالة ، كما عهد ببعض الحصون إلى رجال يثق فيهم . وحينئذ غضب القشتاليون ، وأعلنوا أن أوراكا تعتبر ملكة قشتالة الشرعية ، وترتب على ذلك انسحاب الملك من أراضي كامبوس ، بعد أن سبب أضرارا بالغة ، فقد طرد الأساقفة ونهب الأراضي والقرى . ونتيجة لهذا زاد العداء نحو ملك أرغون ، وقطعت العلاقات بين الزوجين ، واضطرت الملكة أوراكا أن تبحث عن المساعدة في جليقية ، وأن تطلب مساعدة جلمريث لمحاربة زوجها ، والدفاع عن قلعة برغش[2] .

واستجابة لطلب الملكة ، أعد جلمريث جيشا بقيادته وبطره فرويلاث قمط ترابا لمحاربة الملك الأرغوني ، وخرج في الثلاثين من مايو ١١١٣م/ الثاني عشر من ذوي الحجة ٥٠٦هـ ، فوصل إلى برغش وحاصرها . وفي الحال اتجه ألفونسو المحارب إلى قلعة برغش لإغاثتها ، ولكن جهوده باءت بالفشل فانسحب ، واضطرت الحامية الأرغونية للاستسلام في يونية/ محرم من العام نفسه ، واستولت القوات الجليقية على برغش[3] .

اتجه ألفونسو المحارب مع أتباعه إلى العاصمة القشتالية بعد أن كلت قواته من الحرب التي طال أمدها ، وفي أوائل يوليو ١١١٣م/ محرم ٥٠٧هـ ، أرسل مبعوثين إلى زوجته في برغش ، يعرض عليها الصلح وإقرار السلم . فاستدعت أوراكا مجلسا في كاريون

(١) M. R. C., p. 244; Lacarra, Alfonso el B., p. 56 .

(٢) M. R. C., pp. 244 - 245 .

(٣) Ibid., p. 245; Ballesteros, op. cit., p. 451 .

لاستشارته، ونصحها المجلس بقبول الصلح مع زوجها ، تطلعا إلى الهدوء وحقنا للدماء ، ولكن جلمريث أسقف شانت ياقب اعترض ورفض الصلح ، وأعلن بطلان الزواج المنعقد بين الملك ألفونسو المحارب والملكة أوراكا ، وفرض جلمريث عقوبة ضد الوحدة غير الشرعية للملكين ، كما هدد بالحرمان الكنسى للمدافعين عن هذا الزواج . واشتد العداء بين جلمريث والمؤيدين لفكرة الصلح ، وكاد ينتهى بالاعتداء عليه ، وأجل المجلس ، فهرب جلمريث سريعا فى حماية جنده ، وعاد إلى جليقية ، كما عاد الجيش الجليقى إلى جليقية[١] .

وبينما كان الصراع دائرا بين القشتاليين والأرغونيين ، انتهز المسلمون هذه الفرصة واشتد نشاط المرابطين ضد طليطلة عاصمة قشتالة ، فقد قام الجيش المرابطى بقيادة الأمير مزدلى وإلى قرطبة وغرناطة بغزو طليطلة وضواحيها عام ١١١٣م/ ٥٠٧هـ ، واستولى على حصن أرهينة أو أرجنة Oreja الواقع شرقى طليطلة وقتل حاميته ، وسبى النساء والأطفال . فلما علم البرهانس الذى كان فى منتيشة Montesant أسرع لاستنقاذهم بجيش يقدر بعشرة آلاف من الفرسان ، وتلاقى مع الجيش المرابطى فى عدة مواقع انتهت بهزيمة البرهانس وفراره ، ومقتل سبعمائة من فرسانه ، ثم عاد الأمير مزدلى إلى قرطبة بعد أن أمر بتحصين أرهينة[٢].

وبعد قليل ، شن الأمير مزدلى حملة أخرى ضد منطقة وادى الحجارة Guadalajara ، حين قام صاحبها القمط رودريجو نونيث Rodrigo Nunez – المعروف فى المصادر الإسلامية باسم ابن الزند غرسيس – بحصار مدينة سالم ، فزحف مزدلى إليه ، فلما علم القمط رودريجو نونيث بتحرك مزدلى صوبه ، أقلع عن حصارها وفر هاربا ، وترك جميع أثقاله وأمتعته[٣] . فتوغلت القوات المرابطية فى قشتالة ، واستولت على قلعة ثوريتا ، وقد وصل الخطر المرابطى حتى برلانية دى دويرة Berlanga de Duero . وفى هذه الظروف كان ملك أرغون قد أعد دفاعا جيدا عن الحدود ، بمساعدة "الفرسان البنيين" محاربى الحدود[٤] .

---

(١) M. R. C., pp. 245 - 246: Lacarra, Alfonso el B., pp. 58 - 59 .

(٢) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١٢١ ؛ ابن أبى زرع ، روض القرطاس جـ٢ ، ص ٨٦–٨٧ .

(٣) ابن أبى زرع ، نفس المصدر جـ٢ ص ٨٧ ؛ حسين مؤنس ، الثغر الأعلى ، ص ١١٣ .

(٤) Fernandez, op. cit., p. 547: Lacarra, Alfonso el B., p. 59 .

وصدرت الأحكام الكنسية مرارا تدين زواج ألفونسو المحارب وأوراكا ، ففى الخامس والعشرين من أكتوبر ١١١٣م/ الثانى عشر جماد أول ٥٠٧هـ ، عقد مجلس فى مدينة بالنسيا ، وفيه أعلن المبعوث البابوى بطلان الزواج بصفة رسمية ، ولكن الملك الأرغونى لم يهتم[١] . وعاد الشقاق مرة أخرى بين الزوجين ، فقد حرض الجلالة أوراكا ضد زوجها ، بينما رفض القشتاليون متاعب الحرب ، فطلبت أوراكا المساعدة من إنريك قمط البرتغال[٢] .

وبعد قليل ، مات إنريك فى عام ١١١٤م/٥٠٧هـ ، وتطلعت أرملته تريسا إلى الاستقلال بممتلكاتها البرتغالية ، وخشيت أن تتعرض خططها التوسعية للخطر ، فبادرت إلى غرس الشقاق بين ألفونسو المحارب وزوجته ، وتسببت فى قطع العلاقات نهائيا بين الزوجين ، بالحيلة والمهارة جعلت ألفونسو المحارب يعتقد أن أوراكا تدبر لقتله بالسم ، وأرسلت له مبعوثا تحذره من أوراكا[٣] ، ويؤكد الراهب الفرنسى المؤرخ أورديريك فيتال ذلك بقوله : "إن الملك ألفونسو انشغل بأمور داخلية أفقدته توازنه ، إذ دبرت زوجته أوراكا بنصيحة أهلها وقومها من الجليقيين التخلص منه عن طريق السم ، عندما أدركوا الخلاف الحاد بين الرجل وزوجته ، وقد أسعدهم عدم وجود سلام ووفاق بينهما[٤] .

غضب ألفونسو المحارب ، وأعلن الحرب على الملكة أوراكا ، وتجددت الحرب الأهلية بين أتباع كل من الملكين فى الأراضى الليونية والقشتالية ، وسادت الفوضى فى البلاد ، وفى خضم هذه الأحداث سقط البرهانس قتيلا عام ١١١٤م/٥٠٧هـ فى مدينة شقوبية ، وهو يدافع عن حقوق الملكة أوراكا ، ضد المتمردين البرجوازيين للمدينة ، الذين أخذوا جانب ملك أرغون[٥] .

وشجعت الأحوال السائدة فى قشتالة من الانقسامات والحروب الأهلية ، المرابطين على مهاجمة الأراضى القشتالية ، فأسرعوا إلى مهاجمة لاسجرا La Sagra الواقعة شرقى أبدة Ubeda فى أول يوليو ١١١٤م/ الخامس والعشرين من محرم ٥٠٨هـ ، وأسروا أكثر

---

(١) Fernandez, op. cit., p. 546; Lacarra, Alfonso el B., p. 60 .

(٢) Ballesteros, op. cit., p. 344; Lacarra, Alfonso el B., P. 59 .

(٣) Ballesteros, op. cit., p. 344; Valdeavellano, op. cit., p. 406 .

(٤) Orderici Vitales, Hist. Eclesias (R.H.G.F.) t. XII, p. 749 .

(٥) Ballesteros, op. cit., p. 344; Valdeavellano, op. cit., pp. 406 - 407 .

من خمسمائة أسير من بجناس Peginas وكبانياس Cabanas وماجان Magan ، وامتد الخطر المرابطى إلى مدينة طليطلة التى تعرضت أيضا للحصار[١] . ولم تسجل المصادر الإسلامية الهجوم المرابطى على هذه المدن القشتالية .

وقام برناردو رئيس أساقفة طليطلة بمحاولة لتحقيق السلم فى المملكة ، فنصح الملك والملكة بالانفصال ، ولكنه فشل فى التوصل إلى اتفاق مع الملك والملكة . ولذلك دعى إلى مجمع أسقفى ، عقد فى ليون فى الثامن عشر من أكتوبر ١١١٤م/السادس عشر من جمادى أول ٥٠٨هـ ، وطالب بانفصال الزوجين لصلة القرابة بينهما ، أو الحرمان الكنسى ، وطالب المجلس بنشر قراره فى أرض كامبوس أو فى قشتالة ، وفى البرتغال أو فى جليقية ، وفى استرامادوره أو فى أرغون[٢] .

وفى تلك المرحلة ، قرر ألفونسو المحارب أن ينفصل نهائيا عن زوجته ، فقد وجد ألفونسو أنه فشل فى تحقيق حلمه فى قيام الوحدة بين مملكتى قشتالة وأرغون ، ومن جهة أخرى ، اقتنع ألفونسو المحارب بأن محاولات تحقيق تفاهم دائم مع ملكة قشتالة لاجدوى منها ، فقد شاع حبها وميلها لبطره جونثالث دى لارا[٣] . وفى هذه المرحلة وقع طلاق ألفونسو المحارب لزوجته أوراكا - ولم تحدد المدونات تاريخ الطلاق بدقة - وحول هذه الأحداث تروى لنا مدونة سان خوان دى لابينيا : "أنه بمرور الوقت وجد الإمبراطور - ألفونسو المحارب - أن الملكة زوجته تحيد عن الطريق الصحيح ، ولصلة الدم القائمة بينهما ، وعلى أثر نزاع اقتادها ألفونسو المحارب إلى مدينة سرية ، حيث سلمها لأهل قشتالة الموجودين هناك ، لأنه لايريد أن يعيش معها فى خطيئة"[٤] .

ولما علم أهل قشتالة بطلاق ألفونسو المحارب للملكة زوجته وسيدتهم ، حزنوا كثيرا ، وشعر أشراف قشتالة بالإهانة لطلاق الملكة وتفضيل الأرغونيين على الوطنيين فى حكم المملكة، فثاروا لأن الملك سلب كل سلطة الملكة وذهبوا إليها وتحالفوا معها ضده ،

---

(١) Anales Toledanos I, p. 345; Lacarra, Alfonso el B., p. 59 .

(٢) Lacarra, Alfonso el B., p. 60 .

(٣) Idem .

(٤) C. S. J. P., p. 72 .

وعقدوا مجلسا قرروا فيه أن يعيدوا إليها أرضها ومع ذلك اعترفوا بولائهم لألفونسو المحارب، مع احتفاظهم بالخضوع لسيدتهم الأصلية ، ولذلك قرروا الالتفاف حولها والتعاون معها لاسترداد أرضها[١] وابتعدوا عن طاعة الإمبراطور ، وأسرعوا إلى تسليم الملكة أوراكا الكثير من القلاع والحصون التى كانت حينئذ تحكم باسم ألفونسو المحارب[٢] .

وتروى المدونات المسيحية الموقف المؤثر للشيخ القمط بطره أنسورث ، الذى ظل مخلصا لملكى قشتالة وأرغون . فبعد أن رد إلى الملكة أملاكها ، ارتدى ثوبا قرمزيا ، وحمل حبلا فى يده ، وامتطى جواده الأبيض ، وأسرع إلى الإمبراطور ألفونسو "المحارب" ، وقال له : "أيها السيد الإمبراطور ، أن الأرض التى منحتمونى إياها ، أعدتها إلى الملكة ، سيدتى ، لأنها ملكها ، أما أنا فأقدم لكم نفسى وما أملك لأعلن لكم ولائى ، لكى تحكموا علىّ ، لأنكم من اختارنى"[٣] .

وبمقتضى القانون الإقطاعى ، غضب الملك ألفونسو المحارب ودبر لعقابه ، ولكن بوساطة رجال البلاط والأشراف المحيطين به ، تغلب ألفونسو على هذا الغضب الذى ملأ قلبه ، فقد أقنعوه أن القمط كان يجب عليه أن يعيد الأرض للملكة ، وأن يرد لها كل أملاكها بالكامل ، مع الاحتفاظ بالولاء للملك ألفونسو المحارب . ونصحوا الملك أن يصفح عنه ، فعفا عنه الملك، مقدرا أن القمط قد حفظ الولاء للفريقين ، وعلاوة على ذلك ، منحه إكراميات وأراضى[٤] .

ويحتمل أن انفصال ملكى قشتالة وأرغون كان مصطحبا باتفاقية على توزيع المقاطعات ، وفيها خصص للملك الأرغونى جزء من قشتالة ، الذى عليه أقام مطالبه الإمبرطورية ، وطبقا لهذا حكم ألفونسو المحارب فى أرغون وقشتالة ، بينما حكمت أوراكا فى ليون وجليقية . كما احتفظ ألفونسو بلقب الإمبراطور ، الذى تنازل عنه فى صلح تامارا Tamara عام ١١٢٧م/ ٥٢١هـ . وعلى أية حال ، لقد تجاهل ألفونسو المحارب مستقبلا أمور الإمبراطورية

---

(١) C. S. J.P., p. 73 .

(٢) Zurita, A. C. A., p. 122; C. C. A., p. 13 .

(٣) C. S. J. P., p. 73; P. C. G. E., p. 646 .

(٤) Zurita, A. C. A., p. 123; C. S. J. P., pp. 73-74 .

الليونية ، حيث انشغل بالحرب ضد المسلمين واستكمال استرداد وادى إبره[١] . وبالرغم من انشغال ألفونسو المحارب فى حصار سرقسطة فيما بعد ، إلا أنه لم يتنازل عن قشتالة ، واحتفظ فيها ببعض القلاع القوية مثل كاستروخرث Castrojeriz وكاريون[٢] .

وحينئذ تخلى ألفونسو المحارب عن خطته فى تحقيق وحدة سياسية كبرى بين مملكتين من أكبر الممالك النصرانية فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، وعاد إلى أرغون ، واحتفظ بنفوذه فى قشتالة وفى مملكة طليطلة . فقد ورد فى سجلات طليطلة بعض الوثائق المؤرخة فى مارس ١١١٥م ، وفى نوفمبر ١١١٨م ، التى تفيد أن ألفونسو المحارب استمر يحمل لقب ملك قشتالة وملك طليطلة لعدة سنوات[٣] .

وبعد طلاق الملكة أوراكا ، وجدت أن مملكتها قد تقلصت كثيرا ، فقد استقلت مقاطعة البرتغال وحكمتها أختها تريسا ، كما خضعت جليقية لابنها ألفونسو ريموندس ، وأن الجزء الأكبر من قشتالة فى يد زوجها السابق ألفونسو المحارب . بعد كل هذه الأحداث التى دارت خلال خمس سنوات مع زواج تعس خرجت منه محتفظة فقط بمملكة ليون وجزء صغير من قشتالة ، وسيادة محدودة تماما . ولما كانت أوراكا امرأة قوية العزيمة ، فقد تحررت من كابوس زواجها وقررت أن تسترد مملكة جليقية ولكنها لم تجد فى جلمريث الترحاب الذى توقعته ، فاضطرت فى البداية إلى إعلان الحرب عليه وعلى ابنها ألفونسو ريموندس لاستعادة سلطتها[٤] .

أما عن أسباب فشل زواج ألفونسو المحارب وأوراكا فيرجع إلى عدة عوامل : ومن أهمها الخلافات بين الزوجين ، وعدم قدرتهما على تجاوز خلافاتهما إنقاذا للمصلحة العامة لأسبانيا النصرانية ، وكان من دوافع الخلاف بين ألفونسو وزوجته أنهما كليهما يميلان إلى ممارسة القوة والسلطة ، فقد أرادت أوراكا أن تستأثر بجميع السلطات فى قشتالة والأراضى التابعة لها ،

---

(١) Bleye, op. cit., p. 619; Valdeavellano, op. cit., p. 408, not. 1 .

(٢) Ballesteros, op. cit., p. 344 .

(٣) Francisco J.Hernandez, Los Cartularios de Toledo, Madrid, 1985, Doc. num. 19-20, pp. 22-24 .

(٤) Lacarra, Alfonso el Batallador, pp. 61-62 .

وكان الملك الزوج عائقا لممارسة الملكة للسلطة الحقيقية التى أولعت بها ، فاتخذ موقفا حازما فى سبيل حماية سيادته بصفته الزوج والملك ، بعدم التنازل عن حقوقه الملكية . كما أن اختلاف شخصية الزوجين أدى إلى نشوب الخلاف بينهما ، فكانت أورواكا شخصية متسلطة ، ومتقلبة كثيرة الطموح ، سريعة الغضب ، بينما ألفونسو المحارب كان رجلا حربيا أكثر منه سياسيا ، أحب الحرب والحياة بين جنوده ، وكان صليبيا متحمسا يميل إلى تحقيق الوحدة بين قشتالة وأرغون ، ففقد الاقتران الزوجى بين أورواكا وألفونسو المحارب كل رابطة روحية ، وفى الواقع كان هذا الزواج ينقصه النضج السياسى والوفاق الزوجى والذرية[1].

كما أدى موقف الكنيسة إلى فشل الزواج ، فقد عارضت زواج ألفونسو المحارب وأورواكا بحجة القرابة بين الزوجين ، وصدر القرار البابوى ببطلان الزواج والتهديد بالحرمان الكنسى للزوجين .

بالإضافة إلى ذلك ، واجه زواج ألفونسو وأورواكا العداء والمعارضة من بعض القوى السياسية التى خططت لمحاربة الوحدة بين قشتالة وأرغون حفاظا على مصالحها الشخصية ، فانقسم القشتاليون إلى ثلاثة أحزاب : حزب ملك أرغون ، وحزب الملكة أورواكا ، والحزب الجليقى ، بالإضافة إلى معارضة قمطى البرتغال للزواج والوحدة . كل هذه الأسباب أدت فى النهاية إلى فشل الزواج والوحدة بين ملكى قشتالة وأرغون .

وترتب على ذلك ، أنه بدلا من زيادة قوة المسيحية فى أسبانيا النصرانية ، أدت هذه المصاهرة إلى استمرار الاضطرابات والحروب الأهلية فى قشتالة لبعض الوقت ، كان يقطعها أحيانا غزوات المسلمين . وقاسى شعب قشتالة كثيرا من هذه الحروب التى سادها النهب والتخريب ، وفيها تمكن ألفونسو المحارب من هزيمة الأقماط القشتاليين فى موقعة كاندسبينا ، وانتصر على الجليقيين فى موقعة بيادمجوس .

كان للحروب الأهلية بين قشتالة وأرغون أثرها فى الصراع الدائر بين النصارى والمسلمين فى أسبانيا ، فقد ضعفت الجبهة الدفاعية النصرانية ، وعجزت عن القيام بمهاجمة المسلمين منذ وفاة الملك ألفونسو السادس ملك قَشتالة ، كما سادت المعارك الأهلية محل حروب

---

(١) Valdeavellano, op. cit., pp. 393-395 ;

محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٤٧٩ .

الاسترداد خلال هذه الفترة . ومن جهة أخرى ، لم يستغل المسلمون النزاع بين قشتالة وأرغون، وانشغال ألفونسو المحارب بحروبه مع قشتالة فى الهجوم على أرغون ، أو تحقيق غزوات واسعة ، واكتفوا بشن غارات مخربة ومدمرة على جانب آخر وخاصة غرب أسبانيا .

والواضح أن ألفونسو المحارب كان طيلة هذه السنوات مهتما بقضاياه الزوجية ، ومشغولا بالحرب الأهلية مع زوجته ملكة قشتالة ، تلك الحرب التى أعاقت نشاطه ضد المسلمين ، وعطلت حركة الاسترداد الشرقى حينا ، حتى انتهى الأمر بالطلاق . وبذلك كان تدخل ألفونسو المحارب فى سياسة أسبانيا الغربية دون نتيجة فعالة ، ففشل فى تحقيق الوحدة مع قشتالة . وعلى أية حال ، فعندما سكنت الحرب بين أرغون وقشتالة بضعة أعوام ، اهتم ألفونسو المحارب بشئون مملكة أرغون ، وبدأ يولى اهتمامه شطر أسبانيا الشرقية ، وركز هدفه فى محاربة المسلمين فى منطقة وادى إبره ، وتنفيذا للسياسة الأرغونية قام بإعداد حملة صليبية قادها بنفسه ضد مملكة سرقسطة .

الفصل الثالث

استرداد ألفونسو المحارب لمدينة سرقسطة والنتائج المترتبة عليها ١١١٤-١١٢٤م/٥٠٨-٥١٨هـ

١- أحوال سرقسطة الإسلامية تحت الحكم المرابطي .

٢- مقدمات فتح سرقسطة .

٣- استعداد ألفونسو المحارب لحصار سرقسطة .

٤- مساعدة الفرنجة لألفونسو المحارب في فتح سرقسطة .

٥- الحصار الأرغوني - الفرنجي لمدينة سرقسطة .

٦- استغاثة أهل سرقسطة بالمرابطين .

٧- استسلام مدينة سرقسطة لألفونسو المحارب ١١١٨م/٥١٢هـ .

٨- النتائج المترتبة على سقوط مدينة سرقسطة :

أ- غزو مدينة تطيلة عام ١١١٩م/٥١٢هـ والاستيلاء على مدينة طرسونة .

ب- تأسيس منظمة بلشر الحربية الدينية .

جـ- محاولة المرابطين استعادة سرقسطة والقلاع المفقودة .

٩- موقف ألفونسو المحارب من مدينة لاردة .

١٠- تعمير ألفونسو المحارب للمدن المفتوحة .

تعرضنا في الصفحات السابقة لعلاقة ألفونسو المحارب بمملكة قشتالة ، وانشغاله بالحروب الأهلية مع زوجته ، والتي شغلته حينا عن سياسة الاسترداد التي اتبعها أباؤه وأجداده من قبل . وسوف نتناول في هذا الفصل استرداد ألفونسو المحارب لمملكة سرقسطة عاصمة الثغر الأعلى ، والتي كانت موضع اهتمام ملوك أرغون ، منذ عهد الملك راميرو الأول حتى فتحها النهائي على يد الملك ألفونسو المحارب عام ١١١٨م/٥١٢هـ . كما كانت سرقسطة أيضا هدفا من أهداف ملوك قشتالة الذين سعوا إلى الاستحواذ عليها وإبعادها عن أطماع ملوك أرغون، وكثيرا ما استعان حكام سرقسطة المسلمين بملوك قشتالة الذين كان لهم حق الجزية عليهم ،

لمواجهة التطلعات الأرغونية لاسترداد سرقسطة . بل أن الملك ألفونسو السادس ملك قشتالة بعد أن استولى على مملكة طليطلة عام ١٠٨٥م/٤٧٨هـ ، تشجع وطمع فى الاستيلاء على سرقسطة ، فقام بحصارها لولا عبور المرابطين الذى أنقذها عام ١٠٨٦م/٤٧٩هـ ، وانشغال ألفونسو السادس بمواجهة الهجوم المرابطى . والحقيقة لقد كان للمرابطين فضل كبير فى تأخير سقوط سرقسطة فى يد الأرغونيين ، وذلك نتيجة هجماتهم الشديدة على مملكة قشتالة . وقد أدرك المستعين بالله حاكم سرقسطة قوة المرابطين فى ذلك الوقت ، فاتخذ سياسة دبلوماسية معهم حفاظا على مملكته من جانب ، وخشيه طمع كل من ملوك أرغون وملوك قشتالة من جانب آخر .

وقد اعتبر ملوك أرغون منطقة وادى إبره ميدانا فسيحا لفتوحاتهم وتوسعاتهم ، ولذلك حرصوا على الاستيلاء عليها ، وأخذوا يمهدون لمهاجمة المسلمين فى وادى إبره ، وذلك ببناء القلاع لإضعاف قوى المسلمين العسكرية فى المنطقة . وقد تعرضت مملكة سرقسطة لحملات عديدة من ملوك أرغون ، الذين هددوا مدينة الإبره عدة مرات ، فقام الملك سانشوراميرث فى عام ١٠٩١م/٤٨٤هـ ببناء وتحصين قلعة كاستيار على الضفة اليسرى للإبره ، والتى اتخذها الأرغونيون قاعدة للضغط على سرقسطة فى هجماتهم ، وفى شهرى فبراير ويونيو من عام ١١٠١م/٤٩٤هـ استعد الملك بطره الأول لمهاجمة مدينة سرقسطة متخذا الصليب شعارا له ، وأقام فى خوسليبول ، على بعد خمسة كيلو مترات من الحى المدنى لسرقسطة [١] .

بالإضافة إلى ذلك ، استطاع ملوك أرغون بالتدريج انتزاع بعض قواعد سرقسطة الشمالية الهامة والمحصنة جيدا وأهمها منتشون ١٠٨٩م/٤٨٢ ، والمنارة ١٠٩٣م/٤٨٦هـ ، ووشقة ١٠٩٦م/٤٨٩هـ ، وبريشتر ١١٠٠م/٤٩٣هـ . ولم يبق لسرقسطة من قواعدها سوى تطيلة ولاردة وطرطوشة وإفراغة[٢] .

ومما لاشك فيه أن أحوال سرقسطة الإسلامية وانقسام السلطة بين المرابطين وعبد الملك عماد الدولة أتاح الفرصة لتدخل ألفونسو المحارب فى المنازعات التى نشبت بين الطرفين ، يضاف إلى ذلك أن عبد الملك اتخذ من قلعته روطه دى شلون مركزا لإثارة المسلمين الأسبان ضد

---

(١) Lacarra, La Conquista de Zaragoza, p. 68 .

(٢) Idem;

محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٨٧ .

المرابطين الإفريقيين . وقد أدرك ألفونسو المحارب اضطراب أمور سرقسطة منذ عام ١١١٠م/ ٥٠٣هـ ، ولعل المنازعات والخلافات التى ظهرت فجأة فى الزواج الملكى ، أجلت لبعض الوقت تدخله فى شئون سرقسطة .

وأثر انتهاء ألفونسو المحارب من تصفية الأمور القشتالية ، عاد إلى ولاياته الموروثة ، واعتنى بتعمير تحصين حدود جبال أوقة بحاميات أرغونية فى برغش وكاسترو خرث كاريون[١] . وأعاد تنظيم مملكته ، وتفرغ لحرب المسلمين ومواصلة سياسة الاسترداد ، وكان متأثرا بالروح الحربية الصليبية إلى حد كبير ، حيث كانت الحرب الصليبية الأولى فى الشرق ذات أثر كبير فى الحرب الصليبية فى الغرب .

وقبل الدخول فى تفاصيل استرداد ألفونسو المحارب لمملكة سرقسطة ، سوف نستعرض بإيجاز أحوال سرقسطة تحت الحكم المرابطى ، لقد كان أول ولاة سرقسطة من المرابطين [٢] محمد بن الحاج (١١١٠-١١١٤م/٥٠٣هـ - ٥٠٨هـ) الذى تمكن من دخول سرقسطة فى آخر مايو ١١١٠م/ ذى القعدة ٥٠٣هـ ، بعد خروج عبد الملك عماد الدولة الذى استقر بحصن روطة دى شلون تحت حماية ألفونسو المحارب . وقد تميز ابن الحاج بروح قتالية ، إذ استطاع أن يدافع عن سرقسطة ضد ألفونسو المحارب ، وكثيرا ماضيق بالنصارى طول أيام ولايته ببلنسية وسرقسطة بالغارات على بلادهم . ففى عام ١١١٢م/٥٠٥هـ قام ابن الحاج بشن غارة عن طريق أراضى وشقة ، ووصل إلى أييرا Ayera على بعد عشرة كيلو مترات من الشمال الشرقى من هذه المدينة ، ونجح فى أسر العديد من الأسرى [٣] .

كما اشترك محمد بن الحاج مع القائد محمد بن عائشة حاكم مرسية فى الحملة ضد قطلونية عام ١١١٤م/٥٠٨هـ ، ولعل السبب الرئيسى لهذه الحملة هو وضع حد لأطماع قمط برشلونة رامون برنجير الثالث الذى تحالف مع بيزا وجنوة للاستيلاء على جزر البليار Islas Balcares ، فاستولى على جزيرة يابسة Ibiza ، ثم حاصر جزيرة ميورقة Mallorca ، فاستنجد أميرها

---

(١) Lacarra, Alfonso el Batallador, p. 65 .

(٢) أنظر الجدول رقم (٣) .

(٣) Lacarra, La Conquista de Zaragoza, P. 72; Bosch, Los Almoravides, p. 189 .

مبشر بن سليمان بأمير المسلمين على بن يوسف [١] ، وربما استنجد أيضا بجيرانه من الولاة المرابطين لمواجهة تهديد النصارى ، فرأى ابن الحاج أن يضرب قمط برشلونة فى عقر داره .

خرج ابن الحاج فى قواته من سرقسطة فى يوليو ١١١٤م/ صفر ٥٠٨هـ ، وانضم إليه فى لاردة محمد بن عائشة بقواته ، وسارت القوات المرابطية شرقا عن طريق سرفيرا Cervera - الذى سماه ابن أبى زرع الطريق البرية - ووصلت حتى برشلونة حيث حصلت على الكثير من الأسرى والغنائم ، ولكنها عجزت عن الاستيلاء على برشلونه لحصانتها . وعند عودة القوات المرابطية ، أرسل محمد ابن الحاج الغنائم مع معظم قواته للعودة بها من الطريق الكبير - الطريق الرومانى - واتجه هو ببياقى قواته غربا للعودة عن طريق سرفيرا ولاردة ، فهو طريق قصير وقريب إلى سرقسطة ، وكان طريقا جبليا ضيقا ، وما كاد يتوسطه حتى أطبق عليه كمين من النصارى بالقرب من حصن كونجست دل مارتوريل Congost del Martorell أو مضيق مارتوريل فى أغسطس ١١١٤م/ ربيع أول ٥٠٨هـ ، فقاتلهم ابن الحاج وقواته قتالا عنيفا حتى استشهد ، واستشهد معه بعض قواته ، ولجا ابن عائشة فى قليل من أصحابه ، ثم لم يلبث أن اعتل بصره [٢].

وتعرف هذه الموقعة فى المصادر الإسلامية بموقعة البورت La batalla del Puerto ، وتفسيره فى العربية الباب ، بينما تعرف فى المصادر المسيحية باسم كونجست دل مارتوريل[٣] .

ومن الجدير بالذكر أن المؤرخ إبن أبى زرع حدد تاريخ استشهاد ابن الحاج فى عام ١١١٤م/٥٠٨هـ فى موقعة البورت فى أراضى برشلونه ، ويتفق معه المؤرخ ابن الأبار ،

---

(١) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١٢٢ - ١٢٤ ؛ ابن خلدون ، العبر ، جـ٤ ، ص ١٦٤ - ١٦٥ ؛

Markham, The Story of Majorca and Minorca, London, 1908, p. 10 .

(٢) ابن أبى زرع ، روض القرطاس جـ٢ ، ص٨٣ - ٨٤ ؛ حسين مؤنس ، الثغر الأعلى ، ص ١١٢-١١٣ ؛ Codera, Decadencia Y Desaparicion de Los Almoravides en Espana, Zarago-zo, 1899, pp. 20-21 .

(٣) ابن الأبار ، التكملة ، جـ١ ، ترجمة رقم ٧٦ ، ص ٢٩ ؛ المعجم فى أصحاب القاضى ، ترجمة رقم ٢٩٩ ، ص ٣٢٢ ؛ محمود مكى ، وثائث تاريخية جديدة ص ١٢٨ - ١٢٩ ؛

Codera, op. cit., p. 272 .

فى حين أن المؤرخ ابن عذارى أشار أن ابن الحاج لم يمت فى موقعة البورت ، ولكنه سجل استشهاده في يونيه ١١١٥م/ أوائل صفر ٥٠٩هـ ، فى أراضى قرطبة ، عندما قام بمساعدة القرطبيين لمقاومة الهجوم القشتالى على قرطبة ، حيث ألحقت القوات القشتالية هزيمة خطيرة بالمرابطين[١] . ويبدو أن ماذكره ابن أبى زرع أقرب إلى الصواب ، ويؤكد ذلك أن المصادر أشارت إلى ابن عائشة تم عزله عن ولاية مرسية بعد أن اعتل بصره ، فى حين لم تشر إلى أى عمل عسكرى من جانب ابن الحاج ضد النصارى خلال هذه الفترة .

خلف ابن الحاج فى ولاية سرقسطة الأمير أبو بكر بن إبراهيم بن تافلويت حاكم مرسية (١١١٤-١١١٧م/ ٥٠٨ - ٥١٠هـ) ، والذى عينه أمير المسلمين على بن يوسف حاكما على شرق الأندلس . وقد عاش أبو بكر فى سرقسطة حياة الترف والبذخ ، وانهمك فى اللذات ، وتشبه بالملوك المسيحيين . واهتم بإحياء الرونق القديم لقصر الجعفرية ، وأحاط نفسه بالشعراء والفلاسفة ، واستوزر الفيلسوف أبا بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة [٢] .

قرر الأمير أبو بكر بن ابراهيم أن ينتقم لهزيمة البورت ، فنظم حملة ضد قطلونية عام ١١١٥م/ أواخر ٥٠٨هـ ، وتقدم بها حتى وصل إلى برشلونة ، وحاصرها عشرين يوما ، قطع خلالها ثمارها وخرب أنحاءها . وإزاء التهديد المرابطى ، رفع رامون برنجير الحصار عن جزيرة ميورقة ، وأسرع بالعودة إلى بلاده ، وخرج فى قواته للقاء المرابطين ، ونشبت بين الفريقين معارك عنيفة فى أواخر إبريل أو أوائل مايو ١١١٥م/ ذو الحجة ٥٠٨هـ ، قتل فيها كثير من النصارى ، وأخيرا انهزم المرابطون وسقط من بينهم نحو سبعمائة قتيل ، فاضطروا إلى الانسحاب والعودة إلى أراضيهم[٣] .

ومما تجدر الإشارة إليه أن المؤرخ ابن أبى زرع سجل أن ألفونسو المحارب ، ابن ردمير - خرج للقاء أبى بكر بن إبراهيم فى سهل برشلونة ، والمرجح أن رامون برنجير الثالث قمط

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب جـ٤ ص ٦١ ؛

Huici Miranda. Hist. Musul. de Valencia. vol. III. pp. 36, 39 .

(٢) ابن الخطيب ، الإحاطة ، جـ١ ، ص ٤٠٤ - ٤٠٧ ؛

Miranda. Los Banu Hud. p. 15 .

(٣) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، جـ ٢ ، ص ٨٤-٨٥ ؛ Codera. op. cit.. pp. 22. 249: Bosch.

Los Almoravides. pp. 190 - 191 .

برشلونة هو الذى تلاقى مع أبى بكر وهزمه ، لأن ألفونسو المحارب كان مشغولا فى تصفية الأمور القشتالية فى تلك المرحلة[١] .

وقد انتهز الأمير أبو بكر فرصة انشغال ألفونسو المحارب بأمور مملكته ، ووجوده فى الأراضى القشتالية ، وقام بشن غارة قصيرة ضد حصن روطة عام ١١١٦م/ ٥١٠هـ ، وسبب أضرارا كثيرة ، ثم غزا برجه Borja [٢] وكان بها عماد الدولة بن المستعين ، فضيق عليه حتى صالحه أهلها ، وعاد إلى سرقسطة[٣] .

وفى شهر مايو ١١١٦م/ محرم ٥١٠هـ استقبل ألفونسو المحارب فى مدينة بريشتر القمط بلتران دى تولوز Beltran de Tolosa ، الذى كان أميرا مشهورا فى الحرب فيما وراء البحر فى الأراضى المقدسة ، وقد تسبب غيابه فى الأراضى المقدسة إلى حرمانه من ولاياته ، فقد انتهز جويلن Guillén قمط بواتيبه Poitiers فرصة وجود بلتران فى الأراضى المقدسة واستولى على ولاياته . وقد طلب قمط تولوز من الملك ألفونسو المحارب مساعدته على استرجاع أملاكه ، وقدم له الطاعة ووضع تحت سيادته مقاطعات تولوز وردوس Rodez ومدن أربونة وكورس Cahors وبسز Beses وأجدس Agades وألبى Albi وقرقشونة Carcasona ، وبذلك أصبح قمط تولوز تابعا لألفونسو المحارب . ولم تشر المصادر المتاحة لنا عن الدور الذى قام به الملك الأرغونى فى فرنسا حتى أجبر قمط بواتيبه على الانسحاب من ولايات تولوز ، وفرض ألفونسو المحارب سيادته عليها ، وفيما بعد تخلى الفونسو المحارب عن كل هذه الولايات للقمط بلتران ، لامتلاكها ووراثتها ، وتعاقب عليها حكام تولوز حتى انضمت إلى فرنسا[٤] . وهذا يوضح علاقة القرابة والصداقة التى كانت بين ملوك أرغون وحكام تولوز .

---

(١) Miranda. Hist. Musul. de Valencia, vol. III, p. 39 .

(٢) برجة Borja : إحدى مدن مقاطعة سرقسطة ، تقع على بعد أربعة عشر كيلو متر من الإبره ، وعلى سبعة عشر كيلو متر أعلى مونكايو Moncayo ، فى مكان قريب من حدود نبرة وقشتالة .

D. H. E., t. I, p. 453 .

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٤ ، ص ٦٢ ؛

Miranda, Los Banu Hud, p. 15 .

(٤) Zurita, A. C. A., pp. 135-136; Ballesteros, op. cit., p. 453 .

وفى أواخر عام ١١١٦م/ ٥١٠هـ قام ألفونسو المحارب بشن الغارات على مدينة سرقسطة، حتى ضاق الأمير أبو بكر بن ابراهيم . ويرجع ذلك إلى أنه أهمل وسائل الدفاع عن سرقسطة ، وكما يبدو أيضا أنه اتخذ موقفا دفاعيا فقط عن سرقسطة ، فاشتد خطر الملك الأرغونى عليها ، وتربص بها بهدف غزوها والاستيلاء عليها ، وأثناء ذلك ، توفى الأمير أبو بكر فى أوائل عام ١١١٧م/ ٥١٠هـ[١] . وقد حدد المؤرخ ابن الأبار وفاة أبى بكر فى رجب ٥١١هـ/ نوفمبر ١١١٧م[٢] ، ويتفق معه المؤرخ ابن عذارى [٣] .

بعد وفاة أبى بكر بن ابراهيم ، ترك على بن يوسف بن تاشفين أمر سرقسطة إلى أخيه أبى إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين والى مرسية ، الذى بادر بالسير إلى سرقسطة فضبطها ونظر فى أحوالها ، ثم عاد إلى مرسية[٤] . وبقيت سرقسطة حينا دون وال .

وفى هذه المرحلة ، كان غزو سرقسطة أهم ما يشغل ألفونسو المحارب ، ويبدو أنه فكر فى مضايقة وحصار سرقسطة من جهة الجنوب الشرقى ، فأخذ يتوغل تدريجيا فى تلك المنطقة ، فاستولى على مدينة مورلة التى تقع فى شمال بلنسية فى عام ١١١٧م/٥١١هـ . ويبدو أن ألفونسو المحارب لم يواجه مقاومة شديدة من المسلمين، فتشجع وسيطر على المرتفع الجبلى لألياجا Aliaga والذى يشتمل على مدن بيتاركى Pitarque وخاركى Jarque وجالب Galve وقلعة سلفا Alcala de la Selva ، ولم يكتف ألفونسو بذلك بل استولى أيضا على مدينة بلشر[٥] . وربما كان يهدف ألفونسو من وراء ذلك إلى تأمين غزو سرقسطة .

ومن الجدير بالذكر ، أن المؤرخ ثيوريتا سجل استيلاء ألفونسو المحارب على مورلة بعد موقعة بلتيرة عام ١١١٠م ، فى حين أن الحوليات القشتالية القديمة حددت استيلاء النصارى

---

(١) الفتح بن خاقان ، قلائد العقيان ، مصر ١٢٨٣هـ ، ترجمة الأديب الوزير أبو بكر بن الصائغ ، ص ٣٠٣ ؛ ابن الخطيب ، الإحاطة ، جـ١ ، ص٤٠٨ .

(٢) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، جـ٢ ، ص٢٧٦-٢٧٧ .

(٣) Miranda, Nuevas Aportaciones de Al-Bayan al Mugrib. Al-Andalus, Vol . XXVIII, 1963, pp. 314-315 .

(٤) ابن الخطيب ، الإحاطة ، جـ١ ص ٤٠٩ ؛

Lacarra, La Conqu. de Zaragoza. p. 73 .

(٥) Lacarra, La Conqu. de Zarag., p. 74; D. H. E., t. I, p. 128 .

على مورلة عام ١١١٤م/٧٠٥هـ [١] ولكن يبدو أن تلك التواريخ بعيدة عن الصواب ، لأن ألفونسو المحارب كان فى الفترة التى تلت معركة بلتيرة حتى عام ١١١٤م مشغولا بالحروب الأهلية مع ملكة قشتالة .

وفى أواخر مايو ١١١٧م/ أواخر محرم ٥١١هـ ، عبر الأمير على بن يوسف إلى الأندلس ، بينما كان ضغط ألفونسو المحارب قد اشتد على سرقسطة ، وبدلا من إغاثة سرقسطة ، فضل الهجوم على أراضى البرتغال ، فاتجه نحو مدينة قلمرية Coimbra وحاصرها عشرين يوما ثم عاد إلى إشبيلية[٢] ، دون أن يتدخل فى شرقى الأندلس ، ولم يسرع لإنقاذ سرقسطة من أخطار هجمات الأرغونيين ، واكتفى بندب عبد الله بن مزدلى والى غرناطة ليكون واليا على بلنسية وسرقسطة فى أواخر يونيه / أواخر صفر من العام نفسه ، فسار إليها من غرناطة فوجد ألفونسو المحارب قد أذاق أهلها شرا[٣] .

وخلال ذلك الوقت ، كان ألفونسو المحارب يتخذ الاستعدادات الضرورية لغزو سرقسطة ، ولما كانت قلعة المدينة تقع فى الضفة اليمنى للإبره ، فاضطر ألفونسو إلى أن يستعد استعدادا كافيا فى هذا الموقع ، لا من أجل إتمام الحصار فحسب ، بل لمقاومة القوات المرابطية التى يمكن أن تصل لمساعدة القلعة . كما استعد أيضا لمهاجمة الأسوار القوية ذات الأصل الرومانى ، التى تحيط بالمدينة ، فاستعان بالخبراء والفنيين ، كما استعان بأصدقائه وأقربائه وأتباعه الفرنسيين ، ومن أهمهم الفيسكونت جاستون دى بيارن Gaston de Bearn وأخيه سنتولو دى بيجورا Centulo de Bigorra ، وكلاهما قد شارك فى الحملة الصليبية الأولى التى انتهت بقيام الإمارات الصليبية فى الشام ، وكان لدى هؤلاء فكرة دقيقة عن لوازم الحصار الضرورية[٤] .

وخرج ألفونسو المحارب من أرغون مصطحبا بعض أتباعه ومنهم جاستون دى بيارن وأخوه سنتولو وبعض الجند الأرغونيين والبيارنيين ، وتقدم أمام أبواب سرقسطة فى يوم الأحد الثامن

---

(١) Zurita, A. C. A., p. 133; Ibars, Valencia Arab, Tomo I, Valencia, 1901, p. 436 .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، حـ٤ ، ص٦٤ ؛

Miranda, Hist . Musul de Valencia, vol. III, p. 45 .

(٣) الفتح ابن خاقان ، قلائد العقيان ، ص٢١٩ ؛ ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، جـ٢ ، ص٨٧ .

(٤) Fernandez, op. cit., p. 549; Lacarra, Alfonso el B., p. 67 .

من يوليو عام ١١١٧م/ السادس من ربيع الأول ٥١١هـ [١] . وقام جاستون وأخوه سنتولو بتفقد أسوار القلعة ، ووسائل دفاعها ، وتقدير قوات المسلمين بالتقريب ، لمعرفة الوسائل الفنية ونقاط الضعف فيها لمهاجمة هذه الأسوار ، وكيفية الإعداد لحملة كبيرة لمواجهة حصانة المدينة[٢] .

حاصر ألفونسو سرقسطة بمساعدة الجنود البيارنيين ، وبدأ المحاصرون بإتلاف المحاصيل ، ثم مهاجمة سرقسطة بالآلات الحربية المركبة على أبراج خشبية تعادل ارتفاع الأسوار لتعطيل وسائل دفاعها . وما أن شعر عبد الله بن مزدلي والي سرقسطة بذلك حتى استعد للدفاع عن المدينة معتمدا على متانة أسوارها ، كما قام بتشجيع أهلها على الصمود والمقاومة ، واشتبك مع ألفونسو المحارب في عدة معارك شديدة حتى أرغمه على رفع الحصار عن مدينة سرقسطة والانسحاب من أمامها ، ولكنه كان انسحابا مؤقتا[٣] واستطاع عبد الله بن مزدلي أن يؤخر سقوط سرقسطة في يد ألفونسو المحارب لوقت قصير .

وفي هذه المرحلة ، يسجل المؤرخ ابن أبي زرع رواية انفرد بها فيقول : "إن عبد الله بن مزدلي أقام على سرقسطة عاما كاملا ثم توفي ، فبقيت سرقسطة دون أمير ، فأتاها ابن ردمير فنزلها ، وأتى ألفنش أيضا في أمم لاتحصى من النصارى تنازل مدينة لاردة من بلاد الجوف - الشمال - ولما علم أمير المسلمين على بن يوسف ، كتب إلى أمراء غرب الأندلس بالمسير إلى ناحية تميم ، وكان الوالي على شرق الأندلس ، ليسيروا معه لاستنقاذ سرقسطة ولاردة ، فقدم على تميم كلا من عبد الله بن مزدلي وابن يحيى بن تاشفين صاحب قرطبة بعساكرهما ، فخرج تميم بن يوسف بن تاشفين من بلنسية مع أمراء لمتونة ، فقصد نحو لاردة . وكان بينه وبين ألفنش قتال عظيم أقلعه عن لاردة خاسئا خاسرا بعد أن بذل جهده في حصارها وقتالها ، وفقد عليها من جيوشه ما يزيد على العشرة آلاف فارس ، ورجع تميم إلى بلنسية ، فلما رأى ابن ردمير ذلك بعث إلى طوائف الإفرنج يستنصر بهم على سرقسطة"[٤] .

---

(١) Lacarra. D. E. R. R. V. E., Doc. num. I. p. 471 .

(٢) Lacarra. La Conquista de Zaragoza. p. 78 .

(٣) الفتح بن خاقان ، قلائد العقيان ، ص ٢١٥-٢١٦ ، ابن أبي زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٨ ؛ Ballesteros , op. cit., p. 453 .

(٤) ابن أبي زرع ، نفس المصدر ، ص٨٧-٨٨ .

وهنا نود الإشارة إلى أن رواية ابن أبي زرع يبدو فيها التناقض واضحا في أمرين ، أولهما بخصوص والي سرقسطة ، فقد ذكر أن عبد الله بن مزدلي توفي قبل حصار ألفونسو المحارب لسرقسطة ، ثم أدرج ابن مزدلي بين قوات المرابطين الذين انضموا إلى الأمير تميم ، وقاتلوا ألفنش بالقرب من لاردة . بينما ذكر المؤرخ ابن عذارى أن عبد الله بن مزدلي توفي أثناء حصار النصارى لسرقسطة عام ١١١٨م/٥١٢هـ[١] . وثانيا ، نلاحظ هذا التناقض أيضا في أسماء الملوك النصارى ، فقد ذكر ابن أبي زرع أن ابن ردمير قام بحصار مدينة سرقسطة ، وأن ألفنش قام بحصار مدينة لاردة . ويرجع أن ابن ردمير وألفنش هما شخص واحد يقصد بهما ألفونسو المحارب[٢]، ويؤكد ذلك أن المؤرخ ابن عذارى قد سجل الاسمين لشخص واحد باسم أذفونش ابن ردمير ، وأحيانا أخرى ذكر أذفونش فقط[٣] ، وكان يقصد ألفونسو المحارب . كما أن في ذلك الوقت ليس هناك من ملوك النصارى في أسبانيا من يحمل اسم ألفنش سوى ألفونسو المحارب ، وألفونسو ريموندیس الذى عرف بالسليطين ، ويستبعد أن يفكر ألفونسو ريموندیس في هذه المرحلة في القيام بحملة ضد لاردة ، فقد كان مشغولا بالحرب الأهلية السائدة في قشتالة وجليقية .

لذلك يمكن القول أن الملك ألفونسو المحارب بعد انسحابه من أمام بوابات سرقسطة ، خطط لقطع الإمدادات الإسلامية التي يمكن أن تصل إلى سرقسطة من جهة الشرق . وفكر في حصار لاردة حتى يشغل الحامية المرابطية لهذه المدينة ، ويحول دون وصولها لإغاثة سرقسطة ، بالإضافة إلى أنه يحول دون مرور الجيش المرابطي الذى يمكن أن يصل من بلنسية عن طريق لاردة لإنقاذ سرقسطة . وزحف ألفونسو المحارب على رأس قواته والجنود البيارنيين بقيادة جاستون دى بيارن وأخيه سنتولو ، وربما تعاون معهم بعض سادة قطلونية ، واتجهوا جنوبا إلى لاردة ، وقاموا بشن الغارات على أراضيها ، وفرضوا الحصار على المدينة [٤] . وعندما علم على بن يوسف بتعرض منطقة الثغر الأعلى للخطر الأرغوني ، كتب إلى أمراء الأندلس

---

(١) Miranda, N. A. B. M., p. 318 .

(٢) محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٩٣ هـ ١ .

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٤ ، ص ٥٤ ، ٩١ .

(٤) Lacarra, La Conq. de Zaragoza, p. 76 .

يأمرهم بالمسير إلى أخيه تميم بن يوسف لإنقاذ مدينة لاردة . وبعد وصول النجدات المرابطية التى بعثها إليه عمه أبو يحيى بن تاشفين صاحب قرطبة ، وعبد الله بن مزدلى والى سرقسطة، خرج تميم فى جيش كبير من بلنسية ، واتجه إلى لاردة ، واشتبكت القوات المرابطية مع ألفونسو المحارب فى معارك عنيفة ، أجبرته على رفع الحصار عن لاردة ، بعد أن سقط ما يزيد على العشرة آلاف من جنده فى أرض المعركة ، فعاد تميم إلى بلنسية[١] .

وعلى مايبدو أن المؤرخ ابن أبى زرع قد بالغ فى تقدير عدد القتلى الأرغونيين ، وليس من المعقول أن يفتقد ألفونسو المحارب ما يزيد على العشرة آلاف من فرسانه -وهم أساس الجيش الأرغونى - ثم يقوم بحصار سرقسطة بعد المعركة بقليل . وليس هناك ما يؤكد عدد القتلى النصارى حيث أن المصادر النصرانية لم تشر إلى هذه المعركة .

وفى الحقيقة لقد أفاد حضور جاستون دى بيارن وأخيه سنتولو أمام أسوار سرقسطة فى يوليو ١١١٧م/ ٥١١هـ فى إعداد حملة كبيرة فى السنة التالية . كما أدرك ألفونسو المحارب أن غزو سرقسطة يحتاج إلى معونة خارجية كبيرة ، فقد وجد أن الجيش الأرغونى لم يكن قويا بالكفاية لمهاجمة المدينة ومواجهة مقاومة المسلمين ، خاصة بعد أن هزمه الجيش المرابطى بالقرب من لاردة . لذلك كتب ألفونسو إلى أتباعه فى فرنسا يشرح لهم خططه ، ويطلب منهم مساعدته[٢] . وبعد عودة الأخوين جاستون دى بيارن وسنتولو إلى فرنسا ، قاما بإثارة الحماسة هناك لاشتراك الفرنسيين فى الحملة ضد مدينة سرقسطة[٣] .

وفى فبراير عام ١١١٨م/ ذى القعدة ٥١٢هـ ، عقد مجلس دينى فى مدينة تولوز حضره رؤساء أساقفة آرل Arlés وأوتشى Auche وأساقفة ليسكار Lescar وبنبلونة وبيونة Bayo-na وبريشتر ، وجميعهم من أصل فرنسى ، ووافق المجلس على إرسال حملة صليبية إلى أسبانيا ، وأن محاربة المسلمين فى سرقسطة مثل محاربتهم فى بيت المقدس . وكانت أحداث الحملة الصليبية الأولى إلى الأراضى المقدسة قد أثارت الروح الصليبية فى نفوس القوم

---

(١) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، جـ٢ ، ص٨٨ ؛

Codera, op. cit., p. 250 .

(٢) Miranda, N. A. B. M., p. 315; Defourneaux, op. cit., p. 156 .

(٣) Lacarra, La Conqu. de Zaragoza, p. 78 .

فى فرنسا ، وسرت الحماسة إلى كل الطبقات الاجتماعية [١]. كما أرسل ألفونسو المحارب المبعوثين إلى طوائف الفرنج فى جنوب فرنسا يستنصر بهم على غزو سرقسطة ، فقد كلف إستبان أسقف وشقة للدعاية للحملة ، وعمل إستبان بحماسة شديدة لجذب الفرنجة للاشتراك فى حصار سرقسطة . كما شارك بنشاط فى هذه الدعاية أسقف بنبلونة ، وأسقف تولوز[٢] . ونجح المبعوثون فى مهمتهم نجاحا كبيرا واستطاعوا أن يجمعوا ما يقرب من خمسين ألفا من الفرسان[٣] ، وإن كان هذا العدد مبالغ فيه إلى حد ما . وقد وصف المؤرخ ابن أبى زرع ضخامة الجيوش الفرنجية بأنهم جاءوا فى حشود كأسراب النمل والجراد[٤] .

وهكذا شاركت حشود كثيرة من فرنسا فى الاستعداد للحملة ضد سرقسطة ، وكان على رأسهم الفيسكونت جاستون دى بيارن وأخوه سنتو لو قمط بيجورا ، برنارد وقمط كومينجس Comminges ، وبطره فيسكونت جبرت Gabarret زوج ابنة جاستون دى بيارن ، وأوجر فيسكونت ميرامونت Miramont ، وأرنالدو دى لفيدان Lavedan ، وجوى دى لونز Guy de Lons ، أسقف ليسكار ، وبرناردو آنون قمط بزييه وقرقشونة الذى خدم كصليبى فى الأراضى المقدسة ، وألفونسو خوردان قمط تولوز . كما شارك فى هذه الحملة قوات من النورمان بقيادة روترون قمط البرتش Alperche ، وقوات من البشكنس بقيادة ديجو لوبيث دى آرو Diego Lopez de Haro سيد بسقاية Vizcaya وقوات قطلونية بقيادة أرمينجول قمط أورقلة ، وسادة بليارش ورباحورثا وشبربر مساهمين فى غزو سرقسطة بقيادة برناردو رامون قمط بليارش[٥] . وقد انضم إلى هذه الحملة أشراف أرغون ونبرة ، وبعض السادة القشتاليين الذين كانوا تابعين لحزب ملك أرغون ، كما اشترك أيضا كثير من رجال الدين والأساقفة وعلى رأسهم بطره دى ليبرانا Pedro de Librana ، واستبان أسقف وشقة ، ورامون أسقف رودا ، وجيلرمو أسقف بنبلونة ، وشانجه دى فونس أسقف أرغون[٦] .

---

(١) Lacarra, La Conq.de Zara., p. 78; Defourneaux. op. cit., p. 156 .

(٢) Lacarra, La Conq. de Zara., pp. 80 - 81 .

(٣) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٩٨ .

(٤) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، جـ٢ ، ص ٨٨ .

(٥) Zurita, A. C. A., p. 133; A. R. N., p. 247 .

(٦) Zurita, A. C. A., p. 133; Lacarra, La Conqu. de Zarago., p. 82 .

استعد الفرنجة للحملة على سرقسطة ، فأعدوا آلات الحصار القوية ، والأبراج الخشبية العالية المركبة على عجلات للاقتراب بها من الأسوار ، لينصبوا فوقها العرادات ، كما تزودوا بعشرين منجنيقا لهدم الأسوار ، وقد أعد معظم هذه المعدات العسكرية أهل بيارن الذين اشتركوا فى حصار بيت المقدس ، وتمرسوا فى استعمالها[١] .

وطبقا لرواية ثيوريتا احتشد الجيش الفرنجى فى أواسط مايو ١١١٨م/ محرم ٥١٢هـ بالقرب من بحيرة إيرب Ayrebe ، وزحف الفرنجة تحت قيادة جاستون دى بيارن ، وعبروا جبال البرنيه من خلال بوابة سان كريستينا San Christena ونزلوا حتى نهر إيبره[٢] . واستولوا فى طريقهم إلى سرقسطة على بعض المراكز الدفاعية للمسلمين ، من أهمها قلعة المدور ، وسالسى Salcey ، وسارنينا ، وروبرس ومدينتى جوريا وثوبرا على ضفاف نهر جلق. وأصبح الطريق إلى سرقسطة خاليا من العوائق[٣] .

وصل جيش الفرنجة إلى مدينة سرقسطة وعسكر أمامها فى الثانى والعشرين من مايو ١١١٨م/ مستهل صفر ٥١٢هـ[٤] . وفى ذلك الوقت الذى وصلت فيه جيوش الفرنجة إلى بوابات سرقسطة ، كان ألفونسو المحارب فى مملكة قشتالة مصطحبا معه جزءا من القوات الأرغونية لإخضاع مدينة طليطلة لطاعته . وتم اختيار جاستون دى بيارن كى يدير عمليات الهجوم والحصار لشهرته العسكرية فى هذه الأمور . بينما كان الأمير عبد الله بن مزدلى حاكم سرقسطة فى مدينة جيان بقواته لحمايتها من مهاجمة نصارى طليطلة ، وكانت سرقسطة خالية

---

(١) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٨ ؛

Lacarra, Alfonso el B., p. 68 .

(٢) Chron. Barcinon., (R. H. G. F.) t. XII, p. 380 .

(٣) Zurita, A. C. A., pp. 138-139; Defurneaux, op. cit., p. 157 .

(٤) Zurita, A. C. A., p. 139; Miranda, N. A. B. M., p. 315 .

وقد اتفقت الرواية الإسلامية والرواية المسيحية فى تحديد تاريخ حصار سرقسطة ، ولكن مدونة القديس خوان دى بينيا سجلته تحت عام ١١١٠م/٥٠٣هـ (C. S. J. P., p. 70) ، كما حدد المؤرخ ابن الكردبوس التاريخ نفسه (الاكتفاء ، ص ١١٧) وهذا التاريخ بعيد عن الصواب ، إذ كان ألفونسو المحارب مشغولا بالأمور القشتالية .

من عسكر الحامية . وبالرغم من ذلك قاوم أهلها الفرنجة منذ وصولهم مقاومة عنيفة ، ودافعوا عن المدينة بشجاعة بفضل حصانتها وقلعتها المنيعة[١] .

وقد انفرد المؤرخ ابن عذارى بتفاصيل حصار سرقسطة ، فيروى أنه عند وصول الفرنجة إلى سرقسطة خرج أهلها للدفاع عنها وعبروا النهر ، ونشبت الحرب بين الطرفين ، واشتدت هجمات الفرنجة عليهم ، فانهزم أهل سرقسطة ، لقلة الخبرة وسوء التوجيه وتشتت شملهم ، واتجهوا إلى ربض الدباغين - الذى أطلق عليه المؤرخ ثيوريتا ربض التاباس Altabas ، الذى يقع على الضفة اليسرى لنهر إبره - لعبور الجسر الذى يؤدى إلى المدينة ، وازدحم به الناس ، بينما ذهب الفرنجة إلى أقصاه ، وأسرعوا بإشعال النار فيه ، ولكونه من الخشب احترق كلية ، وبفضل المعبر الذى كان بين الربض والمدينة ، تمكن الفارون من النجاة وتجنب كارثة كبرى . وعند هذه المرحلة ، أغلق أهل سرقسطة بوابات المدينة ، واستعدوا للدفاع عن مدينتهم بالسلاح، بينما أحاط الفرنجة بالمدينة ، وسيطروا على الموقف خارج أسوار المدينة . وطال أمد الحصار بسبب متانة وارتفاع أسوار المدينة المشهورة منذ العصر الرومانى[٢] . ويعتقد المؤرخ لاكارا أن حصار سرقسطة كان من جهة الشرق والجنوب ، وليس من الغرب إلى الشرق مثلما كان معتقدا بصفة عامة[٣] .

ومما سبق يبدو أنه كان هناك تخطيط وتكتيك بين الملك ألفونسو المحارب وجاستون دى بيارن على حصار سرقسطة منذ الصيف السابق بعد فشل الحصار الذى قاما به فى يوليو ١١١٧م . ويدل على ذلك ، قيام الفرنجة بحصار سرقسطة دون انتظار وصول ألفونسو المحارب من قشتالة . وأنه يمكن القول بأن الحملة ضد سرقسطة كانت فى تكوينها أسبانية - فرنسية ، فقد كانت فكرة حصار سرقسطة من اقتراح ملك أرغون ، بينما قام بتنفيذها الفرنجة بقيادة جاستون دى بيارن ، الذى قام بدور بارز فى عمليات الهجوم والحصار على مدينة سرقسطة ، وشارك فى الحملة بعدد كبير من الجند ، وبجزء كبير من معدات الحصار ، كما أنه

---

(١) Zurita, A. C. A., p. 139; Miranda, N. A. B. M., p. 317 .

(٢) Zurita, A. C. A., p. 139; Miranda, N. A. B. M., p. 316 .

(٣) Lacarra, La Conq. de Zaragoza, p. 74 .

انظر خريطة رقم (٥) .

قاد جيش الفرنجة من فرنسا ، ووصل إلى سرقسطة قبل وصول ألفونسو المحارب ، وشكل وحدة من الجيوش الفرنجية والأرغونية تحت قيادته مباشرة ، ولذلك قدمته حولية تيرول القديمة Anales de Teruel كفاتح سرقسطة مع الملك الأرغوني(١) .

وقد أرسل نبلاء أرغون إلى الملك ألفونسو المحارب في قشتالة ، وأخبروه بحصار سرقسطة، واستعجلوا قدومه لمساعدتهم وإدارة العمليات العسكرية وأعمال الحصار(٢) . ولقد وصل ألفونسو إلى سرقسطة بعد خمسة عشر يوما من الحصار ، وانضم للجيش المحاصر ، واشتدت هجمات الفرنجة على المدينة . ثم قام ألفونسو المحارب بمهاجمة قصر الجعفرية ، الذى كان على بعد ميل من المدينة ، واشتبك مع المسلمين في معركة عنيفة وقعت في الحادى عشر من يونية ١١١٨م/ التاسع عشر من صفر ٥١٢هـ ، وانتصر ألفونسو عليهم ، واستولى على قصر الجعفرية(٣) . وتؤكد مدونة القديس ماشنت هذه المعركة ، فقد أشارت إلى أن ألفونسو أقام قلعة حول سرقسطة في الحادى عشر من يونية ١١١٨م(٤) ، دون أن تحدد اسم القلعة ، ومن الواضح أنها تنطبق على قلعة الجعفرية .

ظلت مدينة سرقسطة تقاوم الهجوم النصراني بشدة ، وانتظر المسلمون المساعدة ولم يتدخل تميم حاكم عام شرقى الأندلس لمساعدة المحاصرين ، رغم علمه بالحصار ، بل أنه تهاون ، وأهمل فى إعداد القوات اللازمة لإنقاذ سرقسطة ، وتدخل فى آخر وقت من الحصار ، كى يبرر مسئوليته ، ولكنه فشل(٥) .

وانفرد المؤرخ ابن عذارى برواية الأحداث التى أعقبت حصار سرقسطة ، فيروى أن عبد الله ابن مزدلى حين علم بسقوط الجعفرية ، ضم قواته مع قوات قرطبة ، واتجه نحو أرغون ، فقويت نفوس أهل سرقسطة ، ووصل إلى طرسونة ، وقد ضاعف الفرنجة غاراتهم عليها ، ثم نشبت معركة عنيفة فى ضواحى طرسونة بين ابن مزدلى والقوات الفرنجية التى وصلت

---

(١) Lacarra, La Conq. de Zaragoza, p. 83 .

(٢) Zurita, A. C. A., p. 139 .

(٣) Miranda, N. A. B. M., pp. 316-317; Lacarra, La Conq. de Zaragoza, p. 85 .

(٤) Chron. S. Maxentii (R. H. G. F.) t. XII, p. 406 .

(٥) Miranda, N. A. B. M., p. 317 ; Lacarra, Alfonso el Batallador, p. 69 .

لمهاجمته وإعاقته ، وانتهت المعركة بانتصار ابن مزدلى ، وقد وصفها ابن عذارى بأنها معجزة لم يعهد مثلها منذ مدة بعيدة . وكان من نتائجها أن ابتعد الفرنجة عن طوسونة ، وتقدم ابن مزدلى حتى تطيلة ، وأقام بها فترة كبيرة من الصيف[1] .

وعند قدوم الخريف ، كان المعسكر النصرانى يعانى من نقص المؤن ، نتيجة طول الحصار ، وبدأت المجاعة تهدده وتؤدى إلى تراجع الفرنجة ، خاصة بعد ما رأوا مقاومة المسلمين الشديدة، وصمود المدينة طوال هذه الفترة ، ويأسوا من استسلام أهلها ، فانسحب بعضهم وعاد إلى فرنسا ، بينما بقى الأقماط والقواد[2]، وحينئذ فكر الفرنجة فى رفع الحصار عن سرقسطة والعودة إلى فرنسا ، لولا أن شجعهم استبان أسقف وشقة على مواصلة الحصار ، وأخذ يدبر ما يحتاجه المحاصرون ، فوضع تحت تصرفهم ذخائر كنيسته للإنفاق منها فى الحصول على المؤن ، وبذلك تراجع الفرنجة عن فكرة الانسحاب ، وقضى على اليأس الذى كاد يسود المعسكر النصرانى[3] . أما فى داخل سرقسطة ، فقد كان أهلها يعانون بداخلها من ويلات الحصار ، وكانت الأقوات تنضب يوما بعد يوم ، ولم يتمكن الأهالى من جنى محاصلهم، لتبكير الفرنجة فى فرض الحصار ، ولم يتمكنوا من الحصول على أى مؤن من الخارج ، حيث يعسكر الجيش المحاصر بجانب أسوار المدينة ، وكلما ضيق ألفونسو الحصار قاست المدينة من الجوع بسبب طول الحصار[4] .

وكان القائد المرابطى عبد الله بن مزدلى بعد انتصاره فى طرسونة ، قد توقف فى تطيلة للحصول على بعض المؤن والإمدادات ، وعندما رأى أن ألفونسو المحارب لم يتراجع عن حصار سرقسطة ، تعجل بالسير فى خيرة رجاله ، واتجه إلى سرقسطة ، ونجح فى دخولها فى التاسع عشر من سبتمبر ١١١٨م/ أوائل جمادى الثانى ٥١٢هـ ، أى بعد أربع شهور من بدء الحصار.

---

(١) محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٩٣ - ٩٤ .

Miranda, N. A. B. M., pp. 317 - 318 .

(٢) Zurita, A. C. A., p. 140: Lacarra, La Conq. de Zarag., p. 85;

Ballesteros, op. cit., p. 453 .

(٣) Lacarra, La Conq. de Zarag. p. 85: Fernandez, op. cit., p. 549 .

(٤) محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ص ٩٥ .

Lacarra, La Conq. de Zarag, p. 85 :

وقد أحيا الأمل فى نفوس أهل سرقسطة ، ويعبر ابن عذارى عن ذلك بقوله : "استنشق أهل سرقسطة ريح الحياة" ، ولكن بعد قليل ، مرض الأمير مزدلى وتوفى فى نوفمبر ١١١٨م/ رجب ٥١٢هـ ، أى بعد حوالى شهر ونصف من دخوله سرقسطة ، وكتم خبر وفاته أياما ، ثم شاع الخبر داخل وخارج أسوار المدينة ، وعلم ألفونسو المحارب بذلك ، فاستبشر خيرا ، وتجددت هجماته الشديدة على المدينة[١] .

وتلى وفاة عبد الله بن مزدلى – الوالى المرابطى الأخير على سرقسطة – ازدياد الحالة سوءا فى المدينة ، فقد أصبحت بدون أمير ، وأهلها بدون قائد ينظم أمور الدفاع ، ويثير حماستهم وهمتهم ، فارتبكت تدابير الدفاع ، واشتد حصار الفرنجة من كل جانب سواء من النهر أو البر، وضيقوا على أهلها ، حتى نفدت الأقوات ، وفتك الجوع بأهلها حتى مات أكثرهم ، ويأس أهل سرقسطة من وصول نجدات لإنقاذهم . وكان لهذا كله أسوأ الأثر فى نفوسهم ، وفى مثل هذه الظروف ، اضطر المحاصرون إلى فتح باب المفاوضات مع ألفونسو المحارب ، والتى انتهت بعقد الهدنة بين أهل سرقسطة وألفونسو المحارب ، وتعهد المسلمون بتسليمه المدينة فى حالة عدم وصول نجدات إليهم خلال مدة محددة ، كما تعهد ألفونسو بوقف القتال خلال مدة الهدنة[٢] . ولم تخبرنا الرواية الإسلامية ولا المسيحية عن مدة الهدنة التى منحها ألفونسو للمدافعين عن سرقسطة ، كما أنها لم تحدد تاريخها . ولكن على ضوء الأحداث اللاحقة ، يحتمل أن هذه الهدنة قد عقدت فى أواخر نوفمبر وأوائل ديسمبر / شعبان من العام نفسه ، وقد اتفقت الروايات النصرانية مع الروايات الإسلامية فى أن المجاعة وما ترتب عليها من هلاك أهل المدينة ، كانت السبب الرئيسى الذى أرغم المسلمين إلى التفاوض مع ألفونسو المحارب بشأن تسليمه المدينة[٣] . وقد كان هذا تقليد العصر ، كما أدرك ألفونسو أن مدينة حصينة مثل سرقسطة لايجب أن تستلم قبل أن تستنفذ كل إمكانيات الدفاع ، وإنقاذ شرف

---

(١) Miranda. N. A. B. M., pp. 318 - 319 .

(٢) Zurita. A. C. A., p. 140 :

ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، جـ٢ ، ص ٨٨ – ٨٩ .

Lacarra. La Conq. de Zaragoza, pp. 85 - 86 .

(٣) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٩ :

Hist. Compostelana, en (Esp. Sag.) t. XX, p. 262; Chron. Barcin., en (R. H. G. F.) t. XII, pp. 380-381, not. b; Miranda, N. A. B. M., p. 319 .

مدافيعها أمام أبناء دينهم المسلمين ، وقد وقع الشئ نفسه حين قام ألفونسو السادس بحصار طليطلة ، وعقد الهدنة مع المسلمين لمدة أربع سنوات ، واستسلمت طليطلة بعد مدة الهدنة ، وبالمثل عقد السيد القنبيطور الهدنة مع مسلمى بلنسية لمدة ثمانية شهور ، بعدها استسلمت المدينة[1] .

وفى هذه المرحلة ، بدأت محاولات المرابطين لإنقاذ مدينة سرقسطة ، قبل استسلامها بقليل، فقد أرسلوا عدة حملات فى مدة قصيرة ، لاتتعدى شهرا ، ويبدو أنها لم تكن على درجة من التنظيم والإعداد ولذلك باءت جميعها بالفشل . وقد أخبرتنا الرواية النصرانية بإحدى هذه الحملات ، وتروى أن الأمير تميم ، أخا على بن يوسف قد وصل على رأس جيش مرابطى بالقرب من سرقسطة فى أوائل ديسمبر ١١١٨م/ منتصف شعبان ٥١٢هـ ، لإغاثتها. وتقدم حتى حصن ماريا دى وريه Maria de Huerva ، الواقع على ضفاف نهر ورپه ، على بعد إثنى عشر ميل من سرقسطة ، وعسكر هناك بعض الوقت[2] وهذه الرواية تستكملها الرواية الإسلامية فتروى أن عند وصول الأمير تميم بن يوسف ، خرج لمقابلته شيخان من كبار شيوخ المدينة ، هما الفقيه على بن مسعود بن عصام الخولانى[3] ، والخطيب أبو زيد بن منتيال، وحدثاه باسم أهلها بمحضر أبى الغمر السايب بن غرون ، بخصوص حصار سرقسطة ، واستعدادات النصارى للمعركة ، ووجوب مناجزة العدو . ولكن الأمير تميما جبن عن ذلك ، ويقول ابن الأبار الذى أخبرنا بهذه الرواية ، أن رحيل تميم بالجيوش عن سرقسطة كان سببا فى نجاح النصارى فى الاستيلاء على المدينة[4] . وقد أكدت الرواية النصرانية أن الأمير تميم رفع معسكره وانسحب[5] ، وربما أدرك تميم أن جيش الفرنجة يتفوق فى العدد عن الجيش

---

(١) Lacarra, Alfonso el B., p. 70 .

(٢) Zurita, A. C. A., p. 141: Moret, A. R. N., p. 274 .

(٣) على بن مسعود الخولانى : هو على بن مسعود بن على بن مسعود بن اسحاق بن ابراهيم ابن عصام الخولانى ، من علماء سرقسطة ، وذكره ابن الأبار وقال : كان فقيها مشاورا حافظا للمدونة بارعا فى الوثائق وله حظ وافر من الأدب ، ولى قضاء ميورقة ، وتوفى عام ١١٢٤م/٥١٨هـ . ابن عبد الملك المراكشى ، الذيل والتكمله لكتابى الموصول والصله ، السفر الخامس ، ق١ ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٥ ، ترجمة رقم ٦٨٧ ، ص ٤٠٨-٤٠٩ .

(٤) ابن عبد الملك المراكشى ، الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، ق١ ، ترجمة رقم ٦٨٧ ، ص ٤٠٨ .

(٥) Zurita, A. C. A., p. 141: Moret, A. R. N., p. 275 .

المرابطي، فخشي مواجهته ، وجبن عن لقائه ، مثلما ظهر جبنه من قبل في معركة أقليش عام ١١٠٨م/٥٠١هـ ، عندما أراد أن ينسحب قبل نشوب المعركة ، دون لقاء الجيش القشتالي ، لولا إرادة وشجاعة القائدين عبد الله بن فاطمة والي بلنسية ، ومحمد بن عائشة والي مرسية، لما انتصرت القوات الإسلامية .

وكان انسحاب تميم دون قتال الفرنجة سببا في دفع أهل سرقسطة إلى ملامته وتحميله مسئولية ضياع المدينة ، فكتبوا إليه رسالة بقلم ثابت بن عبد الله قاضي سرقسطة[١] ، يستنصرونه باسم الدين في عبارات مؤثرة أن يتقدم لإنقاذ سرقسطة ، ولا يتخلى عنها ولا عن مساجدها الموقرة لتقع غنيمة في أيدي المسيحيين . وهذه الرسالة مؤرخة في يوم الثلاثاء السابع عشر من شعبان ، دون تحديد السنة . وقد قام الدكتور حسين مؤنس بنشرها ، ورأى أنها كتبت عام ١١٢٩م/٥٢٣هـ ، أي بعد سقوط سرقسطة في أيدي النصارى[٢] . ثم قام الأستاذ محمد عبد الله عنان بنشرها أيضا ، ولكنه يرى أنها كتبت عام ١١١٨م/٥١٢هـ ، أثناء حصار النصارى لسرقسطة ، وقبيل سقوطها بقليل[٣] . ويميل الباحث إلى الأخذ بهذا الرأي الأخير ، وأن الرسالة قد كتبت في يوم الثلاثاء السابع عشر من شعبان عام ٥١٢هـ/ الثالث من ديسمبر ١١١٨م ، لأن نص الرسالة وأسلوب كاتبها يوضحان أنها عتاب للأمير تميم واستغاثة من أهل سرقسطة للمرابطين بطلب النجدة والغوث بأن تنقذ مدينتهم من أيدي النصارى .

ولقد استهل ثابت بن عبد الله الرسالة بالتضرع إلى الله لدفع الضرر عنهم ، حيث أصبحت المدينة على شفى الهلاك ، ثم ينتقل الكاتب إلى لوم الأمير تميم حين أحجم عن قتال النصارى بالرغم من إمداده بالعدد الغفير من الجند ، ثم يصف أحوال سرقسطة خلال أشهر الحصار السبعة ، وما عاناه أهلها من ألم الجوع والضرر ، ويشير الكاتب إلى وصول الأمير بالقرب من المدينة ، وإحجامه عن لقاء النصارى ، ووصف تراجعه بضعف الإيمان والجبن .

---

(١) ثابت عبد الله : هو ثابت بن عبد الله بن ثابت بن سعيد بن ثابت بن قاسم ، ويكنى أبا الحسن ، وهو من أهل سرقسطة وقاضيها . وخرج عن وطنه حين تغلب النصارى عليه ، وتوفي بقرطبة عام ١١٢٠م/٥١٤هـ . ابن بشكوال ، الصلة ، جـ١ ، ترجمة رقم ٢٨٨ ، ص ١٢٢ .

(٢) حسين مؤنس ، الثغر الأعلى الأندلسي ، ص ١٣١ .

(٣) محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٩٦ ، ٩٨ هـ ١ .

وينتقل الكاتب من لوم وتأنيب المرابطين إلى تحذيرهم من عواقب سقوط سرقسطة ، موضحا أهمية موقعها ، الذى يمثل سدا بين المسلمين والنصارى . فإن اجتاحها النصارى اجتاحوا سائر بلاد الأندلس . ثم يثير الكاتب حمية الأمير المرابطى ، ويحثه على الجهاد وملاقاة الأعداء ، ويناشد الأمير باسم الدين أن يستجيب لنجدتهم وإنقاذهم قبل فوات الوقت، وينتقل الكاتب بالتماس الرجاء إلى الأمير بالإقدام بعسكره لإنقاذ سرقسطة ، وعدم التأخر ، ويحمله مسئولية ما يصيب أهل سرقسطة وأموالهم وأطفالهم ، ودعاه إلى نصرة دين الإسلام[١] .

ويبدو أن هذه الرسالة كان قد سبقتها رسائل أخرى ، استغاث فيها أهل سرقسطة بالمرابطين. ولكن الرواية الإسلامية قد التزمت الصمت نحو موقف تميم بعد هذه الرسالة ، وهذا يدفعنا إلى التساؤل هل استجاب تميم لنداء واستغاثة أهل سرقسطة ؟ أم التزم الجمود وتقاعس عن إنقاذهم ، وعلى ما يبدو أن الأمير تميم استجاب لاستغاثة أهل سرقسطة ، وحاول انقاذهم فحين وصلته الرسالة كان على مقربة من سرقسطة ، ويحتمل أن وصلت إليه نجدة مرابطية فى تلك الأثناء بقيادة والى غرناطة ووالى مرسية ، وزحفت القوات المرابطية أمام أسوار المدينة المحصورة ، ويؤكد ذلك ماورد فى مدونة القديس ما شنت التى أشارت إلى نشوب معركة بين ألفونسو المحارب وأمراء المرابطين فى السادس من ديسمبر ١١١٨م/ العشرين من شعبان ٥١٢هـ ، وأشارت إلى فرار الأمير تميم من المعركة وهزيمة الجيش المرابطى ، وسقوط مدينة سرقسطة بعد هذه المعركة بأيام قليلة[٢] . ومن المرجح أن هذه المعركة قد قررت مصير سرقسطة فقرر المدافعون عنهاتسليم القلعة ، وربما قبل انتهاء مدة الهدنة التى منحها لهم ألفونسو المحارب [٣] ، ولم تشر الرواية الإسلامية إلى هزيمة الجيش المرابطى ، ولكنها أجلت وصوله لإنقاذ سرقسطة بعد سقوطها فى يد النصارى ، فيروى المؤرخ ابن أبى زرع أنه بعد أيام قليلة من تملك النصارى لسرقسطة ، وصل أمام أسوارها جيش مرابطى من عشرة آلاف فارس ، بعثه أمير المسلمين على بن يوسف لإنقاذ سرقسطة ، ولكنه وصل بعد فوات الأوان ، إذ وجد أن النصارى قد استولوا عليها[٤] ، فانسحب الجيش المرابطى دون محاولة انتزاعها .

---

(١) حسين مؤنس ، الثغر الأعلى الأندلسى ، الوثيقة الثانية ، ص ١٣٢ - ١٣٧ ؛ محمد عبد الله عنان، عصر المرابطين ، ص ٥٣٨-٥٤١ .

(٢) Chron. S. Maxenuii, en (R. H. G. F.) t.XII, p. 406; Lacarra, La Conq de Zaragoza, p. 86 .

(٣) Lacarra, La Conq. de Zaragoza, p. 86 .

(٤) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٩ .

وقد انفرد ابن أبى زرع بهذه الرواية ، ويحتمل أن هذا الجيش هو الذى وصل إلى سرقسطة قبيل سقوطها بأيام وهزمه جيش النصارى مثلما أشارت الرواية المسيحية ، ولكن من الواضح أن المؤرخ ابن أبى زرع لم يرد أن يتهم المرابطين بالإهمال أو التقصير .

إن تفاصيل سقوط سرقسطة فى أيدى النصارى غير متوفرة سواء فى المصادر الإسلامية أو المسيحية . فقد أشارت حولية كومبو ستلاتى باختصار أن ألفونسو المحارب حاصر مدينة سرقسطة عام ١١١٨م/٥١٢هـ لمدة سبعة شهور ، وفى خلال هذه الفترة وقعت سبع معارك بينه وبين المرابطين حتى أخضع مدينة سرقسطة(١) . ولم تمدنا هذه الحولية بتفاصيل هذه المعارك ، كما أنها لم تحدد تواريخ وقوعها . ولكن من الملاحظ أن ألفونسو المحارب كان حريصا على أن يحول دون وصول قوات مرابطية لإغاثة المحصورين . كما قام البابا جلاسيوس الثانى Gela-sio II (١١١٨ - ١١١٩) بتشجيع الجيش المحاصر لسرقسطة ورفع روحه المعنوية ، فقد خاطب المحاربين المحتشدين أمام سرقسطة ، ووعدهم بالغفران عن خطاياهم ، ومنحهم المباركة فى العاشر من ديسمبر ١١١٨م / الرابع والعشرين من شعبان ٥١٢هـ ، كما عين بدرو ليبرانا أسقفا على سرقسطة ، والذى حصل على مباركة الأساقفة الكاثوليك(٢) . ولاشك كان لهذا أثر كبير فى حماسة مجهودات النصارى .

ويروى المؤرخ مورت أن معسكر النبريين بقيادة دون جيلرمو أسقف بنبلونة ، الذى كان يعسكر أمام بوابة بلنسية جنوب شرقى سرقسطة ، قد قام بشن هجوم على المدينة يوم الحادى عشر من ديسمبر ١١١٨م/ الخامس والعشرين من شعبان ٥١٢هـ ، فشجع الأسقف الجند النبريين على التقدم نحو السور بآلة حربية أكثر قوة لهدم الأسوار ، وصوبوها ضد السور . وقام المدافعون المسلمون برمى الرماح والسهام والأحجار الكبيرة لتحطيمها ، وأطلق الجند المسلمون ضربات شديدة من الأقواس على الجند النبريين الذين يقومون بإدارة آلة الحرب ، ومع ذلك استمر النصارى فى قصف السور بعنف وإصرار ، ونجحوا فى إصابته بضربات قوية ، وتمكنوا من فتح ثغرات فى سور المدينة ، ومع صياح المحاربين وثب المهاجمون بسرعة من خلال الثغرات ، وهاجموا المدافعين المسلمين بشجاعة ودفعوهم داخل المدينة ، وتقدم النبريون نحو مدخل المدينة ، واشتبكوا مع المدافعين الذين ازدحموا بالقرب من مدخل المدينة وقد أصابهم

---

(١) Annales Compostellani, en (Esp. Sag.) vol. XXIII, p. 321 .

(٢) Lacarra, D. E. R. V. E., Doc. n. II, pp. 482-484 .

الفزع بعد انهيار أجزاء من السور ، واستغاثوا بالضباع المجاورة للأسوار يطلبون المساعدة ، لإعادة بناء الثغرات . وسريعا مانظم النصارى الهجوم مع بقية المعسكرات المسيحية . وهاجموا البوابات وعبروا الأسوار ، وانتشروا عبر المدينة ، ولكنهم واجهوا مقاومة من المسلمين فى شوارع المدينة وطرقاتها . وحاول المسلمون اعتراض سبيلهم من مختلف الجهات ولكن دون جدوى ، إذ سيطر النصارى على المدينة تماما . وانسحب المسلمون إلى أحد الأجزاء القوية من المدينة ، مستعدين للتفاوض وعقد بعض الشروط[١] .

وبالقرب من السور الذى تحطم والذى من خلاله دخل النبريون المدينة ، بنى فيما بعد كنيسة رئيسية باسم القديس ميجويل أرتشانجل San Miguel Archangel ، والتى تسمى اليوم San Miguel de Los Navarros[٢].

وقد انفرد المؤرخ مورت بهذه الرواية التى توضح أن دخول سرقسطة كان بحد السيف ، وربما أراد مورت أن يبرز دور النبريين فى غزو سرقسطة ، وأن يضفى عليهم مظاهر البطولة والشجاعة .

وهكذا باءت محاولات المرابطين لإنقاذ سرقسطة بالفشل التام ، ويئس أهل سرقسطة من إنقاذهم ، وقد أرهقتهم المجاعة وأضعفت قوتهم بعد حصار دام سبعة شهور[٣] (مايو - ديسمبر ١١١٨م/صفر - أواخر شعبان ٥١٢هـ) ، حتى اضطر المدافعون عن سرقسطة أخيرا إلى التفاوض مع ألفونسو المحارب على شروط تسليم المدينة ، وربما استغرقت هذه المفاوضات أربعة أيام بعد فرار الأمير تميم من معركة السادس من ديسمبر من العام نفسه هزيمة الجيش المرابطى .

ومن الجدير بالذكر أن بعض الروايات الإسلامية اختلفت فى تحديد مدة حصار سرقسطة ، فابن الكردبوس لم يحدد مدة الحصار ولا تاريخه ، ولكن ذكر أن الحصار دام أشهرا[٤] .

---

(١) Moret, A. R. N., pp. 276-277 .

(٢) Moret, A. R. N., p. 277 .

(٣) Annales Compostellani, en (Esp. Sag.) vol. XXIII, p. 321 ;

حسين مؤنس ، الثغر الأعلى الأندلسى ، الوثيقة الثانية ، ص ١٣٢ - ١٣٣ .

(٤) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١١٨ .

بينما الحميرى حدد مدة الحصار تسعة أشهر[١] ، دون تحديد تاريخه ، كما أن المؤرخ ثيوريتا يعتقد أن الحصار الرسمى لسرقسطة بدأ منذ يناير ١١١٤م/ شعبان ٥٠٧هـ ، واستمر خمس سنوات حتى ديسمبر ١١١٨/ ٥١٢هـ ، فيروى أن ألفونسو المحارب وضع كل جيشه فى قلعة كاستيار منذ يناير ١١١٤م/٥٠٧هـ ، ومنذئذ بدأ الحصار مصمما بأن لايرفعه حتى تستسلم المدينة ، وخلال هذه الفترة استولى ألفونسو على مدينة تطيلة[٢] . وقد اتفقت معه فى ذلك حولية مملكة نبرة ، فى أن حصار سرقسطة دام خمس سنوات من ١١١٤ - ١١١٨م[٣] .

وبعد مفاوضات بين أهل سرقسطة وألفونسو المحارب تم توقيع معاهدة التسليم فى قصر السدة الذى كان قائما بالقرب من النهر فى الركن الشمالى الغربى من المدينة [٤] ، فى الحادى عشر من ديسمبر ١١١٨م/ الخامس والعشرين من شعبان ٥١٢هـ ، وهو التاريخ الذى حددته مدونة القديس ماشنت لسقوط مدينة سرقسطة[٥] . وربما هو تاريخ انتهاء الهدنة المحددة التى كان منحها ألفونسو المحارب لأهل سرقسطة ، ويؤكد هذا ماورواه ابن أبى زرع بأن تسليم سرقسطة كان بعد انقضاء الهدنة ، دون أن يحدد تاريخ التسليم ، واكتفى فقط بتحديد العام ٥١٢هـ ، ١١١٨م[٦] .

أما بالنسبة لشروط تسليم سرقسطة فقد انفرد المؤرخ ابن الكردبوس بذكرها ، دون تحديد تاريخها ، وهى تتفق مع شروط تسليم مدينتى تطيلة وطرطوشة مثلما أشار خوليان ريبيرا Julian Ribera الذى قدم دراسة عن معاهدة تسليم سرقسطة . ونقلا عن المستشرق الأسبانى كوديرا يقول : "أما عن الشروط التى عرضها أهالى سرقسطة المسلمون على ألفونسو المحارب لتسليمه مدينتهم فى حالة عدم نجدتهم ، فلا نعرف عنها شيئا عن طريق المؤرخين القدامى

---

(١) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٩٧ - ٩٨ .

(٢) Zurita. A. C. A., p. 133 .

(٣) Moret. A. R. N., pp. 247 . 272 .

(٤) السيد عبد العزيز سالم ، سرقسطة ، دائرة معارف الشعب ، العدد ٦١ ، ص٥٧ .

(٥) Chron. S. Maxentii, en (R. H. G. F.) t. XII, p. 406: Lacarra, La Conq. de Zaragoza, pp. 92 - 93 .

(٦) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٩ .

مسلمين أو مسيحيين ، غير أن السيد خوليان ريبيرا بفطنته النقدية استطاع أن يكتشف النص الكامل تقريبا لشروط تسليم سرقسطة بين شروط تسليم تطيلة وطرطوشة"[١] . وكان من أهم شروط المعاهدة : أولا : السماح بإقامة المسلمين الذين أرادوا البقاء فى سرقسطة بشرط أداء الجزية ، التى لم يحدد قيمتها ، ولكن وثائق تطيلة - طرطوشة حددتها ، بأنها كانت عشر المحاصيل . ثانيا : من رغب من المسلمين فى مغادرة سرقسطة أن يرحل بكل أمتعته إلى حيث شاء من بلاد المسلمين ، فله الأمان التام إلى أن يصل إلى بلاد الإسلام . ثالثا : أن يسكن النصارى المدينة ، وأن يسكن المسلمون الذين اختاروا البقاء ربض الدباغين . وتوضح معاهدات تطيلة - طرطوشة أن يبقى المسلمون فى منازلهم فى الحى المدنى داخل المدينة لمدة عام ، وبعده ينبغى عليهم أن ينتقلوا للإقامة فى الضواحى بأمتعتهم ونسائهم وأبنائهم ، وخلال هذا العام يحتفظ المسلمون بالمسجد الكبير ، وبسلطاتهم وتشريعهم الخاص ، وأن يبقى القضاة والفقهاء والكتاب فى مناصبهم . ويفهم من هذا أن يبقى أهل سرقسطة فى أحيائهم داخل المدينة لمدة عام ، وبعده يذهبون للإقامة فى الضواحى خارج سور المدينة ، ومن الملاحظ أن ألفونسو المحارب حدد ضاحية الدباغين لانتقال المسلمين اليها بعد انقضاء العام ، حتى يتجنب الخطر الذى يمكن أن يسببه المسلمون للنصارى فى القلعة . رابعا : أن كل أسير هرب من النصارى من سرقسطة ويلتجأ إلى بلاد الإسلام ، لا يجب تسليمه لمالكه ، وليس لمالكه أى حق عليه[٢] . ويبدو أن معاهدات تطيلة - طرطوشة قد قيدت مثل هذه الحرية . فإذا اشتبه أن أى مسلم يخفى فى منزله أسيرا مسلما أو مسلمة ، لايجب أن يفتش منزله بدون شهادة شهود من المسلمين والمسيحيين ، وحينئذ يجب أن يحقق فى هذه العائلة فقط ، وليس المجاورة لها . كما أن الأسرى الذين عثر عليهم عند المسلمين يسلمون دون تعويض . ولايسمح لأى يهودى أن يشترى أى مسلم أسير ، ولا يمكنه الإساءة إليه[٣] . وبذلك منع الملك ألفونسو المحارب وجود الأسرى داخل المدينة ، حتى يتجنب الفوضى فى المدينة .

كما أكدت وثائق تطيلة - طرطوشة التى نفسها وثائق سرقسطة أن المسلم يمكنه أن يبيع أملاكه ، ولكن لايجب أن يبيعها أو يتنازل عنها لأى يهودى . وعدم مطالبة النصارى

---

(١) Codera, op. cit., p. 253 .

(٢) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١١٨ ؛

Lacarra, La Conq. de Zaragoza, p. 89 .

(٣) Idem .

للمسلمين بأي التزامات تتعلق بالعهد السابق . وأكدت أن يكلف بشئون الإدارة أشخاص من النصارى ممن يتصفون بالأمانة والعدالة . كما أكدت المعاهدات أن من يرجع من المسلمين قبل أربع شهور استرد كل أملاكه . وسمحت للمسلمين برعى الماشية فى أراضى الملك ، مع دفع الضريبة التى تقرها الشريعة الإسلامية . كما سمحت للمسلمين بحمل السلاح . ونصت المعاهدات أيضا أن المسلم يكون حرا فى إقامته وفى أملاكه خارج المدينة . وإذا سبب المرابطون ضررا إلى النصارى ، لايتعرض المسلمون السكان الأصليون لانتقام النصارى[١] .

بالإضافة إلى ذلك ، فقد نظمت وثائق تطيلة وطرطوشة الإجراءات التى يجب أن تتبع فى القضاء مع النصارى ، إذ نصت على أن يتولى القضاة المسلمين النظر فى القضايا التى ترفع من المسلمين ، وأن تصدر أحكامهم طبقا لشريعتهم وقضائهم . أما المنازعات التى تنشب بين مسلم ومسيحى ، فيجب على كل جهة أن تصدر حكمها طبقا لقضائها وشريعتها . وإذا أخذ المسلم لأداء القسم ، أن يقسم بمقتضى شريعته[٢] .

تعاهد المسلمون وألفونسو المحارب على تنفيذ هذه المعاهدة ، وبعد أن قطع ألفونسو العهود ، سلمه المسلمون المدينة ومفاتيحها ، وفتحت له سرقسطة أبوابها[٣] ، فدخلها ألفونسو المحارب فى يوم الأربعاء الثامن عشر من ديسمبر ١١١٨م/ الثالث من رمضان ٥١٢هـ ، وقد اتفقت الرواية الإسلامية مع الرواية النصرانية فى تحديد هذا التاريخ[٤] .

---

(١) Maria Viguers, op. cit., pp. 184-185 .

(٢) Lacarra, La Conq. de Zaragoza, p. 90; Maria Viguera, op. cit., p. 184 .

(٣) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١١٨ .

(٤) Annales Complutenses, en (Esp. Sag.) t. XXIII, p. 315; Chron. S. Victoris Massiliensis (R.H.G.F.) t. X.II, p. 348; Chronico Borcinon (R.H.G.F.) t. XI, p. 380, not. b; Zurita, A. C. A., p. 141; Miranda, N. A. B. M., p. 319 .

وقد حدد المؤرخ ابن الأبار أن يوم الأربعاء يوافق الرابع من رمضان ٥١٢هـ(ابن الأبار ، الحلة السيراء جـ٢ ، ص ٢٤٨) ، ويوافقه المقرى (نفح الطيب ، جـ٤ ، ص٤٧٢) . ولكن بالرجوع إلى كتاب التوفيقات الإلهامية ، وجد أن يوم الأربعاء يوافق الثالث من رمضان ٥١٢هـ/ الثامن عشر من ديسمبر ١١١٨م ، وهنا يتفق مع ماحددته الروايات النصرانية ، وهو ما أخذنا به فى المتن .

ولكن هناك بعض المؤرخين النصارى قدموا تاريخ سقوط سرقسطة ، فقد حدده المؤرخ خرونبو بلانكس Geronimo Blancas في عام ١١١٥م/٥٠٩هـ [١] ، وقدمه ثلاث سنوات ، بينما حدده مؤلف Ms. Codex Fuxenis Collegii فى شهر ديسمبر ١١١٦م/٥١٠هـ[٢] ، وقدمه سنتين عن تاريخ سقوطها ، فى حين أخرت مدونة برشلونة سقوط مدينة سرقسطة إلى عام ١١١٩م/٥١٣هـ[٣].

وعلى أية حال ، ففى اليوم التالى لدخول ألفونسو المحارب مدينة سرقسطة ، أخذ ينظم أمور ملكية المدينة ، فامتلك القصر الملكى الذى سمى قصر السدة La Azuda وهو قصر الحاكم، وأقام فيه ، وامتلك أيضا المكاتب الملكية الملحقة بالسور ، والمجاورة لبوابة طليطلة ، والتى كان يجب أن تسيطر عليها قوات ألفونسو المحارب طبقا للمعاهدة .[٤] واستمر سكان سرقسطة يقيمون فى منازلهم فى الحى المدنى لمدة عام ، وخلال ذلك الوقت احتفظ المسلمون بسلطتهم الحقيقية وشريعتهم ، فقد بقى القاضى الشاعر ابن حفصيل ، وظلت المساجد موقرة لفترة قبل أن تحول إلى كنائس ، ويرى البعض أن المسجد الأكبر قد حول إلى كنيسة عرفت باسم كاتدرائية لا سيو دى سرقسطة La Seo de Zaragoza أى الكنيسة العظمى ، منذ السادس من يناير ١١١٩م/ الثانى والعشرين من رمضان ٥١٢هـ . وفى رواية أخرى أن مسجد سرقسطة الجامع لم يحول إلى كنيسة إلا بعد ثلاث سنوات من الفتح ، فى الرابع من أكتوبر عام ١١٢١م/ رجب ٥١٥هـ ، عرفت باسم كنيسة القديس سلفادور San Salvador . واتخذ ألفونسو المحارب من سرقسطة عاصمة لمملكة أرغون ، وأعاد بها مركز الكاتدرائية القديمة[٥] .

وفى عام ١١٢٠م/٥١٤هـ عند تنفيذ معاهدة التسليم ، وانتقال المسلمين من الحى المدنى إلى الضواحى خارج سور المدينة ، واجه ألفونسو المحارب مقاومة طبيعية من جهة ذوى

---

(١) Moret, A. R. N., p. 278; Ballesteros, op. cit., p. 454 .

(٢) Brevi Chron. Barcin. (R.H.G.F.) t. XII, pp. 380-281, not. b.

(٣) Brevi Chron. Barcin., (R.H.G.F.) t. XII, p. 380.

(٤) Zurita, A. C. A., p. 141; Lacarra, La Conq. de Zarag., p. 93 .

(٥) Zurita, A. C. A., pp. 143-144' Lacarra, La Conq. de Zaragoza; p. 94 .

محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٠١ .

المصالح ، بدليل أن المسجد الجامع لم يحول إلى كنيسة حتى أكتوبر عام ١١٢١م . أى تأخر سنة ونصف على مانصت عليه معاهدة التسليم[١] .

ومنذ اللحظة الأولى لفتح سرقسطة ، قام ألفونسو المحارب بمكافأة السادة الأشراف المشهورين وقادة الفتح ، والفرسان الذين قاموا بخدمته ومساعدته فى فتح سرقسطة . فقد عين حاستون دى بيارن حاكما على مدينة سرقسطة تحت سيادة ألفونسو ، ومنحه إقطاعة وحقوق "حى المستعربين" الذى كان آهلا بالمسيحيين فى عهد الحكم الإسلامى ، وكان يطلق عليهم النصارى المعاهدون ، وكان هذا الحى يضم كنيسة نوتردام الكبيرة Notre-Dame- la Grande ، التى أطلق عليها فيما بعد كنيسة بيلار Pilar[٢] . كما عهد إليه بالإشراف على توزيع الأملاك بين الجند الفاتحين ، حتى أنه عين موظفا خاصا لمساعدته ، وقام جاستون دى بيارن بدوره بمنح هبات كاملة من بساتين نهر جلق وأراضى أخرى منذ عام ١١١٩م/٥١٣هـ[٣] . كما منح ألفونسو المحارب إلى روترون دى المبرتش حيا آخر من المدينة ، يقع بين كاتدرائية لاسيو وسان نيقولاس San Nicolas ، والذى أخذ اسم سيده "حى قمط البرتش" ، وكان يضم كنيسة القديس نيقولاس الكبرى[٤] . كما كافأ لوب يوحنا دى طرسونة ومنحه أراضى الياجا بحدودها وبيتاركى وخاركى وأبليا Apelia وجالب والقلعة (فى مقاطعة تيرول)[٥] . كما منح ألفونسو المحارب أملاك وإيرادات كنائس كثيرة ، فمنح بدرو ليبرانا أسقف سرقسطة وخلفائه عشر وباكورات كل كنائس أسقفيته ، والأراضى والمزارع التى يملكها، وملكية كل المساجد التى تحول إلى كنائس[٦] . بالإضافة إلى ذلك ، كافأ ألفونسو المحارب الفرسان الذين عاونوا فى الفتح ومنحهم الأراضى نظير خدماتهم ، كما منح امتيازات وإعفاءات واسعة إلى النصارى الذين استوطنوا فى المدينة ، وتمتعوا بامتيازات الأشراف[٧] ،

---

(١) Alcarra, Alfonso el Batallador, p. 74 .

(٢) Zurita, A. C. A., p. 144: Moret, A. R. N., p. 280 .

(٣) Lacarra, D. E. R. R. V. E., Doc. num. 14, pp. 485-486 .

(٤) Zurita, A. C. A., p. 144: Defourneaux, op. cit., p. 158 .

(٥) Lacarra, D. E. R. R. V. E., Doc. N. 12, pp. 484-485 .

(٦) Lacarra, D. E. R. R. V. E., Doc. N. 13, p. 485 .

(٧) Zurita, A. C. A., p. 144; C. C. A., pp. 15-16 .

وفى يناير ١١١٩م/ رمضان ٥١٢هـ منح ألفونسو أولى الامتيازات إلى النصارى الذين حضروا للإقامة فى مدينة سرقسطة[(١)] .

وما كاد ألفونسو المحارب يستولى على سرقسطة ، حتى غادرها معظم أعيانها المسلمين ، وبعض المسلمين من الطبقات البارزة من القضاة والفقهاء والعلماء ومن بينهم ابن الأنقر[(٢)] ، ونوح الغافقى[(٣)] ، وابن أقلبين[(٤)] ، ولكن أغلبية سكان سرقسطة بقوا بها ، ولم يختلف وضعهم عما سبق ، ولكن عند نهاية السنة ، عندما أقام النصارى فى الحى المدنى ، أدى ذلك إلى هجرة عدد كبير من سكانها[(٥)] . ويروى المؤرخ ابن الكردبوس أن ألفونسو المحارب ما كاد يستقر بالمدينة حتى آثر أهل سرقسطة الرحيل عنها إلى دار الإسلام ، فخرجوا من المدينة فى أعداد هائلة بلغ نحوا من خمسين ألف نسمة مابين أطفال ونساء ورجال ، حاملين معهم جميع أموالهم ومتاعهم . فلما ساروا من المدينة على مرحلة ، امتطى ألفونسو بنفسه مع من اصطحبه من رجاله ، وسار خارج المدينة ، وتقدم أمام النازحين ، وأمرهم أن يبرزوا جميع ما لديهم ، فرأى أموالا كثيرة لاتحصى ، فسمح لهم بالاحتفاظ بها ، وقال لهم : "فسيروا الآن حيث شئتم فى أمان" . وأرسل معهم مجموعة من جنده لمرافقة النازحين حتى حدود أملاكه ، وأخذ ألفونسو مثقال واحد عن كل رجل وسيدة وطفل ، دفعوه قبل خروجهم [(٦)] .

---

(١) Lacarra, la Conq. de Zaragoza, p. 93 .

(٢) ابن الأنقر ، هو خلف بن خلف بن محمد بن سعيد بن اسماعيل بن يوسف الأنصارى ، يكنى أبا القاسم . وهو من أهل سرقسطة ، وكان من أهل الفقه والحديث والأدب ، ومن أهم المفتين والمشاورين ببلده ، وخرج من سرقسطة بعد أن استولى النصارى عليها ، واستوطن بلنسية عام ١١٢٣م/٥١٧هـ ، وكان يشاوره بسرقسطة أبو القاسم بن ثابت ، وكان معاصرا لأبى زيد بن منتيال الخطيب ، وتوفى فى نوفمبر ١١٢٥م/ شوال ٥١٩هـ . ابن الأبار ، التكملة ، جـ١ ، ترجمة رقم ٨٢١ ، ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٣) نوح الغافقى ، هو محمد بن وهب بن محمد وهب بن محمد بن وهب ، يكنى أبا عبد الله ، وهو من أهل سرقسطة ، كان فقيها مشاورا فاضلا ، معظما عند الخاصة والعامة ، يرعاه السلطان ، ويأتمنه على حرمه وقصره ، وخرج من وطنه بعد أن ملكه النصارى فنزل بلنسية ، وتولى قضاء جزيرة شقر ، ومات فى مارس ١١٢٤م/ صفر ٥١٨ . ابن الأبار ، التكملة ، جـ١ ، ترجمة رقم ١١٩١ ، ص ٤١٨-٤١٩ .

(٤) ابن اقلبين ، هو أحمد بن محمد بن سعيد يكنى أبا جعفر ، وهو من أهل سرقسطة ، كان فقيها مشاورا ، خرج من وطنه سرقسطة بعد ما ملكها النصارى صلحا ، وسكن بلنسية إلى أن توفى بها فى يناير ١١٣١/ صفر ٥٢٥هـ . ابن الأبار ، التكملة ، جـ١ ، ترجمة ٩٣ ، ص ٣٤ .

(٥) Maria Viguera, op. cit., pp. 181-182 .

(٦) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١١٩ .

مما سبق يتضح لنا أن المؤرخ ابن الكردبوس - الذى انفرد بذكر هذه الرواية - يشيد بسياسة الرفق واللين التى اتبعها ألفونسو المحارب تجاه المسلمين المهاجرين من سرقسطة ، حتى وصلوا جميعا سالمين إلى مملكة بلنسية ومرسية . ويعتقد لاكارا أن عدد المهاجرين من سرقسطة والذى حدده ابن الكردبوس بخمسين ألف ، عدد مبالغ فيه ، ويرى أنه أقل من ذلك لأن الحى المدنى لسرقسطة كان لا يحتمل هذه الكثافة السكانية ، كما قارن بين هذا العدد وكثافة السكان فى عام ١٤٩٥ وكان يتراوح ما بين خمسة عشر ألفا إلى عشرين ألف نسمة ، وقد ارتفعت السكانية فى سرقسطة إلى اثنين وأربعين ألف وستمائة نسمة (٤٢٫٦٠٠) فى عام ١٧٨٧م[١] .

ويبدو أن رغبة الهجرة إلى الأراضى الإسلامية جاءت متأخرة ، فعندما استقر النصارى فى الأراضى المفتوحة ، لم يحتمل المسلمون نير التبعية والبقاء تحت السيادة المسيحية ، وآثروا الرحيل إلى الديار الإسلامية ، ولما رأى ألفونسو المحارب كثرة المهاجرين من سرقسطة ، خشى أن ينهار عمران المدينة[٢] ، وحينئذ اضطر أن يمنع أى مسلم من مغادرة المدينة للذهاب إلى بلنسية إلا بإذن خاص مكتوب منه ، وأصدر أمرا بذلك فى العاشر من اكتوبر ١١٢٩م/ شوال ٥٢٣هـ[٣] .

من استعراضنا للأحداث السابقة يتضح لنا أن فتح سرقسطة كان من عمل ملك أرغون ألفونسو المحارب وسادة الأراضى المجاورة الذين ارتبطوا جميعا بألفونسو بروابط القرابة أو الطاعة . فقد كانت الحروب الصليبية فى المشرق قد أثارت الفرنجة ودفعتهم إلى الاشتراك فى الحروب الصليبية على أسبانيا ، بهدف تخليص نصارى أسبانيا من الخضوع للحكم الإسلامى. فوفد من وراء جبال البرنيه عدد كبير من الفرسان والمشاة الفرنجة لمساعدة الأرغونيين فى تنفيذ حركة الاسترداد ، ولتحقيق مكاسب دينية ومادية والاستيلاء على أراضى المسلمين فى الثغر الأعلى الغنية بخيراتها ، وكان من بين هؤلاء الفرنجة من اشترك فى الحروب الصليبية فى المشرق فكانت لديه الخبرة والدراية بشئون الحرب والحصار ، وفى الوقت نفسه ،

---

(١) Lacarra, La Conq. de Zaragoza, p. 95 .

(٢) Lacarra, La Conq. de Zaragoza, pp. 95-96 .

(٣) Lacarra, D. E. R. R. V. E., Doc. N. 63, p. 522 .

اكتفى المرابطون بإرسال جيوش صغيرة تحت قيادة ضعيفة لمواجهة جيوش النصارى ، ولهذا باءت محاولات المرابطين لإنقاذ سرقسطة بالفشل التام ، الذى أدى فى النهاية إلى استسلام أهل سرقسطة . ويرجع هذا الفشل إلى عدة عوامل كان أهمها الإهمال من جانب المرابطين ، وعدم إسراعهم لإنقاذ سرقسطة ، مما أعطى الفرصة للملك الأرغونى لتنظيم وسائل الدفاع ، بالإضافة إلى جبن الأمير تميم وسوء تصرفه ، وارتداده بالعساكر عن سرقسطة . وبينما كان جيش النصارى يتفوق فى العدد والعدة ، وبراعة بعض قواده فى أمور الحرب والحصار ، كان الجيش المرابطى قد فقد كبار قواده ، وعجز عن الدفاع عن سرقسطة ، ولم يعد فى إمكانه استرجاعها؛ بالإضافة إلى موقع سرقسطة البعيد عن مراكز التموين المرابطية فى بلنسية ومرسية وقرطبة .

ولعل من العوامل التى عجلت بسقوط سرقسطة الخلاف الذى كان قائما بين المرابطين وعبد الملك بن هود أمير سرقسطة ، وتحالفه مع ألفونسو المحارب ضد المرابطين ، فكان هذا الخلاف بداية ضياع الثغر الأعلى من أيدى المسلمين .

وترتب على استرداد سرقسطة أن اتسعت مملكة أرغون ، وأصبحت تهدد بقية مدن الثغر الأعلى ، فاشتد الخطر الأرغونى فى الجزء الشمالى الشرقى للأندلس وخاصة على بلنسية . واستلزم استرداد مدينة سرقسطة إخضاع كل مملكة سرقسطة التى حكمتها عائلة بنى هود فى القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى . وقرر الملك الأرغونى مهاجمة القلاع التى كان يسيطر عليها المرابطون ومن أهمها تطيلة وطرسونة وبرجة وقلعة أيوب . ويبدو أن المرابطين لم يهتموا بتأكيد سلطتهم فى بعض المناطق الداخلية البعيدة عن الطرق المألوفة لهم عن بلنسية ولارده[١]، وهذا سوف يسهل لألفونسو مهمته فى إخضاع وادى إبره ووادى شلون .

ومن أهم النتائج التى ترتبت على سقوط سرقسطة ، أن تشجع ألفونسو المحارب بعد شهرين من فتح سرقسطة ، وقرر غزو مدينة تطيلة ، التى كثيرا ما قام أهلها بمضايقة النصارى، وشن الهجمات والغارات عليهم - عبر نهر إبره - أثناء حصارهم مدينة سرقسطة . وأعد ألفونسو جيشا من ستمائة فارس وآخرين من المشاة بقيادة قمط البرتش[٢] لغزو مدينة

---

(١) Lacarra, Alfonso el B., p.73 .

(٢) Zurita, A. C. A., p. 134; Moret, A. R. B., p. 248 .

تطيلة ، فى فبراير ١١١٩م/ ذو القعدة ٥١٢هـ[١] . والواقع أن المصادر الإسلامية لم تمدنا بتفاصيل عن سقوط تطيلة فى يد النصارى ، بينما تناولت المدونات المسيحية بالتفصيل الحيلة والخدعة التى لجأ إليها قمط البرتش فى غزو تطيلة .

وتروى مدونة القديس خوان دى لابينيا أن قمط البرتش خرج إلى تطيلة ، وأقام معسكره خفية بالقرب من تطيلة ، وبعد أن استكشف المكان ، وجد أنه يصلح لعمل كمين للمسلمين . فسار ليلا ، ووضع قومه فى كمين ليس بعيدا عن المدينة . وفى الصباح ، أمر حوالى ثلاثين من الفرسان مع مائة من المشاه التابعين للقمط بالهجوم على أهل المدينة ، الذين وجدوهم بالقرب من تطيلة ، وسلبوا الماشية . وما أن رآهم المسلمون من تطيلة حتى خرجوا إليهم جميعا- ماعدا عدد قليل مكثوا فى المدينة - وبسرعة هاجم أهل تطيلة النصارى لاسترداد الغنيمة ، وبينما هم يحاولون تعقب النصارى الذين هاجموهم ولم ينتبهوا إلى الكمين المعد لهم . فقد خرج القمط ورجاله من المكان الذى عسكروا فيه وساروا دون أن يلحظهم المسلمون، ودخلوا المدينة وفتحوا البوابات التى خلت من المدافعين ، وبسرعة أصبحوا داخل المدينة ، وأسرعوا إلى القلعة الرئيسية بالمدينة واستولوا عليها . وعندما عاد المسلمون انقض عليهم النصارى وهاجموهم وأسروا الكثير منهم ولم ينج أى من المسلمين سواء من الموت أو الأسر . وقد غمرت الفرحة نفس الإمبراطور - ألفونسو المحارب - حين علم بما صنعه القمط ، فمنحه مدينة تطيلة تكريما له ولرجاله[٢] .

وقد اختلفت المدونات المسيحية الإسلامية حول تاريخ سقوط مدينة تطيلة فى يد النصارى. فحددت مدونة القديس خوان دى لابينيا أن غزو النصارى لمدينة تطيلة وقع أثناء حصارهم مدينة سرقسطة ، والذى حددته فى عام ١١١٠م/٥٠٣هـ . بينما المؤرخ ثيوريتا جعل سقوط تطيلة يسبق سقوط سرقسطة ، وحدده فى أواخر أغسطس ١١١٤م/ ربيع أول ٥٠٨هـ[٣] . وحددت حولية مملكة نبرة التاريخ نفسه [٤] . فى حين أن مدونة القديس ماشنت حددت سقوط

---

(١) Lacarra, La Fecha de la Conquista de Tudela, en "Principe de Viana" , 1946, pp. 45-54 (CF. Al-Andalus, X 1 (1946). pp. 497 - 498) .

(٢) C. S. J. P., pp. 70-71 .

(٣) Zurita, A. C. A., p. 134 .

(٤) Moret, A. R. N., pp. 248-250 .

تطيلة وطرسونة فى عام ١١١٨م/٥١٢هـ بعد سقوط سرقسطة مباشرة ، كنتيجة من نتائج سقوط سرقسطة[١] . أما بالنسبة للمدونات الإسلامية ، فقد حدد المؤرخ ابن أبى زرع أن ألفونسو المحارب استولى على أغلب بلاد شرق الأندلس فى عام ١١١٩م/٥١٣هـ[٢] ، دون أن يحدد هذه المدن ، وهذا ماتؤيده الرواية النصرانية ، بينما أشار المقرى باختصار إلى استيلاء النصارى على مدينة تطيلة وطرسونة فى عام ١١٣٠م/٥٢٤هـ[٣] ، وهذا التاريخ متأخر كثيرا عما حددته المدونات النصرانية والإسلامية ، ولذلك فهو بعيد عن الصواب .

وفى مقالة نشرها لاكارا بعنوان "تاريخ غزو تطيلة" ، ذكر فيها أن غزو النصارى لمدينة تطيلة لم يقع أثناء حصار النصارى لسرقسطة ، ويعتقد أن التاريخ الذى حدده المؤرخ ثيوريتا لغزو تطيلة فى عام ١١١٤م يحتمل أن يكون خطأ من الناسخ ، ويؤكد لاكارا أن غزو تطيلة وقع فى الشهور الثلاثة الأولى من عام ١١١٩م ، وبالتحديد فى الثانى والعشرين من فبراير ١١١٩م/ العاشر من ذو القعدة ٥١٢هـ كنتيجة من نتائج سقوط سرقسطة ، وحدد لاكارا هذا التاريخ لسقوط تطيلة من بعض الوثائق والمدونات ، التى رجع إليها فى بحثه . ويؤكد ذلك بأنه ليست هناك امتيازات خاصة بمدينة تطيلة موقعة قبل عام ١١١٩م ، كما لم تشر أية وثيقة قبل عام ١١١٩م إلى أن تطيلة ضمن ممتلكات ألفونسو المحارب[٤] . وقد أخذ أغلب المؤرخين المحدثين بهذا التاريخ الذى حدده لاكارا[٥] .

وبعد أن استولى قمط البرتش على تطيلة ، أسرع ألفونسو المحارب إلى تطيلة ، لتنظيم حكومته الجديدة وتأمينها ، وبعد مفاوضات مع المسلمين ، وقعت معاهدة التسليم بين الطرفين فى الخامس عشر من مارس عام ١١١٩م/ أول ذى الحجة ٥١٢هـ[٦] ، بنفس شروط تسليم

---

(١) Ex Chron. S. Maxentii (R.H.G.F.) t. XII. pp. 406-407 .

(٢) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٨٩ .

(٣) المقرى ، نفح الطب ، مجلد ٤ ، ص ٤٥٥ .

(٤) Lacarra. La Fecha de la Conq. de Tudela, en Principe de Viana, 1946, pp. 45-54 (CF. Al-Andalus, XI (1946), pp. 497-498 .

(٥) Miranda, Nuevas Aport. de Al-Bayan Al-Mugrib, p. 320: Bosch, op. cit., p. 195 .

(٦) Lacarra, Alfonso el Batallador, p. 73 .

حددت حولية مملكة نبرة أن معاهدة تسليم تطيلة وقعت فى بداية السنة التالية لغزو تطيلة ، أى فى مارس ١١١٥م/ ذو الحجة ٥٠٨هـ . (A. R. N., p. 251).

سرقسطة ، وفيها أكد ألفونسو على احتفاظ المسلمين بوضعهم السابق وبوظائفهم ومساجدهم وقضاتهم وشريعتهم ، كما نصت على بقاء المسلمين فى منازلهم داخل المدينة لمدة عام ، وخلاله يبقى المسجد الكبير فى سلطتهم ، وبعد انقضائه ، يخرجون من المدينة إلى الضواحى خارج المدينة بمتاعهم وزوجاتهم وأبنائهم ، كما أكد ألفونسو للمسلمين أن يحتفظوا بملكياتهم خارج المدينة ، ومن يرغب منهم فى الذهاب إلى الأراضى الإسلامية يمكنهم ذلك مع زوجاتهم وأبنائهم وأموالهم . وقد أقسم على تنفيذ المعاهدة الملك ألفونسو المحارب وخمسة عشر من باروناته ، وقائد وأعيان تطيلة[١] .

ومن اللحظة الأولى عهد ألفونسو المحارب بإقطاعة تطيلة إلى أثنار أثنارث Aznar Aznarez ، وعينه الملك حاكما على مدينة تطيلة حتى أبريل ١١٢٤م/ ربيع أول ٥١٨هـ ، وقد خصصت هذه الإقطاعية للقمط الفرنسى روترو دى البرتش - ابن خال ألفونسو المحارب[٢] - الذى شارك ألفونسو المحارب فى مشروعاته الحربية . ودعا ألفونسو النصارى إلى سكنى مدينة تطيلة ، ومنحهم إعفاءات وامتيازات كثيرة ، كما منح كنيستها هبات كثيرة[٣] ، ودعى اليهود الذين كانوا قد غادروا المدينة إلى العودة للإقامة فيها ، ومنحهم الامتيازات التى كان يتمتع بها يهود ناجرة[٤] .

وبعد قليل ، استولى ألفونسو المحارب على مدينة طرسونة ، وقام بإصلاح المقر الأسقفى ، وأعاد بها مركز الأسقفية القديمة ، وقد سلم الملك إلى جيلومو أسقف بنبلونة كنيسة سانتا ماريا بتطيلة ، وذلك لاشتراكه ونشاطه فى حصار المدينة[٥] . علما بأن المصادر الإسلامية والأجنبية لم تمدنا بتفاصيل سقوط مدينة طرسونة .

وتأكيدا لمواصلة سياسة الاسترداد ، قام ألفونسو المحارب فى الثالث عشر من ديسمبر ١١١٩م/ الثامن من رمضان ٥١٣هـ ، بتأسيس جماعة دينية حربية Una Cofradia Milita Christi فى مدينة بلشر (بلتشت الحالية) ، من أخوة يخدمون الرب ويحاربون المسلمين .

---

(١) A. R. N.. pp. 250-251; Guy Liauzu. La Condition des Musulmans dans l'Aragon Chrétien aux XI et XII siecles. Hespéris Tamuda. vol. IX. fasc. 2. 1968. pp. 185, 188 .

(٢) Lacarra. La fache de la Conquista de Tudela. p. 498; Valdeavellono. op. cit.. p. 417.

(٣) A. R. N.. p. 251 .

(٤) Lacarra. Alfonso el Batallador. p. 73 .

(٥) A. R. N.. pp. 281-282; Lacarra. H. P. R. N.. p. 312 .

شأنها شأن أى جماعة حربية للدفاع عن الحدود . وقد شكلت جماعة بلشر الحربية خط دفاع أمامى عن سرقسطة ، فى وسط إقليم خال ، استولى عليه ألفونسو المحارب قبل عاصمة الإبره. وعهد بقيادتها إلى جالين سانز Galin Sanz ، ومنح سكانها قوانين استثنائية ، وبالتالى القواعد السارية فى الحدود القشتالية ، والتى جعلت من القلعة ملجأ للأشرار من كل الطبقات: القتلة واللصوص والمجرمين الذين حضروا لسكناها ، وقد مكثوا معافين من كل مسئولية[١] .

ثم أصبح للجماعة توجيه واضح لروح العصر وشعور مؤسسها ، حيث انتهزت الجماعة فرصة عقد مجمع كنسى استثنائى فى الثامن من مارس عام ١١٢٢م/ أواخر ذو الحجة ٥١٥هـ للحصول من أساقفته على إقرار الجماعة أو الأخوة La Cofradia O Hermandad ، ومنحها تسهيلات كبيرة ينالها الذين تطوعوا للجندية فيها . وكان من أهم نظمها أن يكرس الإخوة فى الجماعة حياتهم لخدمة الرب ، ويعفون من تقديم أى خدمة للملك تكون موجهة ضد المسيحيين ، وأن كل مايكتسبونه من المسلمين نقودا أو أراضى يكون ملكا خاصا لهم ، كما يمكنهم استيطان هذه الأراضى لخدمة الرب ، وأن الغنيمة التى يحصلون عليها ، لايعطون منها شيئا للملك ، بالإضافة إلى ذلك ، أن المدن والقلاع التى يفتحونها تكون أيضا فى ملكية الجماعة ، بدون قيد ولا شرط ، وأن يقوم بخدمتها تاجران يمكنهما المتاجرة مع كل أراضى المملكة دون دفع ضرائب . وفى مقابل هذا ، يتعهد الإخوة فى الجماعة باستمرار الحرب مع المسلمين وألا يعقدوا معهم صلحا ، وأن يستمروا فى مضايقتهم . وللجماعة أن تحاكم أعضاءها فى محاكم خاصة بالجماعة . بينما كل من تعدى على أحد أعضاء الجماعة أو هدده فى ممتلكاته ، يجب أن يدفع للملك خمسة آلاف مرابطى من الذهب . وقد أقر الملك ألفونسو السابع هذه النظم فى عام ١١٣٦م/ ٥٣٠هـ[٢] .

ويبدو واضحا من نظام جماعة بلشر أن أعضاءها قد تمتعوا بفوائد مادية وروحية مبالغ فيها . أما عن تشكيل الجماعة ، فقد كانت تتكون من طبقتين من الأعضاء : دائمين ومؤقتين ، الأولى ، تستلزم من الأعضاء الدائمين الاعتراف بخطاياهم ، للحصول على غفران

---

(١) Lacarra, Alfonso el B., p. 75; Valdeavellano, op. cit., p. 416 .

(٢) Lacarra, Alfonso el B., pp. 75-76 .

تام مثلما يفعل الراهب أو المتعبد ، أما الثانية فقد اشترطت الجماعة على العضو الذى يلتحق بخدمتها لفترة محددة ، تكون سنة على الأقل ليستحق الحصول على الغفران . وفى سائر الأحوال فإن الغفران من عقوبة خاصة بقانون الكنيسة ، يتعلق مباشرة بمدة خدمة العضو فى الجماعة(١) .

وكان يلزم للجماعة لتوسعها وزيادة نشاطها موارد بشرية وأيضا مادية كالنقود والأسلحة والخيول والغذاء وغير ذلك . وفى هذه السلسلة الثانية للغفران ، المخصصة للمحسنين على الجماعة ، فقد طبقت نفس القاعدة : بأن الغفران ارتبط بقيمة المساعدة المقدمة فإن التبرع بمقدار اثنى عشر من النقود للجماعة يعادل غفران الصوم الكبير . وإذا تضاعفت الصدقة لمساعدة الإخوة فى الجماعة ، فإن المتصدق يكون له خاصية الحج . ومن يقدم للجماعة أسلحة أو فرسا يكون له نفس الغفران الذى تمنحه منظمات الإسبتارية(٢) أو الداوية(٣) . ولأول مرة

---

(١) Ibid. p. 76 .

(٢) الإسبتارية Hospitallers : من أشهر جماعات الفرسان الدينية فى العصور الوسطى ، ظهرت فى بداية الحروب الصليبية فى بيت المقدس ، وكان هدفها فى أول الأمر العناية بالمرضى والجرحى الصليبيين ورعايتهم ، والعناية بفقراء الحجاج فى بيت المقدس ، ومن ثم أطلق عليها اسم فرسان المستشفى Hospitall-ers التى حرفت بالعربية إلى إسبتارية ، ثم اتخذت طابعا حربيا وقاموا بتقديم مساعدات للصليبين ، والدفاع عن ممتلكات الصليبيين بالشام ، بالإضافة إلى محاربة المسلمين : سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية، جـ١ ، ص ٥٠١-٥٠٢ .

(٣) الداوية Templares : من أشهر جماعات الفرسان الدينية ، نشأت حوالى عام ١١١٨م/٥١٢هـ فى بيت المقدس عقب سقوطها فى يد الفرنج الصليبيين ، وفى أول الأمر قامت على أساس عسكرى حربى ، وأسهموا فى كل عمل حربى قام به الصليبيون فى بلاد الشام ، وحماية الحجاج إلى قبر المسيح ، وخصص لهم ملك بيت المقدس جناحا فى قصره ، ثم سلم إليهم المعبد المجاور له ، ومنه اشتق اسمهم "فرسان المعبد" التى حرفت فى العربية إلى الداوية . وقد نمت هذه الجماعة بسرعة ، واشتد ساعدها بمن انضم إليها من الفرسان النصارى من جميع الأمم . وقد امتد نشاط فرسان الداوية إلى أسبانيا . وكونوا قوة حربية للدفاع عن مصالحهم من جهة ولحرب المسلمين من جهة أخرى . أشباخ ، تاريخ الأندلس ، ص ١٦٧ ، حـ١ ؛ سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية جـ١ ، ص ٥٠٠ - ٥٠١ .

يمنح الغفران للمبشرين الذين يقومون بالدعاية للجماعة ويجمعون لها الصدقات . وقد جمعت هذه النظم الخاصة بالجماعة فى نشرات بابوية صليبية فى عهد البابا جريجورى الثامن Greg-orio vIII (١١٨٧-١١٨٧م)(١) .

وكان الهدف الأخير للجماعة قد صار واضحا بتعبير الأساقفة الذين منحوا الغفران وهو إخضاع المسلمين فى ميورقة وسرقسطة وبلنسية ، وفتح الطريق إلى البحر للإبحار إلى بيت المقدس وانتزاع القبر المقدس وكنيسة الرب من أيدى المسلمين(٢) ، وهكذا كان لجماعة بلشر صفة دينية وحربية على نمط المنظمات الدينية الحربية ، التى أسست منذ سنوات قليلة فى الشرق لأجل الدفاع عن فلسطين . ويعتقد أنها كانت مثال رباط المسلمين الذى انتشر فى ذلك الوقت بواسطة المرابطين . وهكذا كانت جماعة بلشر فى عقلية ألفونسو المحارب عبارة عن منظمة حربية ، هدفها فتح طريق سرقسطة إلى البحر للوصول إلى بيت المقدس وشن هجماتها مباشرة بواسطة طريقين : أحدهما من الإبرة والآخر من بلنسية ، بالإضافة إلى تحرير مسيحى أسبانيا من المسلمين ، وتخليص المسيحية من الإسلام(٣) .

استأنف ألفونسو المحارب حركة الاسترداد دون كلل ، ودى ذلك إلى اكتساب أراضى جديدة ، ففى عام ١١٢٠م/٥١٣هـ ، افتتح بعض الحصون والمدن الواقعة على الضفة اليمنى لنهر إبره ومن أهمها آلاجون ومالن Mallén ومجالون Magallon(٤) ، ويبدو أن مدينة برجة الواقعة جنوب تطيلة قد قاومت حتى عام ١١٢٤م/٥١٨(٥). وفى مارس عام ١١٢٠م/٥١٣هـ انشغل ألفونسو المحارب بتعمير سرية ، ثم زحف عن طريق وادى شلون حتى قلعة أيوب ، وقام بتهديدها ثم حاصرها فى ربيع العام نفسه(٦) .

---

(١) Lacarra, Alfonso el B., p. pp. 76 - 77 .

(٢) Lacarra, Alfonso el Batallador, pp. 77 .

(٣) Lacarra, Alfonso el B. 77; Valdeavellono, op. cit., p. 416 .

(٤) Ballesteros, op. cit., p. 456 ; Bosch, op. cit., p. 195 .

(٥) Lacarra, Alfonso el B., p. 73; Fernandez, op. cit., p. 556 .

(٦) Bosch, op. cit., p. 195; Maria Viguera, op. cit., p. 186 .

وأثناء ذلك ، وصلت هذه الأخبار إلى أمير المسلمين على بن يوسف ، فكلف أخاه أبا إسحق إبراهيم بن يوسف [١] وإلى اشبيلية بإعداد حملة فى شتاء عام ١١١٩-١١٢٠/ ٥١٣هـ ، ضد ملك أرغون لاسترداد سرقسطة والقلاع المفقودة ، أو على الأقل إيقاف الزحف الأرغونى نحو الشرق ، كما أرسل إلى أمراء وزعماء الأندلس يستحثهم على مساعدة أخيه ، وأن يكونوا تحت إمرته . وقام الأمير أبو أسحق ابراهيم بتجهيز الجيوش، فحشد قواته ، وانضمت إليه قوات لاردة بقيادة ابن زرده Ibn Zarada ، وقوات غرناطة بقيادة أبى محمد بن تينغمر اللمتونى ، وقوات مرسية بقيادة أبى يعقوب ينتان بن على ، كما شارك عزون بن غبلون سيد مولينه دى أرغون Molina de Aragon ، الصديق القديم للسيد القنبيطور، وعدد كبير من المتطوعين [٢] ، وقد شارك فى هذه الحشود طائفة من علماء الأندلس

---

(١) أبى إسحق ابراهيم : هو إبراهيم بن يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن ترقوت بن منصور الصنهاجى ، ويعرف بابن تعيشت ، وهو اسم أمه . كان قد ولى سبته ثم مرسية لأخيه أبى الحسن على بن يوسف أمير المغرب ، وكان عليها قبله أبو عبد الله المعروف بابن عائشة ، إلى أن اعتل بصره بعد موقعة البورت . وكان ابن تعيشت من أعاظم قواد المرابطين وله على نصارى الأندلس وقائع كثيرة ، وأنه ولى بلنسية عام ١١١٥م/ ٥٠٩هـ تولاها مع مرسيه ، ثم نقل إلى إشبيلية التى ظل عاملا عليها من فبراير ١١١٨ - أغسطس ١١٢٢م/ شوال ٥١١ - جمادى الأولى ٥١٦هـ ، إلا أن ابن الأبار يقول إن أمير المسلمين على بن يوسف عزله واستصفى أمواله فى عام ١١٢١م/٥١٥هـ لتقصيره ، فى وقيعة كتندة Cutanda ، ثم انتقل إلى المغرب ، ويبدو أن على بن يوسف رضى عنه بعد ذلك ، فقد كان على رأس جيوش المرابطين أثناء قتالهم مع الموحدين فى السوس عام ١١٢٢-١١٢٣م/٥١٦-٥١٧هـ . ولم يعرف ابن الأبار تاريخ وفاته ، إلا أنه نقل عن ابن صاحب الصلاة الباجى ، أنه قتل وفل عسكره على طريق سجلماسة بجهة جبل هسكورة بالمغرب ، وذلك خلال حروبه مع الموحدين فى عام ١١٣٤م / ٥٢٨هـ . وقد أثنى ابن الأبار على ابن تعيشت وعنايته بالعلم والرواية، وهو الذى أهدى إليه الفتح بن خاقان "كتاب قلائد العقيان" . ابن الأبار ، المعجم فى أصحاب القاضى ، ترجمة رقم ٤٠ ، ص ٥٤ - ٥٥ ؛ ابن القطان ، نظم الجمان ، حـ٥ ، ص ٨٢-٨٣ ؛

Miranda, H. M. V., t. III. pp. 47-48 .

(٢) Miranda, N. A. B. M., p. 321: Maria Viguera, op. cit., pp. 186-187 .

وقضاتها، أمثال أبو علي الصدفي السرقسطي (١) ، الذي كان يحث على الجهاد ، والقاضي أبو بكر بن العربي(٢) ، وأبو عبد الله بن الفراء قاضي المرية(٣) .

خرج الأمير إبراهيم بقواته من مرسية في مايو ١١٢٠م/ صفر ٥١٤هـ ، مارا بشاطبة إلى بلنسية ، إلى تيرول ، وسار عن طريق وادي شلوقة ووصل حتى كتندة على بعد اثنى عشر كيلو مترا شرقي كلاموتشة Calamocha . وعندما علم ألفونسو المحارب بتحرك المرابطين لمقاتلته ، أرسل يستدعي قواته ، ورفع الحصار عن قلعة أيوب ، وتسلم رهائن من المدينة ، واتجه للقاء الجيش المرابطي ، وانتقل بقواته إلى بلدة كتندة على مسافة كيلو متر في الجنوب الشرقي من دورقة ، وحاصرها وضيق على أهلها ، واستعد للدخول في المعركة(٤) .

---

(١) أبو علي الصدفي ، هو حسين بن محمد بن فيرة بن حيون بن سكرة الصدفي من أهل سرقسطة ، سكن مرسية ، يكنى أبا علي ، روى بسرقسطة عن أبي الوليد سليمان بن خلف الباجي ، وأبي محمد عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، ورحل إلى المشرق أول محرم ٤٨١هـ/١٠٨٨م ، وحج في العام نفسه ، ولقى بمكة أبا عبد الحسين بن علي الطبري ، وأبا بكر الطرطوشي وغيرهما ، ثم صار إلى البصرة ، ودخل بغداد عام ٤٨٢هـ/١٠٨٩م ، ثم رحل منها عام ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م ، ووصل إلى الأندلس في سفر ٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م ، وقصد مرسية فاستوطنها ، واستقضى بمرسية ، ثم استعفى عن القضاء فأعفى ، وأقبل على نشر العلم ، واستشهد في وقعة كتندة يوم الخميس لست بقين من ربيع الأول عام ٥١٤هـ/ الثالث والعشرين من يونية عام ١١٢٠م . ابن بشكوال ، الصلة جـ١ ، ترجمة رقم ٣٣٠ ، ص ١٤٤-١٤٦ ؛ المقرى ، نفح الطيب ، جـ٢ ترجمة رقم ٤٨ ، ص ٩٠-٩٢ .

(٢) أبو بكر بن العربي ، هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد ، المعروف بابن العربي المعافري الأندلسي الإشبيلي ، ذكره ابن بشكوال في كتاب الصلة فقال : "هو الحافظ المستبحر ختام علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها" واستقضى ببلده إشبيلية ، ثم صرف عن القضاء وأقبل على نشر العلم والدعوة للجهاد . وقد ولد عام ٤٦٨هـ ، ١٠٧٦م ، وتوفي ودفن في مدينة فاس ٥٤٣هـ/١١٤٨م . ابن خلكان، وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ترجمة رقم ٦٢٦ ، ص٢٩٦-٢٩٧ ؛ المقرى نفح الطيب ، جـ٤ ، ص٤٧٦-٤٧٧ .

(٣) أبو عبد الله بن الفراء ، هو محمد بن يحيى بن عبد الله بن زكرياء ، من أهل المرية وقاضيها يعرف بابن الفراء ، ويكنى أبا عبد الله . كان رجلا صالحا دينا متواضعا ، واستقضى ببلده ، واستشهد بكتندة في ربيع الأول ٥١٤هـ/ يونية ١١٢٠م . ابن بشكوال ، الصلة ، ترجمة رقم ١٢٦١ ، ص ٥٧٢ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص ٥٨٦ ، Miranda, N. A. B. M., pp. 321-322; Maria Viguera, op. cit., pp. 187-188 .

وطبقا للبيان المغرب اجتمع له اثنا عشر ألف فارس وعدد من المشاه لايحصى ، وكان عبد الملك عماد الدولة من بين حلفاء ألفونسو المحارب . بينما كان عدد الجيش الإسلامي خمسة آلاف فارس وما يقرب من عشرة آلاف من المشاة[١] . وقد وصل إلى أسبانيا كصليبي جيلرمو التاسع التروبادور Guillermo IX el Trobador دوق أكيتانيا على رأس جيش من ستمائة فارس، لمساعدة ألفونسو المحارب في حربه ضد المسلمين حتى ترضى عنه الكنيسة وترفع الحرمان الكنسي عنه[٢] .

وكان التقاء القوات المرابطية بقوات ألفونسو عند كتندة في يوم الخميس السابع عشر من يونية ١١٢٠م/ الثامن عشر من ربيع الأول ٥١٤هـ[٣] ، ونشبت معركة عنيفة بين الطرفين ، انتهت بهزيمة المسلمين هزيمة قاسية[٤] ، ومقتل عدد كبير منهم ، وتقدر الرواية الإسلامية عدد القتلى المسلمين بعشرين ألف قتيل من المتطوعين ، ولم يقتل أحد من العسكر المرابطين لأنهم تركوا المتطوعين يتحملون هول المعركة وحدهم . واستشهد في هذه المعركة عدد

---

(١) Miranda, N. A. B. M., p. 322 .

(٢) C. S. J. P., p. 72; Defourneaux, op. cit., p. 159 .

(٣) ابن الأبار ، المعجم في أصحاب القاضي ، ترجمة رقم ٣ ، ص٣-٤ . من الجدير بالذكر أن الروايات الإسلامية قد اتفقت أغلبها على أن المعركة وقعت يوم الخميس ، ولكنها اختلفت في تحديد تاريخه . فذكر ابن بشكوال أن المعركة كانت يوم الخميس الرابع والعشرين من ربيع الأول ٥١٤هـ/ الثالث والعشرين من يونية ١١٢٠م (الصلة ، جـ١ ، ص ١٤٦) ، وبالرجوع إلى كتاب التوفيقات الإلهامية وجد أن اليوم المذكور يوافق يوم الأربعاء وليس الخميس . بينما ذكر ابن الأبار في معجمة عدة تواريخ حددها أصحاب أبو علي الصدفي وهي يوم الخمس الثامن عشرة من ربيع الأول ٥١٤هـ ، وهو ما أخذنا به في المتن ، ويوم الخميس التاسع عشر من ربيع الأول ، ويوم الأربعاء السابع عشر من ربيع الآخر / السادس عشر من يوليو ١١٢٠م ، وهذا اليوم يوافق يوم الجمعة وليس الأربعاء ، ويوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الآخر / الثاني والعشرين من يوليو من العام نفسه (ابن الأبار ، المعجم في أصحاب القاضي ، ص ٤ - ٥) في حين أن ابن عذارى حدد تاريخ المعركة في يوم السابع عشر من ربيع الآخر / السادس عشر من يوليو من العام نفسه وهو يوافق يوم الجمعة (Miranda, N. A. B., p. 322) في حين أن الروايات النصرانية لم تحدد يوم المعركة .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، مجلد ١٠ ، ص٥٨٦ ؛ Miranda, N. A. B. M., p. 322 .

من العلماء والفقهاء منهم أبو على الصدفى وأبو عبد الله بن الفراء قاضى المرية[1] . بينما تقدر الرواية النصرانية عدد القتلى المسلمين بخمسة عشر ألف قتيل ، كما وقع فى الأسر عدد كبير من المسلمين ، وغنم النصارى غنائم كثيرة ، تقدر بألفين من الجمال وأعداد لاتحصى من الدواب[2] . وانسحب الأمير إبراهيم بن يوسف فى فلول جيشه إلى بلنسية فى التاسع عشر من يونية ١١٢٠م/ العشرين من ربيع الأول ٥١٤هـ بعد أن تحطم الجيش الإسلامى تماما وأبيد معظمه [3]. ويروى ابن الأبار أن القاضى أبا بكر ابن العربى كان قد سئل فى تخلصه منها عن حاله ، فقال : حال من ترك الخباء والعباء ، وهذا مثل عند المغاربة معروف يقال لمن ذهبت ثيابه وخيامه ، بمعنى أنه ذهب جميع ماالديه[4] .

ومما سبق يتضح لنا أن المدونات الإسلامية أمدتنا ببعض تفاصيل معركة كتندة ، كما حددت تاريخ وقوعها ، فى حين أن المدونات المسيحية أو جزت فى روايتها ، وبعضها اختلف فى تحديد تاريخها ، فقد أشارت إليها حولية كومبوستل تحت عام ١١١٨م/٥١٢هـ[5] ، بينما المؤرخ ثيوريتا ربط بين حملة تميم لنجدة سرقسطة أثناء حصار الفرنجة لها ، ومعركة كتندة ، وجعلها تسبق تسليم سرقسطة[6]، فقد قدمها سنتين عن التاريخ الذى حددته المدونات الإسلامية . فى حين أن الحوليات الطليطلية أشارت إلى المعركة تحت عام ١١٢١م/ ٥١٥هـ[7]، وهذا يخالف ما حددته الروايات الإسلامية .

وحول أسباب هزيمة المسلمين فى معركة كتندة ، ذكرت الرواية الإسلامية أن قلة عدد القوات الإسلامية كانت سبب الهزيمة ، فلم يعرف أمراء وقواد الجيش المرابطى عدد القوات

---

(١) ابن الأبار ، المعجم ، ترجمة رقم ٣ ، ص٤ ؛ ابن الأثير ، نفسه ، ص٥٨٦ ؛ المقرى ، نفح الطيب ، مجلد ٤ ، ص٤٦١ ، حسين مؤنس ، الثغر الأعلى الأندلسى ، ص ١١٦ .

(٢) Ex Chron. S. Maxentii (R. H. C. F.), t. XII, p. 407 .

(٣) ابن الأبار ، نفسه ، ص ٤ - ٥ ؛ المقرى ، نفس المصدر ، مجلد ٤ ، ص ٤٦١ ،

Annales Compostel. en (Esp. Sag.) vol. XXIII, p. 321 .

(٤) ابن الأبار ، نفسه ، ترجمة رقم ٣ ، ص ٥ ؛ المقرى ، نفس المصدر ، مجلد ٤ ، ص ٤٦١ .

(٥) Annales Compostel. en (Esp. Sag.) vol. XXIII, p. 321 .

(٦) Zurita, A. C. A., p. 141 .

(٧) Anales Taledanos I, p. 345 .

الأرغونية[١] ، وربما قصد ابن عذارى تقليل عدد الجيش المرابطى لتبرير الهزيمة . ويحتمل أن القوات الإسلامية حين وصلت إلى ميدان المعركة كانت منهكة نتيجة زحفها من الجنوب إلى الشمال ، فى فصل الصيف . وقد ارتفعت درجة الحرارة ، خاصة وأن شهر يونيو تكون درجة الحرارة على أشدها ، فلم يكن توقيت الغزو مناسبا ، بالإضافة إلى عدم تنظيم وتنسيق الجيش الإسلامى ، وربما افتقد قواده الفنون الحربية والعسكرية ، ويحتمل أن تعجل المتطوعون الحرب مع النصارى ، فكثر القتل فيهم ، وتضاعف سقوطهم على أرض المعركة ، مما أدى إلى تسلل الرعب واليأس إلى نفوس العساكر المرابطين وانهيار روحهم المعنوية .

وحول عوامل انتصار ألفونسو المحارب فى معركة كتندة ، ربما يرجع إلى كثرة عدد فرسانه، بالإضافة إلى الحماسة الصليبية للقوات النصرانية ، التى كانت تعمل على كسب واسترداد أراضى جديدة على حساب المسلمين ، كما أن ألفونسو المحارب ركز كل جهوده فى محاربة المسلمين ، فقد حشد كل قواته فى مهاجمة المسلمين ولم يشغلهم فى أماكن أخرى مثل قشتالة وليون .

ولا شك أن معركة كتندة كان لها صدى كبير فى الميدانين الإسلامى والمسيحى معا ، فقد كانت كارثة لأسبانيا الإسلامية ، وترتب عليها تقدم حركة الاسترداد الأرغونى على حساب الثغر الأعلى الأندلسى ، وأصبح ألفونسو المحارب يسيطر سيطرة تامة على سهل الإبره الأعلى، ولم يعد من الميسور لجيوش المرابطين أن تنفذ لإنقاذ مدينة سرقسطة[٢] . كما ترتب على معركة كتندة أن أمير المسلمين على بن يوسف حين بلغه أخبار هزيمة الجيش المرابطى ، وما أصاب الثغر الأعلى من ضياع أكثر مدنه ، أمر بإعداد المجانيق والآلات الحربية فى كل بلاد الأندلس ، فى خريف عام ١١٢٠/٥١٤هـ ، وخصص كل الشتاء لصناعتها[٣] . كما أمر بنقل الأمير أبى أسحق ابراهيم من مرسية إلى إشبيلية ، ويبدو أن نقله يعود إلى هزيمته أمام ألفونسو المحارب ، ويظن ابن الأبار بسبب تقصيره فى وقيعة كتندة[٤] . وبدلا من إسراع

---

(١) Miranda. N. A. B. M., p. 322 .

(٢) حسين مؤنس ، الثغر الأعلى الأندلسى ، ص١١٧ .

(٣) Miranda. N. A. B. M., p. 323 .

(٤) ابن الأبار ، المعجم فى أصحاب القاضى ، ترجمة رقم ٤٠ ، ص ٥٤ - ٥٥ ؛ حمدان حجاجى ، حياة ابن خفاجة ، ص ١٠٨ - ١١٠ .

أمير المسلمين على ابن يوسف لإنقاذ شرقى الأندلس من أطماع ألفونسو المحارب ، نراه قد ترك الشرق لمصيره ، واهتم بغربى الأندلس ، فسار غازيا فى بلاد النصارى يقتل ويسبى ويقطع الثمار ويخرب القرى والديار ، حتى فر أمامه النصارى ، وتحصنوا بالمعاقل المنيعة[١].

وهكذا أحبطت محاولة المرابطين لإيقاف الزحف الأرغونى نحو شرقى الأندلس ، وتشجع ألفونسو المحارب بهذا الانتصار ، وواصل هجماته فى كل الاتجاهات ، فاستولى على مدينة كتندة ، وعلى مدينة وقلعة دروقة ، كما استسلمت قلعة أيوب لجيوش ألفونسو المحارب فى الرابع والعشرين من يونيه ١١٢٠م/ الخامس والعشرين من ربيع الأول ٥١٤هـ[٢] . وخضعت أيضا كل المدن الواقعة على نهر شلون ، والتى من أهمها مدينة آبلة Apila ، وركلة Ricla ، كما استسلمت مدن بوبيركا Bubierca والحمة Alhama وأريشا Ariza ، وتبع ذلك سقوط كل المدن التى تقع على ضفاف نهر شلوقة ، بالإضافة إلى الضفة اليمنى للإبره[٣] ، وبذلك أصبح ألفونسو المحارب منذ عام ١١٢٠م/٥١٤هـ سيدا على كل الأراضى التى تشكل ولاية أرغون الحالية[٤] .

زحف ألفونسو المحارب من دوقة مهددا شرق الأندلس ، وتقدم حتى مونريال دى الكامبو Monreal del Campo - الذى يسمى وقتئذ "عيون شلوقة" - وسينجرا Singra ، وأصبح طريق الشرق مفتوحا[٥] . وبسبب موقع دروقة وحصانتها ، والتى كانت تعتبر كمفتاح لغزو بلنسية ، فقد شيد ألفونسو المحارب على مقربة من قلعة دروقة ، عند منابع شلوقة مدينة جديدة محصنة، سميت مونريال Monreal والتى تعرف حاليا مونريال دى الكامبو ، لتكون حاجزا لصد الجيوش الإسلامية التى تنساب من طرق مرسية وبلنسية . والتى جعلها فيما بعد منزلا لجماعة دينية جديدة من الفرسان ، أسست لحماية الدين ، وتأمين الأراضى المفتوحة[٦].

---

(١) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ٩٠ .

(٢) C. S. J. P., p. 72; Annales Compostel . en (Esp. Sag.) vol. XXIII, p. 321; Ibars, Valencia Arab, p. 445 .

(٣) C. C. A., p. 16; Codera, op. cit., p. 13 .

(٤) Charlotte The Story of the Christ. and Moors of Spain, London, 1893, p. 159 .

(٥) Maria Viguera, op. cit., p. 188 .

(٦) Moret, A. R. N., p. 283; Ibars, op. cit., p. 446 ;

محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٠٤ .

ولما كانت المنطقة الممتدة من دوقة حتى بلنسية فقرا وخالية من السكان ، ولم يكن من الممكن زراعتها ، فقد أمر ألفونسو بتعمير مدينة مونريال ، كما أقام ديرا لمنظمة الداوية . ونتيجة للحروب المستمرة مع المسلمين ، فقد أمر الملك الأرغوني فقراء مدينة مونريال بأن يكونا جندا جددا لديرها ، يخدمون القرى المجاورة ، ويعملون على تأمين الطرق والممرات من خطر المسلمين [١] .

وهكذا كان انتصار ألفونسو المحارب فى كتندة ، تقرير لمصير كل المدن التى فتحت ، ولم تكن هذه الفتوحات مأمونة ، ولهذا عمل ألفونسو المحارب على تأمين فتوحاته . وتمكن أن يتسلل بالتدريج مهددا كل طرق الغزو المرابطى ، وكان من الضرورى قطع الطريق الشرقى لتأمين فتح سرقسطة ، وبذلك قطع طريق تموين المرابطين للقلاع الإسلامية الشمالية ، بعد أن حقق فتوحات قلعة أيوب ودروقة وتأسيس قلعة مونريال فى طريق بلنسية ، فقد كانت هذه المراكز تشكل مفتاح للغزوات ضد مملكة بلنسية ، ولذلك استحقت كل اهتمامه [٢] . كما كلف ألفونسو المحارب المغامر النورماندى رامون بوردت Ramon Burdet بفتح سركونة Tarrago-na عاصمة أسبانيا الرومانية ، وأعاد إليها أسقفيتها القديمة [٣] .

أما بالنسبة للموقف فى قشتالة ، فبالرغم من الانفصال الزوجى بين ألفونسو المحارب وأوراكا ، فقد استمرت الفوضى ، وبينما كان ألفونسو مشغولا فى حصار سرقسطة ، دخل ألفونسور ريموندبس مدينة طليطلة فى الثامن عشر من نوفمبر ١١١٨م/الثانى من شعبان ٥١٢هـ [٤] . ومع ذلك استمرت سلطة الملك الأرغونى فى شقوبية وسيبولبيدا ، وفى كل خط الدويره ، وحتى الجنوب عند منابع خاراما Jarama وهناريس Henares . وفى ديسمبر ١١١٩م/ رمضان ٥١٣هـ كان ألفونسو المحارب فى مدينة بدراثا Pedraza بالقرب من شقوبية ، وعنى بإصلاح النظام الكنسى فى شقوبية . وفى عام ١١٢٠م/٥١٤هـ ساد السلم بين أوراكا وألفونسو المحارب ، واهتم ألفونسو المحارب بتعمير سرية ، وانشغل فى غزو

---

(١) C. C. A., pp. 16-17; Ibars. op. cit., pp. 445-446 .

(٢) Camarena, Precedentes de La Reconquista Valenia, Valencia 1952, pp. 10-11 .

(٣) حسين مؤنس : الثغر الأعلى الأندلسى ، ص ١٢١ ،

- Lacarra, Alfonso el B., p. 129 .

(٤) Anales Toledanos I. p. 345; Lacarra, H. P. R. N., p. 319 .

أراضي شلون وشلوقة . ثم في عام ١١٢١م/ ٥١٥ ، تقارب ألفونسو المحارب إلى شخص وسياسة برناردو رئيس أساقفة طليطلة ، ربما لأنه ابتعد عن جلمريث أسقف شانت ياقب ، وقام ألفونسو المحارب بإرجاع المراكز الأسقفية لشقوبية وشغونة Siguenza إلى رجال الدين الطليطليين . وقد تولى برناردو رئاسة مجلس كبير عقد في الثامن من مارس عام ١١٢٢م/ محرم ٥١٦هـ ، حضره رؤساء أساقفة طركونة وشانت ياقب وأوشي Aux ، وأساقفة سرقسطة ووشقة وبربشتر وقلهرة وطرسونة وأكشمة (Osma (Oxuma وليسكار وشغونة وشقوبية ورئيس ديرلير Leire ، وفي هذا المجلس اعترف بقيام منظمة بلشر [(١)] .

وفي مايو ١١٢٢م/ ربيع أول ٥١٦هـ كان ألفونسو المحارب على مقربة من ولاردة ، وفي ذات الشهر ، عبر إلى بيارن ، وفي مدينة موررلاس Morlaas جدد قمط بيجورا الطاعة لألفونسو المحارب ، والتي قدمها والده من قبل للملك سانشو راميرث عام ١٠٨٢م/٤٧٤هـ ، وقد منحه ألفونسو هبات كثيرة في أرغون منها قلعة روطة ومدينتها ومدينة طرسونة بحدودها[(٢)] . ويبدو أن ألفونسو المحارب أراد أن يؤكد حقوق أرغون على أراضي بيارن وجسقونية ، واستطاع أن يجند قوات جديدة لتقوية صلاته مستقبلا ، كما منح ألفونسو إلى سنتولودي بيجورا مدينة رودا بصفة إقطاع ، وتعهد أن يمنحه مدينة سانت ماريا دي المبراسين Sainte Maria d'Alberracin – سهلة بني رزين – حين انتزاعها من المسلمين[(٣)] .

وفي يونيه ١١٢٢م/ ربيع ثاني ٥١٦هـ ، عبر ألفونسو المحارب إلى وادي سول ، al Valle de Soule الذي كان يسيطر عليه ، وبنى قلعة جديده هناك . ثم عبر إلى ميلا جرو Milagro في مملكة نبرة ، حيث انشغل بتعمير جسر الملكة Puente de Reina ، الذي سمي جسر أرجا ، ومنح هبات وامتيازات للمستوطنين هناك[(٤)] .

وامتدت أطماع ألفونسو المحارب إلى مدينة لاردة ، التي تطلع إليها ملوك أرغون قديما ولكن واجهته معارضة من رامون برنجير الثالث قمط برشلونة ، الذي تطلع بالمثل إلى ضم

---

(١) Lacarra, Alfonso el B., p. 78 .

(٢) Lacarra, D. E. R. R. V. E., Doc.num. 26, p. 495. Ballesteros, op. cit., p. 456 .

(٣) Defourneaux, op. cit., p. 161 .

(٤) A. R. N., p. 286; Lacarra, Alfonso el B., pp. 78-79 .

لاردة إلى أملاكه ، وتوسيع ولايته غربا[١] . وهنا اصطدمت مصالح ألفونسو المحارب بمصالح قمط برشلونة . وكان فتح سرقسطة وهزيمة المرابطين فى كتندة على يد ألفونسو المحارب قد أفزع حاكم لاردة الذى دعته الوثائق المسيحية أبا فيل أبو هلال Abifile Abuhilal ، الذى لقب بالحاجب[٢] ، فأسرع إلى الدخول فى معاهدات مع قمط برشلونة ، وعقد معه اتفاق فى الرابع عشر من نوفمبر ١١٢٠م/ العشرين من شعبان ٥١٤هـ ، وفيه اتفق الطرفان على تبادل الولاء والصداقة ، وتعهد قائد لاردة على تسليم قمط برشلونة الأراضى الواقعة بين سينكا وطرطوشة ، ومن أهمها قلاع الكوليا وتشلاميرة Chalamera وزيدن[٣] . وضمانا لذلك تعهد القائد أن يرسل إلى القمط رهائن من أبنائه ورجاله ، فى مقابل بعض الأملاك والحقوق التى يحصل عليها فى برشلونة أو جرنده ، كما تعهد قائد لاردة أن يساعد قمط برشلونة فى حروبه ضد المسلمين فى أسبانيا ، وأن الأراضى التى يمتلكها تكون تحت سيادة القمط ، وتعهد قمط برشلونة أن يوزع الخراج الذى يتقاضاه من المسلمين مناصفة بينه وبين قائد لاردة ، وقد كانت مدن بلنسية وطرطوشة ولاردة ملتزمة بدفع الجزية إلى رامون برنجير الثالث ، كما تعهد قمط برشلونة أن يمد القائد بالسفن التى يحتاج إليها ، ويسهل له طريق العبور إلى جزيرة ميورقة[٤] .

ومن الواضح أن معاهدة التحالف والصداقة كانت بمثابة خضوع قائد لاردة لقمط برشلونة ، وذلك بأن يقيم قائد لاردة فى ميورقة ، ويبقى البرشلونى مالكا وسيدا على كل المقاطعات التى تقع بين سينكا وإبره ، حتى طرطوشة ؛ ومن الملاحظ أنه قبيل ذلك الوقت بقليل ، قد تم توقيع معاهدة مشابهة بين عماد الدولة وألفونسو المحارب ، وفيها تنازل عماد الدولة عن مدينة سرقسطة ، وأن يساعد الأرغونى فى غزواته[٥] .

---

(١) Chaytor, op. cit., p.54 .

(٢) لم تمدنا الروايات الإسلامية أو المسيحية بتعريف عن أبا هلال قائد لاردة .

(٣) Miranda, Los Banu Hud, p. 30. not. 94; Lacarra , Alfonso el B., p. 79 ; Maria Viguera, op. cit., p. 189 .

(٤) D. H. E., t. II, p. 970; Lacarra, H. P. R. N., p. 313 .

(٥) Lacarra, Alfonso el B., p. 80 .

وسريعا ما علم ملك أرغون بهذه المعاهدات بين قائد لاردة وقمط برشلونة ، والتى تعارضت مع خططه وأهدافه فى فتح طريق من الإبره إلى البحر للوصول إلى بيت المقدس . فتوجه نحو لاردة فى أبريل ١١٢٢م/ صفر ٥١٦هـ ، وقام بشن الغارات على المدن الواقعة على أحواض سينكا وشيقر ، والتى كان من أهمها إفراغة وترمس Termes – المواقعة بين لاردة وبلغير – ولاردة . وبحث كل من ألفونسو المحارب وقمط برشلونة عن حلفاء لتأييد قضية كل منهما ، فعمل ألفونسو المحارب على ضم أعداء برنجير إلى جانبه ، وتحالف مع قمط تولوز وفيسكونت بزييه برناردو آتون ، وقمط بيجورا وفيسكونت سول . أما قمط برشلونة فقد تحالف مع قمط بواتييه ، كما توصل إلى اتفاق مع القمط هو جودى أنبوريش Hugo de Ampurias فى الثالث عشر من أكتوبر عام ١١٢٢م/ الثامن من شعبان ٥١٦هـ، ضد كل من النصارى أو المسلمين للمساعدة فى غزو إفراغة حتى طرطوشة[١] .

وفى فبراير عام ١١٢٣م/ ذو الحجة ٥١٦هـ عاد ألفونسو المحارب إلى لاردة ، وأقام مخيماته فى جاردنى Cardeny ، على مشهد المدينة من خلال شيقر ، وهناك بنى حصنا ، أعده للمراقبة بالقرب من القلعة ، وذلك طبقا للطريقة التقليدية فى الاسترداد الأرغونى . ووصل للدفاع عن لاردة قمطى برشلونة وبواتييه ، ويبدو أنه نشبت معركة بين الطرفين ، وتدخل الأساقفة والأعيان وأقنعوا كلا الطرفين بالعدول عن الحرب ، والتوصل إلى اتفاق بينهما ، وكان ألفونسو المحارب أكثر استعدادا لقبول الاتفاق ، فعدل عن حصار لاردة ، ورفع معسكره فى شهر يوليو ١١٢٣م/ جماد أول ٥١٧هـ[٢] . ويبدو أن هذا الاتفاق تقرر فيه أن تكون لاردة من نصيب قمط برشلونة ، وأن تكون إفراغة ومكناسة Mequinenza من نصيب ألفونسو المحارب ، فعندما قام ألفونسو المحارب بحصار مدينة مكناسة ثم إفراغة فيما بعد ، لم يعارضه قمط برشلونة[٣] .

وترتب على ذلك ، أن قام المرابطون بتحصين هذا الجانب ، واشتد ضغطهم على برشلونة ، فقاموا بغزوة ضد القطلان ، وهزموا رامون برنجير الثالث قمط برشلونة فى

---

(١) Lacarra, Alfonso el Batallador, p. 80 .

(٢) Chaytor, op. cit., p. 54; Maria Viguera, op. cit., p. 189 .

(٣) Lacarra, Alfonso el B., p. 81 .

عام ١١٢٤م/٥١٨هـ ، أمام حصن قوربينز Corbins بين بلفير ولاردة . وأبطلت المعاهدة الموقعة مع قائد لاردة[١] .

ومن الجدير بالذكر أن المصادر الإسلامية لم تمدنا بحقيقة العلاقة بين قائد لاردة وقمط برشلونة ، كما أنها لم تشر إلى معركة قوربينز بالرغم من انتصار المرابطين ، أما الروايات النصرانية فقد أشارت إليها باختصار ، ولم تمدنا بتفاصيل المعركة .

مما تقدم يتضح لنا أن ألفونسو المحارب استطاع أن يوسع مملكة أرغون ، بعد أن ضم إليها الجزء الأكبر من وادى إبره وحوض شلون وشلوقة ، نتيجة حملاته السريعة والناجحة التى حققها فى مدة قصيرة (١١١٨-١١٢٠م/ ٥١٢-٥١٤هـ) ، وتمكن من استرداد مدينة سرقسطة ١١١٨م/٥١٢هـ ، وتطيلة وطرسونة ١١١٩م/٥١٢هـ ، وقلعة أيوب ودروقة ١١٢٠م/٥١٤هـ ، ووصلت فتوحاته حتى مونريال دى الكامبو وسلاسل جودار La Sierre de Gudar ، وامتدت قوة الأرغونيين إلى قونقة وتيرول وأصبحت على مقربة من حدود قشتالة[٢] .

وبانهيار سرقسطة انهار خط الدفاع الأول عن أسبانيا الإسلامية فقد كانت سرقسطة تمثل السور الذى حجز لسنوات طويلة هجمات النصارى على الأندلس ، وترتب على ذلك ، تعرض الأندلس للغزو النصرانى من الشمال الشرقى ومن الوسط . وقد ترك أمير المسلمين على بن يوسف شرقى الأندلس مجالا لنشاط وتوسعات ملوك أرغون ولم يحاول إنقاذه ، فقد عبر إلى الأندلس عام ١١٢٠م/٥١٤هـ ، ولم يحاول إنقاذ سرقسطة ، وبدلا من الاتجاه إلى شرقى الأندلس وإنقاذه من الزحف والتقدم الأرغونى ، اتجه غازيا فى غربه ، وكانت النتيجة ضياع جزء كبير من الأندلس سيطرت عليه جيوش النصارى .

كما نلاحظ أيضا أن معظم المدن الإسلامية التى استردها ألفونسو المحارب استسلمت بعد مفاوضات ، وعقد معاهدات التسليم ، وكان هذا ملحوظا فى سرقسطة وفى تطيلة ، وقد خير الملك الأرغونى المسلمين بين البقاء أو الهجرة إلى أرض الإسلام ، فرحل بعض المسلمين إلى بلنسية وإفراغة ولاردة وطرطوشة ، والبعض الآخر فضل البقاء فى المقاطعة المسيحية ،

---

(١) D. H. E., t. II, p. 971; Maria Viguera, op. cit., p. 189 .

(٢) انظر خريطة رقم (٦) .

بشرط الخضوع للسلطة الأرغونية ودفع الضريبة المفروضة . وفى تطيلة ، آثر المسلمون البقاء ودفع الضريبة للملك الأرغونى ، وامتلكوا المنازل والقصور والمتاجر والحدائق والأفران ، والمساجد والمطاحن[١] . ومع هذه الأحوال ، كان هناك المزارعون المسلمون Les Exarici الذين مكثوا فى مدنهم بعد الاسترداد الأرغونى ، وعملوا كمزارعين للسكان النصارى الجدد ، وقد كان وضعهم غير واضح تماما[٢] .

ومع أن ألفونسو المحارب كان أكثر اهتماما بالسياسة الخارجية ، وبسياسة الاسترداد بصفة خاصة ، فقد اهتم أيضا بالسياسة الداخلية وتعمير ممالكه ، وتنظيم دولته ، حيث وضع نظاما داخليا كان قدوة اقتدت به بعض الأمم المتقدمة ، كما اهتم بالتنظيم الكنسى والتشريع . فقد كافأ الملك ألفونسو المحارب أفضل قواده بمنحهم ملكيات أو إكراميات ، كانت قلاعا وأراض للحكم والدفاع والإدارة ، ومن ثم حصلوا على دخلها وإيراداتها . ثم بدأ يكافئ المتعاونين معه ، وعين الأشخاص الأكفاء فى الأماكن الأكثر أهمية . لهذا نرى أغلب رؤسائها المختارين يمتلكون بجانب الحصون أو القلاع أراضى أخرى جنوب وادى الإبره ، أكثر إنتاجا ، لكونها أراضى زراعية يزرعها المسلمون ، وأيضا أكثر خطورة لكونها منطقة حدود ، وقد سلم الملك هذه القلاع إلى أشخاص مخلصين يثق فى مقدرتهم تماما .

ومن ناحية أخرى فإن الأشراف الذين حصلوا على الأراضى والإكراميات من الملك ، قد لاحظوا الفوائد الاقتصادية التى أمكنهم تحصيلها ، وتطلعوا إلى دوامها لعائلاتهم وعدم حرمانهم منها إلا لأسباب خطيرة ، ولكن الملك المحارب لم يراع هذا التطلع[٣] .

واهتم ألفونسو المحارب بإصلاح النظام الكنسى لوادى إبره ، وقد استلزم الاسترداد تنظيما كنسيا سريعا للأراضى المفتوحة المكتسبة للمسيحية ، وقام ألفونسو المحارب بهذا التنظيم بالاتفاق مع أساقفة مملكته ، فقد عين الأسقف دون ميجويل لأسقفية طرسونة (١١١٩م) ، وعين بطره لأسقفية شقوبية (١١٢٠م) ، وفى تطيلة التى كانت حينئذ أكثر أهمية من طرسونة أقام الكنيسة الكبرى ، مع مجمعها الديرى تحت تبعية أسقف طرسونة . وقد وضع ألفونسو

---

(١) Guy-Liauzu, La Condition des musul. dans L'Aragon Chretien, pp. 192-193 .

(٢) Ibid, p. 197 .

(٣) Lacarra, Alfonso el B., P.110 .

فى الأماكن الأكبر مسئولية قساوسة محل ثقته الشخصية معظمهم غرباء عن مملكة أرغون ، وكثيرا ماذهبوا ينشرون المذهب الكاثوليكى فى الأراضى التى انضمت إلى مملكة أرغون فى ذلك الحين . وقد استلمت المراكز الأسقفية الجديدة من الملك كل المساجد التى تحولت إلى كنائس وما أكثرها مع الممتلكات والحقوق التى كانت مخصصة لها تحت السيادة الإسلامية . ومنحها حق تحصيل العشور وباكورات المحاصيل التى يحصدها المسيحيون من كل أراضى الأسقفيات ، كما منحها العشر من كل المحاصيل والإيرادات المحصلة من المسيحيين مثل المسلمون واليهود . واعترف أيضا بملكيتها لكل الأراضى التى كانت قبل الغزو تخضع لملكية بعض الكنائس المستعربة ، كما تسلمت هذه الأسقفيات من الملك هبات شتى من المدن والقلاع أو أملاك لدعم ثروة المراكز الأسقفية الجديدة . بالإضافة إلى ذلك ، فإن السادة الذين تعاونوا معه فى عملية الاسترداد سواء من داخل المملكة أو خارجها ، تسلموا أراضى أو كنائس فى المناطق المفتوحة [١] .

وكان تعمير وادى إبره من أهم مظاهر حكم ألفونسو المحارب ، الذى اهتم بالتعمير الداخلى وزراعة الأراضى المفتوحة ، التى تضاعفت فيما بين عام ١١١٧ و ١١٢٢م ، والتى ترتب عليها التوسع الإقليمى لأملاك ألفونسو المحارب . وكانت شروط تسليم مسلمى مدن سرقسطة وتطيلة وطرسونة وقلعة أيوب قد تضمنت أن من حق المسلمين الذين كانوا خارج المدينة عند توقيع معاهدة التسليم ، الحرية فى العودة إلى المدينة نفسها واسترداد كل أملاكهم إذا رجعوا قبل أربع شهور . وبذلك شجعت المعاهدات بقاء المسلمين فى الأرض ، لأن الحال لم يتغير اقتصاديا . فالضرائب نفسها منذ العهد السابق - عشر محاصيلهم - واحتفظوا بمساجدهم وقضاتهم وقوانينهم . كما أن مسلمى المدن إذا فقدوا مساكنهم المدنية ، احتفظوا بمزارعهم الريفية ، المصدر الرئيسى للثروة فى العصور الوسطى . ولذلك لم يكن هناك دافع اقتصادى يؤدى إلى هجرة عامة للولاية الإسلامية[٢] .

ولكى يسد فراغ الذين هاجروا ، منح ألفونسو المحارب حق الدخول إلى المدينة إلى الفرنجة والقشتاليين والمستعربين الغرناطيين ، بالإضافة إلى الأرغونيين والنبريين ، وقد أدى ذلك إلى

---

(١) Ibid, pp. 112-114 .

(٢) Lacarra, Alfonso el B., 119 .

قيام مشاكل فى بنبلونة لتعايش الفرنجة والنبريين . وكانت أكثر خطورة فى بعض المدن مثل كاسيدا Caseda وقلعة أيوب ودروقة وغيرها حيث أنها تصلح أن تكون ملاذ للقوم المطاردين. ومع ذلك ، فإن القوانين التى منحها ألفونسو المحارب ، كانت تهدف إلى المساواة فى الحقوق بين المسيحيين والمسلمين واليهود : كل منهم يقسم طبقا لشريعته ، ويقدم ضامنين من دينه . واستهدف التشريع الإنسانى تأمين التعايش بين شعوب مختلفة[١] .

شجع الملك ألفونسو المحارب التعايش فى وادى إبره ، وكان له نتائج عظيمة الأهمية فى نظام التبادل الثقافى بين المسلمين والمسيحيين . وإثر استسلام مدن الإبره ، مكث فيها عدد كبير من رجال العلم ، ووفد إليها طلاب أوربا للتزود بالعلم ، فأصبحت مراكز ترجمة للأعمال العربية والعبرية أكثر أهمية فى هذا الوقت - سبقت مدرسة طليطلة المشهورة - وفى البداية اتجه نشاط المترجمين نحو علم الفلك والرياضيات والتنجيم والكيمياء ، وأخيرا نحو الفلسفة . وهؤلاء المترجمون قد غذوا العلم الأوروبى الناشئ ، وفى الوقت نفسه حفظت لنا ترجمة النصوص العربية المشهورة التى أهملت وقلت تماما[٢] .

وفى هذه المرحلة ، اتسع النشاط التشريعى لألفونسو المحارب ، فقد اهتم بالمدن ، وتنظيم القضاء ، إذ منح المدن كثيرا من الامتيازات والإعفاءات ، ففى عام ١١١٠م/ ٥٠٣هـ منح سكان مدينة إخيا بعض الامتيازات ، وفى عام ١١١٤م/ ٥٠٨ هـ منح إلى بلدة القصر الامتيازات التى منحها إلى مدينة جاقة ، وفى عام ١١١٦م/ ٥١٠هـ منح امتيازات هامة إلى مدينتى بلوراد وكاسترو خرث ، كما منح مد جنين تطيلة بعض الإعفاءات فى عام ١١١٨م/ ٥١٢هـ ، وفى العام التالى منح امتيازات إلى مدينة سرقسطة ، كما أسس مجلس بلدية بلشر[٣] . كما منح ألفونسو المحارب فى عام ١١٢١م/ ٥١٥هـ الإعفاء العام والامتياز الخاص بالأشراف إلى سكان سرقسطة ، ومنح كنيسة تطيلة عطايا كثيرة ، وفى عام ١١٢٢م/ ٥١٦هـ منح امتيازات لبلدة شفونشة الجديدة Sanguesa ، كما أقام جسر أرجا الذي يسمى أيضا جسر الملكة ، ومنح مستوطنى الجسر حرية استعمال الماء وقطع الأخشاب ، ومنحهم

---

(١) Ibid, pp. 119 - 120 .

(٢) Lacarra, Alfonso el B., p. 120 .

(٣) Ballesteros, op. cit., t. II, pp. 458 - 459 .

الامتيازات والإعفاءات التى منحها لأشراف مدينة استياء ، كما خصص العشر من المحاصيل والإيرادات لكنائس الجسر[١] .

وفى عام ١١٢٤م/ ٥١٨هـ ، بينما كان الملك ألفونسو المحارب فى طريقه إلى الماثان توقف فى ريوخه ، وبصحبته بعض الأساقفة والفرسان ، وإخلاصا من الملك للقديس دومينجو، أسس ألفونسو قرية وأطلق عليها اسم طريق سان دومينجو المرصوف Santo Domingo de la Calzada لخدمة الحجاج الذين يمرون فى طريقهم إلى شانت ياقب دى جليقية[٢] .

لقد ترتب على تقدم القوات الأرغونية ظهور مشكلتين خطيرتين أمام الملك الأرغونى : هما الدفاع والتعمير . الدفاع عن الحدود والأراضى التى اكتسبها من المسلمين ، وعن الحدود مع مملكة قشتالة ، والتى لم تحدد جيداً . والدفاع أيضا عن الحصون الأرغونية التى امتدت حتى كاريون وكاستروخرث وبرغش . لذلك حاول الملك إقامة الأرغونيين والنبريين فى أراضى استرامادورة التى فى سرية ، وفى الحدود الأرغونية الجديدة مع الإسلام . وقد أقبل على أرغون أقوام من القشتاليين والجسقونيين ، وأقاموا فى المقاطعات الحدودية الجديدة . ،كان التعمير الداخلى من أهم أعمال الملك ألفونسو المحارب ، فقد شجع هجرة الفرنسيين خاصة والأجانب عامة ، وبدأ إقامتهم فى جاقة وبنبلونة واستيا ، كما عمل على تعزيز مدن بلوراد وشفونشة وجسر الملكة ومدن صغيرة أخرى على طريق شانت ياقب ، مع منحها قوانين خاصة[٣] .

وكانت هناك مشكلة أكثر خطورة ، من وجهة النظر المدنية ، أنه شغل القلاع الأكثر أهمية بالمسيحيين ، مثل سرقسطة وتطيلة ، حتى أن المسلمين الذين استسلموا قد انتقلوا إلى الضواحى التى كانت خصصت لهم . فامتد إليها السادة الأجانب الذين ساعدوا الملك فى الغزو ومنحهم الملك الأراضى والإقطاعات نظير معاونتهم له ، وقد وجد بين سكان سرقسطة عدد كبير من البيارنيين منذ بداية فتحها ، بينما وجد فى تطيلة أقواما جاءوا من نورمانديا[٤] .

---

(١) Moret, A. R. N., t. II, pp. 284. 286 .

(٢) Ibid, t. II, p. 292 .

(٣) Lacarra, Alfonso el B., pp. 83 - 84 .

(٤) Ibid, p. 84 .

وبسبب الهاب الحماسة فى جنوب فرنسا لشن الحملة الصليبية على أسبانيا الإسلامية ، والتى لم تخمد بفتح سرقسطة ، فقد وصل سادة جدد بقواتهم ، بعضهم متطوعا ، والآخرون بدعوة من الملك . وإثر جاستون دى بيارن الذى بدون شك شخصية أكثر أهمية ، إذ أنه اشترك فى كل المشروعات الحربية لألفونسو المحارب حتى مات بطلا فى عام ١١٣٠م/ ٥٢٤هـ - فقد وصل سادة آخرون كثيرون منهم : روترو قمط البرتش ، ابن خال الملك ، الذى صار سيد تطيلة ، كما كافأه الملك بإقطاعة قورلة Corella ، وجاسيون فيكونت سول ، الذى أصبح حاكما لمدينة بلورادو منذ عام ١١٢٥م ، والقمط سنتولو دى بيجورا ، الذى امتلك نصف إقطاعة طرسونة ، وأرنالدو دى لبيدان ، الذى امتلك منازل وأراضى فى سرقسطة . بينما اضطر كبار السادة الإقطاعيين التابعين للملك إلى وضع جيوشهم لخدمة ألفونسو المحارب ، الذى استخدمهم فى الحملات الكثيرة التى اختطها ، لأنه اتبع خطة الهجوم ضد المسلمين بدلا من سياسة الدفاع[١] ، وهذا ما سوف نلاحظه فى المرحلة المقبلة .

---

(١) Lacarra, Alfonso el B., P. 84 .

الفصل الرابع

حملة ألفونسو المحارب على شرق وجنوب الأندلس

(١١٢٤-١١٢٩م / ٥١٨-٥٢٣هـ)

١- سيطرة ألفونسو المحارب على قلعة بنياكاديلا (بنى كاديل) .

٢- استدعاء مستعربى غرناطة لألفونسو المحارب .

٣- خط سير ألفونسو المحارب فى حملته على شرق وجنوب الأندلس ١١٢٥-١١٢٦م / ٥١٩-٥٢٠هـ .

٤- فشل الحملة فى تحقيق أهدافها وعودة ألفونسو المحارب إلى أراضيه .

٥- النزاع بين ملكى أرغون وقشتالة عام ١١٢٧م/ ٥٢١هـ وأثره فى تعطيل حركة الاسترداد .

٦- تأسيس ألفونسو المحارب لهيئة مونريال الحربية الدينية عام ١١٢٨م/ ٥٢٢هـ .

٧- محاولات ألفونسو المحارب للاستيلاء على بلنسية وهزيمة المرابطين فى موقعة القلعة أو القليعة عام ١١٢٩م/ ٥٢٣هـ .

وبعد نجاح ألفونسو المحارب فى المرحلة السابقة ، واصل أعماله العسكرية والاستعداد لحروب أخرى ، ففى شهر مارس عام ١١٢٤م/ ٥١٨هـ ، ذهب إلى دروقة ، ثم مر إلى لوجرونيو ومكث هناك حتى مايو ، وذلك للإشراف على بعض الأعمال الهامة . وفى يوليو/ جمادى الثانى من العام نفسه ، قام ألفونسو بحصار قلعة آرو Haro ، إذ ثار ضده لادرون Ladron حاكم ألبه وريوخه ، وديجو لوبيث Diego Lopez سيد بسقاية وآرو . ثم حرم ألفونسو هذا الأخير من أراضيه بسقايه وآرو ، ومر بجيشه داخل مقاطعات ديجو لوبيث[1] . ثم عاد ألفونسو المحارب إلى حدود المسلمين فى سبتمبر ١١٢٤م/ شعبان ٥١٨هـ ، وأقام مخيماته فى المدينة الجديدة التى أسسها مونريال . واستمر هناك خلال شهرى سبتمبر وأكتوبر

---

(١) D. H. E., t. I, p. 129; Lacarra, Alfonso el B., p. 85 .

مشغولا بتعمير الحدود ، من كارنينا Carinena حتى سينجرا ، وربما كان يدرس الاستعدادات الضرورية لتحقيق حملته على الأندلس وهى إحدى تطلعاته . وهذه الفكرة قد نضجت فى عقله منذ أن انتصر على المرابطين فى موقعة كتندة . وعند دخول الشتاء ، عاد ألفونسو المحارب إلى مدينة سرقسطة ، وفى شهر ديسمبر كان مشغولا فى إقامة المسيحيين فى سرقسطة وجلور Gallur واخيا وفى وادى وربه[١] .

وفى شتاء عام ١١٢٤-١١٢٥م نظم ألفونسو المحارب حملة جريئة إلى بنيا كاديلا التى تعرف فى الوقت الحاضر بنى كاديل Benicadell [٢] ، وهى هضبة فى منطقة وادى الأبيض Albaida ، والتى تحدد الممر الطبيعى بين أراضى بلنسية ولقنت Alicante . وكانت الحصن القديم للسيد القنبيطور ، ومن هذه المنطقة مر الجيش المرابطى عندما اتجه إلى بلنسية ، لذلك أعاد القنبيطور بناء قلعتها فى عام ١٠٩١م/ ٤٨٤هـ ، للدفاع عن بلنسية ضد المرابطين[٣] .

وقد اختلف بعض المؤرخين المحدثين حول الهدف من الحملة ، فيرى المؤرخ كمارينا أن حملة ألفونسو المحارب على بنياكاديلا هى إحدى الغارات المتكررة فى القرن الثانى عشر الميلادى، بهدف سلب الغنائم وتأديب المسلمين الذين حاولوا الهجوم على المناطق الأرغونية ، ويؤكد المؤرخ أن تزويد القلعة المهجورة بستين فارسا مسلحا ، دليل على رغبة البقاء ، ويستبعد أن تكون الحملة قد خصصت لإعداد حملة كبيرة على الأندلس فى السنة التالية[٤] . بينما يرى المؤرخ لاكارا أن هذه الحملة كانت تهدف إلى تأمين المرور بين أراضى بلنسية ولقنت ، تمهيدا لحملته على الأندلس ، بالزحف عن طريق بلنسية إلى الأندلس [٥] . ويميل الرأى الأخير إلى الصواب ، لأن ألفونسو عندما خطط لحملته إلى الأندلس عن طريق أراضى بلنسية ، عرف تماما الطريق الذى يجب أن يتبعه ، وقد سار فيه من قبل بصحبة أخيه الملك بطره الأول فى شتاء عام ١٠٩٦-١٠٩٧م/ ٤٩٠هـ ، لمساعدة القنبيطور فى تموين قلعة بنيا كاديلا ، ولذلك أدرك ألفونسو المحارب أهمية تأمين طريق بنيا كاديلا .

---

(١) Lacarra, Alfonso el B., p. 85 .

(٢) Anales Toledanos I, p. 345 .

(٣) Laacarra, Alfonso el B., 85 .

انظر خريطة رقم (٣) .

(٤) Camarena, op. cit., p. 13 .

(٥) Lacarra, Alfonso el B., p. 85 .

وأعد ألفونسو المحارب جزءا من قواته اختارهم من الفرسان الأرغونيين ، والنورمانديين والفرنجة ، من بينهم القمط روترو دى البرتش ، وجاستون دى بيارن وجاليندو ، سانشيز سيد بلشر ، مع الإخوة فى المنظمات الدينية وفرسان الحدود ، وبعض الأساقفة من بينهم بطره ليبرانا أسقف سرقسطة وآخرين ، وأرسلهم إلى بنيا كاديلا فى شتاء عام ١١٢٤-١١٢٥م/ ٥١٨هـ (١) .

وقد روى المؤرخ النورماندى أوردريك فيتال حملة بنيا كلاديلا فى شئ من الفوضى ، واهتم بتمجيد بطولات النورمانديين ، وعرض هذه الحملة كمهمة فرنسية تماما ، تحققت بنجاح. ويروى أوردريك فيتال تفاصيل الحملة ، فيقول إن الفرنجة زحفوا عن طريق أراضى بلنسية ، ووصلوا حتى قلعة بنيا كاديلا التى كانت تتكون من برجين منيعين ، واستولوا عليها ، ثم أسرعوا إلى مدينة شاطبة وشنوا الغارات على كل المنطقة الجبلية ، فخرج للقائهم والى بلنسية، الذى هرب قبل نشوب القتال .

وبعد ستة أسابيع ، غادر بنيا كاديلا الجزء الأكبر من الفرسان ، وعادوا إلى أرغون ، تاركين ستين فارسا فقط لحماية القلعة . وأمر على بن يوسف الجند المرابطين والأندلسيين بحصار القلعة ، واستمر حصارهم ثلاثة أيام من أغسطس ١١٢٥م/ رجب ٥١٩هـ ، وهى الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر ، ويصف أوردريك فيتال المعاناة التى تحملها الفرسان النصارى أثناء الحصار ، ويأسهم من أى مساعدة إنسانية . فابتهلوا المساعدة الإلهية ، وقرروا التوبة والصيام خلال هذه الأيام الثلاثة ، حتى كفّروا عما ارتكبوه من خطايا من قبل ، حتى استجاب الله لدعواتهم . وفى صباح يوم الخامس عشر من أغسطس ١١٢٥م/ الثالث عشر من رجب ٥١٩هـ ، ابتهل المحاربون المسيحيون باسم الرب ، وانطلقوا ضد القوات الإسلامية وبدأوا القتال ، واستمرت المعركة بين الطرفين طوال النهار حتى الغروب ، وحققوا النصر على المسلمين ، الذين ولوا بالفرار فى طرق مجهولة لمحاربى ألفونسو المحارب ، منتهزين فرصة ظلام الليل ، ولم يتمكن المحاربون المسيحيون من تعقبهم ومطاردتهم (٢) .

---

(١) D. H. E., t. I, p. 129 ; Kacarra, Alfonso el B., p. 86 .

(٢) Orderic Vital, Monachi Utiensis Historiae Ecclesiasticae (R. H. G. F.), t. XII, p. 748; Ibars, Valencia Arab. pp. 448 - 449 ; Camarena, op. cit., p. 12 .

ومن الجدير بالذكر أن الروايات الإسلامية لم تشر إلى هذه الحملة ، فى حين أن الروايات المسيحية قد تناولتها بشئ من المبالغة ، وأضفت على فرسانها بطولات مجيدة فى الدفاع عن القلعة . والواضح أنها كانت غارة بسيطة اعتاد عليها الطرفان .

ولقد اهتم ألفونسو المحارب باستتباب الأمن والاستقرار فى مملكته استعدادا لحملته على الأندلس ، فقام بزيارة المدن الأرغونية ، منذ بداية عام ١١٢٥م/٥١٨ - ٥١٩هـ ، وعمل على توطيد حكمه فى سرقسطة وأرغون وبنبلونة حتى كاريون ، وقام بتعمير مدينة لويزيا ، كما انشغل ألفونسو المحارب بالتخطيط والإعداد للحملة على الأندلس ، فقد استلزمت دراية ومعرفة جيدة للولايات الإسلامية التى يخترقها ، ومعرفة أحوالها ، وحصونها ، كما كان فى حاجة لإعداد الجيش إعدادا جيدا ، وكان على اتصال دائم مع مسيحى غرناطة الذين حاولوا أن يتخلصوا من الحكم الإسلامى . ولاشك أن كل هذا قد تحقق فى سرية تامة ، حتى يتم له عنصر المباغتة ، وفى أواخر سبتمبر ١١٢٥م/ أواخر شعبان ٥١٩هـ بدأ ألفونسو المحارب حملته المشهورة على أراضى الأندلس[١] .

وقبل الدخول فى تفاصيل الحملة ، يجدر بنا أن نعطى شيئا من التفصيل عن المستعربين Mozarabes وعلاقتهم بالمجتمع الإسلامى فى أسبانيا الإسلامية . ومن الجدير بالذكر أن الوثائق التاريخية العربية واللاتينية والقشتالية أشارت إلى المسيحيين الأسبان الذين عاشوا خاضعين للسيادة الإسلامية ، بأسماء مختلفة . وبالتأكيد أن اسم مستعربين من أصل عربى ، تبعا لشكله القديم والأصلى Mostarabes . وقد أطلق عليهم اسم عجم Acham أو Ache-mies ، ومفردها أعجمى ، أى البرابرة أو الأجانب ، وكثيرا ما استخدم هذا الاسم فى المدونات العربية - الأسبانية ، ولو أن هذه اللقب قد كتب فى وثائق عامة باللغة العربية بعد استرداد حريتهم ، مثلما استخدمه ابن حيان وابن الأبار[٢].

وأحيانا أطلق عليهم اسم نصارى Nacranies ومفردها نصرانى Nacrani طبقا للفظ العربى الأسبانى ، وجمعها نصارى Nacara ، مثلما استخدمها ابن عذارى ، وأحيانا أخرى أطلق عليهم لفظ مسيحيين ، أو روم Romies أو رومان ومفردة رومى ، كما عرفوا باسم

---

(١) Lacarra, Alfonso el, B., pp. 83, 86 .

(٢) Simonet, Hist. de Los Mozarabes de Espana, Madrid, 1897-1903, pp. VII-VIII .

مشرك Moxrique ، الذى خصص للمسيحيين . وفى الاصطلاح القضائى عرفوا بأسماء ذمى Dimmies ، وأهل الذمة وعجم الذمة ، أى دافعى الجزية المفروضة إلى الحاكم المسلم ، نظير حمايتهم . وكان هذا الاسم شائعا بين اليهود الخاضعين (الذميين) ، وللتمييز بين الطرفين أطلق عليهم نصارى الذمة Nacara - addima ، أو مسيحيى الذمة ، مثلما استخدمها المقرى . وقد سموا أيضا بالمعاهدين Moahides ومفردها معاهد ، وأيضا النصارى المعاهدين، التى تعنى حلفاء متحدين وذميين[1] . ولكن الوثائق الأسبانية - اللاتينية والقشتالية للعصور الوسطى تجاهلت كل هذه الأسماء وخاطبت المسيحيين الخاضعين تحت الحكم الإسلامى باسم المستعربين ، وقد كتبت بهذه الأشكال ، Mosarabes ، Muzarabes ، Mozarbes ، Mustarabes ، Almozarabes ، Mozarabia ومفردها مستعرب[2] .

ومنذ عهد الإمارة كان المستعربون يؤلفون أقليات كبيرة ذات شأن فى القواعد الأندلسية الكبرى ، يتمتعون بالرعاية والتسامح فى ظل الحكومة الإسلامية ، التى كفلت لهم حرية العقيدة ، والاحتكام الى قوانيهم وقضاتهم ، وكانوا يعيشون فى أحياء خاصة بهم فى المدن الإسلامية فى سرقسطة وتطيلة وقلعة أيوب ، وكان لهم رئيس يعرف "بالقومس" ، وقاضى يعرف "بقاضى النصارى أو العجم" ، يفصل فيما بينهم من منازعات بمقتضى القانون القوطى، أما ما يكون بين مسلم وذمى من منازعات فالفيصل فيها للشريعة الإسلامية[3] . وقد شغل الكثير منهم مناصب هامة فى الإدارة وفى القصر ، وأتقن الكثير منهم اللغة العربية إلى جانب لغتهم الرومانية الأصل . وكان بنو هود أصحاب سرقسطة يبسطون رعايتهم وحمايتهم على المستعربين ، لدقة مركزهم بين الممالك النصرانية ، ولاجتناب الدسائس والاضطرابات الداخلية ، وكان المقتدر بن هود من أشد أنصار التسامح مع النصارى ، وقد اعتمد بنو هود على محالفة جيرانهم من الملوك النصارى ، وحشدوا المرتزقة النصارى فى جيوشهم بصفة مستمرة وكانوا أفضل سند لعرشهم[4] .

---

(١) Simonet. op. cit., p. VIII .

(٢) Ibid. pp. IX. XV .

(٣) لطفى عبد البديع ، الإسلام فى أسبانيا ، ص ٢٧ - ٢٨ .

(٤) محمد عبد الله عنان ، دول الطوائف ، ص ٤٠٩ ، ٤١٢ .

وبالرغم من سياسة التسامح التى اتبعها الحكام المسلمون نحو المستعربين ، إلا أنهم شعروا بالخضوع الذليل للحكومات الإسلامية ، ولم يشعروا بالولاء نحوها ، بل كانوا ينتهزون الفرصة للقضاء عليها واسترداد بلد أسلافهم ، للانتقام من المسلمين . وقد اعتبر الملوك النصارى فى الشمال أنفسهم كحماة لهم ، وغالبا ما اعتبرهم المستعربون كمنقذين ومحررين لهم ؛ بصفتهم ورثة للملوك القوط ، ولذلك دافع عنهم الملوك النصارى وساعدوهم بقدر استطاعتهم . وبالمثل ساعد المستعربون الملوك النصارى فى حملاتهم على أسبانيا الإسلامية ، وعلى سبيل المثال ، موقف مستعربى طليطلة وإعانتهم للملك ألفونسو السادس ملك قشتالة عند استرداده لمملكة طليطلة ، ومستعربى سرقسطة الذين قدموا مساعدة كبيرة للملك ألفونسو المحارب من أجل استسلام المدينة ، وموقف مستعربى غرناطة واستدعائهم لألفونسو المحارب وإمداده بالعون[١] .

وعن حملة ألفونسو المحارب على بلاد الأندلس ، فقد أمدتنا الرواية الإسلامية بتفاصيل هذه الحملة ، بينما أشارت اليها الرواية المسيحية بإيجاز . ويرجع السبب الرئيس لهذه الحملة إلى استنجاد مستعربى غرناطة بألفونسو المحارب للإنتقام من المرابطين وتحريرهم من سيادة المسلمين . وتفاصيل ذلك - نقلا عن رواية ابن الصيرفى[٢] - أنه كان للنصارى المعاهدين كنيسة شهيرة فى ضواحى غرناطة تجاه باب إلبيرة Elvira ، تعترض الطريق إلى قولجر[٣] ،

(١) Simonet. op. cit.. pp. 137-138; Miranda. H. M. V., III, p. 52 .

(٢) ابن الصيرفى : هو يحيى بن محمد بن يوسف الأنصارى ، يكنى أبا بكر ويعرف بابن الصيرفى ، من أهل غرناطة ، كان نسيج وحده فى البلاغة والجزالة والتبريز فى أسلوب التاريخ والمعرفة باللغة والخبر . قال أبو القاسم (الملاحى) ، من أهل المعرفة بالأدب والعربية واللغة والتاريخ ، ومن الكتاب المجيدين والشعراء المطبوعين المكثرين ، كتب بغرناطة عن الأمير أبى محمد تاشفين الذى حكم الأندلس من ١١٢٦-١١٣٧م/ ٥٢٠-٥٣١هـ ، وألف فى تاريخ الأندلس كتابا سماه "الأنوار الجلية فى أخبار الدولة المرابطية "تناول فيه أخبار الدولة المرابطية . ولكن هذا الكتاب لم يصل إلينا ، ولم يتلق منه سوى شذور يسيرة على يد بعض المؤرخين اللاحقين مثل ابن عذارى ، وابن الخطيب الذى اقتبس منه كثيرا ، وابن سماك العاملى . وقد توفى ابن الصيرفى بغرناطة حوالى عام ١١٧٤م/ ٥٧٠هـ . محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٠ حاشية ١ .

(٣) قولجرهى اليوم بلدة Cuejar Sierra الصغيرة الواقعة على قيد مسافة قليلة من شرقى غرناطة فى اتجاه باب البيرة . ابن الخطيب ، الإحاطة جـ١ ، ص ١٠٧ حاشية ٥ .

فأمر الأمير يوسف بن تاشفين بهدمها ، بتحريض الفقهاء ، وخرج أهل غرناطة لهدمها فى يوم الاثنين الثالث والعشرين من مايو ١٠٩٩م / آخر جمادى الآخر ٤٩٢هـ ، فصيرت فى الحال ركاما[١] . وقد أدى هدم الكنيسة إلى إثارة غضب المستعربين الغرناطيين ، فاستنجدوا بألفونسو المحارب انتقاما من المسلمين .

ويشك كوديرا فى أن يكون نداء مسيحى الأندلس لألفونسو المحارب كان مقياس معاناة المستعربين ، بعد مضى ثمانية وعشرين عاما منذ هدم الكنيسة القديمة لبوابة إلبيرة . ويحتمل كوديرا أن حملة ألفونسو المحارب كانت من اقتراح ألفونسو نفسه ، وكان من الطبيعى أن يسعى إلى وصل العلاقة مع المستعربين بطريقة ما ، فقد رأى فى إمكانهم خدمته كثيرا فى تحقيق انتصاراته ، ولو بدون مشاركة فعلية ومباشرة فى المعركة[٢] .

وقد علق المؤرخون النصارى على هذا الحادث وحملوا على المرابطين حملة قاسية ، وقدموا مجتمع المستعربين فى صورة قاتمة ، ويزعمون بأنهم كانوا ضحية الجور والإرهاق ، يعانون من ضغط الحكومة الإسلامية فى صور وأوضاع شتى ، كما أن وضع المستعربين قد ازداد سوءا مع سيادة المرابطين المتعصبين . فيقول المؤرخ دوزى أن الفقهاء حصلوا على إذن بهدم الكنيسة القديمة فى غرناطة ، والتى مكانها اليوم ميدان النصر ، وكمّم دوزى هدم الكنائس جميعا وبصفة عامة ، فذكر أن المرابطين اضطهدوا النصارى المعاهدين وهدموا كنائسهم ، ومن ثم استغاث النصارى بألفونسو المحارب للانتقام لما نزل بهم من الاضطهاد[٣] .

أما المستشرق الأسبانى سيمونيت فيقول إن مسيحى غرناطة كانوا قد تعرضوا للاضطهاد من حاكم غرناطة ، نتيجة تعصب المرابطين ، فأقبل يهدم كنائسهم ، واضطهد قساوستهم ، ونقض قوانينهم ، وعانوا من الاضطهاد أعواما فى صمت ، فقرروا التوسل لعون ملك أرغون ألفونسو المحارب الذى نال شهرة كبيرة فى شبه الجزيرة الأيبيرية بفتوحاته وانتصاراته على المسلمين[٤] .

---

(١) ابن الخطيب ، نفس المصدر ، جـ١ ، ص ١٠٧ - ١٠٨ ،

Dozy, Recherches, t. I, p. 351 .

(٢) Codera, op. cit., pp. 212-213 .

(٣) Dozy, op. cit., t.I, pp. 348-349 .

(٤) Simonet, op. cit., p. 745 .

أما المؤرخ كوديرا ، فقد تحامل على المرابطين واتهمهم بعدم التسامح مع المسيحيين ، وبالتشدد فى ضرورة هدم الكنائس ، لأنهم اعتبروها عارا فى شبه الجزيرة الأيبيرية ، ورثى حال المستعربين فى ظل السيادة المرابطية . كما أن كوديرا اتهم يوسف بن تاشفين بالتعصب ، وخضوعه لرأى الفقهاء ، وتعرض مسيحى غرناطة لاضطهاد ومضايقات المرابطين خاصة فى تأدية عباداتهم ، نتيجة كراهية الفقهاء الشديدة لهم ، حتى امتلأ المكيال فى عام ١١٢٥م/ ٥١٩هـ ، فتوسلوا إلى ألفونسو المحارب أن يساعدهم ويخلصهم من العبودية ، ويستولى على الأراضى الخاضعة للإسلام ، وتعهدوا له ببذل العون والعمل كمرشدين ومحاربين ، وتبعا لهذا أقدم الملك الأرغونى على حملته المشهورة[١] ويستطرد كوديرا قائلا أن هدم كنيسة غرناطة القديمة ، كان بدون سبب ، وأن المؤرخ المسلم - يقصد ابن الصيرفى - لم يذكر شيئا عن الأسباب التى أدت الى ذلك ، كما أنه لم يشر إشارة واحدة إلى توتر العلاقات بين المسلمين والمسيحيين فى هذه الفترة[٢] .

وقد اتفق المؤرخ سكوت مع المؤرخين السابقين على اتهام الفقهاء باضطهاد المسيحيين فى الأندلس ، وخاصة فى ولاية غرناطة ، التى ارتفع فيها عدد المستعربين ، فقد صادر المرابطون ممتلكات الكنائس والأديرة أو هدمها ، كما تعدوا على أملاكهم ، وتزايدت الجزية باستمرار ، وشاعت الإهانة ، ولحق بهم الاضطهاد الدينى حتى نفد صبرهم . فبدأ المستعربون يفكرون فى التحرر من هذه الأوضاع فى الوقت الذى كانت فيه دولة المرابطين تواجه عقبات خطيرة ، كان أهمها انشغال المرابطين بمحاربة الموحدين[٣] فى أفريقية ، وانسحاب صفوة القوات الأندلسية

---

(١) Codera, op. cit., pp. 192-193, 209 .

(٢) Iid, p. 210 .

(٣) الموحدون : هم طائفة دينية إصلاحية كونها محمد بن عبد الله بن تومرت المغربى السوسى ، الملقب بالمهدى ، وهو من قبيلة هرغة إحدى قبائل المصامدة بالسوس الأقصى ، وكان ارتحل إلى المشرق فى طلب العلم عام ١١٠٧م/ ٥٠١هـ ، وبعد عودته من المشرق عام ١١١٧م/ ٥١٠هـ ، أخذ يدرس العلم فى مدن أفريقية وبلاد المغرب وهو يدعو إلي الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . والتقى بعبد المؤمن بن على فى تلسان فأخذ عنه العلم وعلم بمراده وما قصد إليه من طلب الخلافة ، فوافقه وبايعه على مؤازرته ، وقدم معه إلى المغرب الأقصى ، وأخذ المهدى يشيع عند الناس أنه الإمام المهدى المنتظر ، وأخذ يستنقص المرابطين ملوك المغرب ويطعن فيهم وينسبهم إلى الكفر ، ويدعو إلي خلع طاعتهم ، ثم نزل بمراكش دار مملكة المرابطين فى عام ١١٢٠م/٥١٤هـ ، واتصل خبره بأمير المسلمين على بن يوسف ، فأمر بإخراجه من المدينة . =

إلى أفريقية للدفاع عن مراكش ، وتقدم المراكز الأمامية الأرغونية بعد استرداد سرقسطة ، وتراجع الحدود الإسلامية الأسبانية ، كل هذا بث الأمل فى نفوس المستعربين ، فتطلعوا إلى أحلام الحرية ، من أجل إعادة توطيد السيادة المسيحية والعقيده المسيحية من البرنيه إلى البحر المتوسط[١] .

ومما سبق يتضح أن هؤلاء المؤرخين قد أساءوا الحكم بخاصة علىّ بن يوسف ، وعلى المرابطين بعامة ، والجدير بنا ألا نأخذ بأقوالهم ، لأن المرابطين كانوا رجال دين ، وثقوا فى الفقهاء ، وأسلموا لهم الكثير من أمور الدولة ، حتى لاتشغلهم عن أمور الغزو الجهاد فى سبيل الدفاع عن الإسلام .

وصاحب هذه المرحلة ارتفاع شأن ألفونسو المحارب ، واشتهاره ببطولاته بعد استرداده لمدن سرقسطة وقلعة أيوب وتطيلة ودروقة ، وبعد ظهور ضعف الجيوش المرابطية ، لكل هذه

= وخرج المهدى إلى بلاد السوس ، ونزل بموضع منها يعرف بتينمل فى سفح جبل درن من شعب جبال أطلس جنوب غربى مراكش ، ومن هذا الموضع قامت دعوته واشتد خطرها . وكثر أتباعه وعظم صيته ، وأخذ يدعوهم إلى التوحيد ، ودعا الناس إلى بيعته ، وأعلن أنه المهدى المنتظر ، وسمى كل من دخل فى طاعته وبايعه بالموحدين ، وعلمهم التوحيد باللسان البربرى ، ودخل الناس فى طاعته ، حتى كمل له من أنصاره ما يزيد على العشرين ألف رجل . وسرعان ما تطورت حركة المهدى من حركة دينية إلى حركة سياسية ، وأخذ يدعو إلى جهاد المرابطين ، وانتشر أمر المهدى بجميع أقطار المغرب والأندلس ، وعظم أمره وقوى سلطانه ، ثم غزا مراكش بنفسه ، وأقام محاصرا لها ثلاث سنين من ١١٢٢-١١٢٥م/٥١٦-٥١٩هـ ، ثم ارتحل الى بلاده المصامدة يقاتل القبائل المتخلفة عن طاعته ، ثم غزا قبائل جبل درن ، ففتح جميع قلاعه وأوديته ، ثم رجع إلى تينمل فأقام بها . ولم يزل أمير المسلمين على بن يوسف يوالى الحروب على أصحاب المهدى ويبعث لمحاربتهم الجيوش وينفق عليهم بيوت الأموال ، فدامت أكثر مدته فى حروب معهم ، وحقق الموحدين عدة انتصارات على جيش المرابطين ، حتى هزمت قوات المهدى فى موقعة البحيرة بأحواز مراكش فى عام ١١٣٠م/٥٢٤هـ ، وتوفى المهدى على أثر ذلك . واستأنف خليفته عبد المؤمن بن على الكفاح ضد المرابطين . ابن القطان ، نظم الجمان ، ص٨٢-٨٣ ، ابن سماك العاملى ، الحلل الموشية ص٧٥-٧٦ ، ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠١ - ١١٩ ، عبد الله على علام ، الدولة الموحدية فى المغرب ، دار المعارف ، ١٩٦٨ ، ص ٤٢-٨١ .

(١) Scott, op. cit, pp. 260-261 .

الأسباب بدأ التآمر بين المستعربين وملك أرغون الذى كان أكثر ملوك النصارى نشاطا فى حركة الاسترداد فى تلك المرحلة ، فأرسلوا إليه أوصاف مدينة غرناطة طبوغرافيا[١] .

أما عن تفاصيل التحالف بين المستعربين وألفونسو المحارب ، فيروى المؤرخ ابن الصيرفى أنه فى عام ١١٢٥م/٥١٩هـ خاطب المستعربون من جبل دور Darro والبشارات Alpujarras[٢] بكورة غرناطة ألفونسو المحارب ، وتوالت عليه كتبهم ورسلهم ، يلحون عليه فى التقدم وغزو الأندلس ودخول غرناطة[٣] . وشرحوا له أحوال الأندلس وأحوال قلاعها ، ورجوه أن يجهز حملة إليها ، وتعهدوا أن يعاونوه بالنصح والعمل كمرشدين ومحاربين[٤] . فلما أبطأ عنهم ، وجهوا إليه سجلا يشتمل على أسماء اثنى عشر ألفا من أنجاد مقاتليهم ، كما وعدوه عند وصوله إليهم بأن ينضم إلى جيشه جميع المستعربين فى بلادهم . فاستثاروا طمعه، وابتعثوا جشعه ، واستفزوه بأوصاف غرناطة ومالها من الفضائل على سائر البلاد ، وما تتميز به من ثروات وخيرات ، وكثرة منتجاتها من القمح والشعير والكتان ، والحرير والكروم والزيتون ، وأنواع الفاكهة ، وكثرة العيون والأنهار ، ومنعة قصبتها ، وانطباع رعيتها ، وجمال إشرافها وإطلالها ، وأنها المباركة التى يمتلك منها غيرها ، المسماه سنام الأندلس عند الملوك فى تواريخها ، وأشخصوا بكتابهم وزمامهم كهولا منهم تكلموا بين يديه ، وصوروا له سهولة الاستيلاء على غرناطة ، حتى عزم وجد فى الحشد[٥] .

---

(١) أشباخ ، تاريخ الأندلس ، ص ١٤٦-١٤٧ .

أنظر خريطة رقم (٧) .

(٢) البشارات Alpujarras : أصل هذه الكلمة ، من لفظة لاتينية معناها المراعى Pastur ، وكانت تطلق عند العرب على الجبال التى تمتد جنوب جبل الثلج . وسميت بهذه اللفظة كذلك كورة كانت قاعدتها جيان ، وكانت تشتمل على ستمائة قرية كلها تنتج الحرير . ولفظة البشارات الأسبانية مشتقة من اللفظ العربى . محمد الفاسى ، الأعلام الجغرافية الأندلسية ، ص٢٤ .

(٣) ابن عذارى المراكشى ، البيان المغرب جـ٤ ، ص٦٩ ؛ ابن سماك العاملى ، الحلل الموشية ، ص ٦٦ ؛

Simonet, op. cit., pp. 745-746 .

(٤) أشباخ ، تاريخ الأندلس ، ص ١٤٧ .

(٥) ابن الخطيب ، الإحاطة ، جـ١ ، ص١٠٩ ، Dozy, Recherches, t. I, pp. 352-353; Simonet, op. cit., p. 746 .

مما تقدم يتضح أن المستعربين اقترحوا على ألفونسو المحارب خطة لقيام مملكة مسيحية مستقلة بمساعدتهم فى غرناطة ، مثل بلنسية التى كانت خضعت للسيد القنبيطور . ويبدو أن ألفونسو تردد حينا فى قبول المشروع نظرا لبعد المكان وعدم الاطمئنان إلى الوعود المقطوعة ، وكرر المستعربون السعي والرجاء والإغراء بصفات غرناطة ، فتضاعف هذا الإغراء فى نفس الملك عما كان يتصوره من صعوبة المشروع ، وما يتخيله من ضروب المغامرة ، فليست هناك أية قاعدة عسكرية ثابتة ، وليس أمامه سوى وعود المستعربين ، وهى وعود لا يعول عليها . ومع ذلك فقد كان من روح العصر ما يسمح باتخاذ القرارات السريعة المرتجلة ، وهى روح قامت على الثقة فى عون الله على تذليل الصعاب مهما عظمت ، وكان فتح بيت المقدس يبدو للنصارى فى كل مكان مثلا ساطعا لهذا العون ، كما كانت بلنسية القنبيطور فى خيال ملك أرغون[1] .

وقد شجعت أحوال المرابطين فى ذلك الوقت على قيام ألفونسو المحارب بحملة ضد الأندلس ، إذ أن صراعهم مع الموحدين قد صرف انتباههم عن الأندلس إلى المغرب . وقرر ألفونسو المحارب أن يبدأ بغزو غرناطة ، فحشد جيشا مختارا من أربعة آلاف فارس[2] ، أو خمسة آلاف فارس وخمسة عشر ألف من المشاة[3] ، اختارهم من بلاد أرغون وتوابعها . واشترك فى الحملة جاستون دى بيارن ، وسنتولو دى بيارن ، والأساقفة بطره أسقف سرقسطة، واستبان أسقف وشقة ، ورامون أسقف رودا ، وأقسم أعضاء الحملة أن لايفر أحد منهم عن صاحبه [4] .

---

(١) أشباخ ، نفس المرجع ، ص١٤٧ ؛

Lacarra. Alfonso el B., p. 88 .

(٢) ابن سماك العاملى ، الحلل الموشية ، ص ٦٧ ،

Simonet. op. cit., p. 746: Codera. op. cit., p. 14 .

(٣) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٤ ، ص ٦٩ .

(٤) ابن سماك العاملى ، الحلل الموشية ، ص ٦٧ ؛

Dozy. Recherches. t. I. p. 353. not. 2.

خرج ألفونسو المحارب من مدينة سرقسطة فى آخر سبتمبر ١١٢٥م/آخر شعبان ٥١٩هـ[١] فى سرية تامة ، بدون أن يعلن عن خطته لأحد ، وأخفى وجهته الحقيقية عن المسلمين ، واتجه بحشوده نحو الشرق ، مخترقا أراضى لارده وإفراغة الإسلامية ، ثم انحرف جنوبا ، حتى وصل إلى مقربة من بلنسية فى يوم الثلاثاء عشرين من أكتوبر/ عشرين من رمضان من العام نفسه ، واشتبك مع الحامية المرابطية بقيادة أبو محمد بدر بن ورقاء[٢] ، وأقام بها يقاتلها مدة ، وفى أثناء ذلك وصله عدد كبير من المستعربين الذين انضموا إلى جيشه ، وعملوا كمرشدين ومخبرين ، وكانوا يدلونه على الطرق والمسالك ، ويكشفون له مواطن الضعف لدى المسلمين فى المدن والحصون التى يمر بها . ثم غادر ألفونسو بلنسية ، واجتاز على جزيرة شقر Alcira[٣] فقاتلها أياما بدون نجاح ، ثم رحل منها إلى دانية ، وهاجمها ليلة عيد الفطر فى الحادى والثلاثين من أكتوبر ١١٢٥م/ أول شوال ٥١٩هـ ، واقتلع حقولها . واستمر

---

(١) ابن سماك العاملى ، المصدر نفسه ، ص ٦٧ . ومن الجدير بالذكر أن المؤرخ ابن الخطيب قد حدد خروج ألفونسو من سرقسطة ، عام ٥١٥هـ / ١١٢١م (الإحاطة ، جـ١ ، ص ١٠٩) ، وربما كان هذا خطأ مطبعيًا .

(٢) أبو محمد بن ورقاء ، هو القائد أبو عبد الله بدر بن ورقاء والى بلنسية ، ويبدو أن عمل مملكة مرسية أضيف إليه بعد ذلك ، ويذكر ابن عذارى أن محمد بن يوسف بدر صاحب بلنسية توفى عام ١١٣٠م/٥٢٤هـ. ومن بين النصوص السياسية التى نشرها الدكتور حسين مؤنس عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين ، رسالة موجهة من أبى عبد الله بن ورقاء إلى القاضى ابن عبد العزيز ببلنسية يعلمه فيها باستخلاص حصن كرالية من أحواز بلنسية من أيدى النصارى ، وهذه الرسالة مؤرخة فى يوم الجمعة الخامس عشر من يونيه ١١٢٨م/ الرابع عشر من جمادى الآخر ٥٢٢هـ . ابن القطان ، نظم الجمان ، جـ٣ ، ص ١٠٩ - ١١٠ ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٤ ، ص ٨١ ، حسين مؤنس ، نصوص سياسة عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين ، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمدريد ، العدد الثالث ، المجلد الأول لعام ١٩٥٥ ، ص١٢٠-١٢٢ .

(٣) جزيرة شقر Alcira : تقع جنوبى بلنسية وشرقى شاطبة ، عند مصب نهر شقر ، وهى مركز إدارى فى مديرية بلنسية ، وهى حسنة البقعة ، كثيرة الأشجار والثمار والأنهار ، وكان بها مساجد وفنادق وأسواق. وقيل لها جزيرة لأن بموقعها على نهر شقر أشبه بجزيرة فى وسط نهر عظيم قد حف بها من جميع جهاتها ، فلا طريق إليها إلا على القنطرة ، وبينها وبين بلنسية ثمانية عشر ميلا . عبد الواحد المراكشى ، تاريخ الأندلس المسمى "بالمعجب" ص٢٤٦ - ٢٤٧ ، الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ١٠٢ - ١٠٣ .

ألفونسو في مسيره مخترقا بلاد شرقي الأندلس ، وشن الغارات أينما مر ، واجتاز على فج شاطبة ، وبنياكاديبلا حتى وصل إلى مملكة مرسية ، ثم اجتاز منها إلى بيرة Vera[١] ، والمنصورة Almanzora [٢] ، ثم انحدر إلى برشانة Purchena[٣] ، ثم إلى وادي تاجلة Ti-jola، وهناك توقف الجيش الأرغوني ثمانية أيام على ضفاف نهر تاجلة [٤] .

ثم تحرك ألفونسو المحارب إلى مدينة بسطة Baza شمال شرقي غرناطة ورأى أن المدينة تقع في بسطة من الأرض ، وأن معظم أرباضها غير مسور ، فطمع فيها وحاول فتحها ولكنه فشل . فتابع سيره إلى أن وصل إلى مدينة وادي آش Guadix ، وهاجم المدينة من جهة المقابر، ورحل نحو السند Sened وفيه نصب الكمائن . ثم أقلع من السند ونزل بقرية غريانة Graena وقاتلها من غربها ، وخيم على فرسخ من وادي آش في مكان يسمى القصر Alca-zar في جنوب شرقي غرناطة ، في منحدر شمال جبل شلير Sierra - Nevada [٥] فـــي

---

(١) بيـــرة Vera : حصن منيع على حافة مطلة على البحر ، وتقع بلدة بيرة في شمال شرقي المرية ، الإدريسي ، صفة المغرب والأندلس ، ص١٩٦ - ١٩٧ ؛ ابن الخطيب ، الإحاطة جـ١ ، ص١٠٩ ، حـ ٥ .

(٢) المنصـورة Almanzora : تقع مدينة المنصورة في شمال شرقي المرية . ابن الخطيب ، نفس المصدر جـ١ ، ص١٠٩ ، حـ٥ .

(٣) برشـانـة Purchena : تقع مدينة برشانة في شمال المرية في طريق وادي آش . ابن الخطيب ، نفس المصدر ، جـ١ ، ص ١٠٩ ، حـ ٥ .

(٤) ابن سمال العاملي ، الحلل الموشية ، ص ٦٧ .

Simonet, op. cit., p. 746 .

تتبع خط سير الحملة في الخريطة رقم (٨) .

(٥) يطلق الجغرافيون الأندلسيون اسم شلير أو جبل الثلج على جبال سييرا نيفادا ، التي تشرف على مدينة غرناطة من الجنوب الشرقي . وأصل كلمة شلير من الاسم الروماني Mons Solarius ومعناها جبل الشمس ، وذلك لأن الشمس تسلط أشعتها الساطعة على هذه الجبال فينعكس ضوؤها على الثلوج الناصعة التي تغطيها . وكان العرب يسمون هذه السلسلة بجبل الثلج ، لأن الثلج به دائما في الشتاء والصيف ، وهو ترجمة عربية مطابقة لاسمها القشتالي Sierra Nevada أي الجبال الثلجية ، وهذا الجبل في غاية الارتفاع ، وتقع مدينة وادي آش وغرناطة في شماله ، ووجه الجبل الجنوبي مطل على البحر . الحميري ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ١١٢ ، ابن الخطيب ، الإحاطة ، جـ١ ، ص ٩٩ ، حـ٦ .

أوائل شهر ديسمبر ١١٢٥م/ أوائل ذى القعدة ٥١٩هـ ، وجدد هجماته على وادى آش من جهة الغرب ، بلا تحقيق لأى فائدة ، فاستمر محاصرا لها نحو شهر[١] ، واحتفلت القوات الأرغونية هناك بعيد الميلاد ، وكانوا فى قمة السعادة بالنصر[٢] .

وهكذا وصل ألفونسو المحارب إلى مقربة من غرناطة ، تاركا وراءه شقرودانية ومرسية وبياسة وجيان وغيرها من الأماكن الإسلامية المنيعة دون افتتاح ، وكان جيشه يتضخم يوما بعد يوم بانضمام المستعربين إليه ، ويغدو على المسلمين أشد نكاية وضرا[٣] . ويروى صاحب كتاب "الأنوار الجلية" ، أنه خلال ذلك بدأ ألفونسو يحث المستعربين بغرناطة على استدعائه ، فافتضح تدبيرهم فى اجتلابه ، وهمّ أميرها أبو الطاهر تميم بجمعهم واعتقالهم ، فأعياه ذلك لكثرتهم وبعد أقطارهم . وتسلل المستعربون إلى معسكر ألفونسو المحارب من كل طريق . وأثناء حصار ألفونسو لوادى آش ، علم الأمير على بن يوسف بحملة ألفونسو وتهديده لأسبانيا الإسلامية ، فأرسل من أفريقيا جيشا كبيرا لمساعدة الأمير تميم ، الذى اتخذ من غرناطة قاعدة له ، كما انضمت إليه قوات مرسية وبلنسية للدفاع عن غرناطة ، وهنا ظهرت براعة المرابطين فى فن الحصار ، ويصف لنا ابن الصيرفى كيفية حصار المرابطين لغرناطة بقوله: "وقد أحدقت جيوش المسلمين من أهل العدوة والأندلس بغرناطة حتى صارت كالدائرة ، وهى فى وسطها كالنقط"[٤] .

وفى أوائل يناير ١١٢٦م/ أوائل ذى الحجة ٥١٩هـ زحف ألفونسو المحارب فى قواته التى بلغت حينئذ خمسين ألف رجل ، من وادى آش ونزل بقرية دجمة Diezma [٥] ، ثم تقدمت القوات الأرغونية نحو غرناطة فى السابع من يناير / العاشر من ذى الحجة من العام نفسه ،

---

(١) ابن الخطيب ، نفسه ، جـ١ ، ص ١٠٩ - ١١٠ ، ابن سماك العاملى ، الحلل ، ص ٦٧ - ٦٨ ؛

Dozy, Recherches, t. I, p. 354 .

(٢) C. S. J. P., p. 79 .

(٣) أشباخ ، تاريخ الأندلس ، ص ١٤٨ .

(٤) ابن الخطيب ، الإحاطة ، جـ١ ، ص ١١٠ ؛ ابن سماك العاملى ، الحلل ، ص ٦٨ .

(٥) دجمة Diezma ، بلدة تقع غربى وادى آش ، فى منتصف الطريق بينها وبين غرناطة . ابن الخطيب، نفس المصدر جـ١ ، ص ١١٠ حـ٦ .

وأعلن المراقبون اقتراب الجيش الأرغونى ، فشاع الرعب فى المدينة ، وصلى أهل غرناطة صلاة الخوف ، يوم عيد الأضحى ، وهم مستعدون بالسلاح[١] . ويصف ابن عذارى حال غرناطة فى قوله : "وجاءت الطلائع منبئة بها فعميت .. وانقطعت السابلة والواردة ، وقلت المرافق ، وتزاحم الناس فى المدينة وسكنت المساجد والمصاطب والرحاب والخراب ، وكثر الجزع والإرجاف والموجان بالنهار والليل .. والأسوار معمورة بأهل البلدة ، ومانسى فى الدور غير الصبية والنسوة وتوالت الأمطار وسالت الطرق وضاقت النفوس أشد ضيقة"[٢] .

وبعد ظهر اليوم التالى ، نزل ألفونسو المحارب بواد فردش Fardés ، وأقلع منها إلى المزوقة ، ومنها نزل على غرناطة ، وأقام معسكره فى قرية النبيل Nivar بشرق المدينة ، ومكث ألفونسو بمعسكره عشرة أيام ، لم تسرح له سارحة ، ولاشنت غزوة ، والتزم السكون ، بسبب توالى الأمطار وكثرة الجليد ، منتظرا أن يخرج مسيحيو غرناطة للقائه ، وفتح بوابات المدينة له ، ولكن المستعربين اكتفوا بجلب الأقوات والمؤن إلى معسكره[٣] ، بينما كان فرسان المسلمين تراوحه وتغاديه دون مناوشة . وأثناء ذلك ، بعث ألفونسو المحارب إلى زعيم المستعربين بغرناطة ، وكان يعرف بابن القلاس ، ولامه ووبخه ، بسبب دعوته له دون أن ينفذ عهده ، فاحتج ابن القلاس لأنه تباطأ فى إقباله ، وتأخر وصوله أعطى وقتا لحشد القوات الإسلامية وإعداد المقاومة ، وأنهم قد أصبحوا عرضة للهلاك على أيدى المسلمين[٤] . وعلى أية حال أصبح موقف المستعربين أكثر تورطا وعرضة للخطر ، وخافوا من انتقام المسلمين ، فقرروا أن ينضموا إلى جيش ألفونسو المحارب ، للانتقال إلى وادى إبره وكان عددهم عشرة آلاف مستعرب تقريبا[٥] .

---

(١) ابن سماك العاملى ، الحلل ، ص٦٨ ؛ Simonet. op. cit., p. 747 ;

Ballesteros. op. cit., p. 457 .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٤ ، ص ٧٠ - ٧١ .

(٣) ابن الخطيب ، الإحاطة ، جـ١ ، ص ١١٠ ، ابن سماك العاملى ، الحلل الموشية ، ص ٦٨ ،

Lacarra. Alfonso el B., p. 89 .

(٤) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٤ ، ص ٧١ ، ابن الخطيب ، نفسه ، ص ١١٠ ،

Simonet. op. cit., p. 747 .

(٥) Dozy. op. cit., t. I. p. 356, not. 2; Codera. op. cit., p. 210 .

ويصف الراهب النورماندى أوردريك فيتال المؤرخ المعاصر ، موقف المستعربين فيروى أنه عند وصول ألفونسو إلى أراضيهم ، احتشد المستعربون وكان عددهم عشرة آلاف تقريبا ، حضروا متذللين إلى الملك ألفونسو المحارب قالوا له : "نحن وأباؤنا وإن كنا مأجورين بين الكفرة - المسلمين - ونسكن معهم حتى اليوم ، نحن عمدنا تعميدا ومارسنا المسيحية ممارسة بإرادة طيبة ، ولكننا لم نستطع أن نتعلم شعائر ديننا بإتقان . وبسبب خضوعنا للوثنيين - المسلمين - الذين اضطهدونا فى مثل هذا الوقت ، لم نجرؤ على الالتجاء إلى أطباء رومان أو فرنسيين ، ولم يرغبوا فى الحضور إلينا بسبب قسوة المسلمين الذين نطيعهم . لكننا الآن مسروورن كثيرا لحضورك ، ونريد وأهلونا أن نغادر وطننا ونرحل معكم آمنين" .

وافق الملك على طلب المستعربين ، وخرجوا من أرضهم فى أعداد كبيرة ، واختاروا هذا المنفى حبا فى العقيدة المسيحية ، مستعدين لمواجهة المحن الشديدة من الفقر والعناء[1] .

ومما سبق يتضح لنا أن زعيم المستعربين قد ورط ألفونسو المحارب فى مشروع متهور وجرئ وغير مفيد ، إذ صور له سهولة الاستيلاء على غرناطة ، وعند وصوله ، لم يجرؤ المستعربون على فتح بوابات المدينة له ، كما أن سوء الطقس وما ترتب عليه من الأمطار والعواصف الثلجية حالت دون القيام بحصار ناجع على غرناطة ، بالإضافة إلى دفاع الجيش الإسلامى عن غرناطة .

مما جعل ألفونسو المحارب يفقد كل أمل فى امتلاك غرناطة ، وأدرك أن غزوته هذه كانت قرارا متهورا ، فاشلا ، لذلك اكتفى ألفونسو بسلب ما حول المدينة التى فشل فى فتحها ، وقرر أن يرفع الحصار عن غرناطة أمام استحالة الاستيلاء عليها[2] .

رحل ألفونسو المحارب عن مدينة غرناطة فى الثالث والعشرين من يناير عام ١١٢٦م/ السادس والعشرين من ذى الحجة ٥١٩هـ ، واتجه إلى قرية مرسانة Maracena ومنها إلى بيش Pinos - Puente[3]، ثم اتجه شمالا إلى السكة Assica من أحواز قلعة

---

(١) Simonet, op. cit., p. p. 748 .

(٢) Condé, op. cit., p. 373; Miranda, H. M. V., t. III, p. 55 ;

أشباخ ، تاريخ الأندلس ، ص ١٤٨ .

(٣) مرسانة وبيش قريتان من أحواز غرناطة ، تقع الأولى فى شمالها الشرقى ، والثانية فى شمالها الغربى . ابن الخطيب ، الإحاطة ، جـ١ ، ص١١٠ حـ ٨ .

بحصب Alcala la Real (١) ومر ألفونسو ببلدة لك Luque وبيانة Baena (٢) وأسجة Es-pejo فى الاتجاه إلى قرطبة . ثم انحدر واتجه إلى قبرة Cabra (٣) وقرية اللسانه Luce-na(٤) والجيوش المرابطية فى أذياله تلاحقه وتناوشه . وكان الأمير أبو بكر (٥) ابن أمير المسلمين قد تحرك حينئذ على رأس قواته من إشبيلية ، وانضم إلى بقية عسكر المرابطين ، بهدف مطاردة القوات الأرغونية (٦) .

---

(١) قلعة يحصب أو قلعة يعقوب هى بلدة القلعة الملكية الحديثة Alcala la Real وتقع فى شمال غربى غرناطة . وقد كانت منزل بنى سعيد الأدباء والمؤرخين أصحاب كتاب المغرب . ابن الخطيب ، نفسه ، جـ١ ، ص١١١ حـ١ .

(٢) بيانة Baena ، مدينة من أعمال قرطبة ، شمال شرقى قبرة بينهما عشرة أميال ، وعلى يمين الطريق الذاهب إلى قرطبة . الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٥٩ - ٦٠ .

(٣) قبرة Cabra وهى مركز كورة وتقع على بعد ثلاثين ميلا جنوب شرقى قرطبة . المقرى ، نفح الطيب، جـ١ ، ص ١٦٥ ، هـ ١ .

(٤) اللسانة Lucena ، مدينة حصينة تقع جنوب غربى قبرة ، وعلى بعد أربعين ميلا جنوب قرطبة ، وكانت تسمى مدينة اليهود لكثرتهم بها . الإدريسى ، صفة المغرب والأندلس ، ص ٢٠٥ .

(٥) أبو بكر بن على بن يوسف : هو أكبر أبناء على بن يوسف ، ولد عام ١١٠٠م/٤٩٣هـ ، وكان يلقب بيكور أو بكو ، ونشأ بالأندلس ، وكان كثير العبث والتشغيب ، وقد أسند إلى أبى بكر حكم إشبيلية فى يناير - فبراير ١١٢٤م/ ذى الحجة ٥١٧هـ ، وأثناء حكومته لإشبيلية تعقب ألفونسو المحارب فى حملته إلى بلاد الأندلس ، وقد اشترك أبو بكر فى موقعة الرنبسول. وقد أسند إليه أبوه قيادة جيوش الأندلس فى مارس ١١٢٦م/ صفر ٥٢٠هـ ثم عزله عن اشبيلية وعن مركز قيادة الجيوش بالأندلس فى يونيو ١١٢٨م/ رجب ٥٢٢هـ ، لأنه لم يرضى عن بيعة أخيه سير وليا للعهد ، ونفى إلى الصحراء . ولكن يبدو أن أباه رضى عنه بعد ذلك ، وعهد إليه قيادة بعض الجيوش المرابطية فى قتال الموحدين بالمغرب . وعند وفاة سير بن على ولى العهد عام ١١٢٨-١١٢٩م/ ٥٣٣هـ ، عهد على بن يوسف بالأمر إلى ابنه تاشفين ، فعاد أبو بكر إلى إبداء سخطه وتذمره لأنه أكبر إخوته ، فضاق به أبوه ، وأمر بإخراجه من مراكش وحمله إلى الجزيرة الخضراء ليسجن بها ، ووصل إلى الجزيرة مريضا ومات . ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٠٥-١٠٦، هـ١ ؛ محمود على مكى ، وثائق تاريخية جديدة ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، مجلد ٧-٨ لسنة ٥٩-١٩٦٠، ص ١٣٤ - ١٣٩ .

(٦) ابن الخطيب ، الإحاطة ، جـ١ ، ١١٠ - ١١١ ، ابن سماك العاملى ، الحلل ، ص ٦٨ - ٦٩ ، Simonet, op. cit., pp. 748-749 .

وأقام ألفونسو المحارب بقبرة أياما ثم تحرك إلى بلاى Poley – وهى بلدة أجيلار Aguilar الحديثة – والقوات المرابطية فى أثره تتبعه وتتنقل بانتقاله عن يمينه وشماله إلى أن التقيا فى حصن أرنيسول Arnizol [(١)] ، بالقرب من اللسانة ، وهناك وقعت معركة بين الأرغونيين وجيوش المرابطين بقيادة الأمير أبو الطاهر تميم ، فى يوم الأربعاء العاشر من مارس ١١٢٦م/ الثالث عشر من صفر ٥٢٠هـ ، وكانت السيطرة فى البداية للمسلمين . وقد أمدنا ابن الصيرفى بوصف وسير المعركة وأسباب الهزيمة ، ويروى أن المسلمين قاموا بمباغتة الأرغونيين في الفجر ، ورفعوا عددا من خيامهم ، ولما كان وقت الظهر ، ارتدى ألفونسو درعه ، ونظم جيشه فى أربع كتائب ، وحمل على المسلمين فهزمهم ، نتيجة الفوضى التى سادت بينهم وتلة حذرهم . فلما جن الليل ، أمر الأمير تميم برفع خبائه من وهدة كان فيها إلى ربوة عالية ، فساءت الظنون ، فقد ظن الناس أنه ينوى الانسحاب ، فبث الشكوك ، وساد الفزع ، فاختل الأمر وثبط عزم المحاربين ، فأخذوا فى الفرار ، ولم يقرر ألفونسو دخول معسكر المسلمين إلا بعد هدأة من الليل فاستولى عليه [(٢)] .

وتحقق انتصار ألفونسو المحارب فى أرنيسول لعدم احتياط أو لجبن القائد تميم ، وقد بالغت الحوليات الطيطلية الأولى فى بطولة ملك أرغون ، فذكرت أنه انتصر على أحد عشر ملك مسلما فى أرنسول ، كما أنها أخطأت فى تحديد تاريخ المعركة وأشارت إليها تحت عام ١١٢٣م/٥١٧هـ [(٣)] ، وهذا يخالف ما أجمعت عليه الروايات الإسلامية . وتبرر الرواية النصرانية هزيمة المسلمين بانشغالهم بعد انتصارهم الأول على القوات الأرغونية بتقسيم الغنائم، اعتقادا منهم بأن انتصارهم على الأرغونيين كان حاسما ، فانتهز ألفونسو المحارب

---

(١) حصن أرنيسول أو الرينسول Arnisol ، ذكرته بعض المصادر أنه فحص وبعضها حصن ، ويقع على ثلاث فراسخ من مدينة اللسانة ، فى نهاية جسر شنيل Puente - Genil ، ويعرف حديثا باسم Anzul أو Aranzuel . ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٦٣١ ؛

Simonet, op. cit., p. 749, not. I.

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٤ ، ص٧١ – ٧٢ ، ابن الخطيب ، الإحاطة ، جـ١ ، ص ١١١ ؛

C. S. J. P., p. 80; Miranda, H. M. V., t. III, pp. 55-56 .

(٣) Anales Toledanos I, p. 345 .

هذه الفرصة وانقض رجاله على صفوف المسلمين ، ومزقها تمزيقا ، واسترد الغنائم المفقودة ، وطارد المسلمين حتى دخول الظلام (١) .

وقد اشترك الأمير أبو بكر بن على بن يوسف فى موقعة أرنيسول ، وقام بجهد فى مقاومة ألفونسو المحارب ، ويبدو أنه أرسل إلى أبيه رسالة - لم تصلنا - شارحا الظروف التى وقعت فيها حملة ألفونسو على الأندلس ، وشكا فيها إخفاق المسلمين وهزيمتهم أمام ألفونسو المحارب ، فأجابه أبوه برسالة من مراكش مؤرخة فى يوم الأربعاء الرابع والعشرين من مارس ١١٢٦م/ السابع والعشرين من صفر ٥٢٠هـ ، كتبها أبو عبد الله بن أبى الخصال (٢) ، وتتحدث الرسالة عما قد يكون لهذا الحادث من تأثير على المسلمين فى الأندلس من تثبيط لعزائمهم وإضعاف لروحهم المعنوية ، وفيها يدعو أمير المسلمين ابنه أبا بكر إلى أن يعمل على ضبط الأمور ومواصلة الجهاد ، وعهد إليه بقيادة الجيوش فى الأندلس ، كما يوصى أمير المسلمين ابنه بمواجهة العدو ومدافعته ، ومواصلة الجهاد ، وبالتشاور مع سائر القواد ، والبعد عن الاستئثار والاستبداد ولايتخذ قرارا إلا بعد عرضه على أهل الرأى(٣) .

---

(١) أشباخ ، تاريخ الأندلس ، ص ١٤٩ .

(٢) أبو عبد الله بن أبى الخصال : كان هو وأخوه أبو مروان عبد الملك من أعظم كتاب الدولة المرابطية ، وأبو عبد الله هو محمد بن مسعود بن خلصة ابن أبى الخصال الغافقى ، أصله من كورة جيان من أهل شقورة، ولد عام ١٠٧٣م /٤٦٥هـ ، وسكن قرطبة وغرناطة ، وبرع فى الحديث وعلوم اللغة والسير ، وبرع فى الكتابة والنظم حتى نعت بإمام البلاغة ، وكان مفخرة وقته . اتصل برجال الدولة اللمتونية ، وتولى الوزارة والكتابة لعلى بن يوسف حتى أصبح أنبه كتابه ، وأعظمهم مكانة لديه . وصدرت بقلم ابن أبى الخصال عن على بن يوسف رسائل كثيرة فى مختلف الأغراض ، واستمر على مكانه فى البلاط المرابطى ، حتى وقع منه ومن أخيه أبى مروان ما أدى إلى غضب على بن يوسف عليهما وإقصائه لهما ، إذ أن أمير المسلمين أمرهما أن يكتبا عنه إلى جند بلنسية يلومهم على تخاذلهم أمام ألفونسو المحارب ، فكتب أبو عبد الله أو أخوه أبو مروان فى ذلك رسالة أفحش فيها على المرابطين وأغلظ لهم فى القول مما تسبب فى غضب أمير المسلمين . وحينما رأى أبو عبد الله ذلك استعفى على بن يوسف فأعفاه ، وعاد إلى قرطبة ، وبقى ملازما داره حتى مات عام ١١٤٦م/ ٥٤٠هـ ، وتوفى أخوه قبله بمراكش عام ١١٤٥م/٥٣٩هـ . ابن بشكوال : الصلة ، ق٢ ، ترجمة رقم ١٢٩٤ ، ص ٥٨٨ - ٥٨٩ ؛ عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص٩٨ ؛ محمود على مكى ، وثائق تاريخية جديدة ، ص٥٩ - ٦٠ ، ١١٨-١١٩ .

(٣) محمود على مكى ، وثائق تاريخية جديدة ، ص ١٣٠ - ١٣١ ، ١٦٩ - ١٧٠ .

وبالرغم من انتصار ألفونسو المحارب فى موقعة أرنيسول ، إلا أنه لم يستطع الاستفادة من نصره ، واكتفى بسلب الحقول المحيطة به دون أن يحاول حصار العاصمة ، واستمر فى زحفه جنوبا . وفى اليوم التالى ، تحرك الجيش الأرغونى وغير اتجاهه نحو الجنوب الشرقى إلى جهة الساحل ، مخترقا جبال البشارات ، ثم اجتاز وادى متريبل Motril ووادى شلوبانية Salobrena [١] ، ومر ألفونسو المحارب عبر هذه الوديان العميقة الضيقة بين صخور وعرة المنحدر ، حتى وصل إلى شاطئ البحر المتوسط ، وقال ألفونسو لأحد فرسانه المشهورين : أى قبر هذا لو ألفينا من يصب علينا التراب[٢] . ثم اتجه غربا حتى وصل إلى ساحل بلش مالقة Vélez - Malaga [٣] ، وأنشأ بها مركبا صغيرا ، يصيد له حوتا ، أكل منه كأنه نذر كان عليه وفى به ، أو حديث أراد أن يخلد عنه[٤] ، ويوضح بطولته واختراقه بلاد الأندلس من شمالها إلى جنوبها ووصوله حتى ساحل البحر المتوسط .

ثم قرر ألفونسو المحارب أن يعود إلى غرناطة مرة أخرى ، فعبر جبال البشارات وعسكر فى قرية دلر Dilar على ثلاثة فراسخ جنوبى غرناطة ، ثم انتقل بعد يومين إلى قرية همدان Alhendin على فرسخ من غرناطة ، وحينئذ وصلت القوات المرابطية مع قوات مكناسة Mequinez بقيادة أبى حفص بن توزجين ، وقوات فاس Fez بقيادة الأمير يناله اللمتونى ، واشتبكت هذه القوات مع ألفونسو المحارب فى معركة ضارية ، ثم انتقل بعد يومين إلى المرج La Vega [٥] ، وفرسان المسلمين فى إثره يطاردونه ، فنزل بعين أطسه ، والجيوش

---

(١) وادى شلوبانية ، أو شلوبنية : قرية على ضفة البحر المتوسط ، تقع جنوبى غربى مدينة متريبل وشرقى مدينة المنكب ، ومن شلوبانية إلى المنكب فى البحر ثمانية أميال . الإدريسى ، صفة المغرب والأندلس، ص١٩٩ ، ابن الخطيب ، الإحاطة ، جـ١ ، ص١١٢ حاشية ١ .

(٢) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ص١١٢ .

(٣) بلش ما لقة : مدينة تقع على ساحل البحر المتوسط ، شرقى ثغر مالقة ، وعلى مقربة منها . ابن الخطيب ، الإحاطة ، جـ١ ، ص١١٢ حـ٣ .

(٤) ابن الخطيب ، نفس المصدر ، جـ١ ، ص١١٢ ، ابن سماك العاملى ، الحلل الموشية ، ص٦٩ ،

Dozy, op. cit., t. I. p. 358; Simonet, op. cit., p. 749 .

(٥) فحص غرناطة La Vega ، هو البسيط الأخضر الذى تشرف عليه غرناطة من الجنوب الشرقى . وقد كان أيام الدولة الإسلامية من أنضر وأبدع بقاع الأندلس الخضراء . ابن الخطيب ، الإحاطة جـ١ ، ص٩٩ ، حاشية ١ .

الإسلامية محدقة به ، بينما كانت القوات الأرغونية في غاية الإجهاد والحذر ، وأدرك ألفونسو المحارب أنه من المستحيل أن يستولى على المرج بالهجوم أو بالمباغتة ، فتحرك على البراجلات Al-Barachila - يقصد بها الأراضي الصخرية المرتفعة - ومنها إلى اللقوق Ali-cun de Ortega ، ثم انسحب إلى وادى آش ، وقد لحقه الأمير يناله بعسكر فاس ، فهاجمه من جهة واديها ، واشتبك معه في معركة أخرى ، قتل فيها أحد قواد ألفونسو المشهورين ، والعديد من قواته ، وأرغمه على متابعة انسحابه [١] . ويرجع انتصار الأمير يناله على ألفونسو المحارب إلى كفاءته العسكرية ، وانخفاض الروح المعنوية للجند الأرغونيين ، وتعبهم، بالإضافة إلى إعاقتهم بما انضم إيهم من المستعربين الذين لا خبرة لهم بالحرب .

ولما أيقن ألفونسو المحارب من فشله في تحقيق هدفه ، قرر العودة إلى بلاده ، فواصل مسيره نحو الشرق ، ومن ثم انسحب عن طريق سهلة قرباقة Caravaca فاجتاز مرسية ثم إلى شاطبة للدخول مباشرة في ممالكه ، والقوات الإسلامية في كل ذلك تلاحقة وتناوشه وتصيب منه ، والوباء يعصف بعسكره ، حتى وصل إلى بلاده مفلولا ، في يونيه ١١٢٦م/ جماد أول ٥٢٠هـ ، وقد تضاءل جنده كثيرا ضحية الأمراض والطاعون ، بينما هو يفخر بما ناله في سفره من هزيمه المسلمين وفتكه في بلادهم وكثرة ما أسر وغنم ، مع أنه لم يفتح مكانا مسورا إلا أنه أجلى ديار بادية الأندلس [٢] .

وقد اختلفت الرواية الإسلامية والنصرانية حول تاريخ عودة ألفونسو المحارب إلى بلاده ، والمدة التي استغرقتها الحملة في بلاد الأندلس ، فقد حددت الرواية الإسلامية أن الحملة استغرقت سنة كاملة وثلاثة أشهر ، طبقا لصاحب الحلل الموشية [٣] ، أى من سبتمبر ١١٢٥م- ديسمبر ١١٢٦م/ شعبان ٥١٩هـ - ذى القعدة ٥٢٠ وتتفق معه حولية مملكة نبرة التي حددت عودة ألفونسو المحارب إلى مملكته مع دخول فصل الشتاء [٤] . وقد أخذ بهذا

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٤ ، ص٧٢ - ٧٣ ، ابن الخطيب ، نفس المصدر جـ ١ ، ص ١١٢-١١٣، Simonet. op. cit., p. 749 .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٤ ، ص٧٢ ؛ ابن الخطيب ، الإحاطة ، جـ١ ، ص١١٣ ؛

Miranda. H. M. V., t. III, p. 58; Lacarra. Alfonso el B., p. 91 .

(٣) ابن سماك العاملى ، الحلل الموشية ، ص ٧٠ .

(٤) .. R. N. p. 323 .

التاريخ بعض المؤرخين أمثال دوزى وسيمونيت وكوديرا [١] ، كما أكد المؤرخ بايستروس بأن عودة ألفونسو كانت فى ديسمبر ١١٢٦م/ ذو القعدة ٥٢٠ طبقا لوثيقة سان بدور العجوز أسقف وشقة [٢] . بينما ثبت فى بعض الوثائق المسيحية أن الحملة استغرقت ثمانية شهور فقط ، بدليل أن الملك ألفونسو المحارب كان فى مدينة الفارو فى يونية ١١٢٦م جماد أول ٥٢٠هـ ، ومنح امتيازات وإعفاءات للمستعربين الأندلسيين الذين تبعوه ، تاركين مزارعهم وأملاكهم فى أراضى المسلمين [٣] . ويؤكد ذلك أن المؤرخين ابن عذارى وابن الخطيب يتفقان فى تحديد تاريخ إجلاء المستعربين إلى المغرب فى سبتمبر - أكتوبر ١١٢٦م/ رمضان ٥٢٠هـ[٤] فى حين أن المؤرخ أشباخ حدد مدة بقاء ألفونسو المحارب فى الأراضى الإسلامية بستة أشهر [٥] ، ولكن هذه المدة القصيرة بعيدة عن الصواب ، نظرا لبعد المسافة بين سرقسطة وغرناطة .

ومما سبق يتضح لنا أن حملة ألفونسو المحارب كانت تهدف أساسا إلى قيام مملكة مسيحية فى غرناطة ، ولكنه فشل عمليا فى تحقيق هدفه . ويعتقد المؤرخ أو يثى ميرانده أن الغرض الحقيقى للحملة كان الحصول على الغنيمة من الأراضى الغنية لأن ألفونسو المحارب كان يعانى صعوبات اقتصادية كبيرة نتيجة حروبه المستمرة ، فسلب كل أراضى بلنسية ومرسية وغرناطة والمرية وقرطبة . كما كان تخطيط ألفونسو يهدف إلى دفع مستعربى الأندلس إلى الهجرة إلى الشمال لتقوية فتوحاته الجديدة هناك ، وأن يسهل استغلال الأراضى التى هجرها المسلمون ، أو الأراضى القفر المهملة الواقعة على الحدود بسبب الغارات المتبادلة بينه وبين المسلمين [٦] .

وبالرغم أن حملة ألفونسو المحارب على الأندلس لم تتحقق من ورائها أية نتيجة ، إلا أنها لم تقلل من حماسته فى الاسترداد ، وتثبت تفوقه الحربى ، وتوضح بطولات ملك أرغون ،

---

(١) Dozy, op. cit., t. I. p. 360: Simonet, op. cit., p. 749: Codera, op. cit. p. 16 .

(٢) Ballesteros, op. cit., p. 458 .

(٣) Lacarra, D. E. R. V. E., Doc. num. 51, pp. 513-514; Ibars, op. cit., p. 459 .

(٤) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٤ ، ص٧٣ ؛ ابن الخطيب ، الإحاطة ، جـ١ ، ص١١٤ .

(٥) أشباخ ، تاريخ الأندلس ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .

(٦) Miranda, H. M. V., t. III, pp. 59-60 .

فهى مشروع جرئ ، لم يحققه ملك مسيحى ، فقد استلزم جرأة وعزيمة من ألفونسو ، وربما كانت عبقريته الجانحة إلى القتال هى الدافع إلى تنفيذه ، دون أن يقدر صعوباته ومخاطره ، ولذلك وصف ألفونسو المحارب بأنه "خبير وجرئ فى الحرب" . وقد كان يحتاج إلى بعض المؤن والقوات الوفيرة ، وأيضا فإنه لم يحمل معه معدات الحرب لمهاجمة المدن المسورة ، ولهذا لم يستول على أي مدينة ولو أنه انتصر فى معركة واحدة قد بدأتها جيوش المرابطين ، كما أن القوات المرابطية كانت تلاحقه باستمرار ، ولم تترك له وقتا للراحة ، بل شغلته دائما بهجمات متلاحقة على مؤخرة وأجنحة جيشه ، فأرغمته هذه المناوشات على الحرب فى عدة جبهات ، وسببت له الكثير من الخسائر . أضف إلى ذلك أن هجمات القوات الإسلامية السريعة قد أعاقت زحفه ، وقيدته ، فاضطر إلي التوقف مرارا ، وجعلته دائم الحيرة والاضطراب . وكان انسحاب ألفونسو شاقا ، لزيادة جيشة بضم عدد كبير من المسيحيين الغرناطيين الذين لاخبرة لهم بشئون الحرب ، إلى صفوف الجند الأرغونيين ، ومع أنهم أعاقوا زحفه ، فقد قادهم إلى أرغون (١) .

ولقد أشار المؤرخون المسلمون إلى خسائر الجيش الأرغونى ، بعدما انتشر الوباء الذى فتك بعدد كبير من الجيش ، بالإضافة إلى الجوع والبرد ومشقة الطريق وسوء الطقس ، والأمراض المختلفة التى انتشرت بين أعضاء الحملة(٢) ، حتى أن القديس رمون أسقف رودا لم يستطع أن يتحمل هذه الأضرار ، فمات حين عودته فى مدينة وشقة فى الحادى والعشرين من يونيه ١١٢٦م/ أواخر جمادى الأول ٥٢٠هـ ، ضحية مشقات السفر(٣) .

ويرجع فشل الحملة إلى عدة أسباب أهمها : أنها بدأت فى توقيت غير مناسب فى آخر سبتمبر على غير عادة الحملات الهجومية فى الصيف ، والتى كانت تسمى بالصوائف ، فتعرض الجند لكل صعاب ومخاطر الشتاء(٤) . يضاف إلى ذلك أن قرار الحملة تميز بالتهور، أى أن ألفونسو المحارب كان مندفعا فى تنفيذها حيث شجعه وعد المستعربين بالمساعدة ،

---

(١) Condé, op. cit., p. 374: Lacarra, Alfonso el B., p. 91 .

(٢) ابن الخطيب ، الإحاطة ، جـ ١ ، ص ١١٣ ؛ ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٤ ، ص ٧٢ .

(٣) Lacarra, Alfonso el B., p. 91 .

(٤) Miranda, H. M. V., t. III, p. 53 .

إذ صوروا له سهولة الاستيلاء على غرناطة غير أنها لم يستطيعوا أن يفتحوا له بوابات غرناطة مثلما انتظر ، ولم يجد فى قوتهم مساندة كافية لمهمته[١] . يضاف إلى ذلك الوقوف المتكرر للجيش الأرغونى أثناء زحفه إلى غرناطة ، لمهاجمة وحصار قلاع قوية لم يفتحها ، وفى هذا الزحف الشاق المحفوف بالمخاطر ، اكتفى ألفونسو بقطع حقول المسلمين ، وتخريب وتدمير ما قابله من قرى وحصون ومراكز عمرانية حتى وصل قريبا من غرناطة[٢] .

عاد ألفونسو المحارب إلى ولاياته ، ومعه عدة آلاف من المستعربين الذين فروا من مواطنهم خشية انتقام المسلمين ، فقاد هؤلاء الفارين عائدا بهم إلى بلاده ، وقد فشلت خطته كل الفشل فى غزو غرناطة . وقد اعتنى ألفونسو المحارب بهؤلاء المستعربين وأكرمهم ، لأنهم تركوا منازلهم وأملاكهم وجاءوا لتعمير أراضيه ، فوزع عليهم الأراضى فى شلون وشلوقة ، والتى تم استردادها . كما أصدر قوانين خاصة بهم ، كان أهمها القانون الذى أصدره فى يونية ١١٢٦م/ جمادى الثانى ٥٢٠هـ فى مدينة الفارو ، وفيه منح ألفونسو المستعربين إعفاءات وامتيازات فريدة ، أهمها حق التجارة فى هذه البلاد لهم ولأولادهم من بعدهم إلى الأبد[٣] .

وقد حاول جاهدا أن يجعل إقامة المستعربين إقامة لائقة ، بحيث لا يكونون عبيدا ولا خاضعين لأى سيد ، ليعيشوا فى حرية تامة ، وأيضا أعفاهم من الضرائب ، مع قيامهم بالزراعة والتجارة فى المدن فى حدود ما خصصه لهم . ومكثوا معافين من ضريبة Lezda - وهى ضريبة على تداول المنتجات - فكانوا مساوين للأشراف ، يتمتعون مثلهم بالامتيازات والإعفاءات الممنوحة لهم . ولم يستدعوا للحرب أو للإغارة على المسيحيين ، ولم يلزموا بالذهاب إلى الحرب إلا لأجل معركة أو حصار قلعة . وأقام لهم محاكم خاصة بهم ، وجعل لها قضاة يتعاملون بقوانينهم القديمة[٤] . كما يمكنهم فى أى وقت أن يلجأوا إلى القضاء الملكى

---

(١) Lacarra, H. P. R. N., p. 317 .

(٢) Simonet, op. cit., p. 750;

السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٣٦ .

(٣) Lacarra, D. E. R. R. V. E., Doc.num. 51, pp. 513-514 .

انظر نص القانون فى الملحق رقم (٢) .

(٤) C. C. A., p. 17; Simonet, op. cit., pp. 743, 753 .

فى محاكماتهم ، وفى حالة عدم وجود الملك فى هذه الأراضى يؤجل قرار القضية حتى حضوره[١] .

وأقام المستعربون فى جميع أنحاء أرغون ، واستوطن عدد كبير منهم فى مدينة مالن فى أرغون ، مع مستعربى سرقسطة ، وأصدر ألفونسو المحارب من هذه المدينة قانونا فى يونية ١١٣٢م منحهم فيه بعض الامتيازات والإعفاءات كما استقر بعضهم فى المدن الأخرى التى استردها ألفونسو لتعميرها . ويعتبر المؤرخ سيمونيت أن حمله ألفونسو المحارب إلى الأندلس عمل عظيم وبطولى مشرف لهذا الملك لأنه حرر عشرة آلاف مستعرب بعائلاتهم من العبودية الإسلامية[٢] .

ترتب على هذه الحملة أن الحكومة الإسلامية فى الأندلس تأكدت من عدم ولاء المستعربين لها ، واعتبرتهم خونة ، نقضوا العهد مع المسلمين ، وأصبحوا يشكلون خطرا على المسلمين بعد هذه الحملة الجريئة ، ولذلك اتخذت إجراءات رادعة ضد المستعربين الذين لم يستطيعوا ملاحقة ألفونسو المحارب ، واستمروا فى منازلهم فى المقاطعة الإسلامية[٣] .

وعلى أثر المعركة التى كانت بين المسلمين والأرغونيين بأرنيسول ، توجه إلى مراكش قاضى قرطبة أبو الوليد بن رشد [٤] ، الذى أبحر فى يوم الثلاثاء الثلاثين من مارس ١١٢٦م/ الرابع من ربيع الأول ٥٢٠هـ ، وقابل أمير المسلمين على بن يوسف ، فلقيه أكرم لقاء ،

---

(١) Lacarra. Alfonso el B.. p. 92 .

(٢) Simonet. op. cit.. pp. 753-754; Ballesteros. op. cit.. p. 459 .

(٣) Simonet. op. cit.. p. 750 ;

محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ١١٣ .

(٤) أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد ، ولد بقرطبة فى عام ١٠٥٨م/ ٤٥٠هـ ، تولى قضاء الجماعة فى قرطبة عام ١١١٧م/ ٥١١هـ ، وكان فقيها عالما ، حافظا للفقه ، عارفا للتقوى على مذهب مالك وأصحابه ، بصيرا بأقوالهم واتفاقهم واختلافهم ، وكان ابن رشد من أهل الرياسة فى العلم والبراعة والفهم ، واستعفى من القضاء فى عام ١١١٩م/ ٥١٣هـ أو ١١٢١م/ ٥١٥هـ حتى يتفرغ لكتابة مجموعته الفقهية الكبيرة والتى كان أهمها "كتاب البيان والتحصيل ، لما فيه المستخرجة من التوجيه والتعليل" . وكان الناس يلجأون إليه ، ويعولون فى مهماتهم عليه . توفى بقرطبة ليلة الثامن والعشرين من نوفمبر ١١٢٦م/ الحادى عشر من ذى القعدة ٥٢٠هـ . ابن بشكوال ، الصلة ، ق٢ ، ترجمة رقم ١٢٧٠ ، ص ٥٧٦-٥٧٧ : النباهى المالقى ، تاريخ قضاة الأندلس ، نشر ليفى بروفنسال - القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٩٨ -٩٩ .

وبقى عنده أبو بقاء ، حتى استوعب فى مجالس عدة إيراد ما أزعجه إليه ، وتبين ما أوفده عليه[١] ، فشرح له أحوال الأندلس وما بليت به على يد النصارى المعاهدين ، وما اقترفوه من استدعاء ألفونسو المحارب وتقويته على المسلمين وإمداده ، وما فى ذلك من نقض العهد والخروج على الذمة ، فسقطت عنهم الحماية الممنوحة لهم ، وأفتاه بتغريبهم ووجوب إجلائهم عن أوطانهم ، وهو أخف ما يؤخذ فى عقابهم . وعاد ابن رشد إلى قرطبة يوم الأربعاء السادس عشر من يونية ١١٢٦م/ الثانى والعشرين من جمادى الأولى ٥٢٠هـ[٢] . وفى هذا الشأن كتب أبو عبد الله بن أبى الخصال رسالة عن أمير المسلمين على بن يوسف ، لم يحدد تاريخها ولا مكان إصدارها ، ويتناول موضوع الرسالة سفارة الفقيه ابن رشد إلى المغرب ولقاءه مع أمير المسلمين وما وصفه من سوء أحوال الجزيرة نتيجة غزوة ألفونسو المحارب ، وإشفاق أمير المسلمين ووعده بأن يتخذ للأمر أهبته ، إذ يقول فيها : "ولن نألوا جهدا مبذولا ، وجدا حفيلا ، وعزما لا نابيا ولا كليلا ، فيما ندرأ وندفع ، ونزود عن حوزة الملة ونمنع ، ونداب لذلك (الدأب) الحثيث .. ولا يشغلنا عنه شاغل وإن أهم ، بل نصرف نحو جنابكم الحزم الأتم الأهم". أما ما وعد أمير المسلمين فى نهاية الرسالة باتخاذه من إجراءات لمواجهة الموقف فلا شك فى أنه كان من أولها قراره بتغريب النصارى المعاهدين عملا بمشورة ابن رشد[٣] .

ومن الجدير بالذكر أن المؤرخ ابن القطان جعل وفود الفقيه ابن رشد إلى مراكش فى عام ١١٢٨م/ ٥٢٢هـ[٤] ، فى حين أن ابن رشد توفى عام ١١٢٦م/ ٥٢٠هـ ، ولعل هذه السفارة إلى مراكش هى آخر ما اضطلع به ابن رشد ، إذ أنه توفى فى بلده قرطبة بعد عودته بقليل فى أواخر عام ١١٢٦م/ ٥٢٠هـ[٥] .

---

(١) النباهى ، تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٩٩ ؛
Dozy, op. cit., t. I, p. 362; Ibars, op. cit., p. 461 .

(٢) ابن الخطيب ، الإحاطة ، جـ١ ، ص ١١٣-١١٤ ؛ ابن سماك العاملى ، الحلل ، ص ٦٥-٦٦ ؛
Dozy, op. cit., t. I, p. 363 .

(٣) محمود على مكى ، وثائق تاريخية جديدة ، ص ١٢٣ - ١٢٦ ، نص الرسالة ص ١٦٧ .

(٤) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٠٧ .

(٥) محمود على مكى ، وثائق تاريخية جديده ، ص١٢٦ .

وقد أخذ أمير المسلمين على بن يوسف بفتوى ابن رشد ، وصدر عهده إلى جميع بلاد الأندلس ، بإجلاء المستعربين إلى بلاد المغرب ، ونفى منهم جموعا غفيرة فى شهر سبتمبر - اكتوبر ١١٢٦م/ رمضان ٥٢٠هـ .،ونزل الكثير منهم في مدينتى مكناسة وسلا وغيرهما من بلاد المغرب ، وتعرض عدد كبير منهم للموت والهلاك خلال سفرهم ، إذ نزل فيهم الوباء ، مع تغيير المناخ وجو أفريقيا[١] . وقد أخطأت الحوليات الطليطلية الأولى فى تحديد تاريخ عبور المستعربين إلى مراكش ، إذ ذكرته تحت عام ١١٢٤م/ ٥١٨هـ[٢] ، أى قبل خروج ألفونسو المحارب بحملته على شرق وجنوب الأندلس .

ويعلق المستشرق سيمونيت على تغريب المستعربين بقوله : "اشتد غضب المسلمين ، فانتقموا من المسيحيين البائسين الذين بقوا فى منازلهم انتقاما رهيبا ، وعاقبوهم عقابا شنيعا ، بدون عدالة .. فنفوهم عن وطنهم إلى أفريقيا ، وقاسوا كثيرا فى الطريق .. وأن العناية الإلهية شاءت أن ترد هذه القسوة فى المدجنين الذين طردوا من أسبانيا بقسوة مماثلة". ويروى سيمونيت نقلا عن أوردريك فيتال ، مظاهر العقوبة والقسوة التى نفذها الغضب الإسلامى فى المستعربين قائلا : "لكن عندما رأى أهل قرطبه ، ومدن إسلامية أخرى ، خروج الكثير من المستعربين مع عائلاتهم ، مطرودين سلبوا ممتلكاتهم ، وأساءوا معاملاتهم بطريقة مروعة بالأسواط والسلاسل والإهانات الكثيرة . وقتل عدد كبير منهم بعقوبات بدنية قاسية ، وطرد البقية وراء المضيق إلى أفريقيا ، وحكموا عليهم بقسوة النفى"[٣] .

ولكن يمكن القول أن المؤرخ أوردريك فيتال قد بالغ فى وصف المسلمين بالقسوة والوحشية فى معاملة المستعربين ، لأن ما أصاب المستعربين من الآلام والمحن كان نتيجة طبيعية لنفيهم وبعدهم عن أرضهم ووطنهم ، والشعور بالاغتراب ، وليس نتيجة سوء معاملة المسلمين لهم . فقد أحسن أمير المسلمين على بن يوسف معاملة المسيحيين سواء الأسرى أو المنفيين الذين وصلوا إلى مراكش ، إذ عهد إليهم بوظائف أكثر ثقة ، وضم منهم عددا إلى حرسه الخاص ،

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٤ ، ص ٧٢ - ٧٣ ؛ ابن سماك العاملى ، الحلل ص ٦٦ ؛
Simonet, op. cit., p. 750; Ibars, op. cit., p. 461 .

(٢) Anales Toledanos I, p. 345 .

(٣) Simonet, op. cit., pp. 750-751 .

لأنهم امتازوا بالإخلاص والبراعة فيما بعد ، وشكل منهم قوات لمواجهة الموحدين فى جنوب مراكش[١] . ورغم هذا كله فقد بقى فى غرناطة وقرطبة وفى غيرهما من المدن جماعات من المستعربين ، وفى عام ١١٢٨م/٥٢٢هـ أى بعد حوالى سنة ونصف من انسحاب ألفونسو المحارب ، اشتكى المستعربون فى غرناطة من ظلم وقسوة الوالى أبو عمر ينالة ، فاستدعاه أمير المسلمين على بن يوسف ، وأمر بحضره معهم فى مجلس نظره ، فأدلوا بحجج فى ظلمه، فسجنه لهم حتى أنصفهم من ظلامتهم ، وحكم عليه بإصلاح الضرر الذى ارتكبه[٢] . وهذا يدل على عدالة أمير المسلمين فى معاملة المستعربين ، ويناقض آراء بعض المستشرقين الذين اتهموا المسلمين بالقسوة والوحشية فى معاملة المستعربين .

كان هذا نتيجة حملة ألفونسو المحارب على المستعربين ، أما فيما يتعلق بنتائج الحملة على المسلمين ، أولا ، أظهرت ضعف وسائل الدفاع فى الأندلس ، مما أدى إلى تسهيل توغل ألفونسو المحارب من شمال الأندلس إلى جنوبه ووصوله حتى ساحل البحر المتوسط ، ولهذا نصح ابن رشد خلال مقابلته لأمير المسلمين بإعادة تحصينات المدن الأندلسية الكبرى ، وبناء سور مراكش وتحصينها ضد هجمات الموحدين ، وشرع على بن يوسف فى بنائه فى يونيه ١١٢٦م/ جمادى الأولى ٥٢٠هـ[٣] . كما أرسل أمير المسلمين كتابه إلى الأندلس بالنظر فى الأسوار ، وفرض ضريبة جديدة على مدن الأندلس الهامة تعرف بالتعتيب أو التعطيب وكان يخصص دخلها لبناء أسوار جديدة وترميم الأسوار القديمة ، وقد عهد على بن يوسف إلى النصارى المقيمين سواء فى المغرب أو فى الأندلس بأعمال الجباية[٤] .

ثانيا ، أثبتت هذه الحملة سوء القيادة العسكرية التى كان على رأسها الأمير تميم بن يوسف ، فأفتى ابن رشد بعزله عن القيادة[٥] ، غير أن الموت لهم يمهل تميم طويلا بعد هذه

---

(١) ابن سماك العاملى ، الحلل الموشية ، ص ٦١ - ٦٢ ؛ محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص١١٤ ، Miranda, H. M. V., t. III, p. 60 .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٤ ، ص٧٧ .

(٣) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص١٠٧ ؛ ابن عذارى ، نفس المصدر ، جـ٤ ، ص ٧٣ ، Miranda, Los Banu Hud, pp. 22-23 .

(٤) ابن عذارى ، البيان المغرب جـ٤ ، ص٧٣-٧٤ .

(٥) ابن سماك العاملى ، الحلل الموشية ، ص٧١ .

الحملة ، فقد توفى عام ١١٢٦م/ ٥٢٠هـ قبل أن يعزله أخوه ، وأسند على بن يوسف ولاية الأندلس إلى ابنه الأمير تاشفين بن على [١] .

ثالثا ، غزوة ألفونسو المحارب على الأندلس كشفت بوضوح ضعف قوة المرابطين فى هذه المرحلة ، والدليل على ذلك أن ألفونسو المحارب استطاع أن يخترق الأندلس من الثغر الأعلى شمالا حتى ساحل البحر المتوسط جنوبا دون أن تستطيع قوة إسلامية مرابطية أو غيرها أن تقف فى سبيله ، وتحول دون تقدمه [٢] . ولكن يمكننا أن نلتمس العذر للمرابطين ففى الوقت الذى تتصدى فيه قوات المرابطين للأرغونيين لإيقاف الزحف الأرغونى ، كانت فى الوقت نفسه تواجه قوى الموحدين فى المغرب ، فانقسام القوات العسكرية المرابطية إلى جبهتين إحداهما فى الأندلس والأخرى فى المغرب أدى إلى إضعاف قواهم .

ويعلق أشباخ على حملة ألفونسو المحارب إلى الأندلس بقوله : "لو تغاضى القشتاليون والليونيون عن خصوصتهم للملك أرغون وأيدوه فى حملته بتوجيه الجند ضد بلنسية وقرطبة ، وسير البرتغاليون والجليقيون فى الوقت نفسه قواهم ضد إشبيلية ، لكان من المحقق بوجه عام- مع عون النصارى المعاهدين ومع قلة الإمداد التى يمكن أن يبعثها المرابطون الذين شغلتهم ثورة الموحدين - أن تغرب دولة الإسلام فى أسبانيا قبل الوقت الذى غربت فيه بثلثمائة وخمسين عاما" [٣] .

كان انشغال ألفونسو المحارب بحملته على الأندلس ، سببا فى ابتعاده عن أمور قشتالة . فبينما كان الجيش الأرغونى مشغولا بالحرب مع المسلمين فى الأندلس ، وقعت فى قشتالة أحداث خطيرة ، ففى مايو عام ١١٢٤م/ ربيع أول ٥١٨هـ بلغ ألفونسو ريموندس ثمانية عشر عاما من عمره ، ورسم فارسا فى كومبو ستلا . وبعد سنتين ماتت أوراكا ملكة ليون وقشتالة فى الثامن من مارس ١١٢٦م/ الحادى عشر من صفر ٥٢٠هـ فى مدينة سالدانيا Saldana على مقربة من كاريون ، وتولى ولدها ألفونسو ريموندس حكم جميع الأراضى التى تركها جده

---

(١) ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص٩٠ . وقد حدد ابن الخطيب تولية الأمير تاشفين بن على للأندلس فى عام ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م (الإحاطة جـ١ ، ص٤٤٦) .

(٢) [illegible] p. 376.

محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ١١٣ .

(٣) أشباخ ، تاريخ الأندلس ، ص ١٥٠ .

ألفونسو السادس ، واعترف به القشتاليون والليونيون كملك لقشتالة وليون [١] . وفى العاشر من مارس من العام نفسه دخل ألفونسو ريموندس فى مملكة ليون وبدأ حكمه ، إذ توج كإمبراطور أسبانيا ، وعرف بألفونسو السابع (١١٢٦-١١٥٧م/ ٥٢٠-٥٢٢هـ) ، واتخذ لقب الإمبراطور ، وبدأ يتلقى تأييد الأساقفة والنبلاء ، ولو أن بعضهم أظهر التأييد السطحى فقط، وكانت ميولهم لملك أرغون . مثلما حدث مع القمطين القشتاليين بطره دى لارا وأخيه رودريجو جونثالث ، اللذين أقاما فى أشتريس دى سانتيانا Asturias de Santillana وخيمنو انيجوث Jimeno Iniguez ، الذى حكم فى أراضى ليون . مثل هذه الأمور الجديدة ، قد واجهت ألفونسو المحارب عند عودته من الأندلس فى يونية ١١٢٦م [٢] .

وكان ألفونسو المحارب يحتفظ بحامياته فى عدد من الحصون داخل أراضى قشتالة ، مثل برغش وكاريون وقلاع الدويره وصوريانا Soriana وكاسترو خرث وبيلا فرانكا Villafranca بجبال أوقة وبلورادو ناجرة ، كما استمر جزء كبير من حاميات قشتالة تابعا له . وأخذ ألفونسو ريموندس يطالب بحقوق والدته ، ويعمل للقضاء على دعاوى ملك أرغون ، وتخليص أراضى قشتالة من سيطرة الجند الأرغونيين ، وربما جعلت هذه الأحداث ألفونسو المحارب يسرع بالعودة من الأندلس ، ليحافظ على مايسيطر عليه من حصون قشتالة ، ثم أخذ كل من الملكين يتأهب لمقاومة خصمه [٣] .

وبالإضافة إلى ذلك ، شغلت أحداث أخرى اهتمام ملك أرغون ، كان أهمها ما قام به مسلمو منطقة إفراغة - لاردة ، الذين انتهزوا فرصة غياب ألفونسو المحارب فى الأندلس فى شتاء عام ١١٢٥-١١٢٦م/ ٥٢٠هـ ، وشنوا غارة جريئة ومخربة بالقرب من سرقسطة ، عن طريق الأراضى الداخلية ، وتوغلوا فى المقاطعة المسيحية ووصلوا حتى لسكوار Lascuarre ، القريبة من حصن لجوارس Castillo de Laguarres [٤].

---

(١) A. R. N., pp. 294-295; Memorias de Las Reynas Catholicas, pp. 269, 272 .

(٢) Lacarra, H. P. R. N., pp. 319-320 .

(٣) A. R. N., p. 296; Ballesteros, op. cit., t. II, p. 349,458 .

(٤) Lacarra, Alfonso el B., p. 94 .

ولمواجهة وتأديب اعتداءات المسلمين ، أو ربما لمعرفة الموقف القطلانى من مشكلة الميراث القشتالى - الليونى ، قام ألفونسو المحارب بمقابلة رامون برنجير الثالث قمط برشلونة ومقابلة ولديه الإثنين رامون برنجير الرابع ، وبرنجير رامون ، فى مدينة قلزنغ Calasanz ، وفى هذه المقابلة تقررت الميادين الخاصة بالإسترداد . ،حينئذ عمرت طركونة ، وكان النائب الأول لملك أرغون هناك الفارس النورماندى روبرت بوردت Robert Bordet ، الذى اشترك فى غزو سرقسطة[١] .

وفى أوائل عام ١١٢٧م/٥٢١هـ اهتم ألفونسو المحارب بتعمير المملكة ، فقام بتعمير وتحصين بلدة أثيلا Azaila ، كما انشغل بأمور الحكم الداخلى ، فأخذ يتجول فى مملكته فذهب إلى وشقة وسوس وشفونشة حيث أصدر قوانين خاصة بسرقسطة وتورمس Tormos وكبانيلاس Cabanillas ، كما ذهب إلى بنبلونة لحضور تكريس الكنيسة الكاتدرائية هناك ، وفى أبريل من العام نفسه مر عبر إستيا متجها إلى انترينا Entrena ، بالقرب من لوجرونيو[٢] .

وفى الثلاثين من أبريل ١١٢٧م/ الخامس عشر من ربيع الثانى ٥٢١هـ ، أسرع ألفونسو السابع ملك قشتالة بجيش كبير لاسترداد قلعة برغش ، التى كان عليها حينئذ حامية أرغونية بقيادة بطره أرنال Pedro Arnal ، وقد رفض سيد قلعة برغش سانشو أثنارث San-cho Aznarez الأرغونى اتفاق التسليم ، فقام ألفونسو السابع بمساعدة يهود ومسيحى المدينة ، بالهجوم على القلعة ، وتفاقمت المعركة بين الجند الأرغونيين المدافعين عن برغش والقشتاليين واليهود ، وأثناء المعركة قذف القشتاليون السهام الكثيرة ضد المدافعين ، وأصابت إحداها سانشو أثنارث فمات ، كما جرح بطره أرنال ، واستولى ملك قشتالة على القلعة[٣] .

رأى ملك أرغون نفسه مضطرا إلى أن يخوض غمار الحرب مع قشتالة ، دفاعا عن الحاميات التى كانت تابعة له فى قشتالة . فعندما علم ألفونسو المحارب بالهجوم القشتالى

---

(١) Fernandez, op. cit., p. 558; Lacarra, Alfonso el B., p. 94 .

(٢) Lacarra, Alfonso el Batallador, p. 94, 126 .

(٣) A. R. N., p. 296; Ballesteros, op. cit., p. 349 .

على قلعة برغش ، جمع قواته بسرعة ، واخترق حدود قشتالة فى شهر يوليو ١١٢٧م/ رجب ٥٢١هـ ، لتحصين المقاطعات الواقعة بين كاريون وكاستروخرث ، فى وادى تامارا Tamara، وعسكر بقواته فى تامارا بين كاستروخرث وأورنيوس دى الكامينو Homillos del Camino ، بينما وصل ألفونسو السابع وأقام مع قواته الليونيه ليس بعيدا عن ألفونسو المحارب ، إذ عسكر فى إيسار Isar على نهر أورماثه Hormaza ، على فرسخين شمال شرقى تامارا ، وقد وقعت اشتباكات بين الطرفين قرب نهر بيسويرجا Pifuerga فى وادى تامارا[١] ، هذه الاشتباكات لم تصل إلى مانسميه معركة حربية بين الفريقين . وسرعان ما تدخل الأساقفة بينهما ، تجنبا لوقوع القتال بين الملكين ، كما تدخل الفرسان من كلا الطرفين ، وبوساطة جاستون دى بيارن وسنتولو دى بيجورا تحققت مقابلة فى تامارا فى شهر يوليو ١١٢٧م ، وفيها تم الاتفاق على الصلح الذى أطلق عليه صلح تامارا Paces de Tamara ، وطالب الوسطاء الملك الأرغونى بإرجاع الأراضى والقلاع القشتالية ، ووافق ألفونسو المحارب وتعهد بأن يسلم الحصون التى تسيطر عليها قواته فى مهلة محددة ، ثم عاد إلى أراضيه[٢] .

وقد أمدتنا المدونات المسيحية بتفاصيل صلح تامارا ، وطبقا لرواية دون رودريجو رئيس أساقفة طليطلة ، أن الأساقفة والأشراف خشوا من نشوب معركة تمزق الجيشين ، وحذروا من الخسارة والضرر الكبير للمسيحيين ، مما يحقق الفرصة للمسلمين لتدمير وتخريب أسبانيا . وتدخل وسطاء السلام لدى الملكين يحضونهما على السلم وحقن دماء النصارى ، وتحويل الحرب إلى المسلمين . ومن جهة أخرى ، سارع رجال الدين بعامة وبطره رئيس دير كلونى بخاصة ، وبعد محاولات وفق رجال الدين فى جهودهم ووساطتهم فعقدت الهدنة بين قشتالة وأرغون . وحث الوسطاء من كلا الجيشين ألفونسو السابع أن يلتمس من زوج أمه ألا يحرمه حقه ويعيد إليه مملكته عن أسلافه ، ولهذا أرسل ملك قشتالة وليون إلى ملك أرغون توكيلا من ابن إلى أبيه طالبا منه أولا أن يعتبره بمثابة ابن له ، ثانيا : إعادة المملكة التى منحها له الرب بحق الوراثة ، ثالثا : استعداده أن يحافظ عليها من خلال اعتباره ابنا فى خدمة أبيه ،

---

(١) A. R. N., p. 296: Valdeavellano, op. cit., p. 425 .

(٢) C. C. A., pp. 17-18: Fernandez, cit., p. 560 .

وقد حددت مدونة مملكة أرغون صلح تامارا فى عام ١١٢٦م ، بينما اتفقت الروايات المسيحية فى أنه عقد عام ١١٢٧م .

ومستعدا لمساعدته . وهكذا تدخل الأساقفة ورؤساء الأديرة ورجال الدين بهذه المساعى إلى ملك أرغون . ولأن الملك الأرغونى كان صالحا وتقيا ورحيما . فعندما سمع هذا قال : "شكرا للرب ، الذى أوحى لإبنى مثل هذه النصيحة ". وأجاب ألفونسو المحارب على هذا العرض بالشكر طالما أن ألفونسو ملك قشتالة سيفعل ما وعد به ، وأعرب أنه لن يكون عدوا له بل صديقا حميما . ومن ثم وافق على التماسات ابن زوجته ، ورد جميع ما يخصه . وتحقيقا للمصالحة أرسل ألفونسو المحارب خطابات إلى كل قواده وحكامه الذين كانوا فى قلاع قشتالة وليون ، يحلهم من سلطانه ، ويأمرهم بتسليم هذه القلاع لملك قشتالة ، مع انسحاب الجيوش فى سلام[١] .

وبصلح تامارا سلم ألفونسو المحارب إلى ألفونسو السابع قبل أربعين يوما المملكة التى عادت إليه بحق الوراثة . وحق الوراثة لا يعنى أن ألفونسو السابع تسلم كل الأراضى التى شكلت مملكة جده ألفونسو السادس . ويبدو أن ألفونسو السابع تنازل عن كل مكتسبات قشتالة على طول القرن الحادى عشر ، فتنازل عن فتوحات ، سانشو الثانى وألفونسو السادس فى أراضى الإبره العليا ، وبهذا الشكل رجعت الحدود النبرية القديمة طبقا لما كانت عليه عند وفاة الملك سانشو العظيم ، حتى قرب مدينة برغش ، وحددت لمملكة نبرة كل الأراضى الممتدة من ضفاف الإبره حتى مدينة برغش . وتنازل ألفونسو السابع عن ولاية ريوخا التى انتزعها ألفونسو السادس سابقا - من سانشو ملك نبره . وتم تدبير الوسائل بين مملكتى قشتالة ونبره وكذلك أحضر كل من الجانبين الخرائط التى تؤيد حقوقهم[٢] .

فى الحقيقة ، يبدو أن صلح تامارا لم ينفذ تماما ، فقد احتفظ الملك الأرغونى بقلعة كاستروخرث حتى عام ١١٣١م/ ٥٢٥هـ ، بينما استمر ألفونسو السابع مسيطرا على الأراضى الواقعة بين بلورادو الأراضى القريبة من برغش[٣] ، ومثلما تنازل ألفونسو المحارب عن المدن والقلاع التى استولى عليها فى قشتالة ، تنازل أيضا عن اللقب الإمبراطورى الذى تلقب به

---

(١) C. S. J. P., p. 78; P. C. G. E., p. 648 .

(٢) Morel, A. R. N., p. 299; C. S. J. P., p. 79 .

(٣) Valdeavellano, op. cit., p. 425 .

من خلال احتفاظه بحقوقه على مملكة ليون ، فقد اعترف ألفونسو المحارب أن لقب الإمبراطور ينطبق على ألفونسو السابع ملك ليون ، ولم يستخدم المحارب اللقب الإمبراطورى مستقبلا[١].

ويمكن القول بأن صلح تامارا لم يعمل على تحقيق السلم ، ولكنه أجل المعركة بين قشتالة وأرغون إلى حين ، لأن الملك الأرغونى لم ينفذ وعده ، ولم يرجع المدن والقلاع التى استولى عليها جنوده . فقد احتفظ ألفونسو المحارب بسرية ، التى عمرها بأهل مملكته ، واستطاع حل قلاع الحدود مثل أتينثا Atienza وشغونة ومدينة سالم ، واعتقد أنه يجب أن يعيدها إلي ملك قشتالة ، وقبل أن تنتهى المهلة المحددة فى تامارا ، أعد ألفونسو السابع امتيازات فعلية ومستقبلية لهذه القلاع ، فى صالح كاتدرائية شغونة . ثم ، فرض على ملك أرغون أن يغادر الحدود المعينة لهذه المناطق ، إذ كان استيلاؤه على وادى شلون قد أقام موقفا جديدا . ويبدو أن ألفونسو المحارب عندما قام بإصلاح المقر الأسقفى لشغونة (١١٢١-١١٢٢) قد منحه كل الأراضى التى فتحها منذ يونيه ١١٢٠ حتى يناير ١١٢١ و١١٢٢ ، مثل شغونة ومدينة سالم وأريثا وقلعة أيوب ودروقة ، وكان بقاء مقر الأسقفية الجديد فى مدينة قشتالية قد زاد الأمور تعقيدا فى ذلك الوقت[٢] .

وبصلح تامارا استطاع ألفونسو المحارب أن يتفرغ للعمل بنشاط على تعمير وادى إبره ، فبعد عودته من تامارا ، اهتم بتأمين الحدود الجنوبية لمملكته ، كما خطط للزحف نحو بلنسية. وفى وثيقة مؤرخة فى أغسطس ١١٢٧م/ شعبان ٥٢١هـ منح ألفونسو المحارب سكان مدينة تطيلة امتيازات جديدة وبعض الإعفاءات ، كما منحهم امتيازات أشراف شبروب[٣] . ولتأمين الحدود الجنوبية للمملكة ، رأى ألفونسو أن يقوم بتحصين هذه المنطقة ، فتقدم عن طريق الصحراء من نهر شلوقة ، وقام بتعمير مدينة دروقة ، ومنحها امتياز الحدود ، وعهد بحكمها إلى فورتون جارسيز كاخال Fortun Garces Cajal ، وفى أكتوبر ١١٢٧م/ رمضان ٥٢١هـ كان ألفونسو المحارب فى مؤسسته مونريال ، واستولى على طريقها ، كما قام بتعمير كل ضفاف نهر شلوقة حتى مدينة سيلا Cella وعهد بحكم هذه القلعة الأخيرة إلى أتو أوريا Ato Orella الذى كان يحظى بثقة الملك ، وكان سيد سوس وركلة ، بالإضافة إلى حكم القلعة

---

(١) Lacarra, Alfonso el Batallador, p. 96; Valdeavellano, op. cit., pp. 425 - 426 .

(٢) Lacarra, Alfonso el B. p. 96 .

(٣) Moret, A. R. N., t. II, p. 301 .

الحدودية كتندة[١] . وفى الشهر نفسه ، اتجه ألفونسو المحارب إلى القلعة الجديدة Castil-nuevo[٢]– على أربعة كيلو مترات من مولينة دى أرغون – وعسكر هناك استعدادا لحصار قلعة مولينة ولعل ألفونسو المحارب كان يهدف إما إلى إعداد طريق جديد للزحف نحو البراسين وبلنسية ، وإما أن يحدد مناطق التوسع القشتالى والأرغونى مستقبلا ، ومنذئذ أصر الملك الأرغونى على غزو مولينة ، الذى تحقق بعد جهود كبيرة وشاقة[٣] .

وذهب ألفونسو المحارب مرة أخرى إلى مولينة فى فبراير ١١٢٨م/ صفر ٥٢٢هـ ، وحاصر المدينة ، ويبدو أنه واجه مقاومة عنيفة من المسلمين هناك ، فلم يغادر هذه المنطقة . وأثناء حصار مولينة انشغل ألفونسو المحارب بتحصين الحدود مع قشتالة ، فولى فورتون لوبث Fortun Lopez سيدا على سرية ، وأقام سادة آخرين فى مدن فايوس Fayos ، وبروفيا Brovia وأجريدا Agreda ، والمنار دى سرية Almenar de Soria ، والماثان وبرلانيه دى دويره . وتقدم عن طريق المنطقة الجبلية لمولينة إلى البراسين ووضع حامية فى تريد Traid . كما انشغل ألفونسو بتعمير الماثان ، التى جعلها باسم بلاسنسيا Placencia ، وقضى ألفونسو بقية السنة وهو يتنقل بين القلعة الجديدة ومدينة الماثان . وحينئذ أسس مدينة مونريال ثانية ، وحاليا مونريال رى اريثا Monreal de Ariza ، محددة الحد الأقصى لمطالبه الإقليمية بواسطة مجرى شلون[٤] .

هذه التحركات جذبت اهتمام مستشارى ملك قشتالة ، فتوجه إلى هذه الحدود فى صيف عام ١١٢٨م ، لكى يحول دون تحصين الماثان وتعمير هذه المنطقة بالأرغونيين . لكن ألفونسو المحارب أفسد المحاولات القشتالية ، واستمر فى تعمير مدينة الماثان ، كما قام بتعمير ريبارويا Ribarroya – على ثلاثة فراسخ جنوب سرية ، فى الدويره – واستمر ألفونسو المحارب محاصرا لقلعة مولينة ، ثم قام بغزوها فى ديسمبر عام ١١٢٨م/ ذو الحجة ٥٢٢هـ ، بعد حصار طويل ، وجعل من مولينة مركزا فى طريق بلنسية ، وقد أدى فتح قلعة مولينة بالإضافة إلى قلعة أيوب ودروقة إلى اتساع مملكة أرغون وأصبحت على مقربة من حدود

---

(١) Lacarra, Alfonso el B., p. 98 .

(٢) Lacarra, D. E. R. R. V. E., Doc. num. 53, pp. 514-515 .

(٣) D. H. E., t. I, p. 129; Lacarra, Alfonso el B., p. 97 .

(٤) Lacarra Alfonso el B. 97 .

قشتالة ، كما قام ألفونسو المحارب بتعمير دير جبل أرغون بالسكان ، وحماية قلاع سينجرا Singra وبرج كارسيل Carcel . وفى الشهر نفسه ، انسحب ألفونسو المحارب إلى سوس ، ومنح امتيازات إلى هؤلاء الذين حضروا لاستبطان إنسيزة Encisa ، فى بارديناس ريالز Bardenas Reales ، ليس بعيدا عن الدير الحالى أوليفا La Oliva . وفى الوقت نفسه ، انشغل أتو أوريا فى إقامة معمرين فى سيلا[1] . وفى ديسمبر ١١٢٨م/ ذو الحجة ٥٢٢هـ منح ألفونسو المحارب إلى قمط البرتش مدينة وقلعة قورلة بكل حدودها[2] .

وفى العام نفسه نفسه ١١٢٨م ، تزوج ألفونسو السابع الإمبراطور من برنجويلا ابنة رامون برنجير الثالث قمط برشلونة ودولسى دى بروفانس ، وقد احتفل بالزواج فى مدينة سالدانيا[3]. ويمكن اعتبار هذا الزواج بمثابة حلف واق ضد ملك أرغون فقد خشوا نشاطه على الحدود ومساعدته للمتمردين - ضد ألفونسو السابع - الذين استمروا فى بعض القلاع بدون نزع للسلاح ولا تقديم للطاعة[4] .

وفى هذه المرحلة ، أسس ألفونسو المحارب فى عام ١١٢٨م هيئة دينية حربية Militia Christi فى مدينة مونريال ، مشابهة لهيئة بلشر . وقد أسسها بنصيحة جاستون دى بيارن ، على نمط التى أقيمت فى بيت المقدس ، وكان فيها بعض الفرسان والحجاج الذين حاربوا فى الأراضى المقدسة ، وهدفها "إخضاع المسلمين فى الجزء الشرقى من الأندلس ، بالاستيلاء على كل هذه الأراضى حتى البحر ، وفتح الطريق للإبحار إلى بيت المقدس"[5] . وقرر ألفونسو المحارب أن تكون مدينة مونريال التى أقامها فى المنطقة الحالية الممتدة بين دروقة وبلنسية ، مقرا خاصا للهيئة الدينية ، ومأوى مأمون لهم . وقد خصص ألفونسو المحارب لمساعدة فرسانها نصف إيرادات المدينة ، وربع الإيرادات الملكية التى يدفعها المسلمون بالمنطقة الجبلية

---

(١) Ibid, pp. 97-98 .

(٢) Lacarra, D. E. R. R. V. E., Doc. num. 57, pp. 517-518 .

(٣) Moret, A. R.N., t. II, p. 302 .

(٤) Fernandez, op. cit., p. 562 .

(٥) Miranda, Los Banu Hud, p. 24; Valdeavellano, op. cit., p. 428 .

الواسعة التى تشتمل على شبرب Segorbe[1] وبونيول Bunol ، وقونتقة ، ومولينة ، وبويبركا وباب كارنينا el Puerto de Carinena ، وكان الجزء الأصغر من هذه المدن خاضعا له ، والجزء الأكبر منها ، تحت سلطان المسلمين ، وقد التزم حكامها بدفع الجزية للملك أرغون . وكثيرا مادفعت هذه المدن الضرائب لتأمين سلامتها من غارات هيئة مونريال . واتبعت القاعدة نفسها فيما بعد عند تأسيس جمعيات دروقة وتيرول والبراسين وغيرها . وقد حددت هذه المدن كميدان لغزوات الهيئة مستقبلا[2] . وأيضا منح لفرسان مونريال خمسين من الغنيمة المسلوبة من العدو وهى نصيب الملك فى الإقليم الواقع جنوب الإبره ، والخمس من كل إيرادات أراضيه وامتيازاتها فى كل المدن والقلاع الهامة المفتوحة . وبالإضافة إلى ذلك ، يحصلون كل سنة ألف سولدس[3] من مدينة جاقة وأخرى مثلها من سرقسطة ، وأيضا خمسمائة مكيال من القمح وأخرى مثلها من الشعير فى خلال خمس سنوات [4] .

وتمتعت الهيئة بامتيازات كثيرة ، فقد بقى الفرسان معافين من كل خدمة ، خاصة من دفع خمس الغنيمة ، كما تمتعوا بامتيازات أخرى مثل هيئات فرسان بيت المقدس . وشارك أيضا الأساقفة والكهنة فى منح الامتيازات إلى هيئة مونريال ، ولهذا وجب أن يخصصوا قداسا سنويا للإخوة الموتى والمحسنين ، كما منح الأساقفة إلى أعضائها نفس الامتيازات التى منحها البابوات إلى صليبى بيت المقدس . بالإضافة إلى ذلك ، أمروا قساوستهم بأن يقام قداس سنويا للملك ولنبلائه ، خاصة لأعضاء الجماعة الدينية . وصار جليرمو رئيس أساقفة أوتش Guillermo de Auch أخا فى الجماعة ، وأكد الامتيازات السابقة ومنع أربعين يوما

---

(١) شبرب Segorbe : إحدى مدن كورة بلنسية ، وتتبع الآن مديرية قسطلون دى لابلانا Castellon de la Plana من الناحية الإدارية والقضائية . حسين مؤنس ، الجغرافية والجغرافيون فى الأندلس ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، المجلد ٧ ، ٨ لسنة ٥٩-١٩٦٠ ، ص ٦٥ حـ١ .

(٢) Ibars, op. cit., pp. 446-447; Camarena, op. cit., p. 11 .

(٣) سولدس Sueldos أو دينار denarios عملات صغيرة من الفضة ، وكانت سائدة فى أرغون فى ذلك الوقت ، وقد ضرب الملك سانشو راميرث قطع من السولدس فى جاقة ، المدينة التى كانت مهد العملة الأرغونية . Valdeavellano, op. cit., p. 331 .

(٤) Lacarra, Alfonso el B., p. 99 .

من الغفران إلى من قدم للهيئة مساعدات مالية شهرية ، وكلف سانشو جارسيز Sancho Garcés بأن يقوم بتحصيل الصدقة باسمه (١) .

كان ألفونسو المحارب بعد عودته من غزوته الطويلة فى الأندلس ، قد أدرك عدم قدرة المرابطين على مواجهته في ميدان مفتوح ، كما أراد استغلال الظروف التى تمر بها دولة المرابطين وصراعها مع الموحدين فى المغرب . مما شجعه على التوسع الأرغونى على حساب المسلمين للوصول إلى الساحل الشرقى للأندلس . وقرر ألفونسو المحارب الاستيلاء على إقليم بلنسية ، وربما كان ألفونسو يقصد من وراء ذلك تحقيق عدة أهداف فى مقدمتها ربط مملكة أرغون بساحل البحر المتوسط للانطلاق منه فى حملة صليبية إلى فلسطين ، وهو المشروع الذى شجعه كل الملوك المسيحيين آنذاك (٢) . ومما لاشك فيه أن ألفونسو المحارب فكر حينذاك فى تحويل دولته من دوله برية إلى دولة برية بحرية ، فاتصال أرغون بساحل البحر المتوسط يمكنه من الاتصال بدول حوض البحر المتوسط . بالإضافة إلى ذلك ، التخطيط للقضاء على قوة المسلمين الباقية فى الثغر الأعلى ، فأراد أولا أن ، يقضى على قوة المرابطين فى جنوب الثغر، والتى كانت تتقدم بسرعة من شرقى الأندلس من منطقة بلنسية لمساعدة المسلمين فى الثغر الأعلى (٣) ، ولذلك فكر ألفونسو فى الاستيلاء على بلنسية أولا لقطع طريق الإمداد إلى القواعد الإسلامية الباقية فى الثغر الأعلى . وقد مهد ألفونسو للزحف نحو بلنسية ، فاستولى على قلعة مولينة بعد حصار طويل ، وقام بتأمين حدوده الجنوبية ، وحدوده مع مملكة قشتالة ، كما أسس هيئة مونريال الحربية .

بدأ ألفونسو المحارب يستعد لتنفيذ خطته ضد أراضى بلنسية ، فاستدعى قواته ، وأعد العدة اللازمة للحملة ، وقد استلزمت هذه الاستعدادات وقتا طويلا ، وأثناء ذلك ، كان الأمير على بن يوسف قد علم من عماله فى بلنسية - وربما أيضا من المسلمين الذين كانوا يقومون بزراعة أراضى أرغون - أن ألفونسو المحارب يستعد لغزوة جديدة على أراضى المسلمين ، فخشى أن تكون حركته هذه المرة كالتى قام بها على الأندلس عام ١١٢٦م/ ٥٢٠هـ ،

---

(١) Idem .

(٢) Miranda, H. M. V., t. III. p. 66 .

(٣) محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ١١٧ .

فأخذ حذره ، وعمل على تعزيز القوات المرابطية فى شرقى الأندلس ، وأمر بحشد قوات من الأفارقة تتكفل بنفقاتها مختلف المدن ، كل وفق طاقتها ، وتزويدهم بالأرزاق والسلاح والنفقات . وكان نصيب مدينة فاس تزويد ثلاثمائة شاب من الأفارقة - ومن المحتمل أنهم كانوا من العبيد الذين استقروا فى المدينة - بتموينهم وسلاحهم ونفقاتهم . ثم أرسلت هذه الحشود إلى مدينة مرسية ، التى كان قائدها بدر بن ورقاء ، بينما كان أبو زكريا يحيى بن الحاج المعروف بابن مجوز [١] حاكم إشبيلية ، قائد الجيش كله[٢] .

وعند حلول ربيع عام ١١٢٩م/٥٢٣هـ بدأ ألفونسو المحارب يزحف فى قواته جنوبا نحو أراضى بلنسية ، واستولى على بعض الأماكن الدفاعية الخارجية لولاية بلنسية ، ومن أهمها قلعتى ليريا Liria وبيلا مارشنت Villamarchante ، فى أراضى بلنسية العليا ، ومنحها ألفونسو كإقطاع إلى أسقف سرقسطة ، مخصصا نصف الحقوق للملك [٣] . ثم زحف ألفونسو ضد بلنسية ، وقام بحصارها فى أوائل مايو ١١٢٩م/ جماد أول ٥٢٣هـ [٤] .

---

(١) ابن مجوز : يرى أو بثى ميراندة أن ابن مجوز هنا هو الذى تسميه بعض المراجع الأخرى أبا زكريا يحيى بن على بن الحاج ، وأن اسم مجوز ومكور ومقوز ليست إلا صيغا بربرية لكلمة "حاج" العربية ، وهو من عائلة بنى الحاج المشهورة ، التى أنجبت عددا من أعظم القواد المرابطين ، وأن أبو زكريا يحيى بن الحاج قد أسند إليه حكم إشبيلية لمدة سنة وشهرين من يناير ١١٢٩ - فبراير ١١٣٠م/ محرم ٥٢٣- صفر ٥٢٤هـ ، وفى عام ١١٢٩/٥٢٣ اشترك فى الوقعة التى انتهت بهزيمة قليبرة Cullera ، وقد كان من نتائج هذه الهزيمة أن عزل عن حكم إشبيلية ، وخلفه على ولايتها أخوه عمر بن الحاج فى عام ١١٣٠/٥٢٤ ، ولكنه لم يلبث أن استشهد أيضا فى عام ١١٣٢/٥٢٦هـ فى الوقعة التى هزم فيها المسلمون أمام جيوش ألفونسو السابع ملك قشتالة . ابن القطان ، نظم الجمان ، حـ١ ص١١٠-١١١ ، ابن عذارى ، البيان المغرب جـ٤ ، ص ٨٠ ؛ Miranda, Los Banu Hud, p. 25 .

(٢) ابن القطان ، نفس المصدر ، ص ١٠٩ - ١١٠ ؛ محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص١١٧ ؛ Miranda, Los Banu Hud, pp. 24-25 .

(٣) Lacarra, D. E. R. R. V. E., Doc. num. 48, p. 511 .

(٤) حددت وثيقة أرشيف كاتدرائية قلهرة أن ألفونسو المحارب قام بحصار بلنسية فى الخامس من مايو ١١٢٩م/ الرابع عشر من جماد الأول ٥٢٣ ، فقد ورد فيها أن "عندما كان الملك ألفونسو السيد يحاصر بلنسية" . وفى وثيقة أخرى حددت حصار ألفونسو لبلنسية فى يوم الحادى عشر من يوليو ١١٢٩م/ الثانى والعشرين من رجب ٥٢٣هـ . Miranda, Los Banu Hud, p. 24 .

استمر ألفونسو المحارب فى حقول بلنسية خلال شهر يونية من العام نفسه ، وتؤكد الوثائق المسيحية على طول إقامة ألفونسو فى ولاية بلنسية معسكرا أمام مدينة بلنسية وكان يتلقى التعزيزات من مملكته[1] . ووصل ألفونسو حتى مدينة قليبرة جنوبى بلنسية ، ورابط بقواته بالقرب منها محاصرا القليعة أو القلعة [2] ، على مقربة من جزيرة شقر . ويروى المؤرخ ابن القطان الذى انفرد بهذه الرواية ، وذكر أنه نشبت معركة بين المرابطين والأرغونيين فى القليعة[3] . وقد سجلت لنا الرسائل المتبادلة بين أمير المسلمين على بن يوسف وقادة الجيش المرابطى فى القليعة [4] ، أن القوات المرابطية كانت بقيادة الأمير أبى محمد بن أبى بكر بن سير اللمتونى[5] ، أما تاريخ المعركة فقد حدده ابن الأبار فى ترجمته للفقيه أبا اسحاق ابراهيم بن احمد ابن سلام المعافرى ، بأنها وقعت فى يوم الجمعة الثامن والعشرين من يونية ١١٢٩م/ التاسع من رجب ٥٢٣ هـ [6] .

---

(١) Miranda. Los Banu Hud, p. 26 .

(٢) القليعة Alcolea تعنى Castillejo تصغير القلعة ، ويروى المؤرخ أو بشى ميرانده أن موقع القليعة يطابق موقع قليبيرة بالقرب من جزيرة شقر ، وقد استدل ميرانده على ذلك من أن المؤرخ ابن عذارى كتبها قليرة عندما تحدث عن استرداد بلنسية بواسطة الأمير مزدلى .

انظر خريطة رقم (٣) Mirada. Los Banu Hud, p. 25, not. 81 .

(٣) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص.١١٠-١١١ .

(٤) حسين مؤنس ، الثغر الأعلى الأندلسى ، الوثيقة رقم ٣ ، ٤ ، ص١٣٧ - ١٤٣ ؛ محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، وثيقة رقم ٤ ، ٦ ، ٧ ، ص٥٤١-٥٤٢ ، ٥٤٤ - ٥٤٦ .

(٥) أبى محمد بن أبى بكر بن سير اللمتونى : هو ابن أخت أمير المسلمين على بن يوسف المعروف بابن قنونة أو جنونة Ganuna أو Yanuna . وقد تبادل الرسائل مع أمير المسلمين بخصوص موقعة القلعة ، ولكن لم يعرف أين كان ولا منصبه عندما أجاب على بن يوسف على رسالته .

ويخبرنا ابن عذارى أنه عين حاكم على قرطبة فى عام ١١٣١م/٥٢٥هـ ، ثم نقل إلى إشبيلية فى عام ١١٣٢م/٥٢٦هـ ، ثم قبض عليه وسجن فى القصر شهرين من العام نفسه ، ولم يعرف عنه شئ . ابن عذارى، البيان المغرب جـ٤ ، ص٨٤ - ١٠٧ ؛

Miranda, Los Banu Hud, p. 27 .

(٦) ابن الأبار ، التكملة ، جـ١ ، ترجمة رقم ٣٦٩ ، ص١٤٢ .

أما عن أحداث المعركة ، فلم تخبرنا المدونات المسيحية بشئ عن تفاصيل المعركة ، لانجد فيها إلا إشارات مختصرة ، فقد أشارت إحدى الوثائق إلى غياب الملك الأرغونى عن مملكته فى أوائل عام ١١٢٩م ، وأنه كان فى بلنسية[١] بينما الرواية الإسلامية لابن القطان ، والرسائل التى أرسلها أمير المسلمين لقائده وجنوده فى القلعة ، قد أمدتنا بتفاصيل المعركة ، وتخبرنا أن قوات المرابطين كانت أكثر عددا وعدة من القوات الأرغونية ، وعندما التقى الفريقان ، كانت بداية المعركة فى صالح المرابطين ، ولكن القوات الأرغونية ما لبثت أن انتصرت على القوات المرابطية ، ولم يكن بوسع المرابطين سوى الفرار ، وتبعهم الأرغونيون ، وتمكنوا من قتل وأسر ما يزيد على إثنى عشر ألفا من المسلمين ، واستولوا على أسلابهم ومتاعهم ودوابهم[٢] .

وفى تعليل أسباب هزيمة المرابطين فى موقعة القليعة ، جاء فى رسالة الأمير على أن ذلك يرجع إلى ثبات وعزيمة الأرغونيين فى المعركة ، وجبن القوات المرابطية وفرارهم . بالإضافة إلى الشقاق والتفكك الذى أصاب القوات المرابطية[٣] ، وما ترتب عليه من الفوضى والتشتت .

هذه المعركة سجلت فى الروايات الإسلامية تحت اسم وقعة القليعة أو القلعة ، بينما عرفت فى الروايات المسيحية باسم موقعة قليبرة . ويبدو أن هذه المعركة كانت اشتباكا سريعا بين القوتين المرابطية والأرغونية ، لم يستغرق سوى ساعات ، إذ سرعان ما أحرز الأرغونيون النصر على المرابطين . وبالرغم من انتصار الجانب المسيحى ، إلا أن المدونات الأرغونية التزمت الصمت بأزاء هذه المعركة وأغفلت تسجيل انتصار ألفونسو المحارب ، بينما سجلته الرواية الإسلامية بالرغم من هزيمة المسلمين . ومما لا شك فيه أن هزيمة المسلمين كانت فادحة ، فأسر ألفونسو وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وكان لهذا أسوأ الأثر فى نفس ابن القطان مما دفعه إلى تسجيل هذه المعركة .

وعندما علم أمير المسلمين على بن يوسف بهزيمة المرابطين ، حزن كثيرا ، وغضب لجبن جنوده ، وأمر ابن أبى الخصال بالكتابة إليهم بالتوبيخ والتقصير فى مدافعة الأرغونيين ،

---

(١) Lacarra, Alfonso el Batallador, p. 101 .

(٢) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص١١٠- ١١١ .

(٣) حسين مؤنس ، الثغر الأعلى ، الوثيقة رقم (٣) ، ص١٣٩ - ١٤٠ .

فكتبا عنه إليهم بكل تنكيل وخزى على سبيل العتاب[١] . وكانت لعلى بن يوسف رسالتان بخصوص معركة القليعة ، الرسالة الأولى وجهها إلى الأمير محمد بن أبى بكر بن سير من مراكش ومؤرخة فى السادس والعشرين من يوليو ١١٢٩م/ السابع من شعبان ٥٢٣هـ ، وذلك ردا على كتابه الذى أرسله إلى أمير المسلمين يبلغه فيه بخبر الموقعة ، ويصف له لقاءه مع الأرغونيين عند القلعة ، وكيفية سير المعركة ، ويعتذر عن هزيمته أمامهم ، ويحاول أن يبرر أسباب الهزيمة . والرسالة من إنشاء الكاتب الأندلسى أبى مروان بن أبى الخصال[٢] .

ويبدأ أمير المسلمين رسالته بالتأكيد على أنه فى بداية الاشتباك رجحت كفة المسلمين ، ولكن الأرغونيين انتصروا فى نهاية المعركة ، برغم أنهم كانوا أقل عددا وعدة من المسلمين . ويلوم أمير المسلمين قائده لتقصيره فى مدافعة العدو ، واتهامه بالهزيمة . ثم يعاتب جنده بسبب جبنهم وفرارهم ، وحثهم على الحذر من العدو ، والطاعة والاتفاق والتآلف بينهم ، والتقوى ، والثبات فى المعركة ، ودعا أمير المسلمين قائده وجنوده إلى اليقظة والحذر ، فقد علم أن العدو كان يأتيه المدد من خلفه ، وأمرهم بوضع جواسيس على مسالكه يكونون متيقظين لما يحدث ، لقطع الطريق على إمدادات العدو قبل وصولها ، وخاصة من ناحية ساقة العدو[٣] .

ويروى المؤرخ ابن القطان أن ألفونسو المحارب بعد انتصاره فى القليعة قامت القوات الأرغونية بالإغارة على مدينة غليرة ، واكتسحت ما وجدت[٤] ولم يحدد ابن القطان موقع غليرة ، والمرجح أنها مدينة قليبيرة ، ويبدو أن هذه الغارة كانت تهدف إلى تخريب ونهب الأراضى الزراعية المحيطة فى جنوبى بلنسية ، وربما كانت تمهيدا للإستيلاء على بلنسية . ويبدو أن ألفونسو المحارب زحف بقواته نحو الشمال مخترقا أراضى ولاية بلنسية ، واقترب من ثغر بلنسية ، ورابط أمامه حينا[٥] . وأصاب أهل بلنسية الفزع والجزع ، وعندئذ كتب

---

(١) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١١١ .

(٢) حسين مؤنس ، الثغر الأعلى ، ص ١٣٧ .

(٣) حسين مؤنس ، الثغر الأعلى ، وثيقة رقم (٣) ، ص١٣٩ - ١٤٠ ، محمد الله عنان ، عصر المرابطين ، وثيقة رقم (٤) ص ٥٤١ - ٥٤٢ .

(٤) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص١١٢ .

(٥) محمد عبد الله عنان ، نفس المرجع ، ص ١١٩ - ١٢٠ .

قاضى بلنسية الخطيب أبو الحسن - طبقا لرسالة أمير المسلمين - رسالة يستغيث فيها بأمير المسلمين على بن يوسف ، والذى أجابه فى رسالة وجهها إلى قاضى بلنسية وسائر الفقهاء والوزراء والأعيان والعامة ، وصدرت هذه الرسالة من مراكش مؤرخة فى السادس والعشرين من يوليو ١١٢٩م/ السابع من شعبان ٥٢٣هـ ، أى فى نفس اليوم الذى أرخت فيه الرسالة السابقة الموجهة إلى الأمير محمد بن أبى بكر .

وبدأ أمير المسلمين خطابه بدعوة أهل بلنسية إلى الاطمئنان ، وعدم الجزع بسبب هزيمة جنوده فى القلعة ، التى لم تكن إلا بسبب تخاذلهم ، وعدم أخذهم بالنصيحة ، ثم يؤكد لأهل بلنسية أنه لايتركهم للضياع ، وأنه يعد العدة للدفاع عنهم ، فقد كتب إلى ولاته يأمرهم بإرسال الأقوات ، والتعجيل بإنقاذها من كل الجهات ، وفى أقرب وقت ، ويختم أمير المسلمين رسالته بالدعاء لأهل بلنسية بأن يشد الله أزرهم ، ويصلح أمرهم ، ويسد ثغرهم ، ويحفظ الألفة عليهم[١] .

ولم توضح المصادر التى بين أيدينا موقف ألفونسو المحارب من مدينة بلنسية ويبدو أنه لم يحاول مهاجمة ثغر بلنسية ، ربما واجه مقاومة شديدة من المدافعين عن المدينة ، فاكتفى بأعمال العيث والتخريب[٢] ، لإضعاف موارد المدينة ، تمهيدا لإعداد حملة أخرى ضدها .

وهناك رسالة ثالثة كتبها أيضا أمير المسلمين على بن يوسف وجهها إلى قادة الجيش المرابطى الذين هزموا فى القلعة ، ردا على كتابهم فى وصف المعركة ، والرسالة كتبها أبو الخصال من مراكش ، ومؤرخة فى الثلاثين من يوليو ١١٢٩م / الحادى عشر من شعبان ٥٢٣هـ ، وأسلوب هذه الرسالة يميل إلى الرفق عن أسلوب الرسالة الأولى . وبدأ أمير المسلمين الرسالة بمحاولة لرفع الروح المعنوية لجنوده ، وأن هزيمتهم فى القلعة قضاء وقدر ، ثم دعا أمير المسلمين إلي الجهاد وبذل الأموال ، والاستعداد بحشد الرجال والسلاح ، وإعلاء كلمة الإسلام، ويقسم أمير المسلمين بأنه لو أمكن حضوره لنصرتهم لأسرع دون تراخ ولا توان ، ويدعو أمير المسلمين جنده إلى الاطمئنان ، وجمع الكلمة[٣] .

---

(١) محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، وثيقة رقم (٥) ، ص ٥٤٣ .

(٢) محمد عبد الله عنان ، نفس المرجع ، ص ١٢٠ .

(٣) حسين مؤنس ، الثغر الأعلى ، وثيقة رقم (٤) ، ص ١٤٢ - ١٤٣ ، محمد عبد الله عنان ، نفس المرجع ، وثيقة رقم (٦) ، ص ٥٤٤ .

ومما سبق يتضح أن الدولة المرابطية كانت تمر بظروف عصيبة فى هذه المرحلة ، فقد كانت تواجه ثورة الموحدين فى أفريقية ، وفى الوقت نفسه تحولت الأندلس إلى ميدان حرب رهيب يقتتل المرابطون مع النصارى فى كل ناحية ، من نواحيه ، ولم يتوان على بن يوسف عن إرسال الحملات إلى الأندلس لمحاولة استعادة الأراضى التى استولى عليها ألفونسو المحارب ، فقد ساءت حالة الجند المرابطين المعنوية بسبب اضطراب أمور دولتهم فى أفريقية من ناحية ، وانقلاب الأندلسيين عليهم من ناحية أخرى[١] . ويتضح كراهية الأندلسيين للمرابطين من الرسالة التى كتبها أبو عبد الله بن أبى الخصال عن أمير المسلمين على بن يوسف إلى جند بلنسية بعد هزيمتهم فى القليعة ، يؤنبهم فيها على تخاذلهم وتقاعدهم ، وكان نص وأسلوب الرسالة أشد قسوة أظهر فيها أبو عبد الله مكنون حقده على المرابطين ، فمن فقراتها قوله : "أى بنى اللئيمة ، وأعيار الهزيمة ، إلام يزينكم الناقد ، ويردكم الفارس الواحد ؟ فليت لكم بارتباط الخيول ضأنا لها حالب قاعد . لقد آن أن نوسعكم عقابا ، وألا تلوثوا على وجه نقابا ، وأن نعيدكم إلى صحرائكم ، ونطهر الجزيرة من رحضائكم"[٢] .

وعندما قرأ على بن يوسف هذه الرسالة غضب فعزله عن الكتابة ، والمهم أن هذه الرسالة تكشف عن الكراهية التى امتلأت بها قلوب الكثيرين من الأندلسيين على المرابطين ، فى الوقت الذى كان فيه مصير الإسلام فى الأندلس كله مرتبطا بوجود المرابطين أو غيرهم من جند المغرب فى الميدان ، وأنه فى اليوم الذى يكف فيه أولئك المغاربة عن الدفاع عن الأندلس سيتلاشى أمر الإسلام فيه ، وأن وجود المرابطين - مهما كانوا - أفضل من ترك البلاد بغير حماية[٣] .

وهكذا ضعفت وتداعت قوة المرابطين فى المغرب وفى الأندلس ، وتوزعت قواهم فى جبهتين: ففى المغرب كل الصراع دائرا بين المرابطين والموحدين ، وقد تشجع الموحدون وبدأوا يهبطون من قمم جبال أطلس ويزحفون على العاصمة المرابطية مراكش ، وتعددت المعارك تحت

---

(١) حسين مؤنس ، الثغر الأعلى ، ص ١٣٨ .

(٢) أورد عبد الواحد المراكشى فى المعجب قطعة من هذا الخطاب ، ص ٩٨ ، كما نشر حسين مؤنس نص الرسالة كاملا ، تحت عنوان "نصوص سياسية" مجلة المعهد المصرى بمدريد ، عام ١٩٥٥ ، ص ١١٦ - ١١٨.

(٣) حسين مؤنس ، نصوص سياسية ، ص ١١٥ .

أسوار مراكش بين الموحدين والمرابطين [١]. أما فى ميدان الأندلس ، فقد تحول موقف المرابطين تجاه النصارى إلى موقف المدافع دون اتباع سياسة الهجوم ، وتعددت هزائم المرابطين أمام ألفونسو المحارب ، ونشطت سياسة الاسترداد الأرغونية .

وفى ظل هذه الظروف ، تشجع الملك الأرغونى وأعد حملة أخرى على بلنسية فى شهر سبتمبر ١١٢٩م/ رمضان - شوال ٥٢٣هـ[٢] ، فقد أشارت إحدى الوثائق المسيحية المؤرخة فى العام نفسه إلى زحف ألفونسو المحارب بالأراضى البلنسية ، وقيامه بحملة أخرى ضد مدينة طورية Turia [٣] . ولم تمدنا المدونات لا المسيحية ولا الإسلامية بتفاصيل عن هذه الحملة . لعلها لم تكن ذات أهمية ، ولم تكن لها نتائج جذرية ، فلم يهتم المؤرخون المسلمون والنصارى بتسجيلها وربما كانت غارة شنها ألفونسو المحارب ضد مدينة طورية بغرض التخريب والسلب. كما أنه ليس هناك من المصادر الإسلامية أو النصرانية ، ما يؤكد أن ألفونسو المحارب استولى على بلنسية .

ويبدو أن ألفونسو المحارب أدرك صعوبة تحقيق تطلعاته إلى غزو الشرق عن طريق مملكة بلنسية ، وعزم على تحقيقها عن طريق ثغر طرطوشة ، فانسحب من بلنسية وعاد إلى مملكته . وفى العاشر من اكتوبر ١١٢٩م/ الرابع والعشرين من شوال ٥٢٣هـ ، أمر الملك الأرغونى قاضى سرقسطة بعدم السماح لأى مسلم بالزحف إلى أراضى بلنسية بدون إذن من الملك ، وأمر بأسر المخالفين وأخذ كل ما يملكون[٤] . لأن المسلمين كانوا يعملون فى فلاحة الأراضى فى أرغون ، فخشى ألفونسو المحارب من هجرة المسلمين وتركهم للأراضى الزراعية مما يؤثر على اقتصاد أرغون ، وهى دولة برية ، يقوم اقتصادها على الزراعة والصناعة ، ولهذا كان ألفونسو المحارب يطمع إلى ربط مملكته بالبحر لتنشيط التجارة الداخلية والخارجية لأرغون .

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٤ ، ص ٧٥ - ٧٦ ؛ ابن سماك العاملى ، الحلل الموشية ، ص٨٤ - ٨٥ .

(٢) Lacarra, Alfonso el Batallador, p. 102 .

(٣) Camarena, op. cit., p. 15 .

(٤) Lacarra, D. E. R. R. V. E., Doc. num. 63, p. 522 .

ومما سبق نلاحظ أن الوثائق اللاتينية – الأرغونية تركت لنا أخبارا مختصرة وغير وافية عن العلاقات الأرغونية – الإسلامية فى هذه الفترة ، فى حين أن الأدباء المسلمين والمدونات الإسلامية ، قد أمدتنا بالمعلومات المناسبة ، وخاصة خلال سنتى ١١٢٨-١١٢٩م/ ٥٢٢-٥٢٣هـ ، وأثناء هذه الفترة انحصر نشاط ألفونسو المحارب فى ثلاثة اتجاهات : الاتجاه الأول ، نحو تيرول ، التى كانت إحدى مناطق الاحتكاك الأرغونى الإسلامى الأكثر خطورة ، والتى تسهل الدخول إلى بلنسية ، ووصل حتى سيلا ، وقام بتحصين مونريال دى الكامبو . أما الاتجاه الثانى ، كان نحو القرية Alcarria ، حتى براميرس دى مولينه Parameras de Molina ، وقام بتحصين القلعة الجديدة ، التى استولى عليها فى ديسمبر ١١٢٨م ، وعن طريق الجنوب الشرقى قام بتحصين قلعة الماثان ، وتأمين الأماكن المجاورة . أما الاتجاه الثالث، فكان نحو أراضى بلنسية بهدف الاستيلاء عليها للوصول إلى البحر المتوسط وفتح طريق بحرى إلى بيت المقدس[١] ، لتحقيق حلمه فى المشاركه فى الحروب الصليبية ضد المشرق الإسلامى . وقد انطلقت قوات ألفونسو المحارب عن طريق السهل البلنسى إلى مملكة بلنسية ، ومرت بها عدة مرات . ومع ذلك لم يستطع ألفونسو تحقيق أحلامه عن طريق بلنسية أو طرطوشة للحصول على منفذ للبحر[٢] .

بالإضافة إلى ذلك ، كان ألفونسو المحارب حاكما مدنيا فى إدارة القضاء ففى عام ١١٢٩م/٥٢٣هـ نظم الاختصاصات القضائية فى مدينة تطيلة ، وأعد لسكانها عدة قوانين ، كما حدد العلاقة بين السكان الجدد من النصارى والمزارعين المسلمين ، وألزم المسلمين واليهود مثل المسيحيين بدفع العشر وباكورة المحاصيل إلى الكنيسة . كما حدد حقوق الكنيسة على المسيحيين والمسلمين[٣] . كما منح ألفونسو المحارب فى عام ١١٢٩ سكان بلدة سان ساتورنينو دى بنبلونة San Saturnino de Pamplona امتيازات مدينتى جاقة وكاسيدا التى تمتع بها سكان دروقة وصوريا ، ومنحهم إعفاءات كثيرة تشجيعا لسكنى الفرنجة بها ،

---

(١) Miranda, H. M. V., t. III, 72-73 .

(٢) Camarena, op. cit., pp. 15-16 .

(٣) Moret, A. R. N., t. II, p. 303 .

فكل من يقدم للاستيطان فى كاسيدا يحيا حرا وذريته من بعده ، وتعفى أملاكه من الضرائب ويمنح امتياز الأشراف ، ومن ثم أصبحت هذه المدينة ملاذا ، فكان القاتل يأوى إلى كاسيدا حيث ينال أجل الترحيب ويعين حرا ، ومن يبحث عنه للقبض عليه أو محاكمته ، يدفع ألف سولدس غرامة مالية للملك ، ونظم ألفونسو المحارب قوانين الحرب والأسرى[١] .

---

(١) Ibid, pp. 304, 306 - 307 .

الفصل الخامس
الحملات الأخيرة
لألفونسو المحارب على منطقة الثغر الأعلى
١١٣٠-١١٣٤م/٥٢٤-٥٢٨هـ

١- المشاكل التي واجهت ألفونسو المحارب وأعاقت حركة الاسترداد .

٢- غارة المسلمين على أراضي أرغون عام ١١٣٠م/٥٢٤هـ .

٣- الفكر الصليبي عند ألفونسو المحارب ووصيته في حكم دولته.

٤- استعداد ألفونسو المحارب لغزو المدن الإسلامية الباقية في الثغر الأعلى .

٥- استيلاء ألفونسو المحارب على مدينة مكنانسة عام ١١٣٣م/٥٢٧هـ .

٦- معركة إفراغة وهزيمة ألفونسو المحارب عام ١١٣٤م/٥٢٨هـ .

٧- وفاة ألفونسو المحارب عام ١١٣٤م/٥٢٨هـ .

٨- النتائج التي ترتبت على وصية ألفونسو المحارب بعد وفاته .

لم يحقق صلح تامارا عام ١١٢٧م/٥٢١هـ السلم بين أرغون وقشتالة ، لأن الملك الأرغوني ألفونسو لم ينفذ ما وعد به في هذا الصلح ، كما رفض إعادة المدن والقلاع التابعة لمملكة قشتالة ، والتي استولى عليها جنوده[١] ، فاحتفظ بقلعة كاستروخرث حتى عام ١١٣١م/٥٢٥هـ ، بينما استمر ألفونسو السابع ملك قشتالة مسيطرا على الأراضي الواقعة بين بلورادو والأراضي المجاورة لبرغش[٢] .

ولم يمضي عامان على صلح تامارا ، حتى تجدد العداء بين ملكي قشتالة وأرغون ، ففي عام ١١٢٩م/٥٢٣ دخل ألفونسو المحارب بجيش قوي في أراضي قشتالة واجتاح مدينة سالم

---

(١) C. S. J. P., p. 79; Bleye, op. cit., t. I, p. 635 .

(٢) Valdeavellano, op. cit., p. 425 .

من ناحية ، ومن ناحية أخرى حاصر مدينة موررور Moron ، كما سار ألفونسو السابع ملك قشتالة فى قواته إلى لقائه ، فرفع ألفونسو المحارب الحصار عن مدينة موررور ، وانسحب إلى الماثان واستولى عليها ، ومن ثم تجدد النزاع المسلح بين الملكين ، والتقى الجيشان بالقرب من الماثان ، وهنا تدخل الأساقفة لحض الجيشين المتحاربين على السلام ولتجنب خطر الحرب ، وحقن دماء النصارى . ومن أجل ذلك عقد مجلسا فى الماثان وفيه أسقف بنبلونة حذر ملك أرغون من عواقب الحرب كما حثه أن يرد للملك القشتالى أراضيه خاصة مدينة كاسترو خرث التى كانت من حق الملك القشتالى . واعترف المجلس بأن مدينتى ناجرة وريوخه من أملاك نبرة[١] .

وأخيرا انتهت المنازعات بين ملكى قشتالة وأرغون ، فقد توصل الملكان إلى إتفاق على المطالب الإقليمية المتبادلة ، وعقدت الهدنة بينهما فى عام ١١٢٩م ، والتى بمقتضاها تنازل ملك أرغون عن الحصون التى كان قد انتزعها من مملكة قشتالة ، وتنازل ألفونسو السابع نظير ذلك عن ولاية ريوخه التى كانت من قبل من أراض نبرة ، والتى كان الملك ألفونسو السادس ملك قشتالة انتزعها منها[٢] . وهكذا هدأت العاصفة بين ملكى قشتالة وأرغون ، وعاد ألفونسو المحارب إلى أرغون ولم يعد قط إلى قشتالة[٣] .

بعد هذه الأحداث اتجهت سياسة الملك ألفونسو المحارب إلى فرنسا ، وامتد نشاطه من جسقونية إلى تولوز ووادى آران - أحد وديان البرنيه المغلقة - وحصار مدينة بيونة[٤] ، وإن كان انشغال ألفونسو بأمور فرنسا قد صرفه حينا عن سياسة الاسترداد . أما الدوافع التى أدت إلى التدخل الحربى لألفونسو المحارب فى فرنسا ، فهى غير واضحة ، وتقوم على عدة احتمالات ، أولها : أن ألفونسو المحارب دخل بكل قواته الحرب فى فرنسا دفاعا عن بعض

---

(١) Moret, A. R. N., t. II, pp. 308 - 309 .

(٢) أشباخ ، تاريخ الأندلس ، ص١٦٢ . Defourneaux, op. cit., p. 163;

(٣) Moret, A. R. N., t. II, p. 309 .

(٤) بيونة Bayona : تقع على ضفاف نهر أدور Adour ، بالقرب من نهر الجارون على بورديه . وهى مدينة بحرية ، واسمها فى لغة بشقونية Bay - Ona أى الباب الجميل ، وتبعد عن أوسيانو Oceano بثلاث فراسخ . Ibid, t. II, p. 313 .

أتباعه وأصدقائه من السادة الفرنج الذين تجاور أراضيهم حدود نبرة السفلى La Baja Navarra أو للدفاع عن أراضى كانت إقطاعات لملوك بنبلونة سابقا(١) .

ثانيهما : لقد كان لألفونسو المحارب مصالح أساسية فى جنوب فرنسا ، ولذا قرر حماية الإقطاعات الفرنسية المجاورة لنبرة وأرغون ، حتى يزداد نفوذه وسلطته فى الجنوب الغربى لفرنسا(٢) .

ثالثا : يرى بعض المورخين أن ألفونسو المحارب شعر بالجوار السئ وبأطماع جيلرمو دوق أكيتانيا وبواتييه فى الاستيلاء على أراضى دولته وأراضى أتباعه ، وكان أحد هؤلاء الأتباع بلتران Beltran قمط تولوز ، الذى كان يحارب فى الأراضى المقدسة ، وعند عودته وجد أن جيلرمو قد استولى على ولايته لذلك طلب قمط تولوز حماية الملك ألفونسو المحارب ، فمنحه الملك الأرغونى إقطاعة كاريون التى كانت إحدى ممتلكاته فى قشتالة - قبل صلح تامارا - وذلك تعويضا عن أراضيه المفقوده ، حتى يتفرغ من حروبه فى أسبانيا ، ثم يدخل فى فرنسا لإعادته إلى ولايته . ولكن مدونة الإمبراطور ألفونسو السابع أشارت إلى أن ألفونسو السابع طرد بلتران من مقاطعة كاريون فى نفس السنة ، كما انسحبت الحامية الأرغونية من هناك . وبرغم طرد الحامية الأرغونية تجاوز ألفونسو المحارب عما حدث، لأن كاريون كانت جزءاً من قشتالة القديمة ، وأقرت فى معاهدة الصلح مع ألفونسو السابع . ولكن شفقة الملك الأرغونى البالغة على بلتران الذى سلب هنا وهناك ، قد أثارته لشن الحرب فى فرنسا رغبة فى إرجاع بلتران حاكما على ولايته(٣) .

رابعا : يرجع تدخل ألفونسو المحارب فى فرنسا إلى وفاة غرسية سانشيز Garcia Sanchez فيسكونت لابورد Lahourd دون وريث ، وتطلع جاستون دى بيارن إلى ميراث مقاطعة لابورد، فهدده الدوق جيلرمو ، لذلك لم يتردد ألفونسو المحارب فى المبادرة بحماية صديقه وحليفه جاستون ضد مطالب وأطماع جيلرمو دوق أكتيانيا(٤) .

---

(١) Ibid. t. II, p. 311 .

(٢) Ibid. t. II, p. 310; Defourneux, op. cit., p. 163 .

(٣) Moret, A. R. N., t. II, p. 310 .

(٤) Ibid. t. II, p. 312; Bleye, op. cit., p. 630 .

وقد انتهز ألفونسو المحارب فرصة الصلح مع قشتالة وليون ، واستقرار الأمور فى أرغون- وقبل أن يبدأ الحرب فى فرنسا - قرر القيام برحلة إلى وادى آران ، ولعل هدف ألفونسو من هذه الرحلة أن يتجنب تبعية وادى آران إلى أى من السادة الإقطاعيين المسيطرين على جميع منحدرات البرنيه ، وربما طلب سكان وادى آران الحماية من الملك الأرغونى . وقد أشارت المدونات المسيحية أن ألفونسو المحارب حكم فى آران ، ولم تمدنا بتفاصيل عن علاقة ألفونسو بوادى آران . ويبدو أن السادة المجاورين جميعا - من كومينجس Commings أو بليارش - لم يمارس أى منهم سيادة على الوادى[١] .

وذهب ألفونسو المحارب إلى آران فى مارس ١١٣٠م/ ربيع أول ٥٢٤هـ ، تأكيدا لسلطته ومباشرة الحكم على المقاطعات الخاضعة له حينذاك . وهناك أصدر ألفونسو المحارب بعض المراسيم ، ففى الثالث عشر من مارس فى نفس العام أمر أشراف آران ، والمخلصين له أن يدفعوا عشر الحقوق التى فى الوادى وتخص الملك إلى كاليت Calvet ، قسيس سانتا ماريا دى متج آران Santa Maria de Mitg Aran . كما أصدر ألفونسو مراسم أخرى فى مدينة بلسوس دى آران Belsos de Aran ، وهذه المراسم تدل على أن الملك كان على اتصال دائم برعاياه كل أطراف ممالكه ، وكان مستشاره يخبره بكل مايجرى فى المملكة بالتفصيل[٢] .

وأثناء إقامة الملك ألفونسو المحارب فى وادى آران ، وقعت فى مملكة أرغون أحداث حربية خطيرة ، أهمها مقتل شخصين من أكثر الأشخاص مسئولية فى المملكة ، على يد المسلمين ، هما إستبان أسقف وشقة ، وجاستون دى بيارن سيد سرقسطة[٣] . وكان الأول معلم الملك ، ورفيق سلاحه ، وموضع ثقته فى الأمور الحربية والكنسية ، وقد عهد إليه بحكم المقر الأسقفى بسرقسطة منذ أبريل ١١٢٩م/ ربيع ثانى ٥٢٣هـ ، بالإضافة إلى المقر الأسقفى فى جاقة ووشقة . أما الثانى فهو جاستون فيسكونت بيارن وحاكم سرقسطة ، وقائد أونكاستيو ووشقة، ومتولى أمر المركز الأمامى لونريال . ويحتمل أن الاثنين كانا مكلفين بالدفاع عن الحدود أثناء غياب الملك[٤] . ولم تشر الرواية المسيحية إلى تفاصيل مصرعيهما فى أرض

---

(١) Lacarra, Alfonso el B., p. 103 .

(٢) Lacarra, D. E. R. R. V. E., Doc.num. 65, pp. 523-524; Lacarra, Alfonso el Batallador, p. 103 .

(٣) Anales Toledanos I, p. 345 .

(٤) Lacarra, Alfonso el Batallador, p. 104 .

المسلمين ، ولم يعرف إذا كانوا ضحايا إحدى الغارات التى وقعت فى أرض المسلمين ، أو ضحايا غارة إسلامية قام بها المسلمون بعد معرفتهم بغياب الملك عن مملكته . وتمدنا الرواية الإسلامية بالتفاصيل ، فتروى بأنه فى عام ١١٣٠م/٥٢٤هـ توفى والى بلنسية محمد ابن يوسف بن يدر ، فعين مكانه ينتان بن على اللمتونى[١] ، وخرج ينتان بقواته غازيا فى أراضى أرغون ، والتقى بالأرغونيين بقيادة جاستون دى بيارن ، فى شهر مايو ١١٣٠م/ جمادى الثانى ٥٢٤هـ ، وانتصر ينتان على الأرغونيين وقتل زعيمهم جاستون ، وحمل رأسه إلى غرناطة ، ونصبها على ذروة رمح وطيف به الأسواق والشوارع مع ضرب الطبول ، ثم أرسلت بعدئذ إلى أمير المسلمين بمراكش ، فطيف بها هناك أيضا[٢] .

بينما تروى حولية مملكة نبرة أن الفيسكونت جاستون دى بيارن خرج فى غارة على أرض المسلمين ، وكان بصحبته الأسقف استبان ، فهزمهما المسلمون ، ومات كلاهما[٣] . وتكاد تتفق الرواية النصرانية مع الرواية الإسلامية ، إلا أن كلا منهما تنسب إلى قائدها زمام المبادأة بالإغارة . كما أن الروايتين لم تحددا مكان المعركة ، ولكن يحتمل أن المعركة قد وقعت بالقرب من إفراغة ، لأن ألفونسو المحارب كان على حدود إفراغة فى سبتمبر ١١٣٠م[٤] ، أى بعد عودته من آران . ويعتقد أويثى ميرانده أن جاستون دى بيارن واستبان خرجا سويا فى غارة على أراضى بلنسية ، ونظرا للنجاح الذى حققاه من قبل فى قلييره ، فقد تشجعا وتوغلا فى شرقى الأندلس حتى هزما ولقيا مصرعيهما[٥] . وحينذاك وصل المبعوثون الأرغونيون يعرضون على المسلمين السلم وإقرار الهدنة ، ومما لا شك فيه أن الرغبة فى حمل جثمان

---

(١) ينتان بن على : هو أبو يعقوب ينتان بن على بن يوسف بن تاشفين ، أصغر أبناء على بن يوسف ، وأن ينتان هذا ولى عمل بلنسية فى عام ١١٣٠م/٥٢٤هـ ، خلفا لمحمد بن يوسف المعروف باسم بدر الذى توفى فى هذه السنة . وفى عام ١١٣٣م/٥٢٧هـ نقل إلى إشبيلية فحكمها سنة ونصف من أغسطس ١١٣٣ حتى نوفمبر ١١٣٥م/ شوال ٥٢٧ حتى صفر ٥٢٩ . ابن القطان ، نظم الجمان ، ص١٨١ ، حـ٢ ؛ ابن عذارى، البيان المغرب ، جـ٤ ، ص ١٠٧ .

(٢) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ١٨١ ؛ ابن عذارى ، البيان المغرب جـ٤ ص٨١ .

(٣) Moret, A. R. N., t. II, p. 306 .

(٤) Idem .

(٥) Miranda, H. M. V., t. III, p. 73 .

الفيسكونت والأسقف كان وراء ذلك ، وقد أحسن الأمير تاشفين بن على استقبالهم ، وعادوا إلى أرغون ، وأمر الحامية بمرافقتهم حتى وصلوا إلى بلدهم آمنين[١] . ودفن جاستون دى بيارن فى كنيسة القديسة ماريا الكبيرة بسرقسطة . وقد اهتمت أرملته ، دونيا تالسا بتنفيذ رغبة زوجها ، فقد تنازلت عن كل الأراضى التى كان يمتلكها زوجها فى سرقسطة وفى سوابيلد Sauvelade التى اكتسبها بالحرب إلى هيئة فرسان الداوية لكى يمكنها مواصلة الاسترداد[٢] .

وعلم ألفونسو المحارب بكل هذه الأحداث بينما كان فى آران ، وأصدر مرسوما من هناك ، سجل فيه أسماء الأشخاص الذين عينهم الملك لشغل مكانى الضحيتين ، فعين سنتولو ابن الفيسكونت جاستون لحكم سرقسطة ، واختار الأسقف أرنالدو دوت ، Arnaldo Dot للمقر الأسقفى فى جاقة ورشقة ، وغرسية دى ماخونس Garcia de Majones للمقر الأسقفى فى سرقسطة [٣] .

بعد أن أكد ألفونسو المحارب الصلح مع قشتالة ، وبعد أن أكد سلطته فى وادى آران ، استعد لدخول الحرب فى فرنسا ، وعبر جبال البرنيه بجيش كثيف إلى فرنسا ، ودخل فى جسقونية ، ورأى الملك وقواد الجيش أن الأمن لن يستمر فى الحدود إلا بالاستيلاء على مدينة بيونة ، القلعة الرئيسية لأراضى لابورت المجاورة لنبرة السفلى ، وحاصر ألفونسو المحارب مدينة بيونة فى أكتوبر ١١٣٠م/ ذو القعدة ٥٢٤هـ ، وطال الحصار واستمر ألفونسو مع جيشه أمام القلعة حتى أكتوبر من السنة التالية [٤] .

وقد اشترك فى حصار بيونة قوات من كل أجزاء المملكة ، كان أهمهم سادة صوريا وبرلانيه دى دويره ، وسادة إستيا وبلورادو وبلشرو وطرسونة وبريشتر وإستادا وبليارش .

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٤ ، ص٨٢ ،

Miranda, H. M. V., t. III, p. 74 .

(٢) Laccarra, Alfonso el Batallador, P. 104 .

(٣) Lacarra, D. E. R. R. V. E., Doc. 65, pp. 523 - 324;

Moret, A. R. N., t. II, p. 306 .

(٤) Ibid, t. II, pp. 312-313; Lacarra, Alfonso el Batallador, p. 105 .

كما قام بتأييد ألفونسو المحارب أتباعه سادة المنحدر الشمالى من البرينه ، من أهمهم بطره قمط مارسان Marsan ، وجاسيون Gasion فيسكونت سول Soule ، وسنتولو دى بيارن[١] .

أعد ألفونسو المحارب أسطولا جمع سفنه من الموانى القريبة من جيبو سكو Guipuzcoa وبسقاية ، وحاصر المدينة من جهة نهر أدور ، وبذلك أحكم حصار بيونة برا وبحرا[٢] . وقد تدخل ألفونسو خوردان Alfonso Jordan قمط تولوز ، لأنه كان يخشى نوايا وطموح الملك ألفونسو الأرغونى فى وسط فرنسا ، فوصل إلى بيونه للدفاع عنها ورفع الحصار[٣] .

وقد كان ألفونسو المحارب مهتما وحريصا بسياسة المدن الأرغونية حتى أثناء حصار بيونة، إذ أصدر مرسوما من قلعة بيونة فى السادس والعشرين من أكتوبر ١١٣٠م/ الحادى والعشرين من ذو القعدة ٥٢٤هـ يؤكد فيه حدود مدينة تورية ، كما منح سكانها نفس الامتيازات التى منحها إلى سكان مدينة تطيلة[٤] .

وفى أواخر أكتوبر ١١٣٠م اشتد الحصار على بيونة من البر والبحر ، واشتد القتال ، واستطاع ألفونسو المحارب أن يسيطر على إحدى قلاع بيونة الثلاثة . وقضى شتاء عام ١١٣٠-١١٣١م فى حصار بيونة ، بالرغم من قسوة الشتاء وعواصفة الشديدة هناك ، كما جعل الأسطول يصعد النهر إلى أعلى حتى لايتعرض للعواصف القوية[٥] .

وبينما كان ألفونسو المحارب مشغولا فى حصار بيونة ، قام الملك ألفونسو السابع ملك قشتالة باسترداد قلعة برغش من الأرغونيين فى الثامن والعشرين من أبريل عام ١١٣١م/ الثامن والعشرين من جماد أول ٥٢٥[٦] ، وبعد قليل ، وفى أوائل مايو من العام نفسه ، حاصر الملك ألفونسو السابع قلعة كاسترو خرث ، التى كانت بداخلها حامية أرغونية قوية بقيادة أوريولو جارسيز Oriolo Garces ، وقد تحملت الحصار لمدة ستة أشهر ، مما أدى إلى

---

(١) Lacarra, Alfonso el Batallador, p. 105 .

(٢) Moret, A. R. N., II, p. 313 .

(٣) Defourneaux, op. cit., p. 162 .

(٤) Lacarra, D. E. R. R. V. E., Doc. num. 66, p. 524 .

(٥) Moret, A. R. N., t. II, pp. 314 - 315 .

(٦) Ballesteros, op. cit., t. II, p. 350 .

وفاة عدد كبير من أفرادها بسبب الجوع والعطش ، وأخيرا استسلمت الحامية فى أكتوبر عام ١١٣١م / ذو الحجة ٥٢٥هـ . ولأن كاسترو خرث كانت قد أقرت فى معاهدة الصلح مع قشتالة ، فلم يهتم ألفونسو المحارب بفقدانها[١] ، بقدر ما أصر على استمرار حصار بيونة .

وبعد حصار طويل سقطت بيونة فى يد ألفونسو المحارب فى أكتوبر عام ١١٣١م/ ذو الحجة ٥٢٥هـ ، وقد صمتت المصادر ولم تخبرنا إذا كانت مدينة بيونة قد استسلمت أو قام ألفونسو المحارب بغزوها[٢] . ويبدو أنها استسلمت بعد عناء الحصار . ولكن مدونة ألفونسو الإمبراطور ذكرت أن حصار بيونة انتهى بالفشل ، ولم يستطع ألفونسو المحارب الحصول على بيونة ، فعاد إلى بلاده دون أن يحظى بأى شرف [٣] . ويتضح من هذا أن كاتب المدونة قد أخذ يلقى الشكوك فى أعمال ألفونسو المحارب ، إذ أكدت بعض الوثائق والمؤرخين القدامى أن بيونة كانت جزءا من دولة ألفونسو المحارب . ولكن سريعا ما فقدت بيونة بوفاة الملك ألفونسو المحارب عام ١١٣٤م/٥٢٨هـ ، إذ واجهت مملكة أرغون بعض الاضطرابات والمتاعب، وانفصلت مملكتا أرغون ونبرة ، وأصبح لكل منهما ملك[٤] .

وبينما كان الملك ألفونسو المحارب فى بيونة ، وقبل رفع الحصار بقليل ، حرر وصيته المشهورة فى أكتوبر ١١٣١م/ ذى القعدة ٥٢٥ ، والتى أكدها بعد ثلاث سنوات فى سارنينا، وفيها أوصى بتسليم مملكته بعد وفاته إلى المنظمات الدينية العسكرية الثلاثة فى بيت المقدس، ونص فيها : أن تقسم مملكته إلى ثلاثة أقسام متساوية يخصص قسم منها لجماعة فرسان الداوية باعتبارهم جند الله وحماة المسيحية فى الشرق ، والقسم الثانى لفرسان الإسبتارية ، والقسم الثالث للقبر المقدس el Santo Sepulcro [٥] . ولكن ما الدوافع التى جعلت ألفونسو المحارب يحرر مثل هذه الوصية الغريبة ، والتى يوصى فيها بتسليم مملكته بعد وفاته إلى هيئات غريبة عن مملكته بالرغم أنه كان له أخ شرعى هو الأمير راميرو ؟

---

(١) Moret, A. R. N., t. II, p. 316 .

(٢) Moret, A. R. N., t. II, p. 317 .

(٣) La Cronica de Alfonso el Emperador, por : A. Huici Miranda, en "Las Cronicas Latinas de la Reconquista, t. II, Valencia, 1913, p. 226 .

(٤) Moret, A. R. N., t. II, pp. 317-318; Dozy, Recherches, t. II, p. 417 .

(٥) C. C. A., p. 19 ; Defourneaux, op. cit., P. 166 .

فقد كان الملك الأرغونى يبلغ من العمر آنذاك السابعة والخمسين من عمره ، وليس له أبناء ، فقرر أن يتخذ التدابير الضرورية حماية لمصير مملكته ، ومثل هذه الوصية تتفق مع أهداف ألفونسو ورغبته الشديدة فى استكمال مشروعاته الصليبية (١) ، وأدرك ألفونسو أن أخاه راميرو - الذى كان راهبا فى سان بونس دى توميراس ، وفى ساهاجون ، ثم أسقف رودا وبربشتر - لن يستطع تحقيق هدفه فى تشجيع وترجيه الحرب ضد المسلمين ، ولهذا استبعده من ميراثه ممالكه. ولعل ألفونسو المحارب لم يثق فى ممالكه المتحدة حينئذ ، وخشى أن تسودها الانقسامات بوفاته ، والصراع على الميراث(٢) . وقد وثق ألفونسو فقط فى المنظمات العسكرية فى الشرق ، فى تحقيق أهدافه الصليبية الكبيرة ، وتحقيق المجد الحربى ضد المسلمين ، ومما لاشك فيه أن ألفونسو المحارب عندما خصصها كورثة لسلطته تحكم فى أرغون ونبرة كلفها بمهمة الحرب فى أسبانيا ضد المسلمين ، ومواصلة عمله الصليبى خاصة فى الغرب(٣) . وتدل هذه الوصية الغريبة على تعصب ألفونسو المحارب وحماسته لنشر العقيدة المسيحية والقضاء على الإسلام(٤) ، واهتمامه بصفة خاصة بالحرب الدينية التى اهتمت بالاسترداد .

أما بخصوص الوصية ، فقد ترك ألفونسو المحارب سلسلة من القلاع والمدن الهامة تقع جميعها خارج أرغون ، حيث وهبها للكنائس الكبيرة وهى : كنيسة سانتا ماريادى بنبلونة وكنيسة سان سلفادور دى لير ترك لهما حصن ومدينة إستيا مناصفة ؛ وإلى كنيسة سانتا ماريادى ناجرة وكنيسة سان ميلان ، وهب لهما حصن ناجرة بإيراداته وتوابعه ، وحصن توبيا Tobia ، أيضا مناصفة بينهما ؛ وإلى كنيسة سان سلفادور دى أونيا ، ترك لها حصن بلورادو؛ وإلى كنيسة سان سلفادور دى أوبيدو وهب لها مدن سان إستبان دى جورمث والماثان بتوابعها ؛ ووهب كنيسة شنت ياقب دى جليقية ، مدن قلهرة وسرفيرا وتودخن Tudején ؛ كما وهب كنيسة سان دومينجودس سيلوس ، حصن شفونشه ، والمدينة والبلدتين الجديدة والقديمة وسوقيهما . بالإضافة إلى ذلك ، وهب دير سان خوان دى لابينيا وسان بطره دى

---

(١) Lacarra, H. P. R. N., p. 328 .

(٢) Moret, A. R. N., pp. 331, 336; Bleye, op. cit., p. 660 .

(٣) Lacarra, Alfonso el B., p. 106; Valdeavellano, op. cit., p. 433 .

(٤) Moret, A. R. N., p. 336 .

سيرسا ، المدن التى شكلت مهر والدته ، مناصفة بينهما ، وهى مدن بيل وبابلو وأستوريتو وأردنس وسيوس Sios[١] . وقد استمر هذا التقليد شائعا بين الفرسان .

كما ورد بالوصية تنازل الملك ألفونسو المحارب إلى هيئة الداوية عن فرسه وأسلحته ، ووهب إلى هيئة الإسبتارية مدينة طرطوشة عندما يتحقق غزوها . كما نصت الوصية على ان السادة الذين يمتلكون أراضى أو إقطاعات من الملك ، يحتفظون بها أثناء حياتهم ، وعند وفاتهم تعود إلى المنظمات الدينية الثلاثة ، التى تسلمها إلى من يتراءى لها . وأقسم كل رؤساء الجيش على وصية الملك[٢] .

وتوضح هذه الوصية أن ألفونسو المحارب كان يأمل فى الحصول على مدينة طرطوشة ، كما أنه جعل هذه المنحة إلى الرب والقديسين ، ومنح فى الوصية هبات كبيرة للكنائس والأديرة داخل المملكة وخارجها ، مما يظهر تعصبه وتدينه الورع الخالص لله وقديسيه . وبالرغم من هذه الهبات الكثيرة ، لم يمنع الملك هبات إلى كنيسة ودير ساهاجون ، حيث اتهمه بعض المؤرخين أنه سلب منه أشياء ثمينة ، كان أهمها صندوق غنى بالذهب والمجوهرات فيه قطعة خشب مقدسة من صليب يسوع - المسيح ، والتى كان يأخذها الملك دائما فى حروبه مع آثار أخرى كثيرة . ولكن يبدو أن الملك لم يعترف أنه متهم بالخطيئة[٣] .

وأخذت الهبات والعطايا تنهال على المنظمات الدينية العسكرية فى بيت المقدس ، فقد فاضت الروح الصليبية بين أتباع ألفونسو المحارب ، ففى عام ١١٣٣م/٥٢٧هـ ، منح فورتون جارسيز كاخال كل ما يملك فى سرقسطة إلى فرسان اسبتارية بيت المقدس ، ووهب ما يملك فى تطيلة إلى فرسان الداوية ، كما وهب كل ما يملك فى طرسونة إلى كنيسة سانتا ماريا دى بيلن Belén ، واتخذ قرارا بأن يذهب لزيارة الأماكن المقدسة . وفعل مثله أحد أبناء أخيه لوب كاخال ، الذى مات فى معركة إفراغة ، وكان قبل وفاته قد منح المزرعة التى استلمها من عمه فى تطيله إلى هيئة الداوية . وأيضا لوب جارسيز وبرجرينو سيد آلاجون وبيطره Pedrole وابيلة Epila الذى وهب عند وفاته كل ما يملك إلى كنيسة سرقسطة ، وإلى هيئة فرسان

---

(١) Moret, A. R. N., p. 333: Lacarra, Alfonso el B., p. 107 .

انظر نص الوصية الملكية فى الملحق رقم (٣) .

(٢) Lacarra, Alfonso el B., p. 108 .

(٣) Moret, A. R. N., pp. 334-335 .

الداوية والاسبتارية ببيت المقدس ، كما أن إبنة خيمنو فورتو نيونس دى ليت Jimeno Fortunones de Laet - الذى اصطحب الملك عندما حرر وصيته المشهورة - تركت إلى هيئة الإسبتارية المزرعة التى ورثتها عن والدها فى سرقسطة[١] .

فى ذلك الوقت ، توفى بحصن روطة دى شلون أمير سرقسطة السابق عبد الملك ابن أحمد المستعين بن هود الملقب بعماد الدولة فى شهر يوليو عام ١١٣٠م/ شعبان ٥٢٤هـ ، الذى كان على خلاف مع المرابطين ومع أهل سرقسطة لمحالفته النصارى ، والذى لجأ عند دخول المرابطين بأهله وأمواله إلى حصن روطة المنيع ، واستقر فيه حتى وفاته تحت حماية ألفونسو المحارب . وقد خلفه فى إمارة روطة ابنه أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن هود ، ولقب بسيف الدولة المستنصر بالله ، ولقب أيضا بالمستعين بالله - المعروف فى المدونات المسيحية تحت اسم سفادولا Zafadola - وقد اتبع سياسة أبيه وظل على ولائه لألفونسو المحارب لبعض الوقت، حتى استماله ألفونسو السابع ملك قشتالة فدخل فى خدمته ، واقترح عليه مساعدته حتى يعترف به مسلمو الأندلس[٢] .

ويبدو أن سيف الدولة ضاق بسلطان ألفونسو المحارب عليه ، فتركه ودخل فى تبعية ألفونسو السابع ملك قشتالة[٣] . وربما كان سيف الدولة يخطط لمشروع مملكة إسلامية كبيرة، ووجد فى ألفونسو السابع عونا لتحقيق مشروعه . وكان خضوع سيف الدولة لألفونسو السابع منذ عام ١١٣١م/ ٥٢٥هـ - طبقا للرواية المسيحية - وتنازل له عن حصن روطة دى شلون[٤]، وبذلك حصلت قشتالة على حدود واضحة بينها وبين أرغون[٥] . بينما سجلت رواية ابن الأثير تنازل سيف الدولة عن حصن روطة تحت ١١٣٤م/٥٢٩[٦] ، فى حين أن ابن الأبار أخر قرار

---

(١) Lacarra, Alfonso el B.. pp. 99-100 .

(٢) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١٢٠ ؛ ابن الأبار ، الحلة السيراء ، جـ٢ ، ص٢٤٩ ؛ Maria Viguera, op. cit., p. 192 .

(٣) حسين مؤنس ، الثغر الأعلى الأندلسى ، ص ١١٨ .

(٤) Codera, op. cit., p. 24; Ballesteros, op. cit., t. II, p. 354 .

(٥) أشباخ ، تاريخ الأندلس ، ص ١٧١ .

(٦) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، جـ١١ ، ص ٣٣ .

سيف الدولة بالتنازل عن ورطة إلى شهر يونية ١١٤٠م/ ذى القعدة ٥٣٤هـ[١] . ولكن هذه الرواية بعيدة عن الصواب ، لأن فى عام ١١٣٣م/٥٢٧هـ خرج سيف الدولة مصطحبا ملك قشتالة لغزو بلاد الأندلس[٢] . وفى مقابل حصن روطة ، تنازل ملك قشتالة لسيف الدولة عن بعض المدن والحصون فى طليطلة واسترامادورة ، والتى تعرضت باستمرار لهجمات المرابطين ، وانتقل إليها سيف الدولة بأهله[٣] .

وقد اتفقت الرواية الإسلامية مع الرواية النصرانية فى تنازل سيف الدولة عن حصن روطة لملك قشتالة ألفونسو السابع ، واختلفت رواية ابن الخطيب عن بقية الروايات ، فيروى أن سيف الدولة وضع نفسه تحت حماية ملك أرغون ، الذى عوضه عن ورطة بأماكن من مدينة تطيلة فانتقل إليها بأهله[٤]. ولكن هذه الرواية بعيدة عن الصواب ، ففى حملات ألفونسو السابع على الأندلس ، ظهر اسم سيف الدولة بين أتباع ملك قشتالة . وربما كان تحالف سيف الدولة مع ملك قشتالة بغرض الانتقام من المرابطين الذين حرموا والده من ملكه .

وحوالى ذلك الوقت مات فى يوليو عام ١١٣١م/ شعبان ٥٢٥هـ رامون برنجير الثالث قمط برشلونة ، تاركا ولايته الكبيرة تتمتع بنفوذ سياسى وقوة حربية كبيرة وتطورت بفضل بحريتها وتجارتها ، وقد خلفه فى إمارة قطلونية ابنه الأكبر رامون برنجير الرابع (١١٣١-١١٦٢م/ ٥٢٥-٥٥٧هـ) الذى ورث مقاطعات برشلونة وأشونةAusona ، ومنرسة Manresa ، وجرندة ، وبتش Vich ، وبيسالو Besalu وشرطانية وقرقشونة وورودس ، بينما ورث ابنه الثانى برنجير رامون ولاية بروفانس[٥] .

بعد عودة ألفونسو المحارب من بيونة فى نوفمبر ١١٣١م/ ذى الحجة ٥٢٥هـ ، تابع مشاكل التعمير الداخلية ، وأعد حملات جديدة ضد مسلمى الثغر الأعلى . كما وهب

---

(١) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، جـ٢ ، ص ٢٤٩ - ٢٥٠ .

(٢) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٠٠ ؛ Anales Toledanos I, p. 346 .

(٣) ابن الكردبوس ، الاكتفاء ، ص ١٢١ ؛ Codera, op. cit., p. 25 .

(٤) ابن الخطيب ، تاريخ أسبانيا ، ص ١٧٥ - ١٧٦ .

(٥) Bleye, op. cit., p. 633; Valdeavellano, op. cit., p. 429 .

منظمات الداوية والإسبتارية منازل وأراضى فى أرغون ليستقروا بها ويدافعون عنها . وفى ديسمبر ١١٣١م/ محرم ٥٢٦هـ منح ألفونسو المحارب هيئة الإسبتارية ببيت المقدس قصره فى مدينة شفونشه المجاور لجسر شفونشه ، كما منحهم أيضا كنيسة سانتا ماريا التى كانت بداخل بلدة شفونشه الجديدة ، وكل العشور والباكورات ، بالإضافة إلى حقوق أخرى كثيرة وإيرادات هذه البلدة ، بالإضافة إلى أراضى فى أونكاستيو وسوس . وفى الوقت نفسه ، منح ألفونسو المحارب نفس الامتيازات إلى سكان قلعة أيوب ، مع إعفاءات وحقوق وراثية ، وكان يستهدف ازدياد السكان المسيحيين فى وادى شلون ، وحرص على تعايشهم مع السكان المسلمين واليهود المقيمين هناك . كما منح ألفونسو المحارب سكان مدينة أسين Asin المجاورة نفس امتياز مدينة شفونشة[١] .

وفى أوائل عام ١١٣٢م/٥٢٦هـ انشغل ألفونسو المحارب بتعمير بلدة كنتبرية Cantabria الواقعة على نهر إبره بين مدينتى لوجرونيو وبيانا ، والقريبة من صوريا ، فقد فكر الملك فى تأمين حدود قشتالة ، قبل أن ينطلق تجاه شرقى الأندلس . وفى شهر أبريل من العام نفسه منح امتيازات كثيرة للسكان الفرنجة فى بلدة شفونشة القديمة[٢] .

وفى الثامن من نوفمبر عام ١١٣٢م/ السابع والعشرين من ذى الحجة ٥٢٦هـ ، أقيم فى مدينة قلهرة احتفال رسمى لنقل جثمان القديسين امتريو Emeterio وسلدونيو Celedonio إلى المذبح الجديد الذى كرسه رئيس أساقفة أوتش وأسقف أكشمة ، وقد حضر الملك ألفونسو المحارب هذا الاحتفال ، ومن ثم أخذ يعد لعمل حربى على أهمية كبيرة لغزو ضفاف الإبره حتى طرطوشة[٣] .

ومن العوامل التى دفعت ألفونسو المحارب إلى أن يتوغل فى الإبره نحو طرطوشة هو استكمال سيطرته على بقية مدن الثغر الأعلى ، وإجلاء المسلمين عن هذه المنطقة ، حتى يحقق اتصال مملكته بالبحر المتوسط عن طريق ثغر طرطوشة ، وضمان سلامة الملاحة فى نهر إبره ،

---

(١) Moret, A. R. N., t. II, p. 318; Lacarra, Alfonso el Batallador, p. 123 .

(٢) Moret, A. R. N., t. II, pp. 318-319 .

(٣) Lacarra, H. P. R. N., p. 326 .

وتحقيق هدفه فى القيام بحملة صليبية إلى بيت المقدس ، وعامل آخر يضاف إلى ذلك وهو ضرورة الدفاع عن حدوده المهددة بالخطر ، فقد كان المرابطون يسيطرون على المنطقة الواقعة شرقى سرقسطة فيما بين نهرى سينكا وشيقر فرعى إبره ، وأهم قواعدها لاردة وإفراغة ومكناسة ، وكذلك المنطقة الممتدة على طول نهر إبره حتى مصبه عبر ثغر طرطوشة[١] ، وكان المجرى الأسفل لنهرى الكاندر Alcandre وسينكا يشكل مقاطعات سهلية ، ليس لها حماية طبيعية ، تسمح لمجموعة سريعة من الفرسان أن تتوغل بعمق وتستولى على قلاع متوسطة الدفاع بأسلوب المباغتة . كما أن الجزء الأكبر من القرى فى هذه المنطقة مازال مسكونا بالمسلمين ، واحتوت هذه القرى على بعض المسلمين الذين طردوا من ديارهم[٢] . وقد انتهز المرابطون فرصة انشغال ألفونسو المحارب بحروبه فى قشتالة وجنوبى فرنسا ، وقاموا بشن غاراتهم من مدينتى لاردة وطرطوشة على أراضى أرغون وإمارة برشلونة ، ووقعت بين المسلمين والأرغونيين فى تلك الفترة عدة معارك على الحدود الأرغونية[٣] . ولما عاد ألفونسو المحارب من جنوب فرنسا ، نقل جهوده الحربية إلى شرقى مملكته ، ولم يتوان فى استئناف هجماته ضد المسلمين .

أخذ ألفونسو المحارب يستعد لتنفيذ مخططه فى شهر نوفمبر عام ١١٣٢م/ محرم ٥٢٧هـ، فقد أمر بقطع الأخشاب فى جبال سان ميلان San Millan ، وعين أسقفا للإشراف على هذه العملية ، وبدأ الإعداد للحملة فى بلدة بارية Varéa الصغيرة ، من سفح كنتبرية القريبة من لوجرونيو ، ومن هناك كان الخشب يحمل فى سفن عن طريق الإبره الأسفل حتى طرطوشة ، وقد نشطت هذه الأعمال روح القتال والاستعداد للحرب وحصار مدينة طرطوشة . ومما لا شك فيه أن الملك أراد إعداد السفن والمعابر لتحمل جنوده عبر الإبره إلى طرطوشة . ويبدو أن القوات الأرغونية التى قادها المرشدون ، كانت انطلقت للمغامرة وتقدمت فى كل الاتجاهات بدون خطة مدروسة ، وقد وصلت فى أواخر عام ١١٣٢م/٥٢٦هـ إلى مدينة براتشينة Barrachina وسلاسل جودار ، عن طريق بلنسية ، وأقامت مراكز لها هناك ،

---

(١) أشباخ ، تاريخ الأندلس ، ص١٦٤ ؛ محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٢١ .

(٢) Lacarra, Alfonso el B. pp. 125 - 126 .

(٣) محمد عبد الله عنان ، نفس المرجع ، ص ١٢١ .

كما تقدمت عن طريق أرغون السفلى ووصلت حتى قلعة أورتا دى سان خوان Horta de San Juan ، على ستة أميال من مدينة طرطوشة(١) .

وقبل الزحف على إفراغة ، استرد ألفونسو المحارب مدينة سارنينا فى يناير عام ١١٣٣م/ ربيع أول ٥٢٧هـ ، وسلم إلى دير جبل أرغون نصف قلعة ومدينة كوروب Curb - القريبة إلى جرانيين Granen - لكى يعمرها بالأرغونيين بأقصى سرعة ممكنة حتى يجعلوا منها قلعة حصينة تدافع عن شرف المسيحية(٢) .

وفى أوائل مارس ١١٣٣م/ ربيع ثانى ٥٢٧هـ ، أعد ألفونسو المحارب أسطولا نهريا صغيرا فى مدينة سرقسطة ، واقترح الملك الوصول به حتى طرطوشة ، بهدف السيطرة على الملاحة فى نهر إبره حتى مصبه ، ويحول دون وصول المساعدات إلى المسلمين فى الداخل ، بالإضافة إلى ذلك يكون الأسطول وسيلة مواصلات سريعة لتموين القوات الأرغونية التى تزحف بالبر(٣) ، وخلال شهرى مارس وأبريل من العام نفسه ، توقف الملك الأرغونى فى بلدة كنتبرية ، وأشرف مع أسقف قلهرة على الاستعدادات الملاحية وآلات الحرب ، ثم استدعى ألفونسو المحارب الفرسان والأساقفة والسادة وأقوام مالكه إلى الحرب المقدسة(٤) .

حشد ألفونسو المحارب الجيش ومعدات الحرب فى مدينة سرقسطة ، وفى ربيع عام ١١٣٣م/٥٢٧هـ ، خرج الملك الأرغونى بجيشه لقتال المسلمين ، وكان هدفه الرئيسى فتح مدينة طرطوشة وهى على ثلاثة فراسخ من البحر المتوسط ، وكانت لها أهميتها بالنسبة للمسلمين ، وعن طريقها كانت المساعدات تدخل إلى المسلمين للدفاع عن قلاع الحدود ضد أرغون وقطلونية ، ولذلك أراد ألفونسو المحارب غزوها ، حتى يقطع وصول الإمدادات إلى المسلمين ، ولكنه قبل أن يبدأ بمحاصرة طرطوشة ، كان مضطرا إلى أن يبدأ بمهاجمة المدن الداخلية وأهمها مكناسة وإفراغة ولاردة التى كانت تشكل مراكز أماميه للمرابطين فى مملكة أرغون(٥) .

---

(١) Moret, A. R. N., t. II, pp. 320 - 321; Lacarra, Alfonso el Batallador, p. 124 .

(٢) Lacarra, Alfonso el Batallador, p. 125 .

(٣) Bleye, op. cit., p. 630; Lacarra, Alfonso el B., p. 124 .

(٤) Moret, A. R. N., t. II, p. 321 .

(٥) Idem.

تقدم ألفونسو المحارب حتى مدينة مكناسة الواقعة جنوب مقاطعة لاردة ، عند ملتقى نهرى شيقر وإبره ، وكانت قلعة مكناسة قاعدة حصينة ، ولم يكن الدفاع عنها ميسورا لوقوعها فى السهل المكشوف[١] ، كما كانت لها أهمية كبيرة إذ أنها تعوق مرور الملك إلى طرطوشة ، فاضطر ألفونسو المحارب إلى مهاجمتها أولا للوصول إلى طرطوشة عن طريق الإبره. وقد واجه الجيش الأرغونى مقاومة عنيفة من المسلمين ، ولجح فى النهاية فى محاصرة قلعة مكناسة عن طريق الإبره ، ومنع الأسطول الأرغونى المسلمين فى القلعة المحاصرة من الحصول على أى مساعدة بالطريق النهرى ، وفى الوقت نفسه ، كان الأسطول يقوم بتموين القوات التى تحاصر مكناسة . وبعد ثلاثة أسابيع من الحصار ، استولى ألفونسو المحارب على مكناسة فى شهر يونيو ١١٣٣م / شعبان ٥٢٧هـ ، واتخذ من قلعة مكناسة مركز عملياته الحربية ، يتوجه منها متقدما عن طريق ضفاف الإبره[٢] . وفى التاريخ نفسه ، قام ألفونسو المحارب بمكافأة ثلاثة من الفرسان هم بطره دى بيوتا Pedro de Biota مرشده ، وأنيجو فورتونيث Inigo Fortuniones ، وشمينو جارسيز Exemen Garcez ، تقديرا لهم على الخدمات التى قدموها للملك ، فمنحهم قلعة ومدينة نوناسب Nonaspe على ضفاف نهر مترانية Matarrana ، وقلعة الغارس Algares ، ومدينة باتيا Bathea ، وقلعة ومدينة بادون Badon ، وقلعة لود Lode . واشتملت المنحة المكان الواقع بين نهرى الجاس Algas ومترانية ، وبين هذين النهرين ونهر إبره[٣] .

ولما كانت سياسة التوسع الأرغونى تهدف إلى غزو طرطوشة ولاردة وإفراغة ، مثل سياسة أقماط برشلونة أيضا فقد أدى ذلك إلى التنافس بين ملكتى أرغون وبرشلونة للسيطرة على هذه المدن الباقية فى الثغر الأعلى . وفى هذه المرحلة ، يسجل المؤرخ ابن القطان رواية انفرد بها ، تلقى ضوءا على العلاقات السياسية بين مملكتى أرغون وبرشلونة من جهة ، وبين برشلونة والمرابطين من جهة أخرى ، والدوافع المباشرة التى أدت إلى حصار ألفونسو المحارب لمدينة إفراغة . ويروى ابن القطان نقلا عن الوراق رواية مفادها أن ألفونسو المحارب لما تغلب

---

(١) محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٢١ .

(٢) Moret, A. R. N., t. II, p. 321; Ordaric Vital, Hist. Eccles., Libro XIII, en (R. H. G. F.) t. XII, p. 749 .

(٣) Moret, A. R. N., t. II, p. 322; Lacarra, D. E. R. R. V. E., Doc. num. 77. p. 530 .

على أغلب مدن الثغر الأعلى ، رأى البرشلونى أن يستولى على ما يجاوره من البلاد ، وتطلع إلى الاستيلاء على لاردة وإفراغة وغيرهما . وعرف المرابطون تطلعات كل من قمط برشلونة وملك أرغون نحو هذه القلاع . وأدرك الأمير على بن يوسف مدى الخطورة التى باتت تهدد الممتلكات الإسلامية فى الثغر الأعلى ، وخشى من قوة وبأس ملك أرغون ومهاجمته هذه القلاع بغتة ، وفى الوقت نفسه ينتهز قمط برشلونة الفرصة ويهاجم الحدود الإسلامية من جانبه، ويضطر المرابطون إلى القتال فى جبهتين . ولذلك أضطر على بن يوسف إلى مهادنة قمط برشلونة ، فأمر بعقد الصلح معه ، مقابل جزية سنوية مقدارها اثنى عشر ألف دينار ، لتأمين الحدود المجاورة له ، وتجنب مواجهة حربين فى وقت واحد فى منطقة الثغر الأعلى[(١)] .

والواضح من هذه الرواية أن أمير المسلمين على بن يوسف كان يعمل استمالة قمط برشلونة، واشترى تطلعاته ، حتى يمكنه مواجهة ملك أرغون فقط ، ولعله أدرك أن القوات المرابطية التى كانت فى الأندلس فى ذلك الوقت ، أصبحت غير كافية لمواجهة الخطر البرشلونى والأرغونى فى آن واحد ، فى الوقت الذى كان فيه المرابطون يواجهون أعنف مراحل الصراع مع الموحدين فى المغرب ، فآثر على ابن يوسف سياسة التفاهم والصلح مع أمير برشلونة ، حتى يتجنب تعدد جبهات القتال فى الأندلس والمغرب .

وفى سجل ابن القطان المعاهدة التى عقدها المرابطون مع أمير برشلونة نقلا عن الوراق تحت عام ١١٣٥م/٥٢٩هـ[(٢)] ، والصحيح أنها عقدت قبل نشوب معركة إفراغة عام ١١٣٤م/ ٥٢٨هـ . وأن الوراق لم يحدد اسم قمط برشلونة الذى تعاهد معه المرابطون ، كما لم تحدده المصادر المسيحية ، لأنها لم تشر إلى هذه المعاهدة . ويعتقد البعض أن المقصود بالبرشلونى هو رامون برنجير الثالث[(٣)] ، بينما يعتقد أويثى ميرانده أنه رامون برنجير الرابع[(٤)] . وهذا الرأى الأخير يميل إلى الصواب لأن رامون برنجير الثالث مات فى يونية عام ١١٣١م/ رجب ٥٢٥هـ. وربما عقدت هذه المعاهدة بين المرابطين ورامون برنجير الثالث قبل وفاته ، والتزم بها ابنه رامون برنجير الرابع .

---

(١) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص٢١٨-٢١٩ .

(٢) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢١٩ .

(٣) ابن القطان ، نفسه ، ص ٢١٩ ، حـ ١ .

(٤) Miranda. H. M. V., t. III, pp. 80.82 .

وعندما علم ألفونسو المحارب بهذا الصلح ، غضب وأكد فكرة الاستيلاء على الولايات التى تؤدى عليها الجزية ، وقال : "هؤلاء الفعال الصناع يؤدون الإتاوة للصانع الفاعل ، ولو أعطونى أنا درهما واحدا لأخذته ، ويعلم أنى قهرتهم وغلبتهم ! وحلف بأيمان مغلظة عنده : لأنزلن على تلك البلاد التى يؤدون عليها الجزية ، فأصيرها فى ملكى ، وأقطع منفعتها عن الفاعل الصانع البرشلونى ، حتى يعلم أهل الأرض أنى قهرتهم فى كل وجه"[١] . ومن هذه الرواية يتضح أن الجزية التى دفعها المرابطون إلى أمير برشلونة كانت سببا فى غضب ألفونسو المحارب وقيامه بحصار مدينة إفراغة . والحقيقة أن الجزية لم تكن فقط - مثلما اعتقد مؤرخ نظم الجمان - هى التى دفعت ألفونسو المحارب إلى حصار افراغة ، ولكن للدفاع عن حدوده المهددة بالخطر من جهة مسلمى إفراغة ولاردة ، والذين اشتد خطرهم فى السنوات الأخيرة .

أقام ألفونسو المحارب معسكره فى قلعة مكناسة ، وأخذ الاستعدادات الضرورية لتحصين الضفة اليمنى لنهر إبره ، والتقدم عن طريق الضفة اليسرى فى الاتجاه إلى افراغة . سار ألفونسو بالطريق النهرى عبر نهر سينكا وشيقر حتى مدينة إسكارب Eacarpe على ضفاف شيقر ، واستولى عليها فى شهر يوليو ١١٣٣م/ رمضان ٥٢٧ ، ونقل معسكره إليها ، وأبقى لوب أنيجوث Lope Iniguez أمام قلعة مكناسة[٢] . وزحف ألفونسو برا ومعه ثلاثمائة فارس من إسكارب إلى مدينة إفراغة[٣] ، وفى السابع عشر من أغسطس ١١٣٣م/ الثانى عشر من شوال ٥٢٧هـ ، كان ألفونسو المحارب محاصرا لمدينة إفراغة من تل المنارية el Pueyo de Almanalla[٤] . وأرسل الملك الأرغونى أوامره إلى أتباعه فى شتى أنحاء مملكة أرغون ونبرة للحضور إليه بسفنهم إلى افراغة[٥] .

---

(١) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص٢١٩ - ٢٢٠ .

(٢) Bleye, op. cit., p. 630; Lacarra, Alfonso el B., p. 127 .

(٣) C. S. J. P. , p. 80; Bleye, op. cit., p. 630 .

(٤) Lacarra, D. E. R. R. V. E., Doc. num. 32, pp. 499-501; Orderic Vital, Hist. Eccles. en (R. H. G. F.) t. XII, p. 749; Valdeavellano, op. cit., p. 431 .

(٥) C. S. J. P., 80 .

وبينما اتفقت الروايات النصرانية على أن حصار إفراغة كان عام ١١٣٣م/ ٥٢٧هـ ، فقد اختلفت الروايات الإسلامية حول تاريخ حصارها ، فحدده الحميرى فى أغسطس عام ١١٣١م/ رمضان ٥٢٥هـ[١] ، ويبدو أن ذلك خطأ مطبعى إذ أن ليفى بروفنسال ينص فى ترجمته الفرنسية لهذا الكتاب على أنه كان عام ١١٣٤م/ ٥٢٨ [٢] ، وحدده ابن القطان تحت أخبار عام ١١٣٤م/ ٥٢٨هـ ، ثم عاد للحديث عن حصار وموقعة إفراغة نقلا عن الوراق الذى حدده تحت أخبار عام ١١٣٥م/ ٥٢٩هـ[٣] ، كما حدد ابن الأثير التاريخ نفسه[٤] .

وفى هذا الموضع يتطلب الأمر الوقوف قليلا أمام قلعة إفراغة التى ستدور أمامها معركة من أهم المعارك بين الأرغونيين والمرابطين فى عهد ألفونسو المحارب ، لمعرفة الشكل الهام لتحصينات القلعة ، قبل الدخول فى تفاصيل المعركة . وتقع إفراغة على نهر سينكا ، على ربوة عالية منيعة ، ولها حصن منيع لايرام وبساتين كثيرة[٥] ، وقد حفر السكان عددا كبيرا من الكهوف أو السراديب تحت الأرض التى كان يأوى إليها جيرانهم للحماية من هجمات العدو ، وكان الدخول إليها من خلال بئر ضيق بفوهة ومتسع من الجزء الأسفل ، ويؤدى إلى شوارع كثيرة ضيقة . وكان يسهل الدفاع عن المدينة من جهة الغرب نتيجة انحدار الأرض والخندق الطبيعى الذى كونه مجرى نهر سينكا . أما من جهة الشرق فقد بنيت قلاع عديدة مترابطة فى هيئة سراديب[٦] . وهذا يوضح أهمية الموقع الطبيعى لمدينة إفراغة وحصانتها .

أما عن تموين القلعة ، فكان يصل عن طريق لاردة أو طرطوشة ، وكان الاتصال أكثر سهولة من طرطوشة ، فقد كان مجرى الإبره صالحا للملاحة ، وكانت السيطرة على هذا الطريق النهرى ذات أهمية خطيرة لكل من الطرفين المتحاربين . وقد استهدفت التحركات العسكرية

---

(١) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٢٤ .

(٢) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢١٨ ، حاشية ١ .

(٣) ابن القطان ، نفسه ، ص ٢٠٧ ، ٢١٨ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، جـ١١ ، ص ٣٣ .

(٥) الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص٢٤ .

(٦) Lacarra, Alfonso el B., p. 127 .

لألفونسو المحارب قطع الاتصال النهرى لمدينة إفراغة ، وحماية الجيش الأرغونى المخيم على شرق المدينة ، والذى عزلها عن لاردة(١) .

وعلى أية حال لم يفكر ألفونسو المحارب فى الهجوم على المدينة ، لأن وسائل الدفاع عن المدينة كانت تتفوق عن وسائل الهجوم . وخطط ألفونسو لحصار إفراغة حصارا محكما وطويلا حتى تجبرها المجاعة على الاستسلام . ونظم عمليات تموين جيشه ، وفضل ألفونسو استخدام الطريق النهرى لوصول المؤن إلى قواته ، فاستخدم مجرى الإبره لوصول الإمدادات من مدينة سرقسطة ، كما استخدم نهر سينكا لوصول الإمدادات من مدن منتشون وسارنينا وبريشتر ووشقة . ويبدو أن ألفونسو لم يفكر فى استخدام طريق مونجروس Monegros الصحراوى(٢).

وتميز حصار إفراغة بوقوع معارك دموية شديدة بين الأرغونيين وأهل المدينة ، الذين كانوا مستعدين للدفاع عن مدينتهم منذ سقوط مدينة مكناسة ، وقاموا بتخزين المؤن الكافية استعدادا للحصار الطويل ، كما زودت حصون إفراغة بقوات كبيرة من الجند ، وبدأ الحصار بسلسلة من المناوشات بين الطرفين الإسلامى والأرغونى ، واستخدم كل منهما كل الوسائل الحربية(٣) . ودافعت حامية إفراغة وأهلها بقيادة واليها سعد بن محمد بن مردنيش(٤) عن المدينة دفاعا عنيدا واضطر ألفونسو المحارب أن يرفع الحصار أكثر من مرة أمام مقاومة إفراغة، ثم يعود ويستأنف عمليات الحصار مرة أخرى(٥) . وفى يناير ١١٣٤م/ ربيع أول ٥٢٨هـ ، كافأ ألفونسو المحارب القادة الأرغونيين الذين برزوا فى هذه المعارك فمنح خيمنو

---

(١) Idem .

(٢) Lacarra, Alfonso el B., pp. 127 - 128 .

(٣) Scott, Hist. of the Moorish Empire, p. 268 .

(٤) سعد بن محمد بن أحمد بن مردنيش الجذامى : تولى قيادة إفراغة وما إليها ، وضبطها ، ونازلها ألفونسو المحارب فشهر غناؤه بها فى دفاعه وصبره على حصاره ، إلى أن هزم على يد ابن غانية . وظهر من سعد فى يوم معركة إفراغة وقبله من الصبر وحسن البلاء ما اشتهر به ذكره وعلا صيته .

ابن الخطيب ، الإحاطة ، جـ٢ ، ص ١٧١ .

(٥) Ibars, op. cit., p. 473; Bleye, op. cit., t. I, p. 630 .

لو بيث دى موريو Jimeno Lopez de Murillo مدينة وقلعة جوريا ، لأجل الخدمة التى قدمها له فى إفراغة[١] .

ضيق ألفونسو المحارب الحصار حول مدينة إفراغة ، واستعد لحصار طويل ، فوجه نداء إلى قواده الحربيين المشهورين ، الذين حضروا بجيوشهم إلى معسكر إفراغة ، فوصل هناك برتران قمط كاريون سابقا ، ورامون بوردت المغامر النورماندى الذى حقق غزو طركونة ، وورودريجو دى اشتريس ، وإيمرى دى أربونة ، وسنتولو دى بيارن ، وأو جير دى ميرامونت ، وجاسيون دى سول وغرسية راميرث - ملك نبرة مستقبلا - ولوب سانز دى بلشر ، وسنتولو دى بيجورا وغيرهم من حلفائه الفرنجة . كما وصل أيضا بعض رجال الدين أهمهم جيدو Guido أسقف ليسكار ، وأساقفة جاقة وورودا ووشقة وناجرة ، ورئيس دير سان فيكتوريان ، ورامون تدبال Ramon Tedbal راهب سولسونا Solsona ، وغيرهم[٢] .

وأمر ألفونسو المحارب بنقل رفات القديسين إلى مصلى المعسكر بجانب الخيمة الملكية ، وكان بينهم صندوق من الذهب الخالص مزخرف من الداخل والخارج بأحجار ثمينة ويحتوى على الصليب المقدس Lignum Crucis ، وصناديق أخرى من الذهب بغطاءات عاجية وأحجار ثمينة ، تحتوى على بقايا رفات القديسين ، وتذكر مدونة ألفونسو الإمبراطور أن هذه الصناديق كان ألفونسو المحارب سلبها من كنيسة ساهاجون خلال حروب الأرغونيين فى مملكة ليون . وأمامها أقسم ألفونسو المحارب أنه لن يرفع الحصار حتى يستولى على المدينة - مثلما أقسم والده سانشو راميرث من قبل تحت أسوار مدينة وشقة - وأقسم معه عشرون من فرسانه المشهورين ، وذلك لإثارة الحماس الدينى فى نفوس الجنود[٣] . كما أمر أن يتولى الأساقفة والرهبان القيادة اقتداء بالأقماط[٤] .

---

(١) Lacarra, Alfonso el B., p. 129 .

(٢) C. A. E., pp. 226, 228; Lacarra, Alfonso el B., p. 129 .

ويلاحظ أن مدونة ألفونسو الإمبراطور سجلت اسم جاستون دى بيارن بين القادة المشتركين فى حصار إفراغة ، ولكنه لم يشترك فى حصار إفراغة لأنه كان قد قتل فى إحدى الغارات المتبادلة بين المسلمين والأرغونيين فى عام ١١٣٠م/ ٥٢٤هـ .

(٣) C. A. E., pp. 228, 230 .

(٤) أشباخ ، تاريخ الأندلس ، ص ١٦٥ .

والواقع أن المناوشات العسكرية لم تنقطع بين الأرغونيين والحامية الإسلامية بإفراغة . وصمد أهل المدينة ، حتى لم يبق لهم من القوت إلا اليسير ، فكتبوا إلى يحيى بن غانية[١] والى مرسية وبلنسية يطلب الإنجاد والأقوات ، وأنذروه فى كتابهم بأنه إذا لم يسرع لنجدتهم خضعوا لألفونسو المحارب ، وسلموه المدينة . ويروى ابن القطان أن ابن غانية لما قرأ كتابهم أعد لهم الميرة وحشد قواته ، وأعتق بعض إمائه وعبيده ، وكتب وصيته ، فقال له بعض خاصته : "تغزو بهذا العسكر وليس للمسلمين عسكر بالأندلس سواه ؟ فكيف تلقى على بن يوسف بعد اليوم وقد انهزمت ؟ فقال : فليصنع بى ما شاء ، إلى إن فتح الله للمسلمين فى هذا الغزو"[٢] .

ويبدو أن ابن غانية شعر بخطورة موقف حامية وأهل إفراغة ، فحشد قواته قبل أن ينتظر حتى يتم جمع كل القوات المرابطية ، وذهب مسرعا لنجدة إفراغة ، وأشارت المدونات اللاتينية إلى وقوع اشتباكات بين إبن غانية وألفونسو المحارب قبل معركة إفراغة ، وهزم ابن غانية

---

(١) هو أبو زكريا يحيى بن على بن غانية الصحراوى ، وهو من قبيلة مسوفة ، ولد يحيى بن غانية فى قرطبة وتلقى العلم فيها ، وكان فارسا نجدا ظهرت بسالته من أول الأمر حتى ليقول ابن الخطيب أنه طلق امرأته - وكانت فائقة الجمال حتى لاتشغله عن الحرب ، وقد جعله على بن يوسف عاملا على إستجه Ecija ، ثم أسند إليه ولاية مرسية عام ١١١٧ - ١١١٨م/ ٥١١هـ ، وأبلى بلاء حسنا فى مدافعه ألفونسو المحارب عندما قام بحملته على الأندلس ، ولما توفى بدر بن ورقاء عام ١١٣٠م/٥٢٤هـ ضم على بن يوسف عمل بلنسية مع عمل مرسية إلى يحيى بن غانية ، وقد ظهر غناؤه وطار صيته بعد هزيمته لألفونسو المحارب فى إفراغة ، عام ١١٣٤م/ ٥٢٨هـ . كذلك كان له بلاء عظيم فى مدافعة النصارى عن مدينة لشبونة فى غرب الأندلس ، ثم ولاه تاشفين بن على على قرطبة عام ١١٤٣-١١٤٤م/٥٣٨هـ ، ثم تصدى لثورة ابن قسى بغرب الأندلس على المرابطين ، ثم ثورة ابن حمدين بقرطبة وهزم ابن حمدين واستولى على قرطبة فى يناير ١١٤٦م/ شعبان ٥٤٠هـ ، ولكن ابن حمدين استغاث بملك قشتالة وأبلى ابن غانية فى دفاع النصارى أحسن البلاء حتى ردهم عنها ، واستقر يحيى بقرطبة . ثم دخل فى طاعة الموحدين ، ولكنه اختلف معهم واستعان بألفونسو السابع وبمعاونته استولى على الجزيرة الخضراء ، وتمكن من ضم سبتة إلى بلاده ، وقد تجرد عبد المؤمن بن على للقضاء عليه ، فتخلى عن قرطبة ، ولجأ إلى غرناطة آخر معاقل المرابطين بالأندلس ، فأقام بها شهرين ثم توفى فى ديسمبر ١١٤٨م/ شعبان ٥٤٣هـ ، ابن القطان ، نظم الجمان ، حـ٣ ص٢٢٠ -٢٢١ ؛ ابن الأبار ، الحلة السيراء ، جـ٢ ، حـ٢ ، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

(٢) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص٢٢١-٢٢٢ .

مرتين ، وفر من معسكره تاركا غنائم كثيرة للنصارى(١) . ومن الملاحظ أن المصادر الإسلامية لم تتعرض بكلمة واحدة عن هزيمة ابن غانية أمام ألفونسو المحارب ، وجعلت محاولة المرابطين لإنقاذ إفراغة على مرحلة واحدة في معركة إفراغة ، بينما جعلتها المصادر المسيحية على مرحلتين ، وكان الفشل حليف المحاولة الأولى للمرابطين لرفع الحصار عن المدينة، وكان النجاح حليف المحاولة الثانية وفيها هزم المرابطين ألفونسو المحارب تحت أسوار إفراغة .

ولم تحدد المدونات المسيحية تاريخ المعركتين اللتين هزم فيهما ابن غانية على يد ألفونسو المحارب ، ويبدو أنهما وقعتا متواليتين في شهر فبراير ١١٣٤م/ ربيع ثاني ٥٢٨هـ ، فقد أشارت إحدى الوثائق الأرغونية المؤرخة في فبراير ١١٣٤م إلى نشوب معركة مع المرابطين . ويؤكد ذلك أن الملك ألفونسو المحارب كافأ بعض القواد من معسكره في تل المنارية نظير مواقفهم معه أثناء المعارك في إفراغة ، ففي الخامس والعشرين من فبراير ١١٣٤م/ الثامن والعشرين من ربيع الثاني ٥٢٨هـ منح ألفونسو إعفاءات وامتيازات الأحرار إلى غرسية كلبودي ساردسا Garcia Calvo de Sardasa لأجل الخدمة التي قدمها له في إفراغة وفي أماكن أخرى(٢) .

وترتب على هزيمة ابن غانية أن دب اليأس في المدافعين عن المدينة ، فعرضوا تسليم المدينة للملك ألفونسو المحارب ببعض الشروط على أن يتركهم يذهبون في سلام . ولكن ألفونسو رفض كل عرض للتسليم وأصر على اقتحام المدينة بنفسه بالسلاح ، وإخضاع سادتها المسلمين، وأسر نسائهم وأطفالهم ، وسلب ثرواتهم(٣). ومن الملاحظ أن ألفونسو المحارب كان صلبا عنيدا في موقفه مع أهل إفراغة ، فرفض أن يعاهدهم ، وصمم على عدم التراجع عن المدينة حتى يقضي عليهم ، وهنا يبدو ألفونسو على غير عادته ، ويختلف عن موقفه مع أهل سرقسطة وتطيلة الذين تعاهد معهم . وربما يرجع ذلك إلى غضب ألفونسو الشديد من أهل إفراغة وحاميتها لمقاومتهم العنيفة له ، وصبرهم وصمودهم أمام الأرغونيين وحلفائهم . وربما خشي من غدر أهل إفراغة ، ويبدو أنه عاني منهم كثيرا ، ولهذا قرر الانتقام منهم .

---

(١) C. A. E., p. 228: Moret, A. R. N., p. 324 .

(٢) Lacarra, Alfonso el B., pp. 128-129 .

(٣) C. A. E., p. 230: Moret, A. R. N., p. 324 .

وقد وصفت مدونة ألفونسو الإمبراطور أن ألفونسو المحارب كان أعمى القلب لما رفض قبول استسلام أهل إفراغة ، وأن الرب أعماه عقابا لجرائمه فى ليون وقشتالة ، وانتهاكه الأماكن المقدسة[١] .

وكان الموقف المتشدد من قبل ألفونسو المحارب قد دفع أهل إفراغة وحاميتها إلى مقاومة عنيدة ، وكان هذا السلاح أكثر قوة لتحقيق الانتصار والانتقام ، ولم يفقدوا شجاعتهم ، وطلبوا المساعدة من الأمير على بن يوسف ، وكان من المحتم على ابن غانية أن يعد نفسه مرة أخرى للقاء ألفونسو المحارب .

ولما كان حصار إفراغة طويلا وصعبا ، فقد شجع ألفونسو المحارب قواته بمنح المكافآت ، فأصدر من إفراغة مرسومًا مؤرخًا فى السابع والعشرين من مايو ١١٣٤م/ أول شعبان ٥٢٨هـ- أثناء حصار إفراغة - وفيه منح لوب فوتو لجو دى بناستو Lope Ferungo de Ba-nasto مزرعة فى بورما Pomar مقابل ما قدمه له من خدمات أثناء معركة مكناسة ، لتصبح إرثا خالصا له حق بيعها[٢] .

ومع صعوبة الموقف فى إفراغة ، اتخذ بعض الشخصيات الأرغونية تدابير تتعلق بأملاكهم ، فقام غرسية لينث دى سبولا Garcia Linz de Spola بكتابة وصيته أثناء حصار إفراغة ، وأوصى جاليندو دى إبيس Galindo de Ipiés أن إذا مات فى إفراغة ، أن يسحب سادة جبل أرغون جسده ويحملوه إلى دير جبل أرغون . كما زرع لوب جارسيز وفورتون جارسيز كاخال ما يملكوه ، وأيضا أسقف رودا وبريشتر خشى أن يفاجئه الموت أثناء حصار إفراغة ، فمنح هبات كثيرة إلى الكهنة القانونيين فى رودا فى الثامن عشر من يونية ١١٣٤م[٣] .

وقد وقعت معارك شديدة بين المعسكر الأرغونى وحامية إفراغة خلال فترة الحصار ، ويسجل لنا المؤرخ ابن القطان حادثا طريفا يميل إلى الأسطورة ، فيروى ألفونسو المحارب كان قد مل من طول الحصار والإقامة على مدينة إفراغة ، وجاءه راهب فرنسى ، وقال للملك : "أنا أدعو عليهم ، فينهدم حصنهم ، وتدخل عليهم عنوة !" وصح قوله ذلك عند ألفونسو ،

---

(١) C. A. E., p. 230 .

(٢) Lacarra, D. E. R. R. V. E., Doc. num. 79, p. 532 .

(٣) Lacarra, Alfonso el B., p. 129 .

وصعد الراهب إلى تل قريب من سور المدينة ، ونظر إلى السور ، وكان خبر الراهب قد سمع به أهل إفراغة ، فلما رأوه قائما على التل ، صوبوا إليه منجنيقا ، ووضعوا فى كفته حجرا كبيرا، ورموا به فى اتجاه الراهب ، وهو فى دعائه على المسلمين يجد جده ، فأصابه حجر المنجنيق ، فذهب بنصفه وبقى نصفه فى موضعه . وقد كان ألفونسو المحارب وجنوده ، مستعدين للهجوم، فقد اصطفوا خلف الراهب ، فلما رأى الملك ذلك ، فزع ، وتراجع إلى معسكره مهين النفس خائب الأمل[١] . وبالرغم أن هذه الرواية تميل إلى الأسطورة إلا أنها تصور مظهرا من مظاهر مقاومة أهل أفراغة للمحاصرين .

وحاول المرابطون مرة أخرى إنقاذ مدينة أفراغة بجيش ضخم ، ولاشك أن عناد الملك ألفونسو المحارب وطول الحصار أعطى وقتا للمرابطين لتنظيم جيش لنجدة إفراغة ، وأعد الأمير تاشفين بن على جيشا قويا بقيادة ابن غانية[٢] ، وكان يتكون من ألفى فارس من قرطبة بقيادة واليها الزبير بن عمرو اللمتونى[٣] - المعروف فى المدونات المسيحية باسم el Azuel - ومعه مؤن وفيرة ، وحشد ابن غانية خمسمائة فارس ، كما تجهز صاحب لاردة عبد الله بن عياض فى مائتى فارس . واجتمعت القوات المرابطية ، وبدأ ابن غانية فى تنظيم جيشه ، فوضع قوات لاردة بقياده ابن عياض فى المقدمة ، وقوات مرسية وبلنسية بقيادة ابن غانية فى الوسط ، ثم المؤن ، وقوات قرطبة بقيادة الزبير بن عمرو فى الساقة لحماية الجيش[٤]. وبدأ الجيش المرابطى يزحف على إفراغة بحذر وبين كل مجموعة وأخرى مسافة

---

(١) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٢٢ .

(٢) يلاحظ أن المؤرخ أوردريك فيتال قد أخطأ فى تحديد قائد الجيش المرابطى فى معركة إفراغة ، فذكر أنه كان بكر بن على ، وهذا يخالف ما أجمعت عليه المدونات الإسلامية والنصرانية والتى ذكرت أنه كان ابن غانية .

Orderic Vital, Hist. Eccles., en (R. H. G. F.) t. XII, p. 749 .

(٣) الزبير بن عمرو هو أحد ولاة المرابطين بالأندلس ، ولى قرطبة ، وفى عام ١١٣٢م/٥٢٦هـ أمر على بن يوسف بإضافة ولاية قرطبة إلى تاشفين ، وتحويل الزبير إلى غرناطة ، ومن ثم عده ابن سعيد صاحب قرطبة ، كما عده صاحب مفاخر البربر من ولاة غرناطة ، لأنه ولى البلدين ، وقال فيه أبو بكر الصيرفى مؤرخ دولة المرابطين " ندرة الزمان كرما وبسالة وحزما وأصالة . ابن بسام ، الذخيرة ق ٣ ، م١ ، ص٤٠٦ حـ٦ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، جـ١١ ، ص٣٣ .

قصيرة . وتم تدبير الجيش المرابطي دون علم ألفونسو المحارب ، الذى جهل عدد جيش عدوه[١] .

وطبقا لابن الأثير ، بلغ عدد الجيش المرابطي ما يقرب من ثلاثة آلاف فارس[٢]، ومن الواضح أن هذا العدد أقل من الحقيقة ، فهو لايتناسب مع حجم المعركة ، بينما يقدره أشباخ بعشرة آلاف مقاتل[٣] ، ويبدو أن هذا العدد يميل إلى الصواب . بينما بلغ عدد الجيش الأرغونى - الفرنجى إثنى عشر ألف فارس[٤] . وتصادف فى الوقت الذى وصل فيه الجيش المرابطي إلى إفراغة ، أن كان عدد كبير من القادة والجنود الأرغونيين ، وقد غادروا معسكرهم بإذن من الملك ، وذهبوا إلى أرغون لتدبير أمورهم وتزويد أنفسهم بما يلزمهم من ضرورات الحياة وأن يعودوا مرة أخرى إلى المعسكر بمؤن وفيرة ، وهؤلاء الجند لم يحضروا معركة إفراغة ولم يشتركوا فيها[٥] .

وحول تاريخ معركة إفراغة فإن المدونات الإسلامية لم تحدد تاريخها تحديدا دقيقا ، فلم تحدد اليوم الذى وقعت فيه المعركة ، واكتفت فقط بتحديد السنة ، وإن اختلفت حول تحديدها[٦] . بينما اتفقت أغلب الوثائق والمدونات النصرانية فى تحديد يوم معركة إفراغة فى السابع عشر من يوليو ١١٣٤م/ الثالث والعشرين من رمضان ٥٢٨هـ ، فى حين حددته مدونة ألفونسو الإمبراطور فى يوم السادس عشر من أغسطس / الثالث والعشرين من شوال من

---

(١) Soler, pp. vit., p. 104 .

(٢) ابن الأثير ، نفسه ، جـ١١ ، ص ٣٣ .

(٣) اشباخ ، تاريخ الأندلس ، ص١٦٤ ..

(٤) ابن الأثير ، نفسه ، جـ١١ ، ص ٣٤ .

(٥) C. A. E., p. 232 .

(٦) اختلفت الرواية الإسلامية حول تاريخ موقعة إفراغة ، فحددها الحميرى فى رمضان ٥٢٥هـ / أغسطس ١١٣١م (صفة جزيرة الأندلس ، ص ٢٤) بينما حددها الضبى فى عام ٥٢٨هـ/١١٣٤م (بغية الملتمس ترجمة رقم ٢٠٥ ، ص ١٠٥) ، واتفق معه ابن عذارى (البيان المغرب جـ٤ ، ص٩٣) وسجلها ابن القطان ، تحت عام ٥٢٨هـ ، ثم حددها فى موضع آخر نقلا عن الوراق فى عام ٥٢٩هـ/ ١١٣٥م (نظم الجمان، ص٢٠٧ ، ٢١٨) وذكرها ابن الأثير تحت أحداث عام ٥٢٩هـ (الكامل جـ١١ ، ص ٣٣) .

العام نفسه[١] . ولكن الوثائق المسيحية أكدت صحة التاريخ الأول ، وأثبتت أنه يوافق يوم الثلاثاء السابع عشر من يوليو من العام نفسه يوم عيد القديستين خوستا Justa وروفينا Rufina فقد أصدر ألفونسو المحارب مرسوماً مؤرخا فى يوليو عام ١١٣٤م ، وفيه منح إعفاءات وامتيازات الأحرار إلى دونيا أوريا دات dona Oria Dat من أجل ما بذله أبناؤها فى معركة إفراغة ، كما منح ألفونسو الحرية لبعض خدمة نظير مواقفهم معه أثناء معركة إفراغة ورعايته لهم ولأبنائهم[٢] .

وأكد سجل وفيات كاتدرائية قلهرة أن المعركة وقعت فى يوم السابع عشر من يوليو ١١٣٤م ، فقد سجل أن : "فى يوم السابع عشر من يوليو فر ملك أرغون ، وقتل المسلمون جيشه الكبير"[٣] . كما أن هناك وثيقة صادرة من كنيسة قلهرة ومؤرخة فى السادس عشر من أغسطس عام ١١٣٤م ، تتحدث عن بعض الأحداث التى وقعت بعد معركة إفراغة ، وحددت يوم المعركة بدقة . فقد ورد بالوثيقة أنه "فى عام ١١٣٤ ، يوم الخميس منتصف أغسطس آخر يوم عيد انتقال القديسة مريم - أى بعد تسع وعشرين يوما من معركة إفراغة - تم التبادل بين دون سانشو أسقف كنيسة قلهرة ودون سانشو فورتونيس Don Sancho Fortunez ، بعد مذبحة كبيرة ومروعة للمسيحيين فى إفراغة ، التى قتلوا فيها تقريبا جميعا ، ماعدا البعض القليل الذين تمكنوا من الفرار مع الملك ، فى يوم الثلاثاء - السابع عشر من يوليو - عيد القديستين خوستا Justa وروفينا Rufina"[٤] .

بالإضافة إلى هذه الوثائق ، أكدت الحوليات الطليطلية الأولى أن المعركة وقعت يوم عيد القديستين خوستا وروفينا عام ١١٣٤م[٥] . كما حدد المؤرخ أورديك فيتال تاريخ معركة إفراغة فى شهر يوليو عام ١١٣٤م[٦] .

---

(١) C. A. E., p. 232 .

(٢) Lacarra, D. E. R. R. V. E., Doc. num. 80, p. 533 .

(٣) Lacarra, Alfonso el B., p. 130 .

(٤) Moret, A. R. N., p. 330 .

(٥) Anales Toledanos I, p. 346 .

(٦) Orderic Vital, Hist., Ecclesi. (R. H. G. F.) t. XII, p. 749 .

وهناك بعض المراجع الحديثة حددت المعركة بيوم التاسع عشر من يوليو عام ١١٣٤م ، على أساس أنه اليوم الذى يحتفل به الآن بعيد القديستين خوستا وروفينا[١] .

وبالرغم أن أغلب الوثائق اتفقت فى تحديد تاريخ معركة إفراغة ، فهناك بعض المدونات التى أخطأت فى تحديد العام الذى وقعت فيه المعركة ، فقد ذكرت مدونة القديس استفان كادومنسز Stephani Cadomensis أنه فى عام ١١٢٢م وقعت معركة بالقرب من أسبانيا بين ملكين مسلمين والملك ألفونسو ملك أرغون ، وقد تم قتل وأسر معظم القوات المسيحية ماعدا الملك الذى استطاع النجاة من المعركة بأعجوبة[٢] . فهذه الرواية تنطبق على معركة إفراغة ، ولكنها أخطأت فى تحديد تاريخها ، لأن الملك ألفونسو المحارب لم يهزم أمام المسلمين إلا فى معركة افراغة ، والتى فيها تشتت كل قواته .

أما عن تفاصيل معركة إفراغة ، فقد تكاد الرواية الإسلامية تتفق مع الرواية النصرانية ، فيروى أن الجيش المرابطى زحف بقيادة ابن غانية فى سرية تامة ، وعبر نهر شيقر عن طريق لاردة ، التى تقع على بعد ثلاثة فراسخ من إفراغة ، وبسرعة أقام المرابطون معسكرا فسيحا قرب أسوار إفراغة [٣] . وفى فجر يوم الثلاثاء الموافق السابع عشر من يوليو ١١٣٤م/ الثالث والعشرين من رمضان ٥٢٨هـ ، عندما رفع جند الحراسة التابعين للملك ألفونسو المحارب أعينهم وجدوا أمامهم صفوفا لاتعد من جند المسلمين ، فأسرعوا إلى المعسكر لإخبار الملك ، الذى أصدر أوامره إلى الأساقفة والقادة والجند المشاه والفرسان ليكونوا على أهبة الاستعداد للدفاع عن أنفسهم وعن معسكرهم[٤] .

وهكذا فاجأ ابن غانية ألفونسو المحارب ، الذى كان يؤكد كل يوم ثقته فى أن ابن غانية لن يستطيع أن يقوم بمحاولة إغاثة وإنقاذ إفراغة ، بعد أن هزمه ألفونسو مرتين متتاليتين[٥] .

---

(١) Ibars, op. cit., t. I, 473; Valdeavellano, op. cit., p. 431 .

(٢) EX Chron. S. Stephani Cadomensis, en (R, H. G. F.) t. XII, p. 779 .

(٣) Moret, A. R. N., p. 325 .

(٤) C. A. E., p. 232 .

(٥) Moret, A. R. N., p. 325 .

لجأ ابن غانية فى هذه المرة إلى نصب كمين جذب إليه الأرغونيين ، فقد تقدمت قافلة من الجمال محملة بالمؤن والإمدادات لإغاثة المحصورين ، يرافقها عدد قليل من الجند المسلمين لحمايتها ، ولخديعة الأرغونيين ، فأثارت هذه القافلة الفرسان المسيحيين للإنقضاض على هذه الغنيمة المغرية ، وانخدع ألفونسو المحارب بحيلة ابن غانية ، واستهان بقوات المسلمين ، وأمر فرقة من جنده بالهجوم على القافلة والحصول على الغنيمة[١] . فلما اقتربوا من المسلمين هاجمهم ابن عياض بشجاعة ، وأنزل خسائر جسيمة بالفرقة المسيحية . وعندئذ قامت قوات المرابطين وحلفائهم بالالتفاف حول المعسكر الأرغونى وبدأوا القتال وأرسلوا على النصارى وابلا من السهام والرماح والحجارة وقتلوا أعدادا كبيرة من الجند والدواب[٢] .

ورأى القادة والمحاربون والأساقفة عدم إمكانية القتال داخل المعسكرات ، فخرج ألفونسو المحارب أمام قواته ، واثقا فى كثرتهم وشجاعتهم ، وموقنا بالظفر والغلبة على عادته ، مستخفا بقوة المسلمين ، وأخذ يهاجم جيش ابن عياض ، وعندئذ انطلق ابن غانية بقواته إلى ميدان المعركة ، وباغت ألفونسو المحارب بالهجوم ، واشتد القتال ، ودارت معركة ضارية بين القوات الأرغونية - الفرنجية وعسكر المرابطين ، وكثر القتل فى النصارى[٣] . وتروى مدونة ألفونسو الإمبراطور أنه عندما شاهد الأساقفة والقساوسة ماحدث ، ابتهلوا إلى الرب أن ينقذهم من أيدى المسلمين ، وألا يعاقبهم على أخطاء الملك وأخطاء ذويهم الذين كانوا معه وأن يغفر لهم ، ولكن دعواتهم لم تلق قبولا لدى الرب إذ لم يرسل لهم جبريل رسول الإله ولا ميخائيل قائد الملائكة ليحاربوا معهم ويساعدوهم فى المعركة[٤] .

وبينما كان يدور القتال على أشده ، جاءت قوات المسلمين من خلفهم خفية وبدأوا فى الهجوم على المعسكر النصرانى ، وفى الحال خرج أهل إفراغة جميعا من المدينة ، وهاجموا مخيمات النصارى وقام الرجال بقتل من وجدوا فى المعسكر ، أما النساء فقد قمن بأعمال النهب ، واستولين على كل مافى المعسكر من مؤن وعتاد وسلاح وغير ذلك وحملنه

---

(١) Defourneaux, op. cit., p. p. 165 .

(٢) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ جـ١١ ، ص٣٤ . C. A. E., p. 232 ;

(٣) ابن الأثير ، نفسه ، ص ٣٤ . C. A. E., p. 234 ;

(٤) C. A. E., pp. 232, 234 .

إلى المدينة[١] ، وتضيف مدونة ألفونسو الإمبراطور أن المسلمين أخذوا الصندوق النهبى الذى بداخله رمز الصليب المقدس ، والصناديق الأخرى السابق ذكرها ، كما دخلوا خيمة الملك وأخذوا كل ما وجدوه فيها وسووها بالأرض ، وأسروا أسقف ليسكار وكل من كان فى المعسكر حتى خدم الملك شخصيا[٢] . وقد سبب هذا الهجوم الفزع والهزيمة فى المعسكر النصرانى .

وفى الوقت نفسه ، بينما كان المسلمون والنصارى يقاتلون بكل إصرار وعناد ، وصل إليهم الزبير فى عسكره لنجدة القوات المرابطية ، فقد طوقوا النصارى وأحاطوا بهم من كل جانب ، وعند هذه المرحلة تقرر مصير المعركة التى استمرت طوال اليوم ، إذ أجبرت القوات المرابطية الملك ألفونسو المحارب على التقهقر[٣] . وبالرغم من المقاومة الشديدة للقوات الأرغونية - الفرنجية ، إلا أنها منيت بهزيمة ساحقة ، وبقى ألفونسو المحارب فى أعلى التل - الذى يسمى اليوم تل كاستلت Castellet قرب فراغة ، وهو المكان الذى نشبت فيه المعركة - مستعدا للمقاومة حتى الموت ، بعد أن قتل أكثر قواده[٤] . ويصف لنا المؤرخ أوردريك فيتال المشاهد المؤثرة للحظات الأخير للملك ألفونسو المحارب فى ميدان المعركة ، فيروى أن أسقف أورقلة الذى اصطحب الملك ، أمره أن ينسحب ، ولكن الملك رفض الانسحاب ، وحينئذ قال له الأسقف : "باسم الرب القادر على كل شئ آمرك أن تبتعد عن هذا الميدان ، وليس الأمر كما شئت ، فإنه بسقوطك تسقط كل مملكة المسيحيين فى سلطة المسلمين ويقتل كل المسيحيين"[٥] .

وأخيرا ، عندما أراد ألفونسو المحارب أن يطيع أمر الأسقف ، رأى أنه محاط بآلاف من المسلمين ، وكان من الصعب الخروج والانسحاب من ميدان المعركة ، ومع ذلك ، اصطحب ألفونسو المحارب حوالى ستون فارسا من الذين حاربوا معه ، وهاجموا المسلمين بشجاعة

---

(١) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٢٢ ، ابن الأثير ، نفس المصدر ، جـ١١ ، ص ٣٤ .

(٢) C. A. E., p. 234 :

(٣) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، جـ١١ ، ص ٣٤ .

(٤) Ballesteros, op. cit., t. II, p. 558; Lacarra, Alfonso el B., p. 133 .

(٥) Lacarra, Alfonso el B., p. 133 .

لإنقاذ حياة الملك ، حتى تمكنوا من فتح ثغرة ضيقة فى صفوف المسلمين ، وبذلك تمكن الملك ألفونسو المحارب بعد مجهود كبير من الفرار من ساحة المعركة ، بحزن شديد مع عشرة فقط من حاشيته الذين نجوا من الموت ، وكان من بينهم غرسية راميرث الذى خلفه فى عرش نبرة . وسقط أسقف أورقلة وخمسون فارسا قتلى فى ميدان المعركة[١] . وأضافت مدونة ألفونسو الإمبراطور أن حوالى سبعمائة من الجنود المشاه الشجعان الذين كانوا قائمين على حراسة الملك، قتلوا جميعا فى المعركة [٢] .

كما قتل أيضا أساقفة جاقة وروِدا ، ورئيس دير سان أندريان S. Indriano وعدد كبير من زهرة فرسان فرنسا الذين أغراهم الطموح الصليبى وحب المغامرة إلى الانضواء تحت راية ألفونسو المحارب ، وعدد كبير من قادة الجند ، وكان بين القتلى سنتو لودى بيارن وابن عمه سنتو لودى بيجور ، وإيمرى دى أربونة ، وأوجير دى ميرامونت ، وبلتران دى لون ، وجارسيون دى جابسكم Garsion de Gavescam وفورتونل دى فول Fortunel de Fol ، ورامون دى تالر Ramon de Talar ، وكالبت دى سوا Calvete de Sua وروdريجو دى أشتريس ، بالإضافة إلى معظم قادة جنود أرغون ، وعدد كبير من النصارى ، بينما تمكن عدد قليل من الفرار . أما من الجانب الإسلامى فقد استشهد عدد كبير من القوات الإسلامية ، ولكن عددهم كان أقل بكثير من النصارى[٣] .

أما الملك ألفونسو المحارب ، فقد لاذ بالفرار مع الفل الذى بقى معه بعد أن تبددت قواته ، وآوى إلى حصن خرب فى قمة جبل شاهق بعد الإمساء ثم تسلل من هذا الحصن فى ظلمة الليل، عندما أحدق به المسلمون[٤] . وقد اعتبر مؤرخ مدونة ألفونسو الإمبراطور أن هزيمة ألفونسو المحارب تحت أسوار إفراغة كانت عقابا من الله لألفونسو ، فيقول : "فلم يشأ الله أن يكون معه ، بل أراد له الدمار"[٥]. وهكذا دمر الجيش الأرغونى - الفرنجى عن آخره على

---

(١) Moret. A. R. N., p. 329; Lacarra. Alfonso el B., p. 133 .

(٢) C. A. E., p. 236; Moret. A. R. N., p. 328 .

(٣) C. A. E., pp. 234, 236; Orderic Vital. Hist. Eccles., en (R. H. G. F.) t. XII, p. 749 .

(٤) الحميرى ، الروض المعطار ، ص ٢٥ .

(٥) C. A. E., p. 232;

يد المرابطين ، وكتب ابن غانية بهذا الانتصار المجيد لجيوشه إلى الأمير تاشفين بن على ، الذى ابتهج كثيرا ، وفرح المسلمون كثيرا بغنيمتهم وأجرهم ، وأصبح يوم إفراغة يوما مشهورا بين المسلمين ولاينسى للنصارى[١] .

أما الأسباب التى أدت إلى هزيمة القوات الأرغونية - الفرنجية فى إفراغة ، فترجع إلى عدة عوامل ، بعضها يتعلق بالجانب الأرغونى ، والبعض الآخر يتعلق بالجانب المرابطى ، ومن أهم العوامل التى ترجع إلى الجانب الأرغونى أن ألفونسو المحارب كان مغرورا بانتصاراته التى حققها على المسلمين على عادته ، فانعكس عليه الأمر وكانت الدائرة عليه[٢] . واستهان بقوات المرابطين ، وفاجأه ابن غانية بقوات فاقت عدد قواته[٣] . كما أن ألفونسو المحارب كان يجهل عدد قوات المسلمين التى حاربت ضده ، وكانت تخفى عليه تحركاتها وخططها ، فى الوقت نفسه سرح ألفونسو عددا كبيرا من جنوده فلم يشهدوا المعركة ، فقد كان واثقا أن ابن غانية هزم مرتين متتاليتين فى المحاولة الأولى لإنقاذ إفراغة ، ولن يستطيع أن يكرر المحاولة. كما أن ألفونسو المحارب كان واثقا من ضعف قوات المرابطين نتيجة حروبهم الكثيرة، ولذلك لم يتوقع المقاومة فى هذه الحملة . كما أنه أعطى للمرابطين الفرصة الكافية لإعداد قواتهم وإعادة تنظيم صفوفهم بقيادة ابن غانية ، نتيجة طول الحصار . يضاف إلى ذلك ما ترويه مدونة القديس خوان دى لابينيا بأن القوات التابعة للملك قد ترددت فى الاشتباك مع المسلمين قبل أن تتجمع جميع قواتهم ليزدادوا عددا ويتحقق لهم التفوق العددى، وربما أدى هذا التردد إلى الفوضى فى المعركة ، وتضيف المدونة "أن ألفونسو المحارب على الرغم من خبرته الواسعة بالحرب إلا أنه فى تلك المعركة لم يتوخ الحذر ، وأصابه التهور الذى دفعته إليه شجاعته مما جعله يستهين بأعدائه"[٤] .

أما عن الأسباب التى تتعلق بانتصار الجانب المرابطى ، فترجع إلى حسن تنظيم الجيش المرابطى ، والتكتيك الإسلامى الذى استخدمته القوات المرابطية فى المعركة ، وهو نفسه الذى

---

(١) الحميرى ، الروض المعطار ، ص ٢٥ ، Condé, op. cit., vol. 11, p. 404 .

(٢) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٢٢ .

(٣) Soler, op. cit., p. 104 .

(٤) C. S. J. P., pp. 80-81 .

استخدم فى الزلاقة ، ويتلخص فى مهاجمة النصارى من الأمام ، وفى الوقت نفسه شن هجوم من الخلف ومهاجمة المخيمات المسيحية ، مما يسبب الفزع[١] . كما استخدم المرابطون عنصر المباغتة الذى سبب هزيمة وفرار الملك الأرغونى ، فقد اندفعوا نحو القتال بكل قوة وشراسة . ومما لاشك فيه ان ابن غانية قد استفاد من هزيمته أمام ألفونسو المحارب فى المحاوله الأولى لإنقاذ إفراغة . ويضاف إلى ذلك أن ابن غانية قد خطط للمعركة بحذر وذكاء واستخدم أسلوب الخدعة الحربية مع النصارى . وقد كان لهذه العوامل أثرها فى إلحاق الهزيمة بألفونسو المحارب .

كان دمار الجيش الأرغونى - الفرنجى ، ووفاة قواده المشهورين ، وفرار الملك ألفونسو المحارب من المعركة فى هذه الظروف الوخيمة ، وموته بعد ما يقرب من شهر ونصف ، كل هذا جعل هناك غموضا واختلافا بين أقوال المؤرخين النصارى حول مصير ألفونسو المحارب . فبعضهم يعتقد أنه قتل فى المعركة مع عدد كبير من الأشراف والفرسان النصارى أمام مدينة إفراغة ، ودفن فى جبل أرغون بعد سحب جثته من أمام المسلمين[٢] . بينما ذكرت بعض الروايات أن ألفونسو المحارب قد قتل فى معركة إفراغة ، ولم يعثر على جثته بين القتلى بالرغم من الجهود التى بذلت للبحث عنها[٣] . وسجلت الحوليات الطليطلية الأولى أن ألفونسو ملك أرغون هزم فى المعركة وفقد هناك [٤] .

وهناك فريق آخر من المؤرخين يرى أن ألفونسو المحارب لم يقتل فى المعركة ، وأنه مات بعد المعركة بقليل . وهذا ماتؤيده الرواية الإسلامية ، فتروى مدونة ألفونسو الإمبراطور أن الملك الأرغونى لاذ بالفرار من إفراغة ومعه عشرة من الجند وكذلك أحد رفاقه ويدعى غرسية راميرث ، وساروا عبر سرقسطة ، ووصلوا إلى دير القديس خوان الذى يقع فى منطقة بينيا فى أغون ، ودخلوه وأمروا بإغلاق الأبواب ، ومن أثر هذه الصدمة رقد الملك فى الفراش لما أصابه

---

(١) Lacarra, Alfonso el B., p. 131 .

(٢) Gastis Comitum Barc., en (R. H. G. F.) t. XII, p. 378; Castellano, C. C. A., p. 18; Condé, op. cit., vol. II, p. 404 .

(٣) أشباخ ، تاريخ الأندلس ، ص١٦٥ - ١٦٦ .

(٤) Anales Toledanos I, p. 346 .

من آلام فى قلبه حتى مات بعد أيام قليلة فى ذلك الدير ، وتم دفنه مع أهله وآبائه فى الضريح الملكى[١] . ويؤكد السيد بطره لونجاس el Sr. Pedro Longas - أحد المؤرخين المحدثين - أن الملك ألفونسو المحارب لم يمت فى معركة إفراغة ، ويذكر أن سجل وفيات جبل أرغون ، قد سجل فى يوم السابع عشر من يوليو عام ١١٣٤م - أى فى يوم المعركة - وفاة أرنالدو أسقف وشقة ، وبطره أسقف رودا ، ودوراندو Durando رئيس دير القديس فيكتوريان، ولم يسجل شيئا عن وفاة ألفونسو المحارب . وقد ثبت أن المذكورين قد قتلوا فى معركة إفراغة ، كما أن الوثائق أكدت اشتراكهم فى الحصار . بالإضافة إلى ذلك ، أن الملك ألفونسو المحارب أرخ فى شهر أغسطس ١١٣٤م أثناء حصار قلعة ليثانا Lizana ، منحة لصالح دونيا تودا زوجة تيثون Tizon سيد مدينة بيل ، الذى قتل فى معركة إفراغة[٢] .

وبينما اختلفت الرواية النصرانية حول مصير ألفونسو المحارب ، فقد اتفقت الرواية الإسلامية فى تحديد مصيره ، وأشارت إلى أنه مات من الحزن والهم بعد المعركة بأيام أو شهور قليلة . فيروى المؤرخ ابن القطان أن ألفونسو المحارب بعد هزيمته فى إفراغة وصل إلى سرقسطة مع جماعة قليلة واله العقل ، مخبول الذهن ، ثم خرج منها إلى مدينة وشقة ، فأقام بها مختبلا أشهر قليلة ثم حان أجله[٣] . أما ابن الأثير فقد حدد المدة التى عاشها ألفونسو بعد المعركة ، فسجل أن ألفونسو انسحب إلى سرقسطة ، فلما رأى ما قتل من أصحابه مات مفجوعا بعد عشرين يوما من الهزيمة[٤] . بينما يقول ابن عذارى أن ألفونسو بقى أياما بعد المعركة ومات بسبب مرض أصابه[٥] . ومما سبق يتضح أن ألفونسو المحارب عاش قليلا بعد هزيمته فى إفراغة ، مثلما ذكرت بعض المدونات النصرانية ، وأكدته المدونات الإسلامية .

ومع هذه الظروف المريبة التى حاقت بمصير الملك ألفونسو المحارب ، فقد انصهر التاريخ بالأسطورة ، وظهرت بعض الروايات والأساطير المختلفة التى تهدف إلى إضفاء البطولة على

---

(١) C. A. E., p. 236 .

(٢) Ballesteros, op. cit., p. 461 .

(٣) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص٢٢٣ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، جـ١١ ، ص ٣٤ .

(٥) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٤ ، ص٩٣ .

ألفونسو المحارب ، وانتقامه من المسلمين ، لمحو الآثار السيئة لهزيمة إفراغة . فيروى المؤرخ ماريانا Mariana أنه بعد هزيمة إفراغة ذهب الملك إلى حدود قشتالة ، خوفا مما قد ينشأ من أخطار جسيمة . وأرسل إلى سرية والأماكن القريبة طلبا للإمدادات ولقوات جديدة لكى يتوجه ضد المسلمين للانتقام منهم . واستطاع ألفونسو أن يجمع فرقة يبلغ قوامها ثلاثمائة فارس فقط . وسار لملاقاه المسلمين ، فتقدمت فرقة كبيرة من فرسان المسلمين وهاجمت الملك . وعندما أوشك على الخطر ، قام بتشجيع رجاله على القتال مذكرا إياهم باسم المسيح لاستثارة الحمية والشجاعة فى نفوسهم حتى لايهابوا الاشتباك مع المسلمين . وكانت الشجاعة هى المخرج الوحيد لمواجهة هذا المأزق . حيث لم يعد هناك أدنى أمل فى النجاة وأخذ ماريانا يصف النصارى بالشجاعة والإقدام فيقول : "وما أن بدأت المعركة ، حتى اندفع رجالنا بشجاعة وإصرار ، مفضلين الموت على أى شئ آخر ، يدفعهم الأمل الأخير لهم . أما الملك فكان بين رجاله محاولا تفادى الضربات . ولكنه أصيب بضربة أودت بحياته . فلم يجد الرجال أمامهم إلا السعى نحو النجاة ، فمات البعض ولاذ البعض الآخر بالفرار[١] .

وهناك بعض الروايات تذكر أن الملك الأرغونى قبل أن يموت ، قد نجح فى الانتقام من المسلمين ، وقام بالهجوم على ماتحمله السفن الإسلامية من غنيمة . فتروى مدونة القديس استفان كادو منسز أن بعد هزيمة الملك الأرغونى ألفونسو وتمكنه من الإفلات من المعركة بأعجوبة ، قد انضم إليه جيش فرنسى بقيادة روبرت الملقب بوردت Bordet - أمير طركونة- وعاد إلى المعركة مرة أخرى ، وتقابل مع تلك الحشود الهائلة من المسلمين تحت قيادة ملوكهم ، وبمساعدة الرب تمكن من هزيمتها ، واستطاع تحرير الأسرى الذين كانوا فى سفينتين ، وملأ هاتين السفينتين بالقتلى والأسرى من المسلمين وأرسلها إلى على عبر البحر إلى أفريقيا . وبعد أيام قليلة ولكبر سن الملك ألفونسو والمجهودات الشاقة التى قام بها توفى بعد أن أنعم الله عليه بالنصر[٢] .

ويروى أوردريك فيتال أن إثر هزيمة إفراغة ، جمع ألفونسو المحارب فى الحال ما أمكنه من القوات ، للانتقام الأخير ، وبواسطة طرق خفية ، قادهم إلى ضفة البحر ، حيث وجد جمعا من

---

(١) C. A. E., p. 234, not. I.

(٢) Chron. S. Stephani Cadomensis, en (R. H. G. F.) t. XII, pp. 779 - 780 .

المسلمين الذين حملوا فى السفن الغنيمة المسلوبة من المسيحيين ، فباغتهم الملك بالهجوم ، الذى لم يتوقعوه ، وقتل عددا كبيرا منهم ، وقد كانت هناك سفينة محملة برءوس النصارى التى يرسلها الأمير بكر [١] إلى والده فى أفريقيا كشاهدة على انتصاره ، وكانت تحمل أيضا حوالى سبعمائه أسير وجزءاً من الغنيمة لأمير المسلمين . فجمع ألفونسو بشفقة رءوس القتلى ونقلها إلى القبر الشريف فى كنيسة الرب . أما الأسرى الذين رقدوا فى السفن فقد رفعوا عيونهم على أثر سماعهم الضوضاء ، ولم يصدقوا مارأوا وغمرهم السرور ، فاستردوا قواهم ، وبينما كان النصارى مع المسلمين يتحاربون ، حلوا السلاسل ، وقفزوا من مؤخرة سفنهم وجاءوا إلى مساعدة النصارى . وتحول فرح المسلمين إلى حزن . وبعد أن أبلى ألفونسو المحارب بلاءً حسنا أنهكه القتال فجرح ، ورقد فى فراشه ومات بعد ثمانية أيام[٢] . ويبدو أن هذا الانتصار الأخير لألفونسو المحارب ، يمثل صورة بطولية تتمشى مع العقلية الحماسية للعصر ، نتيجة خيال الراهب النورماندى أوردريك فيتال[٣] .

وأشار بعض المؤرخين إلى أن ألفونسو المحارب بعد هزيمته فى إفراغة خجل من عار الهزيمة، فهرب إلى الأراضى المقدسة للحرب ضد المسلمين ، انتقاما لهزيمته[٤] . فتروى مدونة القديس خوان دى لابينيا أن ألفونسو المحارب قد أثر عليه الإحساس بالعار الذى لحق به تأثيرا سيئا ، وهو الذى كان دائما يحظى بالانتصار ، وما أن أصابته الهزيمة حتى أسرع بالانتقال إلى بيت المقدس ، وظل هناك ولم يعثر عليه حتى مات[٥] . بينما يقول البعض أنه اتجه إلى بيت المقدس كحاج ، ثم ظهر بعد وقت طويل فى أرغون[٦] . وهذه كلها احتمالات ولكن يبدو أنها بعيدة عن الصواب ، وقريبة للأسطورة ، لتضفى على المحارب صفة البطل الصليبى الذى حارب المسلمين فى بيت المقدس .

---

(١) الصواب هو الأمير تاشفين بن على بن يوسف حاكم الأندلس .

(٢) Orderic Vital. Hist. Eccles., en (R. H.G. F.) t. XII, p. 749; Lacarra, Alfonso el B., pp. 134 - 135 .

(٣) Lacarra, Alfonso el B., p. 135 .

(٤) Moret, A. R. N., p. 331; Castellano, C. C. A., p. 18; Ballesteros, op. cit., p. 460 .

(٥) C. S. J. P., pp. 80-81 .

(٦) P. C. G. E., t. II, p. 649 .

أما الأسقف جيدو أسقف ليسكار - بلدة على مقربة من باو Pau - الذى أسر فى معركة إفراغة ، فقد اقتاده ابن غانية إلى بلنسية ، ولم يوافق على إطلاق سراحه إلا بعد أن قدم رهائن ينوبون عنه ، ودفع ثلاثة آلاف مرابطى من الذهب ، حتى تمكن من العودة إلى مقر أسقفيته فى بلاده ليسكار[١] .

ولقد ترتب على معركة إفراغة عدة نتائج ، إذ أنها تعبر عن قوة المرابطين ، الذين احتفظوا بقوتهم العسكرية حتى قامت الثورات ضدهم فى الأندلس عام ١١٤٤م/٥٣٨ ، وذاع صيت يحيى بن غانية قائد المرابطين فى المعركة ، وأدت إلى تدعيم مركزه[٢] . وأخرت سقوط إفراغة فى سلطة الأرغونيين إلى عام ١١٤٩م/٥٤٤هـ . ولكن برغم الانتصار الذى أحرزه المرابطون مما جعل الطريق مفتوحا إلى سرقسطة خاصة بعد سحق الجيش الأرغونى ، إلا أنهم لم يفكروا فى الاستفادة من هذا الانتصار بالزحف على سرقسطة ، ومحاولة استرجاعها من الأرغونيين ، ولكن ابن غانية قنع بالأمجاد التى اكتسبت فى إفراغة فقط ، وعادت القوات المرابطية إلى قواعدها ، مثلما حدث عقب نصر الزلاقة ، ولم ينتهز يوسف بن تاشفين فرصة انهيار الجيش القشتالى لمحاولة استرجاع طليطلة من القشتاليين[٣] . كما ترتب على هذه المعركة اضطراب أحوال الأرغونيين ، وانهيار روحهم المعنوية نتيجة الكارثة ، وتبديد الجيش الأرغونى ، بعد مقتل أغلب قواده وفرسانه ونجاة القليل[٤] ، ولم يعد فى وضع يسمح له بشن الهجوم على المسلمين ، بسبب الخسائر التى حلت به جسديا ومعنويا ، فتوقفت حركة الاسترداد الأرغونى لبعض الوقت . يضاف إلى ذلك ، أن هزيمة إفراغة كان لها أسوأ الأثر على ألفونسو المحارب ، فقد أثارت فى نفسه حزنا وألما شديدا ، وهاجمه المرض حتى مات بعدها بقليل . وقد أعطت لنا المدونات المسيحية والإسلامية صورة واضحة عن حالة الملك الأرغونى عقب كارثة إفراغة ، ولاشك أنها كانت صدمة نفسية قوية على ألفونسو المحارب ، فى هذه السن المتقدمة ، إذ كان يبلغ الستين من عمره ، ولم يعرف الهزيمة من قبل .

---

(١) C. A. E., p. 236: Miranda, H. M. V., t. III, p. 77 .

(٢) محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص١٢٥ .

(٣) Scott, op. cit., vol. II, p. 273:

محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ١٢٦ .

(٤) Scott, op. cit., vol. II, p. 273 .

وعلى أية حال ، أن الملك ألفونسو المحارب الذى اعتاد حياة المعسكر ، وقيادة المحاربين فى المعارك ، لم يستسلم لليأس ، فقاوم وتغلب على آلامه ، وعاود نشاطه مرة أخرى . ففى الحال انسحب الملك إلى سرقسطة ، وبدأ يتخذ التدبيرات الضرورية لتجنب الكارثة ، وأظهر ألفونسو نشاطا ملحوظا فى الوقت القصير الذى عاشه[١] . وفى الحادى عشر من أغسطس ١١٣٤م/ الثامن عشر من شوال ٥٢٨هـ ، ذهب ألفونسو المحارب إلى مدينة الفخارين Alfaj-arin ، على بعد أربعة عشر كيلو متر من سرقسطة ، ومنح دون بلاسين don Palacin بعض الأراضى فى الفرانكة Alfranca على حدود هذه المدينة . وبعد عدة أيام اهتم بشغل المناصب الأسقفية الشاغرة فى وشقة وردا ، فقد عين فى الأولى دودون Dodon ، وفى الثانية أخاه راميرو . كما عين فورتون جالنيدث Fortun Galindez حاكما على مدينتى وشقة ومكناسة ، بدلا من السادة الذين قتلوا فى إفراغة[٢] .

ويبدو أن المسلمين قد تشجعوا بعد هزيمة النصارى فى إفراغة ، وقاموا بشن الغارات على الأراضى الأرغونية ، وفى شهر أغسطس من العام نفسه ، كان ألفونسو يحارب المسلمين فى لاردة ، حيث حاصر قلعة ليثانا ، وهى مزرعة قريبة إلى بسبين وبربنيالس Barbunales ، ليست بعيدة عن نهر الكاندر ، وهاجم ألفونسو المحارب قلعة ليثانا ، وأخضع المسلمين المتمردين هناك . وأثناء حصار ليثانا ، عوض ألفونسو المحارب عائلات الضحايا فى موقعة إفراغة ، فمنح دونيا تودا حصن استيتش Estiche ، وحصن خوسليبول وممتلكات أخرى كان الملك منحها من قبل إلى زوجها[٣] .

وفى الأيام الأولى من شهر سبتمبر ١١٣٤م ، وكان الملك ألفونسو المحارب فى مدينة سارنينا ، وفى يوم الثلاثاء الرابع من سبتمبر ١١٣٤م/ الثالث عشر من ذى القعدة ٥٢٨هـ، أقر ألفونسو المحارب الوصية التى كان حررها فى مدينة بيونة ، بخصوص ميراث ممالكه ، والتى أوصى فيها بتسليم ممالكه إلى المنظمات الحربية الدينية الثلاثة فى الشرق[٤] .

---

(١) Lacarra, H. P. R. N., p. 327 .

(٢) Lacarra, Alfonso el B., pp. 135 - 136 .

(٣) Ballesteros, op. cit., pp. 460 - 461; Lacarra, Alfonso el Batallador, p. 136 .

(٤) Moret, A. R. N., pp. 330 - 331 .

وهذا يوضح تأكيد هدفه باستكمال الحرب المقدسة ضد المسلمين . وكان الملك الأرغونى قبل أيام قليلة من كارثة إفراغة ، قد أعطى منظمة الإسبتارية حرية امتلاك كل ممتلكاته التى منحها لها كأى شخص فى المملكة[١] .

وفى يوم الجمعة السابع من سبتمبر ١١٣٤م/ السادس عشر من ذى القعدة ٥٢٨هـ مات الملك ألفونسو المحارب فى بلدة بولنينو Polenino ، الواقعة بين سارنينا وجرانيين ، ودفن فى حصن - دير جبل أرغون ، الذى أسسه والده الملك سانشو بالقرب من مدينة وشقة[٢] .

ومما يجدر ذكره أن هناك اختلافا بين المؤرخين النصارى حول ظروف وفاة ألفونسو المحارب وتاريخ ومكان وفاته . فهناك بعض المؤرخين الذين تحدثوا عن وقوع معركتين فى إفراغة الأولى التى نشبت فى السابع عشر من يوليو ١١٣٤م ، وفيها هزم ألفونسو المحارب على يد المرابطين ، والثانية اشتبك ألفونسو المحارب مع المسلمين مرة أخرى ، فى السابع من سبتمبر ١١٣٤م / السادس عشر من ذى القعدة ٥٢٨هـ ، وفيها قتل ألفونسو المحارب[٣] . ويمدنا المؤرخ مورت بتفاصيل هذه المعركة الثانية ، فيروى أنه فى يوم الجمعة الموافق السابع من سبتمبر / السادس عشر من ذى القعدة من هذا العام ، علم ألفونسو أن عددا كبيرا من المسلمين قاموا بسلب مقاطعات منتشون ، فخرج على وجه السرعة ومعه أربعمائه من الفرسان والمشاه ، للبحث عن المسلمين ورد الغنيمة ، ولكن المسلمين كانوا قد أسرعوا بالانسحاب والفرار ، وطاردهم ألفونسو ، ويبدو أنها كانت مكيده مدبرة لجذب ألفونسو لمتابعتهم ، حتى ابتعد كثيرا عن المشاة ، ولم يمكنهم مساعدته . وبالقرب من بولنيو أحاط به المسلمون بكثرة كبيرة من كل الجهات ، وهاجمه المسلمون بشقة المنتصرين فى إفراغة ، وهزموه . ولكن الملك أخذ يحاربهم بيأس ، حتى وصول فرقته الصغيرة لنجدته ، فضغط عليها المسلمون ، ومزقوها جميعها وقتل دون سنتو لودى بيارن ، ودون إيرى دى أربونة ، ودون جومث دى لونا ، ودون لوب كاخال[٤] . ويرجع مورت أن ألفونسو المحارب استمر يقاتل المسلمين حتى أنهكه القتال، فسقط صريعا فى ميدان القتال ، ومجردا من الأسلحة ، ولم يعرف المسلمون نتيجة تمزق جثته والتى شوهتها الجروح الجسيمة[٥] .

---

(١) Lacarra, Alfonso el Batallador, p. 136 .

(٢) Moret, A. R. N., p. 331; D. E., t. II, pp. 129, 966 .

(٣) Moret, A. R. N., pp. 330 - 331; Ballesteros, op. cit., p. 558 .

(٤) Moret, A. R. N., p. 331 .

(٥) Ibid, p. 332 .

وقد أكد السيد لونجاس el Sr., Longas أنه لم تقع معركتان فى إفراغة مثلما زعم مورت ، ولكنها معركة واحدة فقط ، طبقا لما جاء فى رواية وثيقة أرشيف كاتدرائية قلهرة Archivo de la Catedral de Calahorra ، عن كارثة أفراغة . إذ حددت هذه الوثيقة تاريخ معركة إفراغة ، وذكرت أنه لايمكن أن تحدث معركة أخرى فى إفراغة ، بعد تشتت وتبدد جيوش ألفونسو المحارب فى هذه المعركة ، ويؤيد ذلك ماورد فى الكامل لابن الأثير الذى ذكر أنه لم يسلم من عسكر ألفونسو المحارب إلا القليل(١) . يضاف إلى ذلك ، أن المدونات المسيحية لم تعط أى تفاصيل عن أى أعمال لألفونسو المحارب بعد هزيمته فى افراغة ، مما يدل على أن حالة ألفونسو النفسية كانت لاتسمح له بدخول حرب أخرى ضد المسلمين . وبذلك يمكن القول بأن ماذكره المؤرخ مورت عن وقوع معركتين بإفراغة بين ألفونسو المحارب والمسلمين بعيد عن الصواب ، وإنما هى معركة واحدة التى وقعت فى السابع عشر من يوليو ١١٣٤م .

أما بالنسبة لتاريخ وفاة ألفونسو المحارب ، فقد حددته مدونة ألفونسو الإمبراطور فى الثامن من فبراير عام ١١٣٤م/ الحادى عشر من ربيع الثانى ٥٢٨هـ(٢) . وهذا غير صحيح، لأنه يعنى أن الملك ألفونسو المحارب مات قبل معركة إفراغة بشهور . بينما اتفقت معظم المدونات المسيحية أن وفاته كانت فى السابع من سبتمبر ١١٣٤م/ السادس عشر من ذى القعدة ٥٢٨هـ(٣) ، وهو ما أخذ به أغلب المؤرخين . ويكاد هذا التاريخ يتفق مع ما حدده ابن القطان الذى ذكر أن ألفونسو مات بعد المعركة بأشهر قليلة(٤) . ويؤكد صحة هذا التاريخ ما جاء فى سجل وفيات جبل أرغون الذى سجل أن ألفونسو الأول مات فى السابع من سبتمبر ١١٣٤م(٥) .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، جـ١١ ، ص ٣٤ ،

Ballesteros, op. Cit., T. II, pp. 460 - 461 .

(٢) C. A. E., p. 236 .

(٣) Moret, A. R. N., p. 331; Chron. S. Stephani, an (R. H. G. F.) T. XLL, not. F, pp. 779 - 780; Soler, op. Cit. p. 105; Ballesteros, op. Cit., t. II, p. 460 .

(٤) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢٢٣ .

(٥) Ballesteros, op. cit., t. II, pp. 460 - 461 .

وقد اختلف المؤرخون فى تحديد المكان الذى مات فيه ألفونسو المحارب ، فذكر بعضهم أنه مات فى مدينة بولنبنو بالقرب من سارنينا ، حيث أنه المكان الذى وقع فيه الاشتباك مع المسلمين[١] . وفى مقالة كتبها سانز أريشمندى Sanz Arizmendi ، نشرت فى مجلة الأرشيفات la Revista de Archivos ، استنتج أنه حين هزم الجيش النصرانى فى معركة إفراغة، وأصيب الملك بجراح ، فقد أخذ يتراجع عن طريق الضفة اليسرى لنهر سينكا ، مارا بين هذا النهر ونهر الكاندر ، ثم عبر نهر إرويلة Irucla ، وتوقف فى مدينة بولنبنو الحالية ، على تسعة فراسخ من سرقسطة ، وهناك مات ألفونسو المحارب[٢] .

بينما اعتقد فريق آخر من المؤرخين أن الملك الأرغونى انسحب جريحا من المعركة ، ومات فى مدينة المونينت Almuniente بالقرب من جرانيين[٣] . ويرى البعض الآخر من المؤرخين أن ألفونسو المحارب بعد أن حرر وصيته الجديدة فى سارنينا ، انسحب نحو المونينت قرب وشقة ، وفاجأه الموت بين المونينت وبولنينو ، ودفن فى دير جبل أرغون[٤] . بينما ذكرت مدونة ألفونسو الإمبراطور أن ألفونسو المحارب دفن فى دير القديس خوان دى لابينيا[٥] . ولكن المؤرخ مورت أكد أن ألفونسو المحارب دفن فى دير جبل أرغون ، بينما دفن فى دير سان خوان دى لابينيا أبوه الملك سانشو وأخوه الملك بطره ، وقد وجدت نقوش على قبريهما تؤكد ذلك . وهذا يصحح الخطأ الذى ورد فى مدونة ألفونسو الإمبراطور[٦] .

وعندما علم الأرغونيون بموت ملكهم ، أصابهم الفزع ، وهربوا من القلاع والمدن الحصينة فزعا من المسلمين ، ولم يحاولوا مقاومتهم[٧] . ولكن المرابطين لم ينتهزوا هذه الفرصة

---

(١) Moret, A. R. N., p. 331 .

(٢) Ballesteros, op. cit., t. II, p. 460 .

(٣) Chron. S. Victoris Massiliensis, en (R. H. G. F.) t. XII, p. 348; Ballesteros, op. cit., p. 460 .

(٤) Cestis Comit. Barcin., en (R. H. G. F.) t. XII, p. 378; Bleye, op. cit., p. 630; Valdeavellano, op. cit., pp. 431-432 .

(٥) C. A. E., p. 236 .

(٦) Moret, A. R. N., pp. 331 - 332 .

(٧) C. A. E., p. 238 .

لاسترجاع سرقسطة أو القلاع التى هجرها الأرغونيون ، بالرغم من وجود ثلاثة عوامل أدت إلى ضعف ملكة أرغون فى ذلك الوقت : أولها دمار قوتها العسكرية فى إفراغة ، وثانيها وفاة ملكها ألفونسو المحارب ، وثالثها عدم قدرة أهلها على المقاومة .

وفى الوقت نفسه ، خرج المرابطون بقيادة الأمير تاشفين للغزو والإغارة على أراضى مملكة قشتالة فى أكتوبر ١١٣٤م/ ذى الحجة ٥٢٨هـ ، واشتبكوا مع القشتاليين فى مكان يسمى بالبكار Albacar شمال قرطبة[١] . وكان من الأجدر أن ينضم الأمير تاشفين بقواته إلى ابن غانية ، ويتجها سويا إلى الثغر الأعلى لاسترجاع سرقسطة أو غيرها من مدن الثغر من أيدى الأرغونيين ، بدلا من الإغارة على غرب الأندلس .

كانت وفاة ألفونسو المحارب دون عقب سببا مباشرا فى قيام أزمة شديدة فى مملكة أرغون، فقد كانت وصيته عملا خياليا غير قابل للتنفيذ أو التطبيق عمليا . فالمنظمات العسكرية الدينية فى بلاد الشام بعيدة عن السلطة ، لأنها ليست ثابتة فى أرغون . كما أن هذه الوصية أضرت بمصالح الأشراف ، الذين اعتبروا أن الجزء الأكبر من المملكة قد فتح بجهودهم الشخصية ، وأن الملك قرر مصير المملكة منفردا ، دون مشورتهم ، وليس بوسعهم أن يخدموا تحت قيادة المنظمات الشرقية الغريبة عن مملكة أرغون . وقد طالب راميرو أخو الملك المتوفى بنصيبه فى الميراث الأبوى ، بولايات أرغون وشقة التى كانت ملكا لوالده وأخيه بطره . كما أن غرسية راميرث سيد منتشون وتطيلة - سليل الملك غرسية دى نبره - طالب بنفس الحقوق العائلية لأراضى مملكة بنبلونة ، التى كانت ملكا لجده سانشو دى بنيالين حتى عام ١٠٧٦م[٢] .

ومن هنا فإن مثل هذه الوصية الغريبة لايمكن أن تنفذ إرادة الملك المتوفى ، لأنها كانت تتناقض مع الحق النبرى - الأرغونى القديم ، لذلك رفضت مملكتا أرغون ونبرة تنفيذ هذه الوصية ، وأيضا لم يحترم الشعب فى أرغون وفى نبرة تنفيذ وصية ألفونسو المحارب[٣] .

---

(١) ابن القطان ، نظم الجمان ، ص ٢١٥ - ٢١٦ ، ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ٤ ، ص٩٠ .

(٢) Lacarra, H. P. R. N., pp. 328-329 .

(٣) Valdeavellano, op. cit., p. 433 .

وفى الحال اجتمع فى مدينة جاقة أهل أرغون ورجال الدين والأشراف ونواب الشعب ، واختاروا للعرش راميرو الثانى الراهب (١١٣٤-١١٣٧م) أخا الملك ألفونسو المحارب ، وعينوا غرسيون ستراب Garsion Satrap قائما بأعمال الملك[١]. وهجر راميرو الدير وتولى عرش أرغون ونبرة ، ولكن أهل بنبلونة ونبرة لم يوافقوا على اختيار الأمير دون راميرو ، واجتمعوا فى مدينة بنبلونة عاصمتهم القديمة ، واختاروا غرسية راميرث ملكا لهم (١١٣٤-١١٥٠م) ، وبذلك انفصلت مملكة نبرة عن مملكة أرغون ، وأعلنت استقلالها[٢] .

وقد أيد البابا أنوسنت الثانى (١١٣٠-١١٤٣م) حقوق منظمات بيت المقدس كورثة لألفونسو المحارب ، واختصت الهيئة القضائية البابوية بالدفاع عن هذه الحقوق ، تنفيذا لوصية ألفونسو المحارب . وفى عام ١١٣٥م/٥٢٩هـ أمر البابا كبار السادة الأرغونيين بتنفيذ وصية ألفونسو المحارب[٣] . وفى هذه الظروف ، قرر الملك راميرو الثانى بالاتفاق مع سادة أرغون أن يتزوج لإنجاب وريث ، حفظا للسلالة الملكية وحرصا على سلامة المملكة[٤] ، فتزوج من الأميرة إنس ابنة قمط بواتييه وشقيقة جيلرمو التاسع دوق اكيتانيا ، وفى أواخر عام ١١٣٥م أنجبت الأميرة بترونيلا Petronila[٥] .

ومنذ صيف عام ١١٣٦ قوى مركز الملك الأرغونى ، وتغيرت معارضة البابا إلى موقف أكثر مرونة ، ولعل ذلك بسبب اعتدال المنظمات الحربية ، التى رأت أنه من المستحيل تنفيذ وصية ألفونسو المحارب . ولحل هذا النزاع أرسل البابا إلى أسبانيا كمبعوث بابوى الكاردينال جيدو دى سان كوزم وسان دميان Guido de San Cosme Y San Damian ، الذى رأس مجلسا دينيا عقد فى مدينة برغش فى أكتوبر ١١٣٦م ، وفيه أكد الملك ألفونسو السابع قيام المنظمة الرهبانية أو الجمعية الدينية الحربية التى أسسها ألفونسو المحارب

---

(١) Orderic Vital, Hist. Eccles., en (R. H. G. F.) t. XII, p. 749 .

(٢) C. A . E., p. 240; Chron. S. Stephani, en (R. H. G. F.) . t. XII, p. 780 .

(٣) Fernandez, op. cit., p. 567; Lacarra, Alfonso el Batallador, p. 140 .

(٤) Valdeavellano, op. cit., p. 436 .

(٥) Lacarra, Alfonso el Batallador, p. 140 .

فى مدينة بلشر . ومن جهة أخرى ، توصلت الهيئة القضائية البابوية إلى حل نهائى لميراث ألفونسو المحارب ، يوفق بين مصالح العائلة الأرغونية الملكية والمنظمات التى عينها ألفونسو المحارب لوراثة ولاياته . وكان هذا الحل فى خطبة بترونيلا ابنة الملك راميرو لقمط برشلونة رامون برنجير الرابع ، الذى كان عضوا فى منظمة الداوية العسكرية(١) . وفى أغسطس ١١٣٧م تنازل الملك الأرغونى عن العرش لابنته بترونيلا ، وعقد قرانها على قمط برشلونة رامون برنجير الرابع ، وتخلى لصهره عن منصبه ، فسلمه مع الزوجة حكم المملكة ، وعاد الملك الراهب راميرو إلى حياة الدير فى نوفمبر ١١٣٧م ، وتولى منصب رئيس دير القديس بطره العجوز بوشقة ، وظل به حتى وفاته فى أغسطس عام ١١٥٧م . وبمقتضى هذا الزواج ، تم الاتحاد بين أرغون وقطلونية ، وأعطى قمط برشلونة حق السيادة على مملكة أرغون (١١٣٧-١١٦٢) وتلقب رامون برنجير الرابع بقمط برشلونة وأمير أرغون(٢) .

ولما رأت المنظمات العسكرية الدينية فى بيت المقدس ، وريثة ألفونسو المحارب ، استحالة تنفيذ مثل هذه الوصية ، تخلت باختيارها عن هذه الحقوق ، واكتفت بالمطالبة بأن يعوضوا عنها بما يعاونهم على الاستقرار وتأدية مهمتهم فى حماية الدين(٣) . وقد توصل رامون برنجير الرابع بصفته عضوا فى جماعة الداوية العسكرية إلى اتفاق مع هذه المنظمات العسكرية الدينية ، وتعهد بأن يعطيهم تعويضات ، وذلك بمنحهم مدنا وقلاعا ومنازل وإيرادات فى بعض المدن . وقد قبلت المنظمات الحربية هذه الأوضاع تماما ، واعترفت بكفاءة رامون برنجير ليحكم المملكة ويدافع عنها ضد مسلمى أسبانيا ، وتنازلت له ولعائلته بموافقة أشراف وفرسان مملكة أرغون عن نصيبهم فى المملكة ، واشترطت أنه فى حالة انقراض نسل قمط برشلونة ، تعود المملكة إلى هذه المنظمات(٤) .

---

(١) Valdeavellano, op. cit., p. 438.

(٢) D. H. E., t. II, 966 Valdeavellano, op. cit., in pp. 439 - 440.

(٣) محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص ٥١٨ .

(٤) D. H. E., t. II, p. 966; Lacarra, Alfonso el Batallador, p. 140 .

وفى عام ١١٤٠م وصل إلى أرغون البطريرك جيلرمو Guillermo مندوبا عن جماعة القبر المقدس ، وريموندو Raimundo قائد فرسان إسبتارية القديس يوحنا ببيت المقدس ، ووقعوا اتفاقية مع رامون برنجير فى السادس عشر من سبتمبر ١١٤٠م ، وتنازلوا عن حقوقهم فى مملكة أرغون للأمير رامون برنجير الرابع وعائلته بشرط أن تعود اليهم فى حالة وفاة أمير أرغون بدون وريث . ومنحهم أمير أرغون فى مقابل ذلك امتيازات ثابتة كثيرة وإقطاعات كبيرة فى مدن سرقسطة ووشقة وبريشتر وقلعة أيوب ودروقة وجاقة ، فى مقابل مساعدته فى الحروب ضد المسلمين . وفى السابع والعشرين من نوفمبر عام ١١٤٣ ، تم الاتفاق نفسه مع قائد فرسان الداوية ، فقد وصل خيرالدو Ciraldo إلى قطلونية ، وأحضر معه وثيقة موقعة فى بيت المقدس بتنازل أعضاء الداوية العسكرية عن نصيبهم فى مملكة أرغون ، ومنحهم أمير أرغون كتعويض لهم إيرادات وإقطاعات فى مدن منتشون وتشلاميرة وبربيرة Barbera وريموليتوس Remolinos وقربينز [١] . وأكد هذه الاتفاقية البابا أدريان الرابع Adrian IV (١١٥٤-١١٥٩) فيما بعد ، وقد أسس قائد فرسان الداوية دير قلعة أيوب ، الذى كان منزلا لجماعته فى أرغون[٢] . وهكذا تم لجمعية فرسان الداوية الشهيرة أن تستقر فى أرغون وقطلونية ، وسرعان مانمت وأشتد ساعدها ، وظهرت أهمية العون الذى يبذله أعضاؤها فى محاربة المسلمين ، ولاسيما فى الدفاع عن القواعد والحصون الواقعة على الحدود[٣] ، وقام رامون برنجير الرابع أمير أرغون بمواصلة سياسة الاسترداد ضد المسلمين بمساعدة منظمات الفرسان الدينية العسكرية .

وبهذا انتهت المشكلة التى قامت عند وفاة الملك ألفونسو المحارب ، وتمت تسوية مطالب المنظمات العسكرية الدينية ورثة مملكة أرغون طبقا لوصية ألفونسو المحارب ، ووافقت الهيئة القضائية البابوية على مثل هذه الاتفاقيات التى حددت انتقال مملكة أرغون من المنظمات العسكرية ببيت المقدس إلى رامون برنجير الرابع[٤] .

---

(١) C. C. A., pp. 30 - 31; Ballesteros, op. cit., pp. 498 - 499 .

(٢) C.C. A., p. 31; Ballesteros, op. cit., p. 499 .

(٣) محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين ، ص٥١٩ .

(٤) D. H. E., t. II, p. 966 .

وقد استمرت الحقوق الوراثية للعائلة الملكية الأرغونية سليمة إلى توارث الملك راميرو الثاني ، ومنه انتقلت إلى ابنته بترونيلا ، ومنها إلى زوجها وذريتهم . بينما لم تتوصل المنظمات العسكرية الدينية ببيت المقدس إلى اتفاق واضح مع غرسية راميرث ملك نبرة[١] .

كان لحكم ألفونسو المحارب أهمية كبيرة ، فقد ضاعف اتساع مملكة أرغون[٢] فى سنوات قليلة ووصل بحدودها حتى الإبره ، وامتدت حصونه حتى مولينة دى أرغون ، وسلاسل جودار، وحتى أورتا على مقربة من طرطوشة ، هذه القلاع التى اكتسبها ألفونسو المحارب متأخرا ، كما استرد مدن ريوخه وبرغش ، وعمر سرية والمنطقة المحيطة بمنبع نهر الدويره . وترتب على ذلك تنوع العنصر البشرى فى مملكة أرغون ، فتحولت جماعة الجبليين والرعاة إلى محاربين ، وازدادت جماعة المسلمين المزارعين ، بالإضافة إلى المستعربين وبعض المسيحيين الفرنسيين من أهل بيارن وجسقونية ونورمانديا ، الذين فتحوا مدنهم وأراضيهم لكل المؤثرات الخارجية[٣] .

وقد اهتم ألفونسو المحارب بسياسة الاسترداد ، واجتهد ليجعل الحرب مع الإسلام فى أسبانيا فى شكل مشابه لما يجرى فى الشرق ، فقد أوجد المنظمات الدينية العسكرية فى بلشر ومونريال ، والتى أسسها لتأكيد استمرار الحرب ضد المسلمين ، وهذه المنظمات انضمت إلى منظمة الداوية عام ١١٤٣م ، والتى كانت مشابهة لها فى أهدافها ونظمها[٤] . وبذلك يمكن القول بأن سياسة الاسترداد التى اتبعها الملك ألفونسو المحارب فى أسبانيا تتساوى مع الحرب الصليبية فى بيت المقدس ، وقد قام ألفونسو المحارب بجهود كبيرة لكى يفتح طريقا لبيت المقدس عبر أسبانيا .

وفى الحقيقة ، فقد اشتهر الملك ألفونسو المحارب بأنه ملك صليبى غربى ، ومحارب خبير وجرئ ، فقدته أسبانيا النصرانية ، واعترف معاصروه حتى أعداؤه باستقامة أغراضه وسمو

---

(١) Lacarra, H. P. R. N., p. 333 .

(٢) انظر خريطة رقم (٩) .

(٣) Lacarra, Alfonso el B., p. 141 .

(٤) Ibid. p. 142 .

أهدافه وميله للحرب وانتصاره الدائم ، وكان اسمه جديرا بمثل هذه الشهرة . ويقول المؤرخ مورت عن ألفونسو المحارب : "فقد دعاه البعض يوليوس قيصر الجديد ، ودعاه الآخرون كارلو الثاني العظيم Carlo - magno" (١) . كما أشاد بشجاعته المؤرخون المسلمون مثل ابن الأثير . وبالرغم من كراهية كاتب مدونة ألفونسو الإمبراطور لألفونسو المحارب ، إلا أنه ذكره في النهاية بهذه الكلمات : "ولم يأت بعده أو قبله من ملوك أرغون من كان مثل هذا الملك في شجاعته وقدرته القتالية وحذره وميله إلى الحرب"(١) .

---

(١) Moret. A. R. N.. p. 336 .

(٢) C. A. E.. p. 236 .

الخاتمــة

يتضح من دراساتنا السابقة أن أرغون كانت إقليما صغيرا فقيرا يقع فى الجزء الأعلى من البرنيه ، وفى هذا الجزء من شمال أسبانيا تولدت حركة الاسترداد ، التى تمثل دورا من أدوار الصراع بين المسلمين والنصارى فى العصور الوسطى ، والتى تطورت إلى إخراج المسلمين من أسبانيا . ويمكن القول بأن فكرة الحروب الصليبية نبتت فى الجزء الأعلى من البرنيه ، وقد اتخذت فى بداية أمرها صفة الحروب المقدسة ، ثم انعكس الصراع المسيحى الإسلامى فى الغرب الأوروبى على المشرق فيما بعد ، وذلك بإرسال الحملات الصليبية الى الشرق بهدف استرداد بيت المقدس من أيدى المسلمين فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى / الخامس الهجرى .

وعلى أية حال ، كان لمملكة أرغون نشاط حربى وسياسى فى حركة الاسترداد ، ونجح ملوكها فى تحويلها إلى مملكة كبيرة واسعة على حساب المدن الإسلامية المحيطة بها ، وساعد على نجاحهم فى ذلك موقع أرغون البعيد عن مركز الخلافة والحكم فى الأندلس ، والقريب من جنوب فرنسا والبابوية ، مستغلين الانقسامات والحروب الأهلية التى سادت منطقة الثغر الأعلى . ولما كان الأرغونيون قد تمرسوا حرب الجبال نتيجة طبيعة بلادهم الجبلية ، فعندما زحفوا من الجبال إلى السهول ، واجهوا بعض العقبات للزحف فى أرض سهلية ، ومن أهمها أن المدن الإسلامية كانت محصنة تحصينا قويا ، وكان غزوها يحتاج إلى موارد اقتصادية وحربية كبيرة ، ولذلك عمد ملوك أرغون إلى سياسة فتح هذه المدن بالتجويع بطول مدة الحصار لنفاد أقواتها ، ونجحت هذه السياسة إلى حد كبير .

ولا شك أنه كان لدولة المرابطين دور هام فى تاريخ الحروب الصليبية فى الأندلس ، وكان لها أثر فى توازن القوى فى أسبانيا ، فقد خاضت معركة الجهاد ، ونجح المرابطون فى الحيلولة بين الممالك النصرانية المسيحية فى الشمال الأسبانى وبين المساهمة الفعالة فى الحروب الصليبية خارج أسبانيا ، وقد اصطبغت الحروب التى شنها الأرغونيون ضد مسلمى الثغر الأعلى بصبغة الحروب الصليبية منذ عام ١١٠١م/٤٩٤هـ حين منح البابا الغفران عن الخطايا إلى النصارى الذين يحاربون المسلمين فى أسبانيا ، وبشر بحملة صليبية ضد مدينة سرقسطة . وكانت الروح الصليبية أكثر وضوحا فى سياسة ألفونسو الأول ملك أرغون ، الذى جعل من

فكرة الاسترداد عملا سياسيا وصفة دينية ، ورمز إليه بصليب أبيض على راية زرقاء ، كشعار فى حروب أرغون[(١)] .

ويعتبر حكم ألفونسو المحارب مرحلة هامة من مراحل الصراع بين المسلمين والنصارى فى الأندلس ، كما أنها حلقة من حلقات الحروب الصليبية ، وكانت منطقة الثغر الأعلى وبلنسية هى محور هذا الصراع . فقد خطط ألفونسو المحارب لاسترداد لاردة وسرقسطة وطرطوشة وبلنسية ، بهدف تخليص وادى ابره من السيادة الإسلامية ، والوصول بمملكة أرغون إلى ساحل البحر المتوسط ، ولفتح طريق بحرى يؤدى إلى الأراضى المقدسة ، وقيادة حملة صليبية إلى الشرق . ولاشك أن معرفة ألفونسو المحارب للتكتيك الحربى المرابطى كان له أثره فى نجاح سياسته تجاه المسلمين وتحقيق عدة انتصارات على المرابطين ، واتساع مملكة أرغون فى عهده ، فقد أصبحت حدودها على مقربة من حدود مملكة قشتالة ، وامتدت سيادته من بليارش شرقا إلى بلورادو غربا ، ومن بيونة شمالا إلى تيرول جنوبا .

وفيما يتعلق بسياسة ألفونسو المحارب مع مملكة قشتالة ، فقد كان أقل حظا وتوفيقا ، ففى الفترة الممتدة من عام ١١٠٩ حتى ١١١٤م ، اتسعت مملكة أرغون بزواج ألفونسو المحارب من أوراكا ملكة قشتالة عام ١١٠٩م ، وأصبح ألفونسو المحارب سيدا على ممالك أرغون ونبرة بحق الوراثة ، وقشتالة وليون بحق الزواج . وكان هذا الزواج يهدف إلى توحيد ممالك أرغون وقشتالة فى مملكة واحدة للوقوف ضد المرابطين ، ولكن سريعا ما نشبت الخلافات والحروب الأهلية بين الزوجين ، الأمر الذى ترتب عليه توقف حركة الاسترداد فى هذه الفترة ، إذ حلت الحرب الأهلية محل حرب الإسترداد ، واتخذ النصارى موقف المدافع ضد هجمات المرابطين الشديدة على قشتالة ، حتى تم طلاق ألفونسو المحارب لزوجتة عام ١١١٤م ، وبذلك فشل ألفونسو المحارب فى تحقيق الوحدة بين قشتالة وأرغون عن طريق الزواج السياسى ، وانحسر النفوذ الأرغونى عن مملكة قشتالة .

وإبان هذه الفترة نسب بعض المؤرخين القشتاليين إلى ألفونسو المحارب سلب الممالك القشتالية ، ونهب الكنائس والمعابد ، كما وصفوه بالجبروت والغدر ، واتهموه بالكفر وانتهاك حرمة المعابد والسرقة وتدنيس الأماكن المقدسة ، حتى اعتبروا أن هزيمته فى موقعة إفراغة

---

(١) Soler, op. cit., p. 105; Chaytor, op. cit., p. 55 .

كانت انتقاما عادلا وعقابا من الله لما ارتكبه من جرائم فى قشتالة وليون . بينما تؤكد الوثائق الأرغونية أن ألفونسو المحارب كان تقيا ومتدينا وموقرا للمعابد والكنائس ، وتصفه بالورع والشهامة والجود نحو الكنائس ، كما وصفته بأنه كان محاربا رابط الجأش ، وهب دمه لخدمة العقيدة ، وأن وصيته التى تكررت مرتين لدليل على تعصبه وتدينه العميق وخشيته من محاكمة الرب .

أما فيما يتعلق بسياسة ألفونسو المحارب ضد المسلمين ، فقد كانت أكثر توفيقا ونجاحا ، فاسترد منهم سرقسطة ، فى وقت كان الحماس الدينى يسيطر على سياسة ألفونسو المحارب ، ولذلك كان ميزان القوى فى صالح ألفونسو المحارب ، فاستطاع أن يحرز انتصارات سريعة، بينما التزم المسلمون جانب الدفاع عن أنفسهم ، بسبب الضعف الذى أصابهم نتيجة انقسام السلطة فى سرقسطة بين المرابطين وعبد الملك عماد الدولة ، الذى أقام فى حصن روطة فى حماية ألفونسو المحارب . كما استعان ألفونسو بأقربائه وأتباعه من الفرنسيين فى فتح سرقسطة ، ونجحت عمليات حصار سرقسطة التى بدأت فى مايو ١١١٨م ، ونجحت خطة الملك ألفونسو فى العمل على تجويع المدينة لطول مدة الحصار ، حتى اضطر أهل سرقسطة إلى الاستسلام لألفونسو المحارب فى ديسمبر ١١١٨م ، بعد يأسهم من إنقاذهم ، واتخذ ألفونسو سرقسطة عاصمة لمملكة أرغون . وفى ذلك الحين سارت سياسة الاسترداد الأرغونى فى وسط وشمال شرقى الأندلس ، الأمر الذى ترتب عليه سقوط مدن تطيلة وطرسونة فى عام ١١١٩م ، وكتندة ودروقة وقلعة أيوب فى ١١٢٠م وبعض المدن الواقعة على نهرى شلون وشلوقة ، وأصبح ألفونسو المحارب مسيطرا على كل الأراضى التى شكلت ولاية أرغون ، وتميزت هذه الفترة باتساع دولة ألفونسو المحارب ، بعد أن ضم إلى مملكة أرغون الجزء الأكبر من وادى إبره وانحسار النفوذ المرابطى عن منطقة الثغر الأعلى . وهكذا استطاع ألفونسو المحارب بقدراته الحربية أن يحقق لأرغون سيادة الثغر الأعلى .

وقد شجع ألفونسو الروح الصليبية لفرسانه ، واهتم بتأسيس جماعات دينية عسكرية اشتركت فى الصراع بين المسلمين والنصارى ، شبيهة بجماعات الفرسان الدينية الداوية والإسبتارية التى ظهرت فى الشرق مع الحروب الصليبية . وأسس ألفونسو أول جماعة حربية فى أرغون فى أواخر عام ١١١٩م وأطلق عليها جماعة بلشر الحربية ، للدفاع عن الحدود ، لتكون خط دفاع أمامى عن سرقسطة .

ومن أهم ما يميز عهد ألفونسو المحارب تعمير وادى إبره وتأمين حدود مملكته ، فقد نجح ألفونسو فى توطين النصارى فى المدن المفتوحة ، وشجع هجرة الفرنسيين والأجانب إليها ، كما

منحهم الكثير من الامتيازات والإعفاءات ، وشجع التعايش بين المسلمين والنصارى فى وادى إبره ، ونجح فى إيجاد التبادل الثقافى بين المسلمين والنصارى حتى أصبحت مدن وادى إبره مراكز ترجمة لكثير من العلوم .

كما اهتم ألفونسو المحارب بالتنظيم الكنسى فى وادى إبره ، ووفق فى اختيار قواده ، وسلم القلاع الأكثر أهمية وخاصة فى منطقة الحدود إلى أشخاص مخلصين يثق فى قدراتهم على حمايتها . كما ظهرت مقدرة ألفونسو فى النشاط التشريعى وتنظيم القضاء .

بينما فشل ألفونسو المحارب فى تحقيق أطماعه فى مدينة لاردة عام ١١٢٣م ، نتيجة معارضة رامون برنجير الثالث حاكم برشلونة حتى توصلا إلى اتفاق يبدو أنه حدد الميادين الخاصة بالاسترداد لكل من مملكتى أرغون وبرشلونة .

وفى عام ١١٢٥م نجحت قوات ألفونسو المحارب فى السيطرة على قلعة بنى كاديل ، ثم خطط ألفونسو لتحقيق حملة على مملكة غرناطة بغرض إنقاذ المستعربين فى غرناطة من سيطرة المسلمين ، وإقامة مملكة مسيحية هناك . وبدأ ألفونسو المحارب فى تنفيذ الحملة فى سبتمبر ١١٢٥م ، ونجح ألفونسو فى اختراق أراضى شرق وجنوب الأندلس حتى وصل إلى غرناطة فى يناير ١١٢٦م ، ولكنه فشل فى دخولها . فاتجه ألفونسو بقواته إلى الجنوب الشرقى ووصل إلى مالقة على ساحل البحر المتوسط ، ثم عاد مرة أخرى إلى غرناطة ، ثم انسحب ألفونسو وعاد إلى بلاده فى يونيه ١١٢٦م . وخلال هذه الحملة وقعت عدة اشتباكات بين القوات الأرغونية والقوات المرابطية ، ولكن ألفونسو فشل فى تحقيق أهدافه ، واكتفى بسلب المدن التى مر عن طريقها ، ونقل معه آلاف المستعربين واستخدمهم فى تعمير المدن المفتوحة . وتدل هذه الحملة على شجاعة وجرأة ألفونسو المحارب ، فقد كان أول ملك من ملوك النصارى يخترق شبه الجزيرة الأيبيرية من شمالها إلى جنوبها ، كما توضح هذه الحملة ضعف دولة المرابطين فى هذه المرحلة ، وعدم اهتمامهم بتحصين المدن ، وانشغالهم بمحاربة الموحدين فى المغرب ، فكان ميزان القوى فى صالح ألفونسو المحارب ، بينما اتخذ المرابطون جانب الدفاع فقط .

ثم تعطلت حركة الاسترداد حينا ، فبعد وفاة الملكة أوراكا عام ١١٢٦م ، نشب النزاع بين ألفونسو المحارب وألفونسو ريموندس الذى تولى عرش قشتالة ، بخصوص المطالبة بحقوق والدته وتخليص الحصون القشتالية من سيطرة الأرغونيين ، وانتهى هذا النزاع بعقد صلح تامارا فى يوليو عام ١١٢٧م ، وتنازل ألفونسو المحارب عن اللقب الإمبراطورى .

وفى الفترة من عام ١١٢٨ إلى ١١٣٠م كان ميزان القوى بين الأرغونيين والمرابطين يكاد أن يكون متعادلا ، ففى هذه المرحلة خطط ألفونسو المحارب للاستيلاء على بلنسية ، فاستولى على قلعة مولينة فى أواخر عام ١١٢٨م/٥٢٢هـ ، ثم زحف فى أراضى بلنسية عام ١١٢٩م/٥٢٣هـ ، وحاصر القليعة ، وتقدمت القوات المرابطية لإنقاذها ، ونجح ألفونسو فى هزيمة القوات المرابطية فى موقعة القليعة ، ولكنه فشل فى السيطرة على ثغر بلنسية ومد حدود أرغون إلى ساحل البحر المتوسط .

بينما فى عام ١١٣٠م/٥٢٤هـ ، اتخذ المسلمون جانب الهجوم ، فقاموا بشن الغارات على أراضى أرغون ، وفى إحداها قتل اثنان من أهم الشخصيات فى مملكة أرغون ، وكان لهما الدور البارز فى عمليات حصار مدينة سرقسطة هما إستبان أسقف وشقة وجاستون دى بيارن حاكم سرقسطة ، وافتقد ألفونسو المحارب شخصين من ذوى الخبرة فى مجال حروب الاسترداد.

وخلال عامى ١١٣٠ و١١٣١م اتجهت سياسة ألفونسو المحارب إلى فرنسا ، وانصرف جينا عن سياسة الاسترداد ، وامتد نشاطه من جسقونية إلى تولوز ووادى آران ، ثم حصار مدينة بيونة فى اكتوبر ١١٣٠م ، بهدف حماية الإقطاعات الفرنسية المجاورة لنبرة وأرغون من تهديد جيلرمو دوق اكيتانيا وبواتييه . وبعد حصار طويل ، وقعت خلاله بعض الاشتباكات ، نجح ألفونسو المحارب فى الاستيلاء على مدينة بيونة فى أكتوبر ١١٣١م ، وامتدت سيادته إلى الجنوب الغربى من فرنسا . ويرجع نجاح ألفونسو فى سياسته فى فرنسا إلى الروابط الوثيقة بينه وبين الشخصيات الفرنجية الذين اشتركوا معه وسهلوا الامتداد الأرغونى إلى وسط فرنسا.

وفى الوقت نفسه فقد ألفونسو المحارب حمايته على حصن روطه ، الذى تنازل عنه سيف الدولة للملك ألفونسو السابع فى مقابل حصوله على بعض المدن والحصون القشتالية . كما فقد ألفونسو المحارب القلاع القشتالية التى كانت تحت سيادته .

ونرى أن الروح الحربية الدينية قد سيطرت على فكر وسياسة ألفونسو المحارب فقد حرر وصيته فى أكتوبر عام ١١٣١م ، ثم أكدها بعد ثلاثة سنوات ، وأوصى فيها بتسليم مملكته إلى المنظمات الدينية العسكرية الثلاثة فى بيت المقدس بهدف استكمال مشروعاته الصليبية وتوجيه الحرب ضد المسلمين فى أسبانيا .

وحاول ألفونسو المحارب أن يؤمن فتوحاته إلى أقصى شرق وجنوب سرقسطة ، فنقل جهوده الحربية إلى شرق مملكته بهدف إخضاع الإبره حتى مصبه ، وقاد حملة ضد منطقة لاردة

وإفراغة، ونجح فى الاستيلاء على قلعة مكناسة عام ١١٣٣م ، ثم قام بحصار مدينة إفراغة ، وواجه مقاومة عنيفة من حامية المدينة . واستعد المرابطون لمواجهة ألفونسو المحارب ، فقاموا بمهادنة حاكم برشلونة لتأمين الحدود المجاورة له ، وتقدم المرابطون بقيادة ابن غانية لإنقاذ إفراغة ، وقاموا بتطويق ومهاجمة القوات الأرغونية - الفرنجية بغتة ، ونجح المرابطون فى إلحاق الهزيمة الفادحة بها تحت أسوار إفراغة فى يوليو عام ١١٣٤م/٥٢٨هـ ، واضطر ألفونسو إلى الفرار من ساحة المعركة ، ثم ما لبث الملك أن مات بعد قليل . وكان أهم ما ترتب على هذه المرحلة هو استقلال مملكة نبرة عن أرغون ، وتحولت مملكة أرغون إلى مملكة صغيرة محدودة بعد أن كانت مملكة واسعة مترامية الأطراف فى عهد ألفونسو المحارب .

وبعد هذا العرض والتحليل الختامى لموضوع البحث يمكن القول بأن ألفونسو المحارب تأثر بالروح الحربية الصليبية التى ظهرت بوضوح فى سياسته مع المسلمين ، ولعل ذلك يرجع إلى نشأته الأولى وتربيته فى أديرة البرنيه ، فى وقت قيام البابا أوربان الثانى بالتبشير بالحملة الصليبية الأولى ، والواقع أننا لانستطيع أن ننكر شجاعة الملك ألفونسو وصفاته الحربية ، وكان لهذا أثره فى نجاح سياته تجاه المسلمين ، ونجاحه فى تحقيق سياسة الاسترداد ، وتوسيع رقعة مملكة أرغون بما ضمه إليها من سرقسطة والمدن الواقعة على نهر إبره وجنوبه ونهر شلون وشلوقة ، حتى اقترن اسمه بفتح سرقسطة وبحملته الشهيرة على شرق وجنوب الأندلس ووصوله حتى ساحل البحر المتوسط جنوبا ولأنه كرس معظم جهوده الحربية فى محاربة المسلمين، وأبلى فى ذلك بلاء حسنا ، فقد أطلق عليه لقب "المحارب" .

ويمكن تقسيم سياسة ألفونسو المحارب تجاه المسلمين إلى مرحلتين ، المرحلة الأولى فى الفترة الممتدة من عام ١١١٨-١١٢٩م/٥١٢-٥٢٣هـ ، وفيها كانت سياسة المسلمين فى الأندلس سياسة الدفاع عن أنفسهم ، بينما اتخذ ألفونسو المحارب سياسة الهجوم ، وكانت كفة الميزان فى صالح الأرغونيين ، وفى غير صالح المسلمين ، ويرجع ذلك إلى عدة عوامل ، أولا ، عدم وجود مشاكل داخلية فى مملكة أرغون ، نتيجة خبرة وشجاعة ألفونسو المحارب فى إدارة شئون مملكته[1] . ثانيا ، تعاون الأمراء الفرنسيين مع ألفونسو المحارب فى كثير من المعارك . ثالثا ، الضعف الداخلى للولايات الإسلامية فى وادى إبره . رابعا ، انشغال

---

(١) Annales Compostel. en (Esp.Sag.) t. XXIII. p. 321 .

المرابطين بمحاولة الموحدين القائمين عليهم بجبل درن فى المغرب ، وعجز المرابطين عن نصرة الأندلس ، فقد وجهوا الكثير من حماة الأندلس إلى المغرب ، ونقلوا إليها الكثير من أسلحتها وعددها ، فضعفت أحوالهم[١] ، نتيجة الحروب الكثيرة التى خاضوها فى المغرب والأندلس ، الأمر الذى ترتب عليه نتائج سيئة على النفوذ المرابطى فى الأندلس ، وفى الوقت نفسه ساعد على تسهيل مهمة ألفونسو المحارب فى تنفيذ سياسته ضد المسلمين ، ولجاحه فى تحقيق انتصاراته على المسلمين ، وتأمين حدوده .

أما المرحلة الثانية وتمتد فى الفترة من ١١٣٠-١١٣٤م/٥٢٤-٥٢٨هـ ، وفيها كانت سياسة المسلمين تتأرجح بين الهجوم والدفاع ، بينما تحولت سياسة ألفونسو المحارب من سياسة الهجوم إلى سياسة الدفاع ، وكانت كفة الميزان فى صالح المسلمين ، وفى غير صالح الأرغونيين . ويرجع ذلك إلى الغرور الذى سيطر على ألفونسو المحارب ، واستهانته بقوة المرابطين ، نتيجة انتصاراته وفتوحاته التى حققها فى المرحلة السابقة ، بالإضافة إلى اعتقاده بأن المسلمين لا يشكلون تهديدا خطيرا له ، لانشغالهم بمحاربة الموحدين فى المغرب . الأمر الذى ترتب عليه نتائج سيئة على ألفونسو المحارب ، بسبب قلة حذره ، مما أدى إلى هزيمته هزيمة ساحقة فى معركة إفراغة .

أما فيما يتعلق بسياسة ألفونسو المحارب مع الممالك النصرانية فهى سياسة نسبية ، فسياسته مع مملكة قشتالة قد فشلت تماما فى الحفاظ على الوحدة بين قشتالة وأرغون . أما سياسته مع مملكة برشلونة فقد تعارضت المصالح بين أرغون وبرشلونة . وفيما يتعلق بسياسته فى جنوب فرنسا فقد نجح فى فرض سيادته على وادى آران ومدينة بيونة .

وينفرد الملك ألفونسو المحارب بأنه استطاع أن يخترق شبه الجزيرة الأيبرية من شمالها إلى جنوبها حتى ساحل البحر المتوسط وبالعكس واجتياز جبال البرنيه إلى جنوب ووسط فرنسا .

ومما لا شك فيه أن ألفونسو المحارب جعل من أرغون مملكة لها كيان أصيل لايقل عن كيان ممالك قشتالة وليون ونبرة وقطلونية ، بل أن الحروب التى خاضها ضد خصومه المسيحيين فى أسبانيا ، وضد أعدائه المرابطين رفعه إلى مصاف ملوك أسبانيا العظام ، وفارسا متدينا قديرا لايقل شهرة عن أعظم فرسان الحركة الصليبية فى الشرق والغرب على السواء .

---

(١) ابن سماك العاملى ، الحلل الموشية ، ص٨٩ ، ابن أبى زرع ، روض القرطاس ، ص ١٠٠ .

الملاحـق

ملحق رقم (١)

معاهدة الوحدة بين ألفونسو المحارب والملكة أوراكا

فى شهر ديسمبر عام ١١٠٩م

ترجع أهمية هذه المعاهدة إلى أنها تؤكد أن زواج الفونسـو المحارب من الملكة أوراكا كان زواجا سياسيا ، يهدف إلى اتحاد مملكتى أرغون وقشتالة . وتوضح المعاهدة الصداق المتفق عليه فى حياة الملك ألفونسو السادس ، وحقوق كل من الزوجين فى ممالك الآخر ، كما حددت قواعد الميراث . وقد سجلت المعاهدة فى وثيقتين : الأولى ، حدد فيها الصداق الذى منحه ألفونسو المحارب لزوجته أوراكا ؛ والثانية حددت فيها المنحة التى قدمتها أوراكا إلى زوجها ألفونسو المحارب . ويلاحظ فى هذه المعاهدة أنه ورد اسم مدينة إخيا كإحدى المدن التى منحها ألفونسو المحارب لزوجته ، مما يؤكد أنه استولى عليها قبل عام ١١٠٩م/٥٠٣هـ ، كما توضح المعاهدة أن ألفونسو المحارب أخذ لقب الإمبراطور ابتداء من ديسمبر عام ١١٠٩م .

وقد قام المؤرخ أنطونيو أوبيتو أرتيتا بنشر هذه المعاهدة فى مدونات مجهول ساهاجون[1]. وهى مسجلة باللاتينية .

الترجمـة

باسم المسيح والثالوث المقدس الآب والابن والروح القدس . هذه وثيقة بالمهر أو المنحة التى أقدمها أنا ألفونسو ملك وإمبراطور أسبانيا بفضل الله ، أقدمها إلى المملكة أوراكا زوجتى بحريتى وإرادتى ، يسعدنى أن أقدم لك مهراً أو صداقاً كل ما أملك فى قلعة ستيا Stella وكل ما فيها من ضياع ماعدا ما وهبته من قبل للنبيل لوب جارسيز Lope Garcez ، ويقع تحت إدارته .

كما أهب لك أن تختارى بين ملكية مدينة سوس Sos ، وأونكاستيو Unocastello أيهما تفضلين أن يؤول إليك ، وكذلك أقدم لك ملكية مدينة إخيا Exeia بكل حدودها وضواحيها . كما أهب لك أيضا مدينة وشقة Osca ، ومدينة جبل أرغون Monte Aragon مع كل ضياعى التى تمتد بين هاتين المدينتين ، وكذلك قلعة بسبين Bespen وكل ضياعى هناك ، وقلعة نبال Napale وكل ضياعى التابعة لها .

---

(١) C. A. S., not. I. pp. 28 - 29 .

بالإضافة إلى ذلك أهب لك مدينة جاقة Iacca بكل ضياعيها التى تمتد عبر كل أنحاء جاقة . كما أضيف إلى ذلك أن لك الحق فى ملكية أى من ممتلكاتى التى تقع فى مواقع أخرى وأماكن أخرى على امتداد ما يقع فى حدود ملكى . وكل من بدينون بالولاء لى والتبعية لى ويقدمون لى فروض الاحترام والطاعة عليهم أن يدينوا أيضا لك بذلك .

لقد قدمت لك كل هذا عسى أن يمنحنى الله القادر على كل شئ ولدا منك فلك ولابنك كل ما أملكه من ممتلكات الآن وماسيؤول إلى أو أستطيع الحصول عليه فيما بعد بمعونة الله سواء بطريق الإرث أو حصلت عليه بنفسى (أو بالفتوحات) .

لكن إذا لم يهبنى الله منك الولد ، واستمرت الرابطة بيننا فسوف يبقى لك كل مامنحتك إياه من ممتلكات ويكون لك حرية التصرف فيها باعتبارها إرثا خالصا لك بعد موتى .

وقد منحتك كل ماتم ذكره فى هذه الوثيقة طالما أنك تقدمين لى مظاهر الاحترام والطاعة الواجبة على الزوجة لزوجها .

لكل إذا ما طلبت الانفصال عنى دون رغبتى ورغبت فى مفارقة هؤلاء الناس وذلك الوطن، ورغبت أن تنفصل أرضك عن أرضى ، لك هذا ، وبذلك يظل أهل بلادى يدينون لى بالولاء ويعملون فى خدمتى وتحت طاعتى .

وثيقة منحة أوراكا إلى زوجها ألفونسو المحارب

الترجمة

وها أنا ذا الملكة أوراكا أقدم هذا التعهد إليك أيها الملك ألفونسو سيدى وزوجى ، أتعهد لك أن أجعل كل هؤلاء الناس الذين يدينون بالولاء لى يحتفظون بالولاء والاحترام لك ويقدمون لك ماتطلبه منهم مستمرين على الولاء لك من الآن فصاعدا . ويسارعون إلى تقديم ماتطلبه منهم أو من أى منهم فى الحال دون مناقشة الأمر مهما كان ، وسوف أساعدك فى ذلك بكل ما أملك من قوة وبكل الولاء وأن أنفذ كل ماترغب فى تنفيذه .

باسم الله وبفضله . هذه هى وثيقة بالمنحة التى أقدمها أنا أوراكا الملكة إبنة الإمبراطور ألفونسو السادس ملك قشتالة ، إلى مليكى سيدى وزوجى ألفونسو الأول ملك أرغون ، يسعدنى بحريتى ورغبتى وكامل إرادتى أن أهب لك كل ما أملك من أرض سواء ما أملكه بطريق الإرث عن والدى الملك ألفونسو السادس وسواء ماهو فى حوزتى الآن أو سيؤول إلى بإذن الله .

وإذا ما منحنى الله منك الولد واستمرت العلاقة بيننا فسيبقى لك كل تلك الأرض التى منحتك إياها ولابنى منك .

ولكن إذا لم يكن لنا ولد فلتبق لك كل تلك الأراضى بوصفها إرثا خالصا ولك فيها حرية التصرف فى حياتك وبعد موتك تؤول لابنى[1] .

وكذلك أهب لك كل ما أملك من ضياع سواء تلك التى منحها لى أبى وأيضا ما استطعت امتلاكه بعد ذلك . وكذلك أتعهد بأن يحتفظ لك أهلها بالولاء والاحترام كما يحتفظون به لى وكلها ملكا لك تتصرف فيها كما تشاء .

وهذا الذى منحتك إياه وسجلته فى هذه الوثيقة يكون لك طالما أن تحفظ لى الاحترام الذى يجب على الرجل الفاضل أن يحفظه لزوجته على ألا تنفصل عنى بسبب عدم الإنجاب أو عدم التفاهم أو أى سبب آخر .

ولكن إذا لم تحفظ لى الاحترام اللائق من زوج فاضل لزوجته الفاضلة لن أصبح عونا لك ، ولن يقدم لك التابعون لى أية معونة أو خدمة مما يؤدونها لى .

وإذا ما افترقنا سيظل رجالك التابعون لك والتابعون لى يحفظون لى فروض الولاء والطاعة .

(وأنى أتعهد بتنفيذ هذا الاتفاق المدون عاليه والسلام)[2] .

وإذا انفصلت أنا الملكة أوراكا عنك دون كامل رغبتك بالطلاق فسيعود اليك كل التابعين لى سواء من أرضى أو من أرضك وسيكون كل ولائهم لك ، وسيعفون من كل التزامات عليهم نحوى وسيكونون فى خدمتك وولاؤهم لك دون مناقشة .

كتبت هذه الوثيقة الخاصة بهذا الاتفاق فى ديسمبر عام . M. C. XL. VII (١١٠٩م) .

---

(١) كان لأوراكا من زوجها الأول القسط رامون البرجونى إبنا وهو ألفونسو ريموندس الذى يخلفها فى الحكم باسم ألفونسو السابع .

(٢) يخال للباحث أن الوثيقة قد انتهت عند كلمة والسلام . ثم أضيفت الفقرة الأخيرة بعد الانتهاء من الوثيقة ، ويلاحظ أنه ليس فى هذه الفقرة جديد ، وانما هو تأكيد لما سبق .

ملحق رقم (٢)
القانون الذى أصدره ألفونسو المحارب
بمنح امتيازات الى مستعربى غرناطة يونيه ١١٢٦م

أصدر ألفونسو المحارب هذا القانون من مدينة الفارو فى يونية عام ١١٢٦م ، بعد عودته مباشرة من الحملة التى قام بها على شرق وجنوب الأندلس . فقد صحبه عدة آلاف من المستعربين الذين فروا من مدينة غرناطة وغيرها ، والتحقوا بجيشه ، ويؤكد هذا القانون أن حملته هذه استغرقت ثمانية شهور ، وأنه عاد إلى بلاده فى شهر يونيه ١١٢٦م ، كما يبرز اهتمام ألفونسو المحارب بتعويض المستعربين عما فقدوه فى أراضيهم ، ومنحهم إعفاءات وامتيازات كثيرة تسمح لهم بالحياة الكريمة فى موطنهم الجديد ، كما يوضح أيضا حرص ألفونسو على تشجيع التجارة .

وقد نشر المؤرخ لاكارا هذا القانون فى مجموعة وثائق استرداد وتعمير وادى إبره فى السلسلة الأولى من دراسات العصور الوسطى لمملكة أرغون[١] . كما نشره أيضا المؤرخ سيمونيت فى مؤلفه عن تاريخ مستعربى أسبانيا ، وهذا القانون مسجل باللاتينية .

الترجمة

باسم الرب وبحمده

أعلن أنا ألفونسو الإمبراطور فى هذه الوثيقة عن منحة لكل المسيحيين المستعربين الذين حررتهم بمعونة الرب من سلطة المسلمين وأحضرتهم إلى أرض المسيحيين . يسعدنى وبرغبتى وإرادتى وحبا فى الرب والمسيحية المقدسة ، ولأنكم إخلاصا لاسم الرب وحبا لى تركتم أرضكم وميراثكم وحضرتم معى إلى أرضى . فإنى أهب لكم خيرات أرضى التى تقيمون فيها أنتم وأبناؤكم . لكم ولأبنائكم وللجيل التالى منكم حتى تعلموا فيها بكل قوتكم وتستقدموا إليها من ترغبون للعمل معكم فى إطار تلك المساكن والحدود التى أحددها لكم .

كما أعطيكم حق الاشتغال بالتجارة عبر هذه الأراضى على ألا تجلبوا لى مشاكل أو عداءات مع مسيحيين منا ، كما لكم الحق فى إحضار ما تريدون من بضائع من بلاد أخرى إلى أرضكم . وإذا لم تعجبكم فسأحملها أنا إلى أماكنها . كما أضمن لكم حق البيع والشراء

---

(١) Lacarra. D. E. R. R. V. E.. Doc. num. 51. pp. 513 - 514 .

فى جميع أنحاء أرضى وأضمن لكم السلامة أنتم وما تحملون وألا يصيبكم أى فرد بأذى . وإذا لم يعجبه أى فرد منكم هذا الأمر فأنا بدورى سأحضر إلى هذه الأماكن وأسمع له بالمثول أمامى وإذا لم أحضر بنفسى فعليه أن يحضر إلى ، لمناقشة هذا الأمر ، وإذا رأى أى فرد منكم تغيير أو بيع ماخصص له فى نطاق ما منح له من أراضى فيكون له الحق فى ذلك ، وهو حر وآمن فى تصرفه على ألا يكون ذلك البيع لأى من أعدائى أو ورثتهم ومنهم المرابطون . وإنى أؤكد لكم وأوثق هذه المنحة المكتوبة عاليه . كما أضمن لكم ماحصلتم عليه لكم ولأبنائكم طيلة حياتكم وللأجيال القادمة من بعدكم دائما وإلى الأبد .

وقد دونت هذه الوثيقة فى شهر يونيه عام M. C. L. X IIII (بالتقويم اللاتينى ويقابله عام ١١٢٦م) فى ضاحية الفارو Alfaro بوصفى حاكما بفضل الرب على قشتالة Castella وبنبلونة Pampilona ، وأرغون Aragon ، وشبررب Superarui ، وريبا جورثا Ripa Curcia وسرقسطة Zaragoza .

وشهود هذه الوثيقة هم إستبان Stephanus أسقف وشقة ، وبطره Petrus أسقف سرقسطة[1] ، وريموند Raimundus أسقف روطة ، وسانشو Sancius أسقف بنبلونة ، وأليوس سانشو Alius Sancius أسقف قلهرة ، وبرتيكو Pertico قمط تطيلة ، ودون جاستون Don Gaston حاكم أونكاسيتو Uno Castello .

وقام بكتابة هذه الوثيقة :

سانشو بأمر من سيدى الملك وخاتمتها بيدى .

---

(١) فى الوثيقة نفسها التى نشرها سمونيت سجل فيها أن أسقف سرقسطة كان استبان

Simonet. Hist. de los Mozarabes. pp. 824 - 825 .

ملحق رقم (٣)
وصية الملك ألفونسو الأول "المحارب"
الصادرة فى أكتوبر ١١٣١م

بعد طلاق ألفونسو المحارب زوجته أوراكا عام ١١١٤م انفصلت مملكة أرغون عن مملكة قشتالة ، كما ألغيت معاهدة الوحدة المسجلة فى ديسمبر عام ١١٠٩م بين ألفونسو المحارب وأوراكا ، والواردة فى الملحق رقم (١) .

قام ألفونسو المحارب بتسجيل وصيته هذه فى أكتوبر عام ١١٣١م ، أثناء حصاره لمدينة بيونة ، ثم أكدها بعد ثلاث سنوات ، وقبل وفاته بثلاثة أيام فى الرابع من سبتمبر عام ١١٣٤ فى مدينة سارنينا ، وفيها أوصى الملك الأرغونى بتسليم مملكته بعد وفاته إلى المنظمات الدينية العسكرية فى بيت المقدس ، لتحقيق أهدافه الصليبية وتوضع هذه الوصية الروح الصليبية لألفونسو المحارب ، وثقته فى المنظمات العسكرية الدينية فى بيت المقدس .

وقد ذكر ألفونسو المحارب فى هذه الوصية أنه قام بكل هذا من أجل والده ووالدته ، ومن أجل غفران ذنوبه ، وختمها بالدعاء آمين .

وقد نشر المؤرخ مورت هذه الوصية فى حوليات مملكة نبرة[١] ، نقلا من أرشيف كنيسة القديسة مريم بمدينة بنبلونة . وهى مسجلة بالأسبانية القديمة .

الترجمة

باسم الرب العظيم ، أنا دون ألفونسو ملك أرغون وبنبلونة وريبا جورثا ، أقدم بنفسى المملكة التى منحها لى الله ، وكذلك أملاكى ، وإيراداتى ، التى أملكها وتكون ملكا لمن بعدى . وكذلك أننى أخشى المحاكمة الإلهية ، ولأجل أبى وأمى ، وكل أسلافى ، أقدم وصيتى هذه إلى الله سيدنا يسوع ، وإلى كل القديسين . وبنفس طيبة ، وبإرادتى أقدم للرب، وإلى كنيسة القديسة مريم ببنبلونة ، وكنيسة القديس سلفادور بمدينة لير حصن ومدينة استيا Eftella ، بكل مايتبعها ، وما يخص الحق الملكى : على أن يكون النصف لكنيسة القديسة مريم ، والنصف لكنيسة القديس سلفادور دى لير . كما أهب لكنيسة القديسة مريم بمدينة ناجـــرة Naxera وإلى كنيسة القديس ميلان ، حصن ناجرة بكل إيراداته ، وما يتبعه ،

---

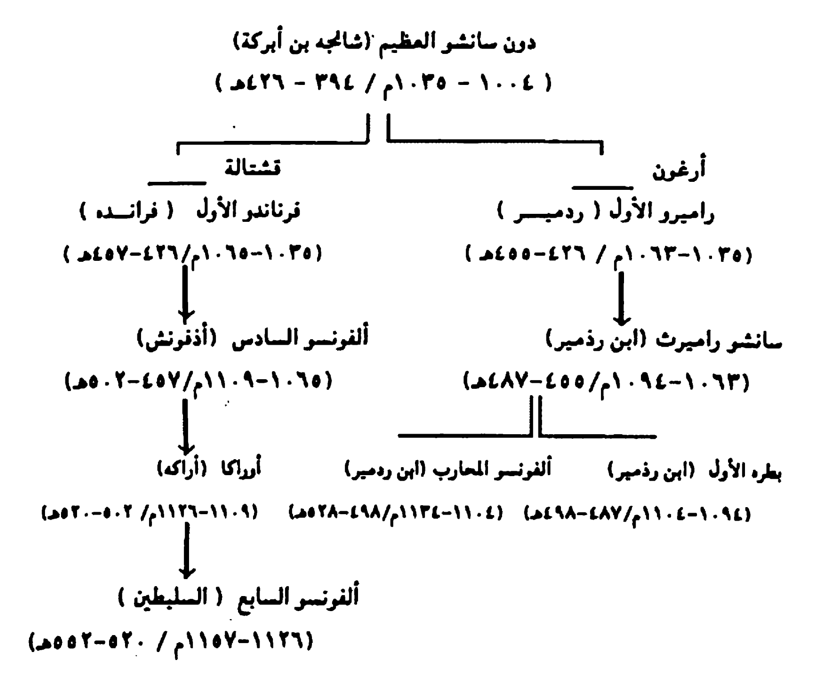
(١) Moret, A. R. N., II, Libro XVII, Cap. IX, pp. 333 - 334 .

وبلدة توبيا Tobia بكل ما يخصها : على أن يكون النصف لكنيسة القديسة مريم ، والنصف لكنيسة القديس ميلان . كما أقدم إلى كنيسة القديس سلفادور بمدينة أونيا Ona ، حصن بلورادو Belorado وما يتبعه . وأهب أيضا إلى كنيسة القديس سلفادور بمدينة أوبيدو Oviedo مدن القديس إستبان دي جورمث ، ومدينة الماثان Almazan ، بكل مايتبعها . كما أهب أيضا إلى كنيسة شنت ياقب بجليقية مدن قلهرة Calahorra ، وسرفيرا Cervera ، وتودخن Tudején بأملاكها . مثلما أهب إلى كنيسة القديس دومينجو دي سيلوس ، مدينة شفونشه (سانجويسا) Sanguefa القديمة والجديدة ، وسوقها . واهب أيضا دير القديس خوان دي لابينيا ، ودير القديس بطره بمدينة سيرسا Sirefa كل الممتلكات الموهوبة لي من والدتي ، وهي مدن بيل Biel ، وبايلو Baylo وأستوريتو Afturito ، وأردنس Ardenes ، وسيروس Sieros وكل هذه المدن كانت مهر والدتي . على أن يكون النصف لكنيسة القديس خوان دي لابينيا ، والنصف الآخر لكنيسة القديس بطره دي سيرسا ، وما يتبعها .

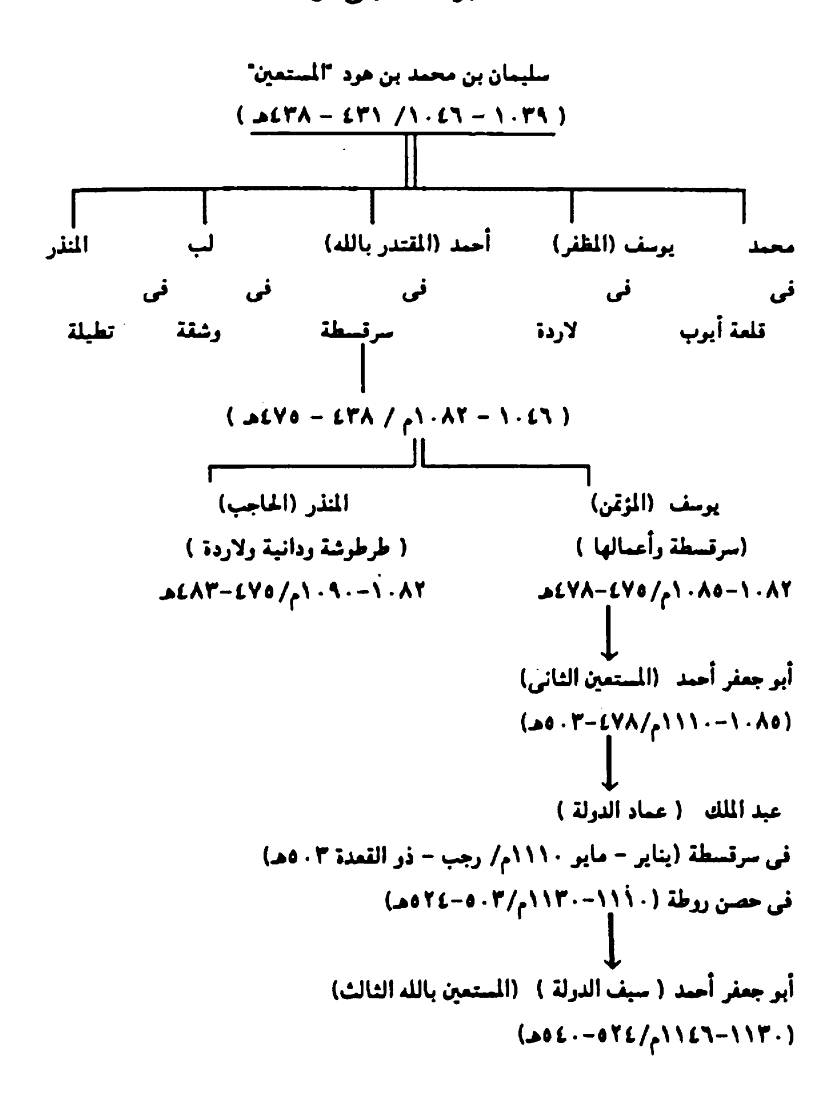
كما أوصى أيضا بأن يرثني ويخلفني بعد وفاتي سدنة القبر القدس el Sepulchro del Senor، في بيت المقدس Jerufalen ، إلى هؤلاء الذين سهروا لحمايته ، ويخدمون هناك للرب . والإسبتارية Hofpital الفقراء في بيت المقدس . وداوية معبد سليمان Templo de Salomon وهم الفرسان الذين سهروا هناك من أجل الدفاع عن المسيحية . إلى الهيئات الثلاثة أترك مملكتي ، وما أملكه على هذه الأرض ، ومايستجد من ممتلكات ، والحقوق التي تخصني على كل رجال أرضي من القساوسة . والعلمانيين ، والأساقفة ورؤساء الأديرة ، والكهنة ، والرهبان والأشراف والفرسان . والمزارعين ، والتجار ، والرجال ، والنساء ، والصغار والكبار ، والأغنياء ، والفقراء ، واليهود ، والمسلمين بنفس القوانين والعرف الذي عرفته أنا ووالدي وأخي حتى الآن .

وأترك أيضا إلى فرسان الداوية فرسي شخصيا وكل أسلحتي . وإذا منحني الرب مدينة طرطوشة Tortofa ، تكون جميعها بالكامل لإسبتارية بيت المقدس . صدرت هذه الوثيقة في شهر أكتوبر عام ١١٦٩ (بالتقويم اللاتيني ويقابله عام ١١٣١م) أثناء حصار مدينة بيونة Bayona .

جدول رقم (١)
شجرة نسب الملك ألفونسو الأول "المحارب" والملكة أوراكا



جدول رقم (٢)
شجرة عائلة بنى هود



جدول رقم (٣)

أمراء المرابطين :

١- يوسف بن تاشفين ١٠٦١ - ١١٠٦م/٤٥٣ - ٥٠٠هـ

٢- على بن يوسف بن تاشفين ١١٠٦ - ١١٤٣م/٥٠٠ - ٥٣٧هـ

حكام سرقسطة من المرابطين :

أبو عبد الله محمد بن الحاج ١١١٠ - ١١١٤م / ٥٠٣ - ٥٠٨هـ

أبو بكر بن ابراهيم بن تافلويت ١١١٤ - ١١١٧م / ٥٠٨ - ٥١٠هـ

محمد بن عبد الله بن مزدلى ١١١٧ - ١١١٨ / ٥١١ - ٥١٢هـ

جدول رقم (٤)

باباوات روما

اسكندر الثانى	١٠٦١ - ١٠٧٣م / ٤٥٣ - ٤٦٥هـ
جريجورى السابع	١٠٧٣ - ١٠٨٥م / ٤٦٦ - ٤٧٨هـ
كلمنت الثالث	١٠٨٠ - ١١٠٠م / ٤٧٣ - ٤٩٣هـ
فيكتور الثالث	١٠٨٦ - ١٠٨٧ / ٤٧٩ - ٤٨٠هـ
أوربان الثانى	١٠٨٨ - ١٠٩٩م / ٤٨١ - ٤٩٢هـ
باسكال الثانى	١٠٩٩ - ١١١٨م / ٤٩٢ - ٥١٢هـ
جلاسيوس الثانى	١١١٨ - ١١١٩م / ٥١٢ - ٥١٣هـ
كالكستس الثانى	١١١٩ - ١١٢٤م / ٥١٣ - ٥١٨هـ

حكام أورقلة

أرمينجول الثالث	١٠٤٠ - ١٠٦٥م / ٤٣٢ - ٤٥٧هـ
أرمينجول الرابع	١٠٦٥ - ١٠٩٢م / ٤٥٧ - ٤٨٥هـ
أرمينجول الخامس	١٠٩٢ - ١١٠٢م / ٤٨٥ - ٤٩٥هـ

حكام برشلونة

رامون برلجير الأول	١٠٣٥ - ١٠٧٦م / ٤٢٦ - ٤٦٨هـ
رامون برلجير الثانى	١٠٧٦ - ١٠٨٢م / ٤٦٨ - ٤٧٤هـ
برلجير رامون الثانى	١٠٨٢ - ١٠٩٧م / ٤٧٤ - ٤٩٠هـ
رامون برلجير الثالث	١٠٩٧ - ١١٣١م / ٤٩٠ - ٥٢٥هـ
رامون برلجير الرابع	١١٣١ - ١١٦٢م / ٥٢٥ - ٥٥٧هـ

جدول رقم (٥)

جدول تاريخى بأهم المدن والقلاع الإسلامية التى استولى عليها ملوك أرغون

فى عهد الملك رامبرو	
بنابار	١٠٦٢م / ٤٥٤هـ
فى عهد الملك سانشو راميرث	
ماركيو	١٠٦٧م / ٤٥٩هـ
لور	١٠٦٧م / ٤٥٩هـ
القصر	١٠٦٧م / ٤٥٩هـ
كوبن	١٠٨٠م / ٤٧٣هـ
مونيونس	١٠٨١م / ٤٧٣هـ
أجيره	١٠٨٣م / ٤٧٥هـ
إيرب	١٠٨٣م / ٤٧٥هـ
جرادوس	١٠٨٣م / ٤٧٥هـ
ارجيداس	١٠٨٤م / ٤٧٦هـ
سكاستيا	١٠٨٤م/ ٤٧٧هـ
أنيس	١٠٨٤م / ٤٧٧هـ
إستادا	١٠٨٧م / ٤٨٠هـ
جبل أرغون	١٠٨٧م / ٤٨٠هـ
أريسترلان	١٠٨٩م / ٤٨٢هـ
منتشون	١٠٨٩م / ٤٨٢هـ
إستاديا	١٠٩١م / ٤٨٤هـ
زيدن	١٠٩٢م / ٤٨٤هـ
لونا	١٠٩٢م / ٤٨٥هـ
لباتا	١٠٩٢م / ٤٨٥هـ
المنار	١٠٩٣م / ٤٨٦هـ

في عهد الملك بطره الأول

نبال	١٠٩٥م / ٤٨٨هـ
ساليناس	١٠٩٥م / ٤٨٨هـ
سدايا	١٠٩٦م / ٤٨٩هـ
وشقة	١٠٩٦م / ٤٨٩هـ
قلزنج	١٠٩٩م / ٤٩٢هـ
بريشتر	١١٠٠م / ٤٩٣هـ
بليلة دي سينكا	١١٠٠م / ٤٩٣هـ
بلويه	١١٠١م / ٤٩٤هـ
المونينت	١١٠٢م / ٤٩٥هـ
سانتاكارا	١١٠٢م / ٤٩٥هـ
بيراسز	١١٠٣م / ٤٩٦هـ

في عهد الملك ألفونسو الأول "المحارب"

إخيا	١١٠٦م / ٤٩٩هـ
توست	١١٠٦م / ٤٩٩هـ
تاماريت	١١٠٧م / ٥٠٠هـ
مورلة	١١١٧م / ٥١١هـ
مرتفع الياجا الجبلي (مدن بيتاركي - خاركي - جالب - قلعة سلفا)	١١١٧م / ٥١١هـ
بلشر (بلتشت)	١١١٧م / ٥١١هـ
سرقسطة	١١١٨م / ٥١٢هـ
تطيلة	١١١٩م / ٥١٢هـ
طرسونة	١١١٩م / ٥١٢هـ
طركونة	١١٢٠م /٥١٣هـ

آلاجون ١١٢٠م / ٥١٣هـ

مالن ١١٢٠م / ٥١٣هـ

مجايون ١١٢٠م / ٥١٣هـ

كتندة ١١٢٠م / ٥١٣هـ

دروقة ١١٢٠م / ٥١٣هـ

قلعة ايوب ١١٢٠م / ٥١٣هـ

آبلة ١١٢٠م / ٥١٣هـ

ركلة ١١٢٠م / ٥١٣هـ

بوبيركا ١١٢٠م / ٥١٣هـ

الحمه ١١٢٠م /٥١٣هـ

أريشا ١١٢٠م / ٥١٣هـ

مونريال ١١٢٠م / ٥١٣هـ

الكانيس ١١٢٤م / ٥١٨هـ

برجة ١١٢٤م / ٥١٨هـ

أثيلا ١١٢٧م / ٥٢١هـ

سيلا ١١٢٧م / ٥٢١هـ

قوريا ١١٢٨م / ٥٢٢هـ

برتوسا ١١٢٨م / ٥٢٢هـ

مولينة ١١٢٨م / ٥٢٢هـ

ليريا ١١٢٩م / ٥٢٣هـ

بيلا مارشنت ١١٢٩م / ٥٢٣هـ

سلاسل جودار ١١٣٢م / ٥٢٦هـ

أورتا دى طرطوشة ١١٣٢م / ٥٢٦هـ

سارنيناً ١١٣٣م / ٥٢٧هـ

مكناسة ١١٣٣م / ٥٢٧هـ

مترائية ١١٣٣م / ٥٢٧هـ

إسكارب ١١٣٣م / ٥٢٧هـ

جدول رقم (٦)
قائمة بأسماء المدن والمواقع التى وردت فى البحث ومرادفتها باللغة الأسبانية

Adour	أدور (نهر)
Agdes	أجدس
Agreda	أجريدا
Aguero	أجيره
Aguilar	أجيلار
Ainsa	أينسا
Alagon	آلاجون
Alava	ألبة
Albaida	وادى الأبيض
Alba rracin	سهلة بنى رزين (البراسين)
Al-Bayda (Albelda)	البيضاء
Albi	ألبى
Alcala de Henares	قلعة عبد السلام
Alcala la Real	قلعة يحصب
Alcala de la Selva	قلعة سلفا
Alcaniz	الكانيس
Alcandre	الكاندر (نهر)
Alcarria	القرية
Alcazar	القصر
Alcira	جزيرة شقر
Alcolea	القلعة أو القليعة

Alcolea de Cinca	قلعة سينكا
Alcoraz	الكرازة
Alfaro	الفارو
Algares	الفارس (قلعة)
Algás	الجاس (نهر)
Alhama	الحمه
Aliaga	الياجا (مرتفع جبلى)
Alicante	لقنت
Aljaferia	الجعفرية (قصر)
Almanzora	المنصورة
Almazán	الماثان
Almenar	المنار (على حدود لاردة)
Almenara	المنارة (فى سرقسطة)
Almenar de Soria	المنار دى صوريا
Almeria	المرية
Almotaxon (Almudébar)	المدور
Almuniente	المونينت
Alperche	البرتش
Alpuente	البونت
Alpujarras	البشارات (جبل)
Alquézar	القصر
Altabás	التاباس
Amassatrigo	اما ستريجو
Ampurias	أنبوريش
Aniés	آنيس

أنسو (وادى)	Anso
آبلة	Apila
أكيتانيا	Aquitania
آرا (نهر)	Ara
أرغون	Aragon
ارجويس (وادى)	Aragues
آران (وادى)	Arán
أربا (نهر)	Arba
أردنس	Ardenes
أرجا (نهر)	Arga
أرجيداس	Arguedas
أريستولاس	Ariéstolas
أريثا	Ariza
أرجونة	Arjona
أرلس كباروسو	Arles Caparroso
أرنيط	Arnedo
أرنيسول	Arnizol
أسين	Asin
أسبى	Aspe
السكة	Assica
أسترقة	Astorga
أشتريس	Asturias
أتابوركا	Atapuerca
أتارس (وادى)	Atarés
أوتش	Auche

Aude	أود (نهر)
Ausona	أشونة
Ayera	أيبرا
Ayerbe	إيرب
Azaila	أثيلا
Badajoz	بطليوس
Badon	بادون
Baena	بيانة
Baetica	باطقة
Baeza	بياسة
Bailo	بايلو
Bairén	بيرين
Balaguer	بلغير
Banca (Basa)	بانشة (نهر)
Barbastro	بربشتر
Barbitania (Boltana)	بربطانية
Barcelona	برشلونة
Bardenas Reales	بارديناس ريالز
Barrachina	برتشينة
Barusa	باروسا
Bathea	باتيا
Bayona	بيونة
Baza	بسطة
Bearn	بيارن
Begorre	بيجورا

Belchite	بلشر (بلتشت)
Belinchon	بلنشون (حصن)
Belorado	بلورداو
Benabarre	بنابار
Benicadell	بنی کادیل (حصن)
Berlanga	برلانیه
Berlanga de Duero	برلانیه دی دویره
Besalu	بیسالو
Beses	بسز
Bespén	بسبين
Béziers	بزييه
Bolea	بلويه (حصن)
Borja	برجه
Broto	بروتو (نهر)
Brovia	بروفيا
Bubierca	بوبيركا
Buerba	بوربا
Buil	بيل (قلعة)
Bunol	بونيول
Burgos	برغش
Burqulis	برکليز (حصن)
Burriana	بريانة
Cabanas	کبانیاس
Cabanillas	کبانیلاس
Cabra	قبرة

Cadrieta	كادريتا
Caesaraugusta	سيرز أغسطس
Cahors	كورس
Calahorra	قلهرة
Calamocha	كلا موتشة
Calanda	كلندا (حصن)
Calasanz	قلزنج
Calatanazor	قلعة النسور
Calatayud	قلعة أيوب
Campos	كامبوس
Candespine (Camp de Spina)	كاند سبينا
Canfranc	كانفرانس
Cantabria	كنتبرية
Carabinas	قربين
Carcasona	قرقشونة
Caravaca	قرباقة (سهل)
Carinena	كارنينا
Carrion	كاريون (قريون)
Cáseda	كاسيدا
Caspe	كاسب (حصن)
Castellar	كاستيار (قلعة)
Castellon	قسطيلون
Castilla	قشتالة
Castilnvevo	القلعة الجديدة
Castrojeriz	كاسترو خرث

Cataluna	قطلونية
Cea	سيا (قلعة)
Cella	سيلا
Cerdana	البرطانيين (جبال) (شرطانية)
Cervera	سرفيرا
Chalamera	تشلاميرة
Champana	شمبانيا
Cinca	سينكا (نهر)
Cinco Villas	المدن الخمسة
Cintra	شنترة
Cocentaina	قسطانية (حصن)
Coimbra	قلمرية
Comminges	كومينجس
Congost del Martorrell	كونجست دى مارتوريل (مضيق)
Corbins	قوربينز
Cordoba	قرطبة
Corella	قورلة
Covin	كوبن (قلعة)
Cuart	كوارت
Cuejar Sierra	قولجر
Culla	كوله
Cullera	قليبيرة
Curb	كورب
Cutanda	كتندة
Daroca	دروقة

Darro	درو (جبل)
Denia	دانية
Diezma	دجمة
Duero	دويره (نهر)
Ebro	إبره (نهر)
Ega	إجا
Ejea	إخيا
Elvira	إلبيرة
Encisa	إنسيزة
Entrena	انترينا
Epila	إبيلة
Escarp	إسكارب
Esera	اسيرا (نهر)
Espejo	إسجة
Estada	استادا
Estadilla	استاديا
Estarrun	استارون (نهر)
Estrella	استريا
Evora	يابرة
Extremadura	استرامادورة
Fardés	فردش (وادى)
Fayos	فايوس
Flaces	فلاسز
Flumen	فلومن (نهر)
Fraga	إفراغة

Fuentes	فونتش (نهر)
Gabarret	جبرت
Galia	غالة
Galicia	جليقية
Gallan	علاّن (نهر)
Gallego	جلق (نهر)
Gallur	جلور
Galve	جالب
Gandia	غانديا
Gardeny	جاردني
Gascuna	جسقونية
Gavardan	جفاردن
Gerona	جرندة
Gistain	خبستان (وادى)
Gormez	جورمث
Graena	غريانة
Grajal	جرخال
Granada	غرناطة
Granen	جرانيين
Graus	جرادوس
Guadalajara	وادى الحجارة
Guadix	وادى آش
Guara	غواره (جبال)
Gurrea de Gallego	جوريا دى جلق
Hagon (Fraga)	آجون (قلعة)

Haro	آرو (قلعة)
Hecho	إتشو (وادى)
Henares	هنارس
Hormaza	أورماثة (نهر)
Horta de San Juan	أورتا دى سان خوان
Huerva	وربه (نهر)
Huesca	وشقه
Huete	وبذه
Ibiza	يابسة (جزيرة)
Isábena	اسابينا (نهر)
Ialas Baleares	جزر البليار
Isar	ايسار
Jaca	جاقة
Jalón	شلون (نهر)
Jaraco	شارقة (نهر)
Jarque	خاركى
Jativa	شاطبة
Jean	جيان
Jiloca	شلوقة (نهر)
Juslibol	خوسليبول
Labata	لباته (حصن)
Labourd	لابورد
Languedoc	لانجدوك
Lara	لارا
Lascuarre	لسكوار

Leire	لير
León	ليون
Lerida	لاردة
Lescar	ليسكار
Liria	ليريا
Lisboa	أشبونة
Litera	ليترا
Lizana	ليثانا
Loarre	لور (قلعة)
Lode	لود (قلعة)
Logrono	لوجرونيو
Lucena	اللسانة
Luesia	لويزيا
Lugo	لك
Luna	لونا
Luque	لك
Madrid	مدريد (مجريط)
Magán	ماجان
Magallón	مجالون
Maluenda	ملونده
Mallén	مالن
Mallorca	ميورقة (جزيرة)
Manresa	منرسه
Maracena	مرسانة
La Marca Superior	الثغر الأعلى

Marcuello	ماركيو
Marsan	مارسان
Matarrana	مترانية (نهر)
Medinaceli	مدينة سالم
Men	مان (حصن)
Mequinenza	مكناسة
Milagro	ميلا جرو
Mino	مينيو (قلعة)
Miramont	ميرامونت
Molina	مولينة
Mollerusa	موليروسا
Mondúber	منديرِ (جبل)
Monreal	مونريال
Montanana	مونت يانه (حصن)
Montearagón	جبل أرغون
Montenegro	الجبل الأسود
Monterroso	مونتروسو
Montesant	منتيشة
Montornés	مطرنيش
Monzón	منتشون
Morella	مورلة
Morlaas	مورلاس
Moron	مورور
Motril	متريبل (وادى)
Muela del Ebro	مواله (قرية)

Muno	مونيو (قلعة)
Munones	مونيونس
Murcia	مرسية
Murillo de Gallego	موريو دى جلق
Murviedro	مربيطر
Nájera	ناجرة
Narbona	أربونة
Naval	نبال
Navarra	نبرة
Noguera Ribagorza	نقيرة ريبا جورثا (نهر)
Nonaspe	نوناسب
Normandia	نور مانديا
Oca	أوقه (جبال)
Ocana	أوكانيا
Olocau	العقاب (حصن)
Ontinena	أونتنينا
Oporto	بورتو
Oreja	أرهينة (حصن)
Orensa	أورنسا
Orihuela	أوريولة
Oropesa	أوربسا
Orosa	وارسا (حصن)
Osma	أكشمة (أوسمة)
Oviedo	أوبيدو
Palencia	بالنسيا

Pallars	بلیارش
Pamplona	بنبلونة
Pancorvo	بانكورب (قلعة)
Parameras de Molina	براميرس دی مولينة
Pascua	بسكرا
Pedro	بطره (حصن)
Pedroelg	بیطره شلج (حصن)
Pedrola	بيطره
Peginas	بيجناس
Pena Cadiella (Benicadell)	مرتفع كاديلا (قلعة)
Pena de San Salvador	مرتفع سان سلفادور (قلعة)
Penafiel	بنيافيل
Penalen	بنيالين
Peralta	برالتا
perche	برتش
Pertusa	برتوسا
Piedra (Bitra)	بيطره (نهر)
Piedra Pisada	بيطره بيسادا
Piedro	بيطره (حصن)
Pinos - Puente	بيش
Piraces	بيراسز
Pitarque	بيتاركى
Pleitas	بلطش (نهر)
Poitiers	براتييه
Polenino	بولنينو

Poley	بلاى (أجبلار الحديثة)
Pomar de Cinca	بوماردى سينكا
Portugal	البرتغال
Pradilla	براديا
Provenza	بروفانس
Puente de Reina	جسر الملكة
Purchena	برشانة
Pyrenées	البرتات أو البرنية (جبال)
Queiles	كالش (نهر)
Ribagorza	ريباجورثا
Ribarroya	ريباوريا
Ribota	ريبوتا
Ricla	ركلة
Rioja	ريوخه
Robres	روبرس
Roda	رودا
Rodez	رودس
Roncesvalles	رونشفالة (باب الشرزى)
Rosellón	روسيلون
Roucy	روكى
Rueda (Escatron)	روطة
Sacralias (Sagrajas)	الزلاقة
Sádaba	سدابا
Sagra	سجرا
Sahagun	ساهاجون

Saint - Pons de Thomiéres	دير القديس بونز دى تومييرز
Salamanca	شلمنقة
Salcey	سالس
Saldana	سالدانيا
Salduba	سلدوبا
Salinas	ساليناس (قلعة)
Salobrena	شلوبانية (وادى)
San Christena	سان كريستينا (بوابة)
Sanguesa	شغونشه (سالجويسا)
San Millán	سان ميلان
San Salvador	كنيسة القديس سلفادور
Santacara	سانتاكارا
Santa Cruz	الصليب المقدس (قلعة)
Santarén	شنترين
Santaver	شنتبرية (شنت برية)
Santiago	شانت ياقب
Sarinena	سارنينا
Sauve-Majeur	سواب ماخوير (دير)
Secastilla	سكاستيا
Segorbe	شبرب
Segovia	شقوبية
Segre	شيقر (نهر)
Sen	التان (حصن)
Sened	السند
Sepúlveda	سبولبيدا

Sevilla	إشبيلية
Sierra de Guara	جبل غواره
Sierra de Gúdar	سلاسل جودار
Sierra Morena	جبل الشارات (سييرا مورينا)
Sierra - Nevada	جبل شلير (سييرا نيفادا)
Siguenza	شغونه
Singra	سينجرا
Sobrarboe	شبررب
Somport	سمبورت (بوابة)
Soria	سرية
Sos	سوس (قلعة)
Soule	سول (وادى)
Stella	ستيا
Sumet	سوميت (حصن)
Tafalla	تافيا
Tahuste	توست
Tajo	التاجه (نهر)
Talavera	طلبيرة
Tamar	تامار (نهر)
Támara	تامارا (وادى)
Tamarite de Litera	تاماريت دى ليترا
Tarazona	طرسونة
Tarragona	طركونة
Tena	تينا (نهر)
Termes	ترمس

Teruel	تيرول
Tijola	تاجلة (وادى)
Toledo	طليطلة
Tolosa	تولوز (طرلوشة)
Tormos	تورمس
Toro	تورو
Tortosa	طرطوشة
Traid	تريد
Trava	ترابا (قلعة)
Tudela	تطيلة
Tudmir	تدمير
Turia	طورية
Ubeda	أبدة
Ucles	أقليش
Ujue	أخوى
Uncastillo	أونكاستيو
Urgel	أورقلة
Valencia	بلنسية
Valle del Ebro	وادى ابره
Valle de Funes	وادى فونس
Valtierra	بلتيرة
Varéa	بارية
Vascones	البشكنس
Vasconia	بسكونية
Vélez - Málaga	بلش مالقة

Velilla de Cinca	مليلة دى سينكا
Velilla de Ebro	عقبة مليلة
Vera	بيرة
Vero	بيرو (نهر)
Viana	بيانا (قلعة)
Viadangos	بيادنجوس
Vich	بيتش
Viguera	بقيرة
Villamarchante	بيلا مارشنت
Villa Nueva	بلد نوبة
Vizcaya	بسقاية
Xativa	شاطبة
Xerica	شارقة
Zaidin	زيدن
Zalaca	الزلاقة
Zamora	سمورة
Zaragoza	سرقسطة
La Zuda	السدة (قصر)
Zorita	ثوريتا
Zuera	ثويرا

مختصرات لبعض أسماء المصادر والمراجع
التى وردت فى حواشى الرسالة

A.C.A. : Anales de la Corona de Aragon .

A.R.N. : Annales del Reino de Navarra.

C.A.E. : Cronica de Alfonso el Emperador .

C.A.S. : Crónicas Anonimas de Sahagun .

C.C.A. : Crónica de la Corona de Aragon .

C.S.J.P. : Crónica de San Juan de la Pena .

D.E.A.R. : La Description de L'Espagne D'Ahmed Al-Razi .

D.E.R.R.V.E. : Documentos para el Estudio de la Reconquista Y Repoblacion del Valle del Ebro .

D.H.E. : Diccionario de Historia de Espana .

E.C.E. : Enciclopedia de la Cultura Espanola .

E. S. : Espana Sagrada .

H.P.R.N. : Historia Politica del Reino de Navarra.

M. R. C. : Memorias de las Reynas Catholicas .

N.A.B.M. : Nuevas Aportaciones de " Al-Bayan Al-Mugrib "

P.C.G.E. : Primera Crónica General de Espana .

R.H.G.F. : Recueil des Historiens des Gaules et de la France .

مجموعات ودوريات

مجلة البينة - المغرب .

مجلة تطوان - الرباط .

مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية .

مجلة كلية الآداب - جامعة فؤاد الأول .

صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد .

مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد .

- Al-Andalus-Revista. Madrid-Granada .
- The Cambridge Medieval History. 8 vols. London. 1929 .
- Las Cronicas Latinas de la Reconquista. 2 tomes. Valencia. 1913 .
- Diccionario de Historia de Espana. 2 tomes. Madrid. 1952 .
- Espana Sagrada. Madrid. t. XX. XXIII. Madrid. 1765. 1799 .
- Estudios de Edad Media de la Corona de Aragon, Zaragoza.
- Hesperis Tamuda - Rabat .
- Instituto Valenciano De Estudios Historicos - Estudios Medievales, Fasciculo 5 , Valencia, 1952 .
- Procopuis, History of the Wars, trans. by : H. B. Dewing, 7 vols. London, 1968 .
- Recueil de Historiens de Gaules et de la France, 23 vols. ed. Bouquet, Paris. 1869-1904 .
- Revista del Instituto Egipcio de Estudios Islamicos en Madrid. Madrid.

دوائر المعارف

دائرة المعارف الإسلامية

دائرة معارف الشعب

- Encyclopedea (The) Catholic, 16 vols, London, 1914 .
- Enciclopedia de la Cultura Espanola, 20 vols, Madrid, 1963 .
- Encyclopedia International, 19 vols, New York, 1970 .
- Encyclopedia (The) of Islam, London 1913 .

أولا : المصادر الأجنبية

- **" Alfonso la Sabio "**

  Primera Cronica General de Espana, Publicado

  Por : R. Menendez Pidal, 2 tomes, Madrid, 1955 .

- **Anales Toledanos 1 ,**

  en Las Cronicas Latinas de la Reconquista, Traduccion

  Por : A. Huici Miranda, Tomo I, Valencia, 1913 .

- **Annales Complutenses,**

  en Espana Sagrada, Tomo, XXIII, Segunda Edicion,

  Preparar por : Henrique Florez, Madrid, 1799 .

- **Annales Compostellani,**

  en Espana Sagrada, Tomo XXIII, Segunda Edicion,

  Preparar por : Henrique Florez, Madrid, 1799 .

- **Brevi Chronico Barcinonesi,**

  en Recueil des Historiens des Gaules et de la France, t. XII, Paris, 1877 .

- **Chronicle of the Cid, from the Spanish By : Robert Southey, London, 1883.**

- **Chronico S. Maxentii Pictavensis,**

  en Recueil des Historiens des Gaules et de la France, t. XII, Paris, 1977 .

- **Chronico S. Stephani Cadomensis**

  en " R. H. G. F., " t. XII, Paris, 1877 .

- **Chronico S. Victoris Massiliensis**

  en " R. H. G. F., " t. XII, Paris, 1877 .

- **Coleccion Diplomatica De Irache, Volumen 1**
(958 - 1222) , Por : José Maria Lacarra, Zaragoza, 1965 .

- **La Cronica de Alfonso El Emperador**
en Las Cronicas Latinas de la Roconquista,
Por : A. Huici Miranda, Tomo II, Valencia, 1913 .

- **Cronica de San Juan de la Pena**
Por : Antonio Ubieto Arteta, Valencia, 1961 .

- **Crónicas Anónimas de Sahagún,**
Edicion Critica, notas E indices por : Antonio Ubieto Arteta, Zaragoza, 1987 .

- **Florez, H.,**
Memorias de las Reynas Catholicas, Tercera Edicion, Tomo 1, Madrid, 1790 .

- **Gaspar Castellano,**
Crónica De la Corona de Aragon, Zaragozc, 1919 .

- **Gestis Comitum Baroinonensium Ac Regum Aragoniae, en " R. H. G. F. "** t. XII, Paris, 1877 .

- **Hermanni Laudunen, Monachi de Miraculis B. Mariae**
Lauduensis Libris Tribus, en "R. H. G. F.", t. XII, Paris 1977 .

- **Hernández, Francisco J.,**
Los Cartularios de Toledo, Madrid, 1985 .

- **Historia Compostelana,**
en Espana Sagrada, Tomo XX, preparar por Henrique Florez, Madrid, 1765.

- **Lacarra, José M.,**
Documentos para el Estudio de la Reconquista Y Repoblacion del Valle

del Ebro. (Primera Serie) de Estudios de Edad Media de la Corona de Aragon, vol. II, pp. 469-546, Zaragoza, 1946 .

- **Moret Y Aleson,**

  Annales del Reyno de Navarra, Tomo II, Bilbao, 1969 .

- **Orderici Vitalis,**

  Monachi Utiensis, Historiae Ecclesiasticae, Libro XIII, en R. H. G. F., t. XII, Paris, 1877 .

- **Procupius,** History of the Wars, trans. by H. B. Dewing, 7 vols, London, 1968 .

- Relation du Siege de la Ville D'EXEJA en Aragon, en (R. H. G. F.), t. XII, Paris, 1877 .

- **Zurita, yeróimo,**

  Anales de la Corona de Arogon, tom. I, Edicion Preparado por : Angel Canellas Lopez, Zaragoza, 1976 .

ثانيا : المصادر العربية

- ابن الأبار (ت٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى :
  - "التكملة لكتاب الصلة" - نشرة السيد عزت العطار الحسينى ، مطبعة السعادة بمصر ، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م .
  - "الحلة السيراء - نشر وتحقيق الدكتور حسين مؤنس ، جزءين ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٦٣م .
  - "المعجم فى أصحاب القاضى الإمام أبى على الصدفى" - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ، القاهرة ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .
- ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) عز الدين أبى الحسن على بن أبى الكرم :
  "الكامل فى التاريخ" - ١٢ جزء بيروت ١٣٨٥/١٩٦٥م .
- ابن أبى زرع (ت ٧٢٦هـ/١٣٢٦م) أبى الحسن على بن عبد الله :
  "الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس" جـ٢ ، حرره ، وعلق عليه محمد الهاشمى الفيلالى ، شركة النشر المغربية ، المطبعة الوطنية ، ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م .
- ابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م) لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله :
  - "كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام" .
  - تحقيق وتعليق ليفى بروفنسال ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٥٦م .
  - "الإحاطة فى أخبار غرناطة "- حققه محمد عبد الله عنان ، الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م .
- ابن القطان (ت ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م) أبو الحسن على بن محمد بن عبد الملك الفاسى :
  "جزء من كتاب نظم الجمان -" تحقيق الدكتور محمود على مكى ، تطوان - الرباط (د.ت) .
- ابن القوطية (القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى) أبو بكر محمد القرطبى : "تاريخ افتتاح الأندلس" - نشره دون خوان ريبيرا ، مدريد ١٩٢٦م .

- ابن الكردبوس (عاش فى القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى) أبو مروان عبد الملك :

"تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط" - تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادى - معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٧١ .

- ابن بسام (ت ٥٤٢هـ/١١٤٧م) أبو الحسن على الشنترينى :

"الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة" - أربعة أقسام - تحقيق الدكتور / إحسان عباس ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

- ابن بشكوال (ت ٥٧٨هـ/١١٨٢م) أبو القاسم خلف بن عبد الملك :

"كتاب الصلة" - جزءين ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٦٦م .

- ابن بلقين (ت٤٨٩هـ/١٠٩٦م) عبد الله بن بلقين بن باديس بن زيرى :

"مذكرات الأمير عبد الله المسماه بكتاب التبيان" - نشر وتحقيق ليفى بروفنسال ، دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٥٥م .

- ابن حيان القرطبى (ت٤٦٩هـ/١٠٧٦م) أبو مروان بن خلف بن حسين :

"المقتبس من أنباء أهل الأندلس" - حققه وقدم وعلق عليه الدكتور / محمود على مكى ، مطابع الأهرام ، القاهرة ١٣٩٠هـ/١٩٧١م .

- ابن خاقان (ت٥٣٥هـ/١١٤٠م) أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسى :

"قلائد العقيان ومحاسن الأعيان" - المطبعة الخديوية ببولاق ، مصر ١٢٨٣هـ .

- ابن خلدون (ت٨٠٨هـ/١٤٠٥م) عبد الرحمن بن محمد :

"كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر" - ٧ أجزاء ، دار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٨ .

- ابن خلكان (ت ٦٨١هـ/١٢٨٧م) أبى العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر:

"وفيات الأعيان وأنباء الزمان" - ٨ أجزاء ، حققه الدكتور إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٨ .

- ابن سعيد المغربى (ت٦٨٥هـ/١٢٧٤م) أبو الحسن على بن موسى بن سعيد :
"المغرب فى حلى المغرب - جزءين ، نشر وتحقيق الدكتور شوقى ضيف ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٤ .
- ابن سماك العاملى (ت أواخر القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى) محمد بن أبى العلاء محمد :
"الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية" - الطبعة الأولى ، مطبعة التقدم الإسلامية ، تونس ١٣٢٩هـ :
ابن عبد الملك المراكشى (ت٧٠٣هـ/١٣٠٤م) أبو عبد الله محمد بن محمد الأنصارى :
"الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة" - تحقيق الدكتور / إحسان عباس ، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٥م .
- ابن عذارى المراكشى (ت٧١٢هـ/١٣١٢م) أبو العباس أحمد :
"البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب" ٤ أجزاء ، تحقيق ومراجعة ج.س. كولان وليفى برفنسال والدكتور إحسان عباس ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م .
- ابن غالب الأندلسى (القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى) محمد بن أيوب :
"قطعة من كتاب فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس" - نشر الدكتور لطفى عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الأول الجزء الثانى، نوفمبر ١٩٥٥ .
- الإدريسى (ت٥٤٨هـ/١١٥٤م) أبو عبد الله محمد بن إدريس :
"صفة المغرب والسودان ومصر والأندلس من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق " - نشر دوزى ودى غويه ، مطبعة بريل ، ليدن ١٨٦٤م .
- البكرى (ت٤٨٧هـ/١٠٩٤م) أبو عبيد بن عبد العزيز بن محمد :
"جغرافية الأندلس وأوربا من كتاب المسالك والممالك" - تحقيق الدكتور عبد الرحمن على الحجى ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م .
- الحميرى (ت٨٦٦هـ/١٤٦١م) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم :
"صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار" - تحقيق ونشر ليفى بروفنسال ، القاهرة ١٩٣٧م .

- الرازى (ت٣٤٤هـ/٩٥٥م) أحمد بن محمد بن موسى :

"وصف الأندلس" - نشره ليفى بروفنسال فى مجلة الأندلس ، الجزء الثامن عشر ، ١٩٥٣م .

- السلاوى (ت١٢٩٧هـ/١٨٩٧م) أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى :

"الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى" - ٤ أجزاء ، تحقيق وتعليق جعفر الناصرى ومحمد الناصرى ، الدار البيضاء ١٩٥٤م .

- الضبى (ت٥٩٩هـ/١٢٠٣م) أبو جعفر أحمد بن يحيى :

"بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس - دار الكاتب العربى ، ١٩٦٧م .

- الطرطوشى (ت ٥٢٠هـ/١١٢٦م) أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهرى :

"سراج الملوك" - الطبعة الأولى - المطبعة الخيرية ، مصر ١٣٠٦هـ .

- العذرى (ت٤٧٨هـ/١٠٨٥م) أحمد بن عمر بن أنس المعروف بابن الدلائى :

"نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان فى غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك" - تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهوانى ، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ١٩٦٥م .

- المقرى (ت١٠٤١هـ/١٦٣١م) أحمد بن على التلمسانى :

"نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" - ٨ أجزاء ، حققه الدكتور / إحسان عباس ، بيروت ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م .

- النباهى (ت٧٩٣هـ/١٣٩٣م) أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن المالقى :

"تاريخ قضاة الأندلس" - نشر ليفى بروفنسال ، دار الكاتب المصرى ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٤٨ .

- النويرى (ت٧٣٢هـ/١٣٣٢م) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب :

"نهاية الأرب فى فنون الأدب - جـ٢٣ ، تحقيق الدكتور / أحمد كمال زكى ومراجعة الدكتور محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٨٠ ، جـ٢٤ ، تحقيق الدكتور حسين نصار ومراجعة الدكتور عبد العزيز الأهوانى ، القاهرة ١٩٨٣م .

- عبد الواحد المراكشي (ت٦٢١هـ/١٢٢٤م) محي الدين أبي محمد التميمي :
"المعجب في تلخيص أخبار المغرب" - الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م .
- مجهول : "أخبار مجموعة في فتح الأندلس" - حققه ووضع فهارسه ابراهيم الإبياري ، دار الكتاب المصري واللبناني ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٨١ .
- ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م) شهاب الدين أبو عبد الله :
"معجم البلدان" القاهرة ، ١٣٢٣هـ/١٩٠٦م .

ثالثا : المراجع الأجنبية

- **Alornoz, Sanchez,**

Los Reinos Cristianos Espanoles, Buenos Aires, 1979 .

- **Ballesteros Y Beretta,**

Historia de Espana Y su influencia En la Historia Universal, Tomo Segundo, Barcelona, 1944.

- **Bleye, p., A.,**

Manual de Historia de Espana, Tomo I, Madrid, 1947 .

- **Cagigas, Isidro de Las,**

Los Mozarabes, 2 Tomes, Madrid, 1947 .

- **Camarena, M. G.,**

Precedents de la Reconquista Valenciana, Instituto Valenciano De Estudios Historicos, Valencia, 1952 .

- **Charlotte, M. Yonge,**

The Story of Christians and Moors of Spain, London, 1893 .

- **Chaytor, H., J.,**

A History of Aragon and Catalonia, London, 1933 .

- **Codera, F.,**

Decadencia Y Desaparición de los Almoravides en Espana, Zaragoza, 1899 .

- **Condé , J. A.,**

History of the Dominion of the Arabs in Spain, 3 vols, London, 1913 .

- **Defourneaux, M.,**

Les Francais En Espagne aux XI et XII siecles, Paris, 1949 .

- **Dozy , R.,**

Recherches sur L'histoire et la Litteratura de L'Espagne pendant le Moy-en age, paris, Leyde, 1881 .

Histoire des Musulmans D'Espagne, (711 - 1110), Leyd, 1932 .

- **Fernandez, L, S.,**

Historia de Espana Antigua Y Media, Madrid, 1976 .

- **Gudiol, A. D.,**

Los Condados de Aragon Y Sobrarbe, Zaragoza, 1988 .

- **Guy Liauzu,**

La Condition des musulmans dans L'Aragon Chrétien aux XI et XII Siécles, Hespéris Tamuda, vol. IX, 1968 .

- **Historia De Aragon,**

Resumen de las Lecciones impartidas en el Curso 1986 - 87, Zaragoza, 1989 .

- **Ibars, A. P.,**

Valencia Arabe, Tomo I, Valencia, 1901 .

- **Lacarra, J. M.,**

La fecha de la Conquista de Tudela, en la revista "Principe de Viana "1946, "Al-Andalus", vol. XI, 1946 .

La Conquista de Zaragoza por Alfonso I, Al-Andalus - Revista, Vol. XII, Madrid-Granada, 1947 .

Historia Politica del Reino de Navarra, vol. I, Editorial Aranzadi, 1972 .

Alfonso el Batallador, Zaragoza, 1978 .

- **Miranda, A. H.,**

Las Grandes Batallas de la Reconquista, Madrid, 1956 .

Nuevas Aportaciones de Al-Bayan Al-Mugrib, "Al-Andalus" , vol. XXVIII, 1963 .

Las Luchas del Cid Campeador Con los Almoravides, "Hespéris Tamuda", vol. VI, 1965 .

Los Banu Hud de Zaragoza, Alfonso el Batallador Y los almorávides, (Nuevas apartaciones), Estudios De Edad Media De la Corona de Aragon, vol. VII, Zaragoza, 1962 .

Historia Musulmana de Valencia, vol.III, Valencia, 1970 .

- **Pidal, R. M.,**

La Espana del Cid, 2 vols, Madrid, 1947 .

- **Prieto Y Vives, A.,**

Los Reyes de de Taifas, Madrid, 1926 .

- **Provencal, L.,**

La Description de L'Espagne D'Ahmed Al-Razi, "Al - Andalus" , vol. XVIII, 1953 .

- **Remiro, M. G.,**

Historia de Murcia Musulmana, Zaragoza, 1950 .

- **Scott, S. P.,**

History of the Moorish Empire in Europe, vol.II, London, 1904 .

- **Simonet, F. J.,**

Historia de los Mozarabes de Espana, Madrid, 1897 - 1903 .

Mozarabes Y Juaderios de los Ciudades Hispanomusulmanes, "Al-Andalus", vol. XIX, 1954 .

- **Soler, A. G.,**

La Edad Media en la Corona de Aragon, Barcelona, 1944.

- **Terrasse, H.,**

Histoire du Maroc, Rabat, 1947 .

- **Turk, A.,**

El Reino de Zaragoza en el siglo XI de Cristo (V de la Hégira), Madrid, 1978 .

- **Valdeavellano, L.C.,**

Historia de Espana antigua Y Medieval, Madrid, 1988 .

- **Viguera, Maria J.,**

Aragon Musulmana, Zaragoza, 1981 .

- **Bosch Vilá, J.,**

Los Almorádivos, Tetuan, 1956 .

رابعا : المراجع العربية

- ابراهيم شريف (دكتور) :

أوربا دراسة إقليمية لدول أشباه الجزر الجنوبية ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، اسكندرية ١٩٦٠م .

- أحمد مختار العبادى (دكتور) :

فى تاريخ المغرب والأندلس ، مؤسسة الثقافة الجامعية ، اسكندرية (د.ت)

- السيد عبد العزيز سالم (دكتور) :

- دائرة معارف الشعب ، عدد ١٦ ، ٦٤ ، القاهرة ١٩٥٩م .

- تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، اسكندرية ١٩٦١م .

- المغرب الكبيرة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، اسكندرية ١٩٦٦ .

- قرطبة حاضرة الخلافة فى الأندلس ، جزءين ، مؤسسة شباب الجامعة ، اسكندرية ، ١٩٨٤م .

- أنستاسى الكرملى :

النقود العربية وعلم النميات ، المطبعة المصرية ، ١٩٣٩م .

- جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :

دراسات فى عصر الحروب الصليبية ، اسكندرية ، ١٩٧٥م .

- حسن أحمد محمود (دكتور) :

قيام دولة المرابطين ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٧م .

- حسين مؤنس (دكتور) :

- الثغر الأعلى الأندلسى فى عصر المرابطين وسقوط سرقسطة فى يد النصارى ، مجلة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول ، المجلد الحادى عشر ، جـ٢ ، ديسمبر ١٩٤٩م .

- سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم فى الأندلس ، صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ، المجلد الثانى ، العدد ١ - ٢ ، ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م .

- نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين ، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ، العدد الثالث ، المجلد الأول ، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م .

- الجغرافية والجغرافيون فى الأندلس ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ، فى مدريد، المجلد السابع والثامن ٥٩-١٩٦٠م .

- فجر الأندلس ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ، جدة ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م .

- رحلة الأندلس ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، الطبعة الثالثة ، جدة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م .

- حمدان حجاجى (دكتور) :

حياة وآثار الشاعر الأندلسى ابن خفاجة ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ١٩٧٤م .

- حمدى عبد المنعم (دكتور) :

تاريخ المغرب والأندلس فى عصر المرابطين "دولة على بن يوسف المرابطى" مؤسسة شباب الجامعة ، اسكندرية ١٩٨٦م .

- ديوان الأعمى التطيلى ، تحقيق الدكتور إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٣م .

- ديوان ابن خفاجة ، تحقيق الدكتور السيد مصطفى غازى ، منشأة المعارف ، ١٩٦٠.

- سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :

- الحركة الصليبية ، جزءين ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٦٣ .

- أوربا العصور الوسطى ، جزءين الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٩٦٦ .

- عبد الحميد العبادى (دكتور) :

المجمل فى تاريخ الأندلس ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٨ .

- عبد الله على علام (دكتور) :

الدولة الموحدية بالمغرب فى عهد عبد المؤمن بن على ، دار المعارف بمصر ١٩٦٨ .

- علي محمد محمودة (دكتور) :

تاريخ الأندلس السياسي والعمراني والاجتماعي ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب العربي، مصر ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م .

- كمال السيد أبو مصطفى (دكتور) :

بنو رزين ودورهم السياسي والحضاري في شنتمرية الشرق ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، المجلد الخامس والثلاثون ١٩٨٧ .

- لطفي عبد البديع (دكتور) :

الإسلام في أسبانيا ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٨ .

- محمد الفاسي :

الأعلام الجغرافية الأندلسية ، مجلة البينة ، السنة الأولى ، العدد الثالث ، المغرب ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م .

- محمد سامي عسل (دكتور) :

أوربا دراسة في جغرافية القارة الطبيعية والبشرية ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٥ .

- محمد عبد الله عنان :

- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م.

- الآثار الأندلسية الباقية في أسبانيا والبرتغال ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م .

- جغرافية الأندلس والمصطلحات الجغرافية الأندلسية ، مجلة تطوان ، العدد الثالث والرابع ، ٥٨/١٩٥٩م .

- عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، القسم الأول "عصر المرابطين" الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٤م .

- دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي ، الطبعة الثانية ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م .

- تراجم إسلامية شرقية وأندلسية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م .

- محمد محمد مرسى الشيخ (دكتور) :

الممالك الجرمانية فى أوربا فى العصور الوسطى ، دار الكتب الجامعية ، اسكندرية ١٩٧٥.

- محمود جلال الدين الجمل (دكتور) :

أوربا فى مجرى التاريخ ، دراسة جغرافية ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٩ .

- محمود على مكى (دكتور) :

- وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد، المجلدان السابع والثامن ، مدريد ٥٩/ ١٩٦٠ .

- الزهرات المنثورة فى نكت الأخبار المأثورة ، لابن سماك العاملى ، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ، المجلد العشرون ، مدريد ٧٩/ ١٩٨٠م .

خامسا : المراجع المعربة

- آنجل جنثالث بالنثيا :

تاريخ الفكر الأندلسي ، نقله من الأسبانية الدكتور حسين مؤنس ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٥ .

- فالترهنتس :

المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المترى ، ترجمة الدكتور كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية ، عمان ١٩٧٠ .

- ليفي بروفنسال :

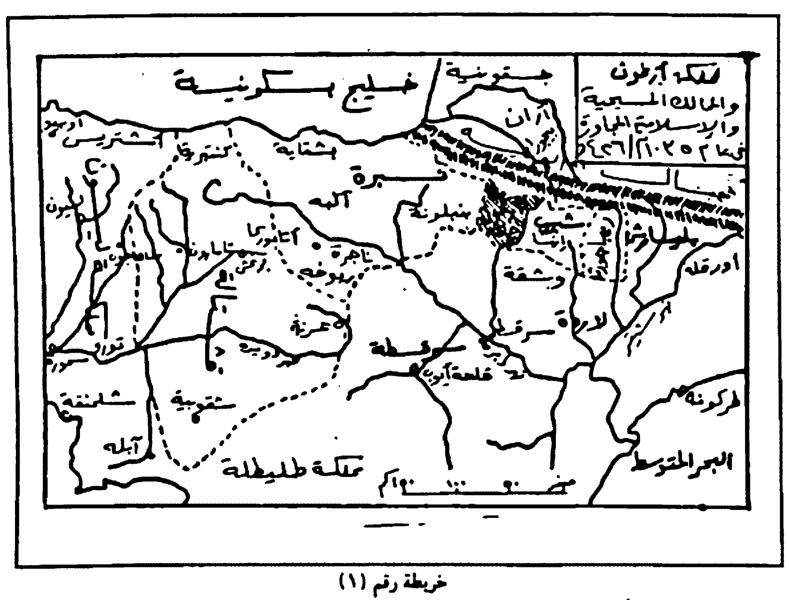
الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم ، الأستاذ محمد صلاح الدين حلمي ، وراجعه الدكتور لطفي عبد البديع ، القاهرة ١٩٥٦.

- ملحمة السيد ، قدم لها وترجمها الدكتور الطاهر أحمد مكي ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف بمصر ١٩٨٣ .

يوسف أشباخ :

تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة محمد عبد الله عنان ، الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م .

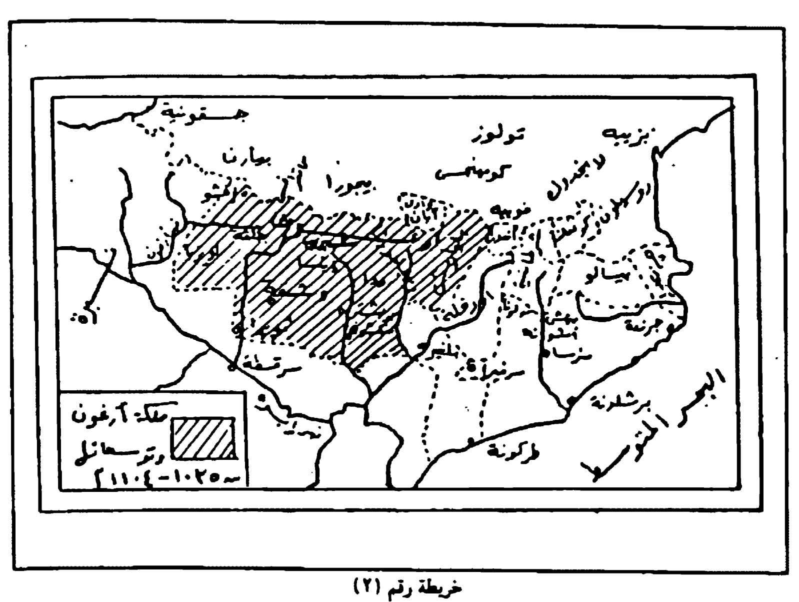
الأشكال والخرائط



خريطة رقم (١)

مملكة أرغون والممالك المسيحية والإسلامية المجاورة فى عام ٤٢٦ هـ / ١٠٣٥م

نقلاً عن : . Soler : La Edad Media En la Corona de Argon, P. 87



خريطة رقم (٢)

مملكة أرغون وتوسعاتها حتى بداية عهد ألفونسو المحارب (١٠٣٥ - ١١٠٤م)

نقلاً عن : . Chaytor, A History of Aragon and Catalonia, P. 88

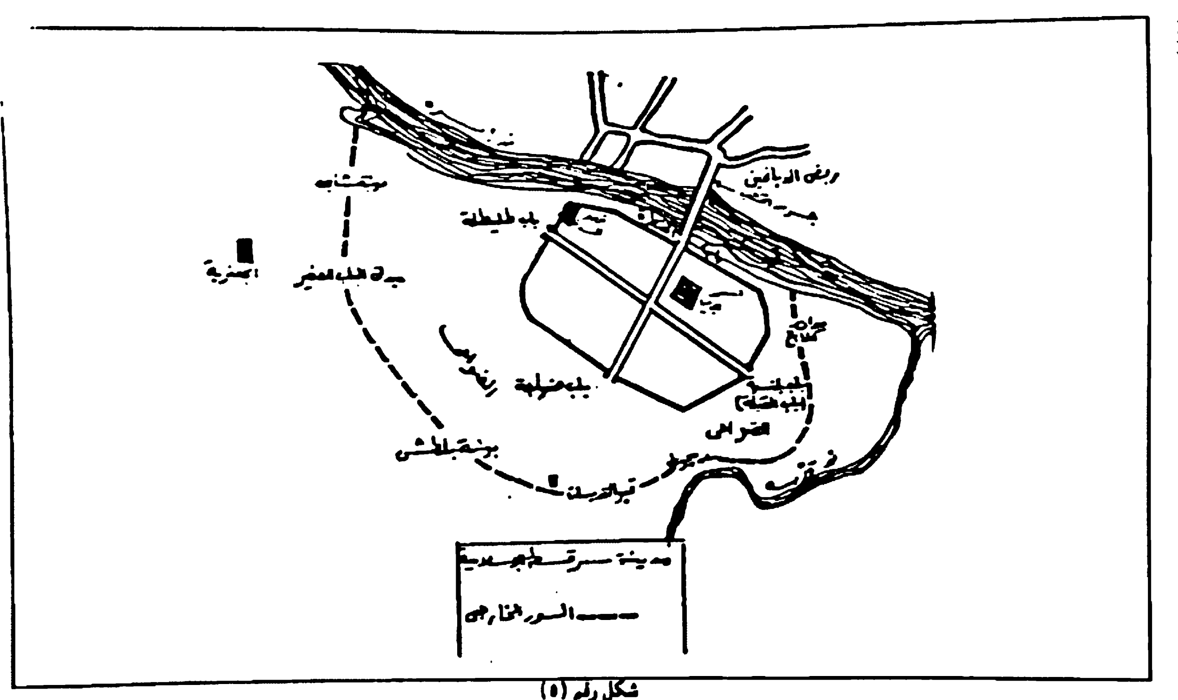


خريطة رقم (٣)

موقع قلعة بنى كاديل مع أقليم جنوبى بلنسية

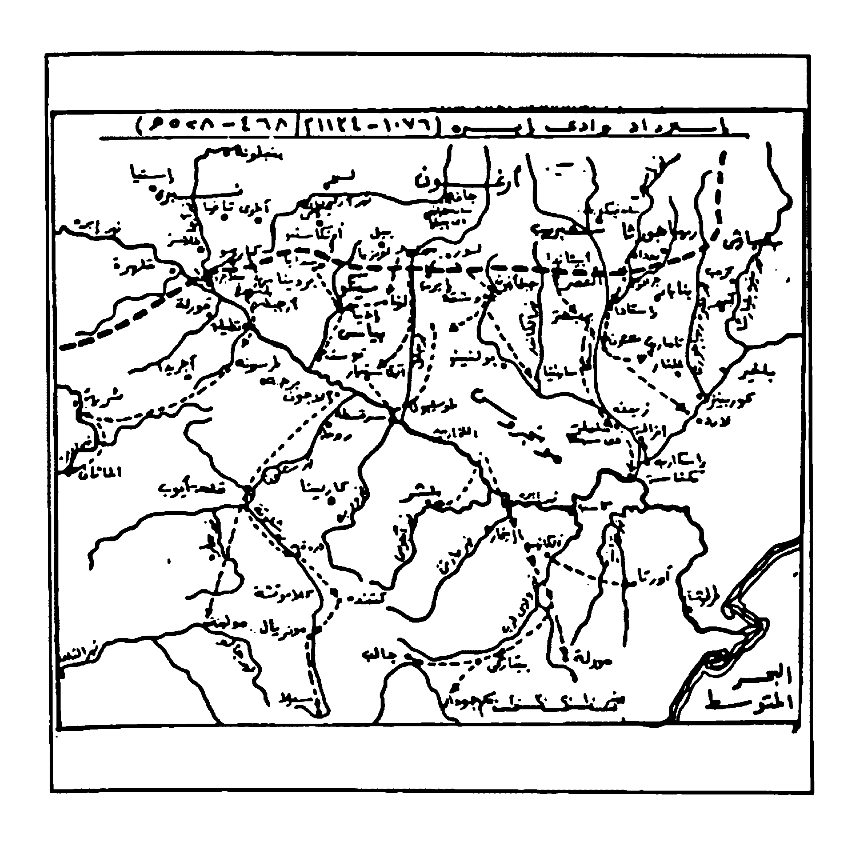
نقلاً عن : Pidal, La España del Cid, t. II .

خريطة رقم (٤)
مملكة قشتالة وليون



شكل رقم (٥)

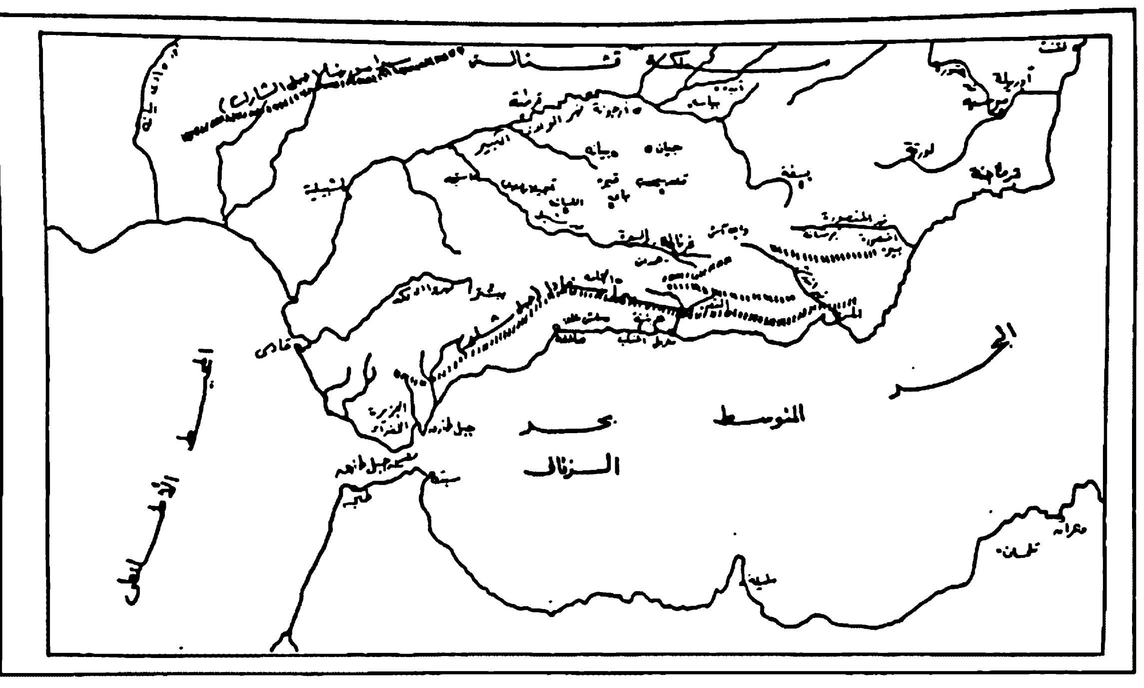
- Miranda, N.A.B.M. ; P. 316
- Maria Viguera, Aragon Musulmana, P. 21



خريطة رقم (٦)

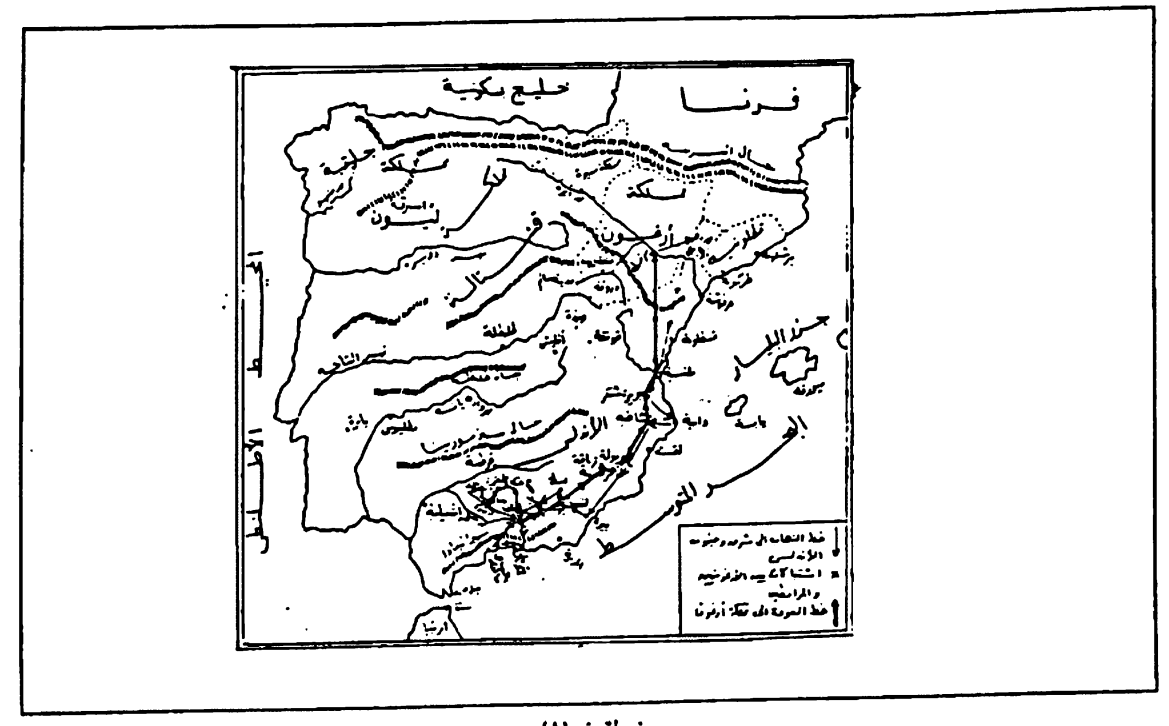
نقلا عن :

Lacarra, Historia Politica del Reino de Navarra, P. 318

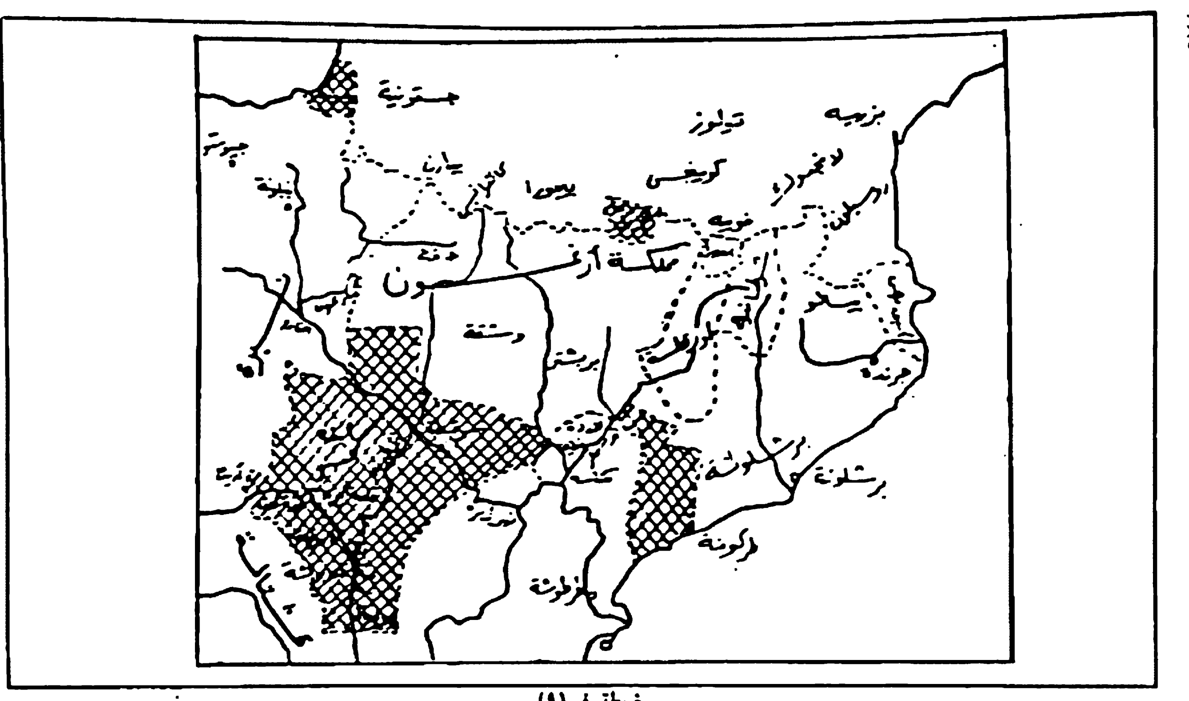


شكل رقم (٧) مملكة غرناطة

نقلاً عن : ابن الخطيب ، الإحاطة فى أخبار غرناطة جـ (١)



خريطة رقم (٨)
خط سير حملة ألفونسو المحارب إلى شرق وجنوب الأندلس



خريطة رقم (٩)

مملكة أرغون وتوسعات ألفونسو المحارب (١١٠٤ - ١١٣٤م)

نقلاً عن : Chaytor, A History of Aragon and Catalonia, P. 55.